أرني أنظر إليك

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

إلى أطفالي الأحبّاء، مرام ولينة ويوسف

لم أدرك أنّ الدّنيا قد تكون مخيفة حتى رزقتكم

حفظكم الله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

«قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد،
لكن التّعمّق في الفلسفة يؤدّي إلى الإيمان»

فرانسيس بيكون

الرّياض في ١٤ نوفمبر ٢٠١٠،

السّيد المحترم (........)،

سررت بالجلوس إليك مساء الأسبوع الماضي عند السّيد (.......) وسررت أكثر بالرّسالة المفاجئة التي وصلتني منك حالما رجعت إلى بيتي! في الحقيقة، لقد استمتعت بالاستماع إلى قصّتك في حضور صديقنا المشترك، ورغبت في الاستزادة، لكنّني علمت أنّ الحياء يمنعك من الخوض في تفاصيل كثيرة. وقد أسعدني طلبك بتشريف قلمي المتواضع بصياغة قصّتك بشكل روائيّ.

لقد سألتك في جلستنا تلك بكلّ وضوح: لماذا لا تكتب قصّتك وتنشرها؟ إنّ فيها من المغامرات والصّراعات الفلسفيّة ما يكفي لصناعة نصّ ناجح يحقّق مبيعات وفيرة! ناهيك عن تماهيها مع اهتمامات شباب اليوم وتقديمها لإجابات وافية عمّا يؤرق الكثيرين منهم من تساؤلات وجوديّة! كما أنّ رصيدك اللّغوي والمعرفيّ يجعلانك مؤهلا تماما للكتابة بشكل محترف.. فلمَ لا تفعل؟

لكنّك رددت بانكسار وصراحة:

- أخشى أنّني لن أكون محايدا في الطرح وسيغلبني هوى نفسي في تزكيتها أو الدّفاع عنها. لذلك أرى أنّ قلما موضوعيّا هو الأقدر على نقل القصّة.

خشيت في تلك اللّحظة أن تكون قد عهدت إلى أحدهم بتلك المهمّة وأنّ الفرصة قد فاتتني، لذلك لم أتجاسر على السّؤال. لكنّك شرّفتني بثقتك وعرضك الذي وافيتني به بعد الجلسة مباشرة.

لقد اطّلعت بشغف على الملفّات التي أرسلتها خلال الأيّام

الماضية بشكل متواتر. وشرعت في تدوين ملاحظاتي بخصوصها. أتفهّم رغبتك في تحوير المعلومات الأساسيّة التي تخصّ عائلتك لما فيها ممّا يمكّن المطّلعين من التعرّف إلى هويّة والدك وأخوالك، وبالتالي الاهتداء إلى شخصك بالذّات. ولا أمانع إطلاقا من اعتماد الأسماء المستعارة التي اقترحتها، لتكون أنت «مالك الشّريف»، وصديقنا المشترك «نديم المغربي».. وأشكر لك الحريّة التي تركتها لي لأضع أسماء مناسبة لبقيّة الشخصيّات.

أمّا بالنّسبة إلى الأحداث، فأصدقك القول. إنّ ما سردته يعرضني إلى معضلتين: إنّ الدّوافع التي ذكرتها لبعض الأفعال تبدو غير منطقيّة من حيث البناء الرّوائيّ! في الرّواية، ينبغي لكلّ حدث أن يُبنى على سلسلة من الأحداث التي تمهّد له فلا يكون مفاجئا أو شاطحا بالنّسبة إلى القارئ -مهما كان ذلك حقيقيّا بالنّسبة إلى من يعيش الحدث- لذلك فاسمح لي بالتّمهيد بما أراه مناسبا في سياق الرّواية. أمّا المعضلة الثانية فهي ملء الفجوات فيما يتعلّق بالخصوصيّات التي لا ترغب في كشفها، ولكنّك صارحتني بها في مذكّراتك.. فوجب إذن تعويضها بما يناسب من أحداث متخيّلة، دون الإخلال بجوهر القصّة ومقاصدها.

سأرسل إليك فصول الرواية بشكل متتابع لتطّلع عليها وتعلمني بملاحظاتك، ويهمّني بشكل خاصّ رأيك في أحاديث النّفس التي تدور في خلد البطل ومدى تطابقها مع ما عشته أنت من صراع داخليّ.

في انتظار ردّك سريعا، لك منّي كلّ الودّ.

تحياتي.

الفصل الأول

- حنين -

-١-

باريس، ٢٠٠٤/٠٥/٠٢

وأنت تعبر بوابة الصّعود رقم خمسة عشر من مطار باريس «شارل دي غول»، وتسير باتّجاه الطائرة الرّابضة في نهاية الممرّ، ينتابك إحساس بالخفّة لم تستشعره من قبل. يتلاشى قلق الفترة الماضية ويتحوّل إلى غلالة رقيقة، قريبا تتكسّر قشرتها الهشّة.

هذه الرّحلة، ينتظرك الخلاص على طرفها الآخر.

تستقرّ في مقعدك في الدّرجة السياحيّة، وتغمض عينيك. تستعجل انقضاء الساعات الثمانية التي تفصلك عن وجهتك، وما يليها من الانتظار حتّى حلول الموعد المرتقب. لكن ما وزن تلك السّاعات القليلة أمام سنوات أمضيتها تتقلّب على جمر القلق؟ عبر مساحات اللايقين التي تغمر فضاءك، يراودك يقين واحد.. ذاك الرّجل الذي ستلقاه هناك، في نيويورك، يملك الإجابات الشّافية على كل تساؤلاتك. سينتهي الاضطراب وترجع السّكينة لتحلّ بين جنباتك بعد أن تتّضح رؤيتك.

ستجد عنده ما يرضي شقّيك المتنافرين المتناقضين.. قلبك وعقلك.

هكذا تمنّي نفسك.

تنادي جارة سفر على ابنتها. سارة. فيحتقن وجهك وترتبك نظراتك. تبحث عن خيالها الذي تعلم ألّا وجود له في الجوار، وترتسم ابتسامتها بين عينيك في إلحاح مزعج. حنين سخيف إلى فترة تعرف ألّا مجال لعودتها. لكنّ القلب يهفو، وتضطرب دقّاته عند

ذكـر اسـمها، أو سـميّها، ومـا أكثرهـنّ! خليـق بـك بعـد كلّ هـذا الوقـت أن تسـلوها وتلتفـت إلى غيرهـا، ومـا يباعـد بينكمـا أكـثر بمسـافات ممّـا جمعكمـا في زمـن مـا. ألقيـت بنظـرة بعيـدة عـبر نافـذة الطائـرة.. فألفيـت كتـلا مـن السـحاب الأبيـض عـلى مرمـى بـصرك، تلتقـي بأفـق سـماوي ذي تـدرج لـونيّ أزرق.

هيـج الاسـم الحنـين، فرحـت تترنّـم بأبيـات لا تـزال روحـك الشّـقيّة تطـرب لتردادهـا، كمـا كنـت دومـا تفعـل:

أحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسمَها أَو أشبَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيـا
وَلا سُمِّيَت عِندي لَها مِن سَمِيـَّةٍ مِنَ الناسِ إِلّا بَلَّ دَمعي رِدائِيا

أرجعـت بـصرك وهـو حسـير، وألقيـت برأسـك إلى ظهـر المقعـد. ومـا تكـون هـذه الرّحلـة غـير إتمـام لانعتاقـك مـن ماضيـك وذكرياتـه الممضّـة؟ قريبـا سـتخلّفها وراءك مـع سـنوات عمـرك الـتي شـطبتها مـن سـجّلات وعيـك. والأهـم مـن ذلـك، سـتثبت لهـا أنّـك عـلى حـقّ.. وهـي عـلى باطـل.

ارتسـمت عـلى شـفتيك ابتسـامة سـخرية تليهـا غصّـة أسى في حلقـك.. أمـا زلـت تسـتعمل كلمـات المعجـم نفسـه؟ الحـقّ والباطـل. وهـل تملـك معجمـا غـيره وقـد نشـأت عـلى القـرآن، تلاوتـه وحفظـه وتدريسـه وإمامـة النّـاس بـه قيامـا وخطابـة؟ هـل تملـك أن تضغـط عـلى زرّ إعـادة التشـغيل، فتعـود صفحـات روحـك بيضـاء نقيّـة تكتـب فيهـا مـن جديـد بلغـة أخـرى، وبمعجـم آخـر؟

ليتك تفعل.

لكنّك تعلم ألا سبيل إلى مسح الذاكرة.

في وقـت مـا مـن شـبابك الأول، كانـت لديـك نظريـة وجوديّـة مفادهـا أنّ العقـل وفيّ لوجـدان صاحبـه. فلـو أنّ شـخصا مـا فقـد الذاكـرة، وألفـى

نفسه في محيط لا يعرف عنه شيئا، بعيدا عن نقاط ارتكازه الأساسيّة وأهله وبيئته، فإنّ استدلالا عقليّا محضا سيؤدّي به خلال وقت قصير إلى الوصول إلى نفس معتقداته الفكريّة السّابقة! كنت منذ صغرك تعتبر نفسك تجسيدا لـ(حي بن يقظان) في العصر الحديث، فلا تعارض في رأيك بين الفلسفة والدين، ولا العقل والشريعة.. كنت تزعم أنّ رؤيتك للعالم حينها تتكامل في صورة مثالية.

كنت واثقا من نظريّتك تلك، فخورا بها.. فاتك أن تضع تصوّرا لما تؤول إليه حياة الإنسان الذي يغيّر عقله مساره ويضبط البوصلة على اتّجاه غير مألوف! أيّ الاتّجاهين سيسترجع إن هو جرّب العزلة على جزيرة مهجورة، نقيّا من أيّ ذاكرة؟

لكنّك تخطّيت كلّ ذلك الآن. تعتقد جازما بأنّك فعلت. لم تعد أنت كما أنت. لكنّها هي ما زالت كما هي. لم تعد ذاتك الجديدة منسجمة مع الماضي الذي جمعكما. في الحقيقة، لم تعد ذاتك تنسجم مع أيّ شيء انتميت إليه في وقت سابق. أنت الآن حرّ من قيود العرف والعادة والمجتمع والعائلة والدّين جميعا!

أنت تؤمن بعقلك وحده.. وتتبع دليله إلى حيث يقودك.

-٢-

هل تذكر، حين رأيتها أوّل مرّة؟

كان ذلـك في مطلـع السّـنة الدّراسـيّة الثانيـة لـك في باريـس، سـبتمبر ١٩٩٨. كنــت قــد حقّقــت إنجــازك الأوّل واجــتزت اختبــار دخــول كليّــة الطــبّ، دون أن تعــبر معضلــة السّــنة التحضيريّــة المضنيــة. ذاكرتـك رغـم مواتهـا كانـت قـد احتفظـت بمخـزون عـالي الجـودة بعـد سـنوات تـردّدك عـلى كليّـة الطـبّ التّونسـيّة، فقُبلـت في حـين رجـع نحـو ألـف ومائـتي طالـب خائبـين، وتوزّعـوا عـلى اختصاصـات أخـرى كان الطـبّ في أعـلى قائمتهـا.

مـرّت سـنتك الدّراسـيّة الأولى هادئـة بـاردة، خاليـة مـن أيّ معـنى. كنـت تـدرس لتمـلأ فـراغ وقتـك وخـواء قلبـك، ولا تفكّـر في أيّ شيء آخـر. تجربتـك الباريسـيّة الميتـة استـمرّت لسـنة واحـدة، قبـل أن تـدبّ الحيـاة مجـدّدا في شرايينـك.

في الأسبوع الأوّل لسنتك الدّراسيّة الثانية، رأيتها.

كانـت قاعـة المحـاضرات تغـصّ بالبـشر، لا تـكاد تجـد موطـئ قـدم بـين الطلبـة الثلاثمائـة الذيـن يتزاحمـون لحضـور درس «التّشريـح» ذاك. ومـع ذلـك رأيتهـا، ورأتـك. لـم يكـن مـن الصّعـب تميـيز شـخصين غريبـين مثلكمـا في بحــر متلاطــم مــن الشــقرة والسّــفور. كان حجابهــا علامتهــا المميّـزة. هـل صوّبـتَ بـصرك تجاههـا ترمقهـا مأخـوذا في دهشـة، حـتّى انتبهـتْ هـي إلى نظراتـك الملحّـة فالتفتـت؟ لعلّـك فعلـت. فقـد التقـت عيونكمـا بعدهـا، ولـم تحـوّل بـصرك عنهـا حـتّى أشـاحت بوجههـا، وقـد تناسـيت قاعدتـك الذّهبيّـة بغـضّ البـصر عـن الأجنبيّـات. ولكنّهـا بـدت

في تلك اللحظة قريبة بشكل لم تستوعبه. وهل تبقى أجنبيّة، وهي التي تشاركك الانتماء في جوّ مشبع بالغربة؟

استرقت النظر إليها خلسة، تسجّل ملامحها في دفاتر ذاكرتك، وتبحث في ثنايا وجهها عن سرّ احتباس أنفاسك ووجيب قلبك. هل كانت عيناها الكستنائيّتان الواسعتان كثيفتي الرموش؟ أم ثغرها الصّغير الباسم كأنّه معلّق في وضع الابتسام؟ أم هو وشاحها الحريريّ محكم التثبيت حول هالة بياض فاتنة؟

كانت الدرّة المصونة اللائذة بقوقعتها، ومن حولها مئات الأذرع العارية والشعور المكشوفة. وأنت، كانت لحيتك الكثّة علامتك الخاصّة. لا شكّ أنّ ذلك الإحساس الصّميم بالألفة قد أدركها هي الأخرى، فقد استدارت بعد دقائق قليلة، لتنظر في اتّجاهك. تلك المرّة، غضضت بصرك في ورع وتظاهرت بالتّركيز على كلمات المحاضر.

الأولى لك، والثانية عليك.

ستراها بعد ذلك كثيرا. في قاعات المحاضرات، في معامل التجارب، في غرف التشريح أو في أروقة المستشفى الجامعي، وحول أسرّة المرضى، وفي غرف العمليات، أو في ساحة الكليّة وعند المشرب. كان من اليسير أن تعرف اسمها. سارة. تناديها رفيقتها فتلتفت.. لتستمرّ أنت من بعدها في ترديد الاسم بصوت خفيض، مستعذبا همس السّين ورقّة الرّاء على طرف لسانك. ستراها وتتمنّى أن تجد قدماك طريقا إليها، ولكنّك ستحجم حياء واحتراما. ستقف على مسافة، حيث تستشعر وجودها وتنتبه إلى حركتها، ولكنّك لن تقترب. كنتما في الصفّ الثالث معا، ثمّ الرّابع.. تستمرّ في مراقبتها وترقّب حضورها في شغف، ولا تجرؤ على مواجهتها أو اقتحام عالمها.

كنتما في الصفّ نفسه.. وأنت تكبرها بثلاث عشرة سنة.

كان فرق السنّ واضحا آنذاك. يكفيك أن تطالع وجهك في مرآتك، لتلمح التجاعيد التي وجدت طريقها إلى جبينك وزاوية عينيك، والشّيب الذي خطّ فوديك وأطراف لحيتك، وأنت لم تتجاوز الثلاثين إلا بسنوات ثلاثٍ! كيف تبرّر لها مكوثك حتّى تلك السنّ دون شهادة؟ وكيف تفسّر سنوات عمرك المتسرّبة مثل قطرات ماء بين الأصابع؟

ستنتظر في صبر، أن يهيّئ لكما القدر فرصة.. ستنتظر طويلا.

لم تصطدم بها صدفة، فتسقط الأوراق والدّفاتر بينكما، فتلتقي النظرات أو تتلامس الأيدي عفوا وأنتما تجمعانها عن الأرض.. ولم تدافع عنها من عصابة شباب مستهتر حاولت مضايقتها، مع أنّك كنت تتوق لاستعراض مهاراتك القتالية أمامها! لم يجمعكما أيّ من مشاهد السينما التي تمنّيتها سرّا وهدهدتها في أحلام المنام واليقظة.

كانت صدفتك من نوع آخر.

كنت طالبا جادّا، ودفاترك الثمينة محطّ أنظار الزملاء والزميلات على حدّ سواء. خطّك الجميل المنمّق، الذي تراعي فيه تناسق الخطّ العربيّ -الذي تعلّمت فنونه مراهقا- حتّى وأنت تكتب بالفرنسيّة، كان يجعلك قبلة الجميع حين تقترب الاختبارات ويحتاج المتغيّبون لنسخ المحاضرات الفائتة. صديقة مقرّبة منها طلبت دفترك ذات يوم. وحين أعادت إليك أوراقك، كانت من بينها ورقة إضافيّة، لا تدري إن كانت قد وقعت منها سهوا أم عمدا! كانت قائمة أرقام هواتف وبريد إلكتروني لعدد من الزّملاء والزّميلات. لا تدري على وجه الدّقة ما كان الدّاعي لاجتماعها على تلك الصّفحة. ربّما كانوا يرتّبون لمجموعة مراجعة؟ أو يخطّطون لاستمرار التّواصل بينهم خلال الإجازة؟ ولعلّ الفتاة طلبت أرقام من تثق فيهم من الزّملاء حتّى تتصّل بهم وقت الحاجة، للاستفسار عمّا يستعصي عليها فهمه من الدّروس؟

لكنّ كلّ ذلك لم يعنك في شيء. كانت تلك الورقة هناك، وكان

اسمها ورقمها وبريدها مدوّنين عليها. قبل أن تعيدها إلى صاحبتها، حرصت على تدوين الرقم والبريد عندك. وبقيا لديك ردحا من الزّمن، تتأمّلهما كلّ ليلة، تمرّر أصابعك على الحروف كأنّما تناجي صاحبتها بلا كلمات، ولا تفعل بعد ذلك شيئا.

استجمعت شجاعتك خلال الإجازة الصيفيّة التّالية. احتميت بالغياب، وتجرّأت على الكتابة إليها. فكّرت أنّك لن تواجه نظراتها إلّا بعد أسابيع من قراءتها لنصوصك، وربّما تكون آنذاك دهشتها قد فترت وردّة فعلها قد نضجت، فلا تقابلك بعيون متّسعة عن آخرها. كان عليها قبل ذاك أن تفكّ الشيفرة وتحزر هويّة المتواري خلف العنوان المجهول. أنشأت بريدا جديدا، لا يحمل أدنى تلميح لاسمك أو انتمائك، مجرّد رموز متراصّة لا تعني شيئا، إمعانا في التّخفي. كان بريدا خاصّا من أجلها.. تفتحه في اليوم عشرات المرّات بارتجافة في السبّابة، وترقب الشاشة الخالية من أيّ بريد وارد.

هل كنت تتوقّع ردودا على ضجيجك وثرثرتك؟

كتبت لها تلك الصّائفة عن أيّ شيء وكلّ شيء. عن نفسك وأفكارك ومشاغلك ومخاوفك، عن وحدتك وضياعك وذاكرتك المثخنة بالهزائم.. لكنّك لم تذكر كليّة الطبّ مرّة واحدة. ولم تشر إلى معرفتك بها من قريب أو بعيد. كانت أقرب إلى الخواطر منها إلى الرّسائل.. فبم عساها كانت تردّ؟

تدرك الآن أنّك لم تكن تنتظر منها ردّا، بقدر ما كنت تنفّس عن اضطراباتك الدّاخليّة.. حتّى لا تقودك أفكارك القاتمة إلى محاولة انتحار أخرى. كنت حزينا مكتئبا في تلك الأيّام، بعد أن وصلك نعي خالك الأقرب إلى قلبك، وأنت غير قادر على السّفر لوداعه. خالك عمّار قضى نحبه عن سنّ يناهز الخامسة والسّبعين، أمضى عقدها الأخير في الحبس الانفراديّ.

-٣-

١٩٩٩/٠٧/١٣

يا من تقرئين رسالتي، إليك مفاتيحها.

لا أتوقع منك ردودا أو تجاوبا، وأنا الذي وصلت دون سابق إعلام، واقتحمت خلوتك دون استئذان. سيكفيني أن تقرئي. وربّما تتساءلين في حيرة بينك وبين نفسك، من ذا الذي يجرؤ؟ وذلك غاية ما أرجو، أن أثير قدرا من فضولك واهتمامك.

سأكتب إليك، كأنّني أكتب إلى نفسي، بلا حواجز أو اعتبارات. وذلك ممكن لأنّك لا تعرفين من أكون. واختفائي وإخفاء هويّتي قد يبدو لك جبنا.. لكنّه يمنحني مساحات من الحريّة لا تتوافر في الظروف الطبيعيّة لأيّ محادثة بين اثنين، وتحرّرني من الحياء والخوف، وتفتح بوابات الصّراحة على مصاريعها.

دعيني أؤكد.. أنت لا تعرفينني! لا تبحثي عن وجهي في دائرة معارفك والمقرّبين منك، فإنّ موقعي حتما خارجها. خارجها تماما. حتّى أنّني لا أعرف كيف يكون صوتك. لكنّني أحفظ الملامح والابتسامة. ولا تتساءلي أين سبق والتقينا، لأنّنا لم نلتقِ. لذلك لا تشغلي نفسك بمن أكون، فإنّني لا أريد أن أكون أمام عينيك.. سوى كلمات.

ها أنّني قد سلّمتك المفاتيح، فافتحي الأبواب!

***

١٩٩٩/٠٧/١٥

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، والنعاس يجافيني. لديّ الكثير لأحكيه.. لكنّني ترقبت بعد رسالة الأمس، علّك تردّين. لكنّك لم تفعلي. أيّ تناقض في ألّا أتوقّع منك ردًّا، لكنّني في حقيقة الأمر أطمع في أن تفعليها وتردّي؟!

أنت لن تردّي إذن، وأنا سأثرثر كما أشاء.

لو كنت عرفتني في حياتي السّابقة، منذ سنوات، لما خلت جملة في نصّي من «أنا» و«أنا». لعلّها نرجسيّة شفيت منها؟ أو ربّما فخر مشروع بما حباني الله به من نعم؟ أمّي كانت تقول أنّ «عقلي يزن البلد»، وتتنبّأ لي بمستقبل لا تضاهى نجاحاته. كنت قد بدأت السلّم من منتصفه، لا من أسفله، متفوّقا على أقراني في بنية الجسم ورجاحة العقل وجمال الخلقة. أترين؟ أقول «كنت». لم أعد أثق بما أنا عليه الآن. بلى، أعلم أنّ جسمي ما زال على متانته وعقلي على نجابته وملامحي تحتفظ بوسامتها رغم ما مرّ عليها من نوائب.. لكنّ المشكلة في قلبي، فقد شاخ قبل الأوان. وها أن لقاءك ينفض ما علاه من رماد ويحرّك جذوة قد انطفأت.. أو كادت تنطفئ.

هل تعلمين؟ لقد توقفت عن الإيمان بالأشخاص منذ سنين، منذ خيبتي الأولى. بل لعلّي انتظرت الخيبة الثانية لأتوقّف عن الثقة في الآخرين. لست انطوائيا منعزلا سريع التأثّر، ولا متهوّرا مندفعا غزير العاطفة، ولست أحمّل الأمور أكثر ممّا تحتمل. لكنّني بُليت بطعنات متتالية دفعتني إلى مشارف الهاوية. حتّى فكّرت في إنهاء حياتي مرّات، وحاولت مرّة. فلماذا أتعلّق بك؟ وأنت شخص فانٍ كالآخرين.. وقد تخذلينني مثلهم؟ وما أدراني بأنّك أهل لثقتي ومشاعري وأنا لا أعرف

عنك إلّا أقلّ القليل؟ لكن ليس بيدي حيلة. أعلّق قلبي بك عمدا، كمرساة تشدّني إلى الحياة.. حتّى لا أفقد الأمل، مرّة أخرى.

حين دخلت السّجن، بدا ذلك ابتلاءً يكشف عن أصالة معدن الرّجل. فرحت بالاختبار على صغر سنّي وأبديت من الجلد ما أغاظ جلّادي. الصّبر والثّبات على أرض المعركة، معانٍ تشرّبتها طفلا ومراهقا ودغدغتني آمال البطولة، حتّى آن أوان الاختبار على أرض الواقع. لكنّ تكرار المحنة واجترار الألم يفعلان بالقلب الأفاعيل. مرّة تلو مرّة أعبر الممرّ طويل، بطول الصّراط يوم القيامة -في عينيّ آنذاك- وأدخل غرف التحقيق التي فيها تهدر الإنسانية، ولا يتردّد في جنباتها غير الأنين والصراخ. وتفتر الابتسامة عن وجهي، مع إلحاح السّؤال القاسي.. إلى متى هذا العذاب؟

كنت أعود إلى زنزانتي -بعد ساعات التحقيق المرعبة- يقودني جلاد فظ، يطاردني بالسّياط والسّباب. وفي الزنزانة التي تشبه القبر، أتكئ بظهري إلى جدارها الحجري، واهن الجسد، معذّب الرّوح منهك الحواسّ من شدّة الضّرب والتعذيب. أضع رأسي بين ركبتي، أختبئ من نفسي ومن العيون التي ترقبني. أتمنى ألا يرى ضعفي أحد من رفقاء المحنة. لكنّ عجزي مفضوح رغم العتمة، الخور يتسلّل حتّى يسيطر على ذاتي المحطّمة.

وتسيل دموعي الحرّى، وتتساقط على أرض المهانة، التي خلتها يوما مؤطني الذي أحب. لقد سرقوا الأوطان وسرقوا معها مشاعرنا الجميلة. ثمّ حين تهدأ لوعتي، تجري على لساني كلمات أبيات من النونية الشهيرة للشيخ القرضاوي، فأرفع بها صوتي قليلا.. وكأني أعزّي بها نفسي الممزقة، وأضمّد جراح روحي، وأشد من أزر عقلي المهزوم المشتّت، مردّدا -بين دموعي- في صوت شجي:

تالله ما الدَّعــواتُ تُهزَمُ بالأذى أبدًا وفي التــاريخِ بِــرُّ يميني
ضع في يديَّ القيدَ ألهِب أضلُعي بالسَّوطِ ضع عُنُقي على السّكّينِ
لن تستطيعَ حصارَ فكريَ ساعةً أو نزعَ إيمــاني ونــورَ يقيــني
فالنورُ في قلبي وقلبي في يــدَي ربّي وربّي حــافظي ومُعـــيني
سأظلُّ مُعتصمًا بحبلِ عقــيدتي وأمــوتُ مُبتسِمًا ليحيا ديــني

وأنتبــه عــلى صــوت نشــيج مكتــوم مــن رفقــاء الزنزانــة، وقــد هيّــج النشــيد مشــاعرنا فعــرّى مــا نكتمــه عــن بعضنــا مــن ضعــف. ويبــكي الــكل في صمــت، فقــد كانــت الدمــوع أبلــغ مــن أي قــول.

حــين حُرمــت مــن مواصلــة الدّراســة، ورأيــت آمــال المســتقبل تتحطّــم أشــلاء، غلبــت المــرارة عــلى طعــم البطولــة الموهومــة. هــا أنّــني قــد دفعــت ســنوات الشــباب الغاليــة لأحصــد علامــات شــائهة عــلى البــدن وجروحــا غائــرة في الكرامــة ونزيفــا مســتمرًا للأمــل. بعــد أن كنــت أســدا يصــول ويجــول في ســاحة الكليّــة، أصبحــت عاطــلا متبلّــدا لا يغــادر غرفتــه. هــل يبقــى للحيــاة معــنى بعــد ذلــك؟

قلــت أنّــني خُذلــت مــن قِبــل مــن أهديتهــم ثقــتي، أولئــك الذيــن شــاركتهم القضيّــة. بعــد فــترة ســجني الثالثــة، بحثــت عــن رفــاق الأمــس، فلــم أجــد لأحدهــم حسّــا. ألفيــت قســما منهــم قــد ســارع بالهجــرة قبــل أن تطالــه ألســنة اللهــب. يهــرب مخلّفــا البــلاد رمــادا وقــد وارى الــثرى كلّ أحــلام الأمــس.. وقســم لفظــه السّــجن بعــد ســنوات مــن العــذاب كانــت كفيلــة بــوأد بــذرة الحيــاة داخلــه. يتجاهــل بعضهــم اتصــالات البعــض الآخــر، ويشــيح بوجهــه ويقطــع الطريــق إذا مــا جمعهــم رصيــف واحــد. الــكلّ مراقــب والوشــاة كــثر، والــكلّ يشــكّ في الــكلّ. أنــت لا تُجلــب إلى غرفــة التحقيــق إلّا إذا وشى بــك أحدهــم أو جــاء ذكــرك عــلى لســان آخــر، ولــو عرضــا.. الــكلّ مضطــرّ لذكــر اســم أو أكــثر ليخفــف عــن نفســه جرعــات

الألـم، ولـيرضي نهـم المحقـق السـادي لمزيـد مـن الأسـماء، فيكـف عنـه الـضرب، وتتوقـف طاحونـة العـذاب الجهنميـة ولـو مؤقتـا. وكلّ اسـم يذكـر سـيأتي عليـه الـدّور عاجـلا أم آجـلا. يعتـذر إليّ والـد أخ عزيـز.. «اغفـر لأخيـك، فقـد ذكـر اسـمك في التحقيـق مضطـرّا، يجـب أن تتـوارى عـن العيـون!».

أتوارى عن العيون؟! إلى متى؟

إن لـم نكـن صفعـة عـلى وجوههـم وشـوكة في حلوقهـم، فمـا جـدوى العيش؟

حين ألفيتني لا أصلح شوكة في حلق أحد، قرّرت إنهاء حياتي.

كان ذلك بعد أن خُذلت للمرّة الثّانية.

كنـت قـد خطبـت زميلـة لي في الكليّـة، سـبقتني في إنهـاء دراسـتها مـع توقـف مسـاري الـدّراسي مـرّة إثـر مـرّة بينمـا واصلـت هـي صعـود السّـلم الـذي تركتُـه غـير بعيـد مـن الثلـث الأخـير. كنـت قـد رأيـت فيهـا مواصفـات فتـاة الأحـلام، مـن خلـق رفيـع وأدب جـمّ ونسـب شريـف وشـكل حسـن. بعـد أن صـدر بحقـي الحكـم الأخـير بقضـاء ثلاث سـنوات وراء القضبـان، أرسـلت مـع أخيهـا تبلّغـني ألا طاقـة لهـا عـلى الصّـبر أكـثر!

هـل تعلمـين؟ لا ألومهـا. ومـن تـرضى بـزوج خرّيـج سـجون، مـا يـكاد يغـادر السّـجن إلا وحـنّ إليـه مـن جديـد؟! كلّ امـرأة تبحـث في نصفهـا الآخـر عـن اسـتقرار وأمـان وسـكن.. ومـا كنـت عليـه كان غـير ذلـك. أأكـون حمّلتهـا مـا لا تطيـق، حـين طمعـت في بقائهـا في انتظـاري؟ أأكـون قـد غاليـت في أحلامـي حـين تمنّيـت أن تكـون ذكراهـا بلسـما يورثـني الرّضـا في ظلمـة سـجني؟ وأن يبقيـني بريـق الأمـل متيقظـا، مترقّبـا مسـتقبلا جميـلا يجمعنـا؟ ليسـت كلّ النّسـاء تتحمّـل أن تكـون شـاطئ الأمـن الـذي يرنـو إليـه الرّجـل، ويتـوق إلى أن تـبرأ جراحـه عـلى يديهـا. أم لعـلّ جراحـي

أخافتها؟

لم أسألك بعد، وأنت هل تخيفك جراحي؟ لا أبحث الآن عن جواب. لن أقترب حتّى لا تجفلي وتنفذي بجلدك. لكن فكّري في هذا.. ما الجدوى من حياة لا نكون فيها جزءًا من شيء عظيم؟ هذه الحياة التي أعيشها منذ تلك الآونة، تتساوى والعدم. أن أعيش من أجل نفسي وحدها، أيّ سموّ في هذا؟ لذلك لست نادما على ما قدّمت وما خسرت. ولو رجع بي العمر إلى الوراء لكرّرت الأمر نفسه. كنت لأندم لو أنّني لم أحاول ولم أسخّر نفسي من أجل قضيّة آمنت بها.

الهزيمة مرّة.. لكنّ العجز أمرّ.

***

١٩٩٩/٠٧/١٦

حين تلاشت كلّ آمالي في تحسّن الوضع، اشتريت علبة حبوب منوّمة، وابتلعت حبّاتها واحدة إثر الأخرى، في هدوء تام. ثم استلقيت على السّرير، راجيا أن أستيقظ في مكان آخر.. في مكان بعيد عن حياتي الموبوءة. في العالم الآخر، حيث لن تطالني أيدي البشر الآثمين الظالمين.

لكنّني فتحت عينيّ، لأجدني في نفس الموضع، بعد أن غرقت في غيبوبة عميقة لساعات طويلة! لم أستوعب أبدا كيف فشلت تلك الكميّة المركّزة من المخدر في القضاء عليّ! تعرّقت أنهارا وتقيّأت مرارا، ثمّ فقدت الوعي تماما، لأستيقظ بعد ساعات على صداع حادّ واضطراب شديد. اكتشفت مذّاك مهربا مثاليا لمعاناتي. كنت في الفترة التي سبقت تلك المحاولة أعيش اكتئابا حادّا يصيبني بالأرق معظم اللّيالي. الحرمان من النّوم كان شديد الأثر على مزاجي، وتلك

التّومـة الطويلـة -الـتي أردت لهـا أن تكـون الأخـيرة- كانـت بدايـة إدمـان خـارج عـن السّـيطرة. كنـت في حاجـة إلى النـوم، الكثـير منـه.

بعـد أسـبوع أرغمـت فيـه عقـلي عـلى راحـة قسريّـة، عـبر الحبـوب المنوّمـة، اتّصلـت بوالـدي وقلـت في حـزم: لـم أعـد أطيـق صـبرا عـلى هـذه الحـال.. سـأهاجر!

وهكذا هاجرت.

عـدت أصعـد السـلّم مـن بدايتـه وقـد فقـدت الأسـبقيّة وكلّ الامتيـازات القديمـة. عـدت أكافـح يومـا بيـوم، أقاتـل لأبقـى.. عَـلِّي ذات يـوم أحـيي القضيّـة الـتي مـا عـادت تهـمّ أحـدا. حـين يمـرّ المـرء بمـا مـررت بـه، يصبـح الحـاضر هـو كلّ شيء. اللحظـة الرّاهنـة هـي كلّ مـا أملـك. لا خيـال. لا أحـلام. لا آمـال زائفـة. حـتّى وأنـا أكتـب إليـك، أنحّـي كلّ أمـل مغـرٍ بـأن تقبليـني وتهتمّـي لأمـري. أضـع تركـيزي عـلى الكلمـات الـتي نتشـاركها وحدهـا.

أرى كوابيس منذ أيّام. أرى جلّاد الأمس، وظلمة الحبس.

لكنّ أسوأ مخاوفي، هو غد لا أراك فيه.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٢

أخّـرت هـذه الرّسـالة متعمّـدا.. أتـرك لـك المجـال لتسـتوعبي الرسـالة الأخيرة،

كـم أبـدو يائسـا ومثـيرا للشـفقة، بعـد كلّ الأزمـات الـتي مـررت بهـا وتخطّيتهـا، حـين يكـون منتهـى رضـاي في رؤيـة وجـه لا يبـالي بوجـودي. فقـط رؤيتـه والإحسـاس بابتسـامته الدّافئـة، وأنـا أمـرّ عـلى مقربـة دون إحـداث جلبـة أو جـذب انتبـاه.

هذا مخيف. لا شكّ أن هذا يخيفك!

وربّما يملؤك غرورا.

سبق أن قلت أنّني لا أتوقّع منك ردّا. وأنت محقّة في تجاهلي. ولكنّني أطمع في يوم، نتحدّث فيه وجها لوجه.. وإن كنت لا أستعجله. فأمامي مشوار طويل، وأريد أن أقطعه وحيدا. حين أصبح جاهزا لمواجهتك، سأظهر أمام عينيك.

انتظريني، رجاء.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٥

رحلة الفرار من بلدي كانت قاسية وطويلة. لن أسمي بلدي، ولا البلاد التي عبرتها حتّى حططت الرّحال في باريس، فإنّي مصرّ على الغموض كما ترين. لن أترك بين يديك خيطا تتبّعينه لاكتشاف هويّتي. هل أثرت فضولك؟ أتمنى ذلك.

خرجت في صندوق سيّارة نقل، مثل بضاعة مهرّبة، وعبرت الحدود. وبعد شهور انتقلت إلى بلد آخر بهويّة منتحلة. تنقلت لشهور بين مواطن شغل مختلفة، وتعلّمت مهارات حرفيّة عدّة، مع مجموعة من الشّباب المهرّب في ظروف مشابهة لظروفي، وانتظرنا في صبر أن تتاح لنا فرصة المواصلة إلى أوروبا.

كانت أوروبا حلمي، لسبب وحيد. كنت قادرا هناك على مواصلة تعليمي الذي حرمت منه في بلدي. والدي كان قادرا على توفير تعليم خاصّ لي في أيّ مكان من العالم يقع عليه اختياري. لكنّني في عناد شرس -ستعلمين أنّه طبع أصيل فيّ- أصررت على إعالة نفسي والإنفاق على دراستي حتّى الرّمق الأخير.

كانت مسألة كرامة واحترام للذّات، ولو أنّني تراجعت في أيّ لحظة

وأقـررت بعجـزي، لتلقفتـني شـبكة الحمايـة الأبويّـة بترحـاب لا يـكلّ. أعـترف مـع ذلـك أنّـني طلبـت معونـة والـدي في مرحلـة واحـدة، مرحلـة الهـرب. لـم أكـن قـادرا مـن موضعـي داخـل البلـد أن أدبّـر وسيلة هجـرة مناسـبة، وأنـا الممنـوع مـن مغـادرة تـراب الوطـن. وقـد تدخّـل معارفـه بحنكـة في مختلـف مراحـل رحلـتي حـتّى تـمّ تسـليم الطّـرد البـشريّ الـذي كنتـه إلى صديـق باريـسيّ كان في انتظـاري.

في باريـس، بـدأت رحلـة أخـرى، مـن الوحـدة، الوحـدة الشـديدة.. رغـم وجـود أصدقـاء كـثر مـن حـولي. كنـت وحيـدا في تدبّـر أمـوري الماليـة ومقاومـة أمـواج اليـأس الـتي تـتردّد بـإصرار عـلى شـاطئي. ولـو أنّـني طلبـت المعونـة في أيّ وقـت، لوجـدت مـن يلـبّي. لكنّـني أخفيـت ظـروفي الحالكـة عـن رفـاقي بعنـادي المعهـود، وامتنعـت عـن الشّـكوى. أشـكو للمـرّة الأولى، إليـك أنـت. فالوحـدة قاسـية، والليـل شـديد الظلمـة عـلى القلـوب الوحيـدة.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٧

الليلة عيد مولدي.

الأجـواء مـن حـولي ليسـت احتفاليّـة أبـدا. فوطـأة السّـنوات الـتي تمـرّ بي غـير عابئـة ثقيلـة عـلى صـدري. لا معـنى للاحتفـال لمـن هـم مثـلي، يهابـون رحيـل الشّـباب. لـم أحتفـل كثـيرا حـتّى في المـاضي. لـم يكـن تقليـدا معتـبرا في عائلـتي. ربّمـا كان احتفـالي الأوّل والأخـير حـين أحـرزت شـهادة ختـم التعليـم الثانـوي، وتهيّـأت لـوداع عائلـتي والرّحيـل إلى الجامعـة. كان أشـبه بحفـل وداع.

لكنّـني اليـوم تلقّيـت الكثـير مـن الاتّصـالات الـتي تتمـنّى لي يـوم مولـد سـعيدا. شـعرت بوحـدة أقـل، وابتسـمت أكـثر. لكـنّ هـذا لا ينفـي

الإحساس بسنة أخرى قد ولّت.

***

1999/07/29

ما زلت مصرّة على التّجاهل؟

تمنّيت أمنية منك بعام سعيد، لكنّني قد لا أحصل عليها في وقت قريب.

ولأنّني قد ثرثرت كثيرا واستنزفت رغبتي في الاسترسال، سأتوقّف الآن.

-٤-

توقّفتَ فجأة عن الكتابة كما بدأت. كنتَ مدفوعا برغبة ملحّة للفضفضة، وقد انحسرت الرّغبة مثلما جاءت. كأنّك شعرت بثقل تلك المحادثة أحاديّة الجانب، وانتابك خجل من نفسك. كم كنت يائسا ومثيرا للشفقة!

أم لعلّه وعيك بسنتك الثالثة والثلاثين وهي تصير حقيقة، وأنت ما زلت على مقاعد الدّراسة؟

في الأيّام الأولى التي تلت تفريغ شحنتك من الكلام، سيطر عليك إحساس بالنّدم. ما على هذا نشأت وتربّيت! كيف تقتحم حياة الفتاة الغافلة عنك وبأيّ صفة؟ ألست تفتنها وتفتن نفسك بحديثك المتهوّر عن المشاعر والتعلّق؟ ألا تشبه الآن الشباب المائع والمتهوّر، تتسلّل من الباب الموارب وأنت لا تملك نيّة في ارتباط رسميّ؟ تريد أن تحجز قلبها، فلا يسرقها منك أحد؟ ما هكذا تكون شيم الرّجال!

ثمّ فترت الملامة شيئا فشيئا. أنت لم ترتكب إثما. لم تواعدها سرّا ولم تختل بها، لم تغازلها صراحة ولم تدعها إلى ما يغضب الله. سيغفر الله لك فيض العاطفة الذي لم تملك السّيطرة عليه. استمررت تفتح البريد بشكل يوميّ. تعيد تلاوة رسائلك البليدة طالما لم يرد ردّ من طرفها. ثمّ تتوقّف أمام كذبتك الصّغيرة. كنت تكذب بشأن الصّوت. فقد سبق لك سماع صوتها.

كان رقمها معك، وكان صوتها متاحا على الطّرف الآخر. وماذا فعلت بالرّقم الثّمين بعد أن غنمته؟ لا أنت طرقت الباب حتّى تسمع جوابها، ولا أنت حاولت حتّى المعاكسة الهاتفية المنتشرة

تلك الأيّام بين صفوف الشّباب والمراهقين. كنت أجبن من الإقدام على الاقتراب من دائرتها، فقنعت بالفتات. كنت تتّصل بها بعد أن تحجب رقم المتّصل، وتستمع في صمت وأنفاس محبوسة إلى صوتها وهي تقول مرّة بعد مرّة: ألو؟ من معي؟!

نعم، كانت تلك أولى كلمات بصوتها تصل إلى سمعك موجهة إلى ذاتك أنت دون غيرك!

أيّ اكتفاء بلغته بمحاولاتك اليائسة تلك؟ ظللت ما يقارب سنة، تواظب على تلك الاتّصالات السّخيفة. كلّما أصابك أرق أو شغلك شاغل، وجدت نفسك تتسلّى بالاتّصال بها، تستمع إليها تقول «ألو» ولا تردّ بحرف واحد. وما الذي كنت لتقوله بأيّ حال؟ إنّي يا فتاة أكبرك بثلاث عشرة سنة، ولكنّني لمّا أتخرّج في الجامعة بعد. أدرس صباحا وأعمل مساء. أغسل الأطباق في مطعم. سجين سابق وممنوع من زيارة بلدي، لكنّني أطمع في ودّك؟ كان تقديرك لنفسك منخفضا حينها. قبل بضع سنوات، كان تقديرك في أعلى مراتبه. كنت ترى نفسك شيخا حافظا، وطبيبا في المستقبل القريب، ومجاهدا في سبيل الله.

تلك التّجربة كسرت نفسك.

لكنّك قرأت في نظرتها حينما التقيتما في المدرّج مرّة أخرى ما أرعبك. إنّها تعرف! أوّلت نظرتها القصيرة المتواطئة وبسمتها الخفيفة حين لمحتك أعلى المدرّج في مكانك الاعتياديّ، وجزمت بأنّها حزرت، فتعرق جبينك، وتسارعت دقات قلبك. تستعيد الآن المشهد بتفاصيله بالتّصوير البطيء.. التفتتْ بعفويّة، تحدّث زميلتها الأقرب إلى مجلسها، ثمّ ارتفعت عيناها إلى الصّفوف الخلفيّة. وخلال ثوانٍ التقت عيناها بعينيك. كانت تعلم أنّك هناك.. مثل عادتك. هل

كانت الابتسامة تخصّك، أم أنّها بقايا محادثتها الحديثة مع جارة المدرّج؟ لم تكن واثقا البتّة من أيّ شيء، لكنّك أيّها المريب تكاد تقول خذوني! لو أنّها لم تشكّ ولم تحزر، فإنّ ارتباكك لحظتها قد يكون حرّك رماد الشكّ فحوّلت انتباهها إليك.

هل كانت صدفة أخرى، أن تكون أوّل محادثة مباشرة بينكما بعد ذلك بأيّام؟

كنت في المكتبة، تنسخ اختبارات السّنوات الماضية. كنت تضع أوراقك على المنضدة، تتناولها واحدة إثر الأخرى وتضعها على اللوح الزّجاجي للماسح الضوئي، ثمّ تطبق عليها غطاء الآلة، حين ظهرت أمامك. ألقت نظرة على المنضدة، ثمّ بادرتك دون تفكير:

- هل يمكنني أن أنسخها منك حين تنتهي؟

هل باغتتك مبادرتها؟ فقد ارتبكتَ، وتلعثمتَ. لكنّك تداركت الأمر سريعا. أعددت نسخة إضافيّة للرّزمة من أجلها، ثمّ أخذتها إلى طاولتها. حين صرت على بعد خطوتين منها، سمعت صوتها خافتا وهي تهامس جارتها:

- انقطعت الرّسائل فجأة. ربّما لأنّني لم أردّ.

ستحبس أنفاسك مرّة أخرى وأنت تطالعها في جمود، مثل تلك اللحظات التي تقبع فيها ساكنا على طرف الخطّ تسمعها تقول «ألو»، بينما تحاول صديقتها التكهّن:

- هل تظنينه معنا.. في الكليّة؟

تهزّ كتفيها علامة الجهل ثمّ تسترسل غير منتبهة لوجودك خلفها تماما:

- إحساس غريب، أن تكوني مراقبة! قد يكون في أيّ مكان.. في نفس الوقت، أشعر بأنّني سأتعرف إليه إن لقيته.. شخصيّته حاضرة بشدّة

في رسائله، ولا شكّ أنّ شيئا ما سيدلّني عليه! سأعرفه حين أراه!

تسمّرت مكانك، ترتجف فرقا. تتحيّن التفاتتها التي ستؤكد شكوكك. عرفتك!

لكنّها ستلتفت، وتبتسم في امتنان لا تشوبه شائبة وهي تتسلّم منك رزمة الورق، لتتبيّن أنّ فراستها المزعومة محض أوهام. بعد أن تبخّر القلق، ستحتفظ بذكرى الابتسامة المنعشة لوقت طويل. كما ستمتدّ جسور التواصل بينكما منذ ذلك اللقاء. ستحظى بمرآها كثيرا في فضاء المكتبة الذي تبيّن أنّه المكان الأمثل لمحادثات عفويّة وقصيرة متكرّرة. تعليقات ساخرة من المحاضرة، أو استفسارات سريعة عن نقاط مبهمة من الدّرس الصّباحيّ. كم أخذت من الوقت لتستوعب أنّها كانت تخلق الفرص وتمهّد الطريق التي ستسلكها أنت باتّجاهها؟

ومع ذلك، فقد بقي السّؤال الملح معلّقا طيلة تلك الفترة. هل عرفتْ لاحقا -في وقت ما- أنّك أنت مراسلها المجهول؟ لم تكن قد ردّت على خواطرك مرّة واحدة. وكنت قد توقّفت عن هلوستك الصيفيّة إمعانا في الحذر. أيّ رسالة إضافيّة قد تكون فخّا تنصبه لنفسك فتكتشفها.

الفصل الثاني

- ازدواج -

-١-

كانـت عائلتـك في تونـس قـد عرفـت فجـر الصّحـوة الإسـلاميّة الأولى. فقـد كان خالـك عمّـار -أقـرب أخوالـك إليـك- ذا صلـة وثيقـة بـروّاد حركـة «الاتّجـاه الإسـلاميّ» أو «الجماعـة الإسـلاميّة» الـتي عرفـت خطواتهـا الأولى في أواخـر السّـتينيات وبدايـة السّـبعينيات. وقـد جمعتـه برموزهـا ومؤسّسـيها الأوائـل علاقـات وديّـة، تصـل إلى الزيـارات العائليّـة والتّواصل الاجتماعــي. كان ذلــك قبــل أن يُنفــى مــن نفــي ويُســجن مــن ســجن، وينفـرط العقـد في أصقـاع الأرض.

لكنّـك تذكـر في طفولتـك الغضّـة تلـك كيـف كانـت حلقـات الدّعـوة ومجالـس العلـم الـتي تُعقـد في مـنزل خالـك أحيانـا، فتحضرهـا وأنـت الصـبيّ الـذي لـم يبلـغ الحلـم، متلصّصـا أولا، ثـمّ كجـزء لا يتجـزّأ منهـا في وقـت ثـانٍ، منتبهـا لـكلّ حـرف يقـال، تكتشـف العالـم بعيـون نضجـت قبـل أوانهـا.

كان خالـك عمّـار ينتبـه لوجـودك عنـد المدخـل، مـتردّدا في الولـوج، فيناديـك مبتسـما:

- تعال يا مالك!

ثمّ يقدّمك لضيوفه في فخر، ويبادرك مشجعا:

- هلّا أسمعتنا شيئا من حفظك؟

فتـنزل عـلى ركبتيـك، وتأخـذ ترتّـل آيـات ممّـا تحفـظ مـن ذكـر الله. فـإذا مـا فرغـت، ربّـت عـلى كتفـك مستحسـنا ودعـاك إلى الجلـوس عـلى يمينـه، وهـو يهمـس لـك:

- أصغ في سكون، وتعلّم.

ستذكر تلك المجالس لاحقا بكلّ زهو أمام أقرانك في كليّة الطبّ، بعد أن يصل مدّ الدّعوة إلى الجامعات وتستوطن الحركة في الأنشطة الطلّابيّة، أنّك عرفت الطريق قبلهم جميعا، وجاورت الرموز الذين يتطلع إليهم الشباب المبهور باهتمام، بل طعمت من نفس الموائد وحاذيتهم في المجالس!

ولعلّ تلك الذكريات البعيدة لم تكن لتظلّ قويّة واضحة في ذهنك لولا هجرة خالك المستعجلة وأنت في سنّ الثامنة. فكلّما ذكرت طفولتك ومغامراتك الأولى في تونس، ظهرت أمام عينيك بسمة خالك عمّار تفترّ عن صفّ من الأسنان البيضاء الناصعة، وهو يربّت على رأسك ويقدّمك لضيوفه في مجلسه ذاك. ستحتفظ لتلك الذكريات بطعم حامض، تماما كطعم الزيتون الذي تلتقط حبّاته خلسة من أطباق المقبّلات المقدّمة للضيوف.

هاجر خالك أوّلا، ثمّ مهّد لوالدك الطّريق وعبّدها، وحثّه على الالتحاق به بعد أن استقرّ في الرّياض، يدرس الوضع ويقيس الفوائد بمقاييس الدّنيا والدّين، حتّى خلص إلى أنّ المملكة السّعوديّة هي الموقع المناسب للمرحلة.

إذن سافرتَ وعائلتك إلى المملكة سنة ١٩٧٥، حيث استقرّ بك المقام زهاء عقد من الزّمن، أو دون ذلك قليلا، ولعقود طويلة أخرى بالنسبة إلى والديك. أمّا خالك عمّار فقد سبقك بالعودة كما سبقك بالهجرة.

كان والدك مهندس بترول، في زمن احتلّ فيه النّفط مركز اهتمام العالم، وكانت الفرص مواتية هناك. ولم يكن ما اجتذب والدك إلى المملكة بريق الذّهب الأسود وحده، فقد كان كذلك رجل علم

ودعـوة. وقـد تمـنّى لـك وإخوتـك أن تنهلـوا مـن منابـع العلـم الشرعـيّ علـى أيـدي مشـايخ لا تطاردهـم الحكومـة ولا ينظمـون حلقاتهـم خفيـة!

في وقـت مـضى، كان جامـع الزّيتونـة العريـق في تونـس العاصمـة ينافـس الأزهـر الشريـف مـن حيـث الإشـعاع الدّيـني عـلى المنطقـة. كان رجـال العلـم مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا يقصدونـه لإكمـال دراسـتهم العليـا في الدّراسـات الشرعيّـة والأدبيـة، وقـد لعـب دورا تاريخيّـا في مقاومـة الاسـتعمار الفرنـسيّ. لذلـك فقـد رأى المسـتعمر وهـو ينفـض كفّيـه مـن المسـألة التونسـيّة رافعـا حمايتـه المزعومـة، أن يـترك مسـؤوليّة هـدم الكيـان الزيتـونيّ للتونسـيّين أنفسـهم. لـم يفلـح الاسـتعمار في اجتثـاث الثقافـة الإسـلاميّة مـن جذورهـا، لكنّـه فـوّض المهمّـة لحكومـة الزعيـم «بورقيبـة» النّاشـئة. خـلال السّـنوات الأول مـن تاريـخ الاسـتقلال، سـيعمل بورقيبـة عـلى تقويـض «الرّجعيّـة» وتدعيـم أسـس «الحداثـة» فيمـا يُسـمى سياسـة «تجفيـف المنابـع». سـيغلق الجامعـة الزيتونيّـة؛ لينتهـي عهـد التعليـم الزّيتـونيّ مـرّة واحـدة، وتصبـح واحـدة مـن أعـرق الجامعـات في العالـم الإسـلاميّ طـيّ النّسـيان. وبعـد أن كانـت تونـس تُصـدّر الفكـر والثّقافـة، سـيلجأ مثقفوهـا في سـتينيات القـرن العشريـن إلى اسـتيراد فكـر «مالـك بـن نـبي» مـن الجزائـر و«سـيّد قطـب» مـن مـصر، لتتشـكل الخليّـة الأولى لمـا عرفتـه طفـلا بالجماعـة الإسـلاميّة.

كان لخالـك عمّـار أبلـغ الأثـر في تكويـن لبنـات الأسـاس لشـخصيتك في تونـس طفـلا وفي الرّيـاض مراهقـا وشـابّا. كان الشّـمس الـتي سـطعت في سـنوات عمـرك الأولى فملأتهـا ضيـاءً ونـورا. وكان القمـر الـذي بانعكاسـه اهتديـت في فـترة شـبابك المتخبّـط المندفـع. فقـد كان لعلاقتـك بـه مـن الخصوصيّـة والشّـأن مـا أثـار طويـلا غـيرة الكثـير مـن الأقـارب والأقـران. رغـم فـارق السـنّ، الـذي يتجـاوز الأربعـين عامـا، كان أحدكمـا للآخـر صاحبـا مقرّبـا وأمـين سرّ لا ينـازع منزلتـه أحـد.

أينما حلّ خالك، كان مجلسه قبلة للسّياسيين والعلماء والدّعاة والمفكّرين. وكما تفتّحت براعم عقلك في صالون منزله في الضّاحية الشّمالية للعاصمة التّونسيّة، فقد نضجت ثماره في مجلس فيلته الفخمة في العاصمة الرّياض.

وقد كان يحتفي بك بشكل ملحوظ، ويستقبلك استقبال النّدّ للنّد في مجلسه العامر على الدّوام بزوّار ذوي شأن في الحركة الإسلاميّة من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. كان ينصت باهتمام لما تقول، ولا يصغّرك أبدا في عيون ضيوفه ولا عيني نفسك، وأنت الأصغر سنّا غالبا في ذلك المجلس، وبالطبع مقاما.

وكان يخلو بك كثيرا في مكتبه الخاصّ حين يخلو المجلس من الزوّار، يجاذبك أطراف الحديث. فتطرح أسئلتك كما يحلو لك، عن الأوضاع السّياسيّة والقضايا الفكريّة والشؤون الفقهيّة والمسائل العقديّة.. فتنهل من بحر علمه وتستزيد من واسع معرفته واطلاعه. لم يكن يخفي عليك أشدّ الأمور حساسيّة وأكثرها حرجا وأهميّة، فتستشعر المسؤوليّة تجاه تلك المعلومات التي لم تكن في متناول أيّ كان.. فقد كانت تمسّ الشأن السّياسيّ لعديد الدّول من أحداث كانت تجري في ذلك الحين، كالثّورة الإسلاميّة في إيران، وحرب الخليج الأولى، ومأساة الإخوان المسلمين في سوريا وانطلاق شرارة الجهاد الأفغاني.

يقول لك في لهجة جادّة:

- نحن لا نقرأ التّاريخ.. وإذا قرأناه، كانت قراءتنا سطحيّة. لا نعتبر ولا نتعلّم الدّروس. لذلك تُكرّر الأمم الأخطاء ذاتها، وتتكرّر المآسي والنّزاعات الخرقاء!

فتردّ معترضا:

- أيّ تاريخ نقرأ يا خال؟ أليس ما نتعلّمه تاريخا مزيّفا مغلوطا يكتبه المنتصر؟ قبل أن نقرأ التّاريخ، وجب أن نحقّق تاريخنا ونعيد كتابته!

يبتسم مستحسنا ثمّ يضيف في ثقة وتؤدة:

- تذكّر يا مالك أنّ الناس على صنفين.. فئة قليلة تصنع الحدث، ليكون هو التّاريخ.. وأخرى كثيرة تحرّره أو تقرؤه. ونحن يا بنيّ ممن يصنعون التاريخ.

لكنّك تردّ في إصرار:

- مشروع إعادة كتابة التّاريخ.. ألا يبدو هذا هدفا ساميا يستحقّ العمل عليه؟

- ليس الآن يا بنيّ، وليس أنت.. ستكون جرّاحا عظيما أوّلا. ألم نتّفق؟

ثمّ تضحكان في مرح. لم تكن حينها قد جاوزت السّادسة عشرة. لكنّه يحدّثك مثل رجل راشد ومسؤول.

خالك عمّار وحده كان واحتك الخصبة التي استظللت بظلها لسنوات، فما جفّت ينابيع روحك في صحراء المملكة القاحلة، بل تدفّقت وازداد معينها. كنت تعلم بلا ريبة أنّ ما كنت عليه من قدرة هائلة على الإبحار في علوم الدّين والتمكّن من ناصية اللغة وعلوم السيّاسة والمجتمع، كان الفضل فيها بعد الله إلى هذا الخال العظيم. وسيبقى الأمر كذلك طويلا، حتّى رحيله سنة ١٩٩٩ بعد أن أقعده مرض عضال لحقه جراء سنوات السّجن الطويلة. لذلك، كان من المحتّم أن تنكفئ على وجهك كالأعمى، بعد أن انطفأت شمسك وغاب قمرك، دون أن تتسنّى لك فرصة وداعه مرّة أخيرة.

كان من المخطّط لك منذ البداية أن ترجع إلى تونس، بعد ما

يقارب العقد من التّحصيل المكثّف على جميع الأصعدة، لمواصلة تعليمك الجامعيّ. مثلما توقّعت، وتوقّع الجميع من حولك، أحرزت المجموع الذي فتح أبواب الخيارات أمامك، فانتقيت كليّة الطبّ. فتغرّبت للمرّة الثانية، في وطنك.

رجعت صيف ١٩٨٣، وأنت ذاك الشاب اليافع ذو الثمانية عشر ربيعا إلا نيف، مسلّحا بإيمان عميق راسخ، وذخيرة فكريّة تزعم أنّها لا تتوافر للكثيرين ممّن هم في مثلك سنّك. كنت تحفظ المتون الشرعيّة من الكتب بهوامشها وأرقام صفحاتها، فضلا عن القرآن الكريم كاملا، وأنت لمّا تجاوز الخامسة عشرة. وكان شغفك بالقراءة لا حدود له، ونهمك العلميّ الذي غذّاه المحيط الأسريّ يتواثب في صدرك. كانت أختك الكبرى قد دخلت قبلك كليّة الصيدلة في مدينة المنستير، وأخوك الأكبر قد انتسب إلى كليّة الهندسة في مدينة سوسة، غير بعيد عنها، في حين استقرّ بك الحال في تونس العاصمة وحيدا.

كان ذلك رصيدك الذي واجهت به عالم الجامعة المثير، مغتربا عن أسرتك، بلا رقيب ولا سائل، وكلمات خالك عمّار، الذي استقبلك في المطار ووضعك تحت جناحه حتّى تجاوزت صعوبات الاندماج الأولى، تتردّد في ذهنك:

- أن تعيش تجربة الجامعة في مجتمع منفتح، وتحافظ فيه على مبادئك، فأنت مأجور أكثر ممّن ينأى بنفسه عن هذه التحدّيات.

قرّرت منذ البداية أن تحافظ على سمتك الإسلاميّ الذي اعتدته في المملكة. فتركت لحيتك الغضّة كما هي، وكانت بلا جدال تنبئ مباشرة عن هويّة صاحبها، في مجتمع لا يعتبر اللحية في تلك السنّ المبكّرة أمرا طبيعيا. وقد كانت الجامعة حينها تمور وتثور بمختلف تيّارات الفكر السّياسيّ التي بدأت نشاطها على استحياء منذ عقد،

حـين خلّفـت البـلاد مهاجـرا، وعرفـت سـنواتها الذّهبيّـة أوان رجعتـك.

كانـت الحركـة الإسـلاميّة الـتي تحاشـت حـتّى ذلـك الوقـت الدّخـول في صراع مبـاشر مـع السّـلطة، تسـتقطب زرافـات مـن الشّـباب في المـدارس الثانويّـة والجامعـات والمسـاجد. فشـهدت في تلـك الأيّـام تظاهـرات طلّابيّـة جامحـة، ولـم تكـن ذكريـات «ثـورة الخـبز» ببعيـدة عـن الأذهـان. لـم تكـن للحركـة آنـذاك أهـداف سياسـيّة واضحـة المعالـم، بـل كان تركيزهـا يقتـصر عـلى الصعيديـن الثقـافيّ والاجتماعـيّ. ورغـم أنّـك لـم تُضمـر انضمامـا لكيـان أو لآخـر، فقـد وجـدت نفسـك تُبحـر مـع التيّـار وأمـواج الحمـاس تجرفـك. كانـت تجربـة مختلفـة عـن كلّ مـا سـبق. وكأنّـك تتـوّج مسـيرة طالـب العلـم الـذي كنتـه بالعمـل الحـركيّ الـذي تمنيّتـه وأنـت تقـرأ عـن الفتوحـات والغـزوات!

بيـوت أعمامـك وأخوالـك كانـت مفتوحـة أمامـك، لكنّك آثرت اسـتئجار شـقّة مفروشـة لـك وحـدك. كانـت إمكانـات والـدك الماديـة في الرّيـاض تسـمح بتوفـير ذلـك المسـتوى مـن الرّفاهيـة، ولـم تكـن في تلـك الفـترة تمانـع العيـش في كنـف رعايتـه المادّيـة. وسرعـان مـا تحوّلـت شـقّتك إلى مقـرّ دائـم لاجتماعـات الحركـة الطلّابيـة الـتي نشـطت فيهـا بإثـارة متّقدة. كنـت تتلمّـس الطّريـق، تكتشـف الحرّيّـة والمسـؤوليّة، وتعـاني لكبـح لجـام نفسـك الجامحـة. وقـد تهـوّرت، وذقـت الألـم، وعرفـت لحظـات نـصر شـخصيّ لا تقـدّر بثمـن. كنـت تتـوق إلى القيـادة، وإن عزفـت عـن الانخـراط في الحـركات السّياسـيّة الـتي حاولـت اجتذابـك. أعرضـت عـن السّياسـة، لكنّـك لـم تعـرض عـن مقاومـة الظلـم، واحتفظـت طويـلا بصفتـك كمسـتقلّ غـير قابـل للامتصـاص أو الذوبـان في كيـان لا يشـبهك.

كنـت تعـدّ نشـأتك في بيـت عامـر برجـال الدّعـوة مبـنيّ عـلى أسـس عقائديّـة سـليمة، مـيزة فريـدة لا يعرفهـا السّـواد الأعظـم مـن المحيطـين بـك مـن «المهتديـن الجـدد». فالحـال العامّـة يسـيطر عليهـا جهـل ديـنيّ

مدقـع، نتيجـة عقـود مـن الهيمنـة الاسـتعماريّة والعلمانيّـة. وقـد اسـتمرّ يـراودك ذلـك الإحسـاس العميـق بالتميّز، طفـلا وشـابّا، كلّمـا انتـشرت وإخوانـك في الشّـارع بعـد صلاة الجمعـة بجامـع «صاحـب الطابع» وسـط العاصمـة، بأقمصتكـم البيضـاء، وشـعوركم الطّويلـة ولحاكـم النّابتـة، وبعضكـم يعتمـر العمائـم. تنفتـح أبـواب الجامـع عـلى مصاريعهـا ويتدفّـق الخلـق خارجهـا، مثـل مـدّ جـارف يغمـر الطـرق المجـاورة، كأنّمـا سـقطتم مبـاشرة مـن كتـاب التّاريـخ، مـن القـرون الهجريّـة الأولى! كنـت تـرى نظـرات التّعجـب والذهـول في عيـون النـاس عـلى المحطـة وداخـل القطـار، وكان ذلـك الإحسـاس بدهشـة النّـاس الصّادقـة يُشـبع غـرورك ويملـؤك زهـوا.

رغـم عمـق مشـاعرك الإيمانيـة آنـذاك وصـدق طهارتهـا، فإنّـك تسـتحضر تلـك المشـاهد مـن الذّاكـرة بطعـم سـكّريّ حلـو، كطعـم تمـرات الإفطـار الـتي تـلازم جيبـك يومـي الإثنـين والخميـس. كنـت تـرى نفسـك ذا شـأن عظيـم. كنـت تعتقـد في إحـرازك مرتبـة عليـا، ترفعـك عـن مسـتوى الجهلـة والخطـأة.

كنت...

مجـدّدا، برعايـة خالـك عمّـار، عـدت لتجتمـع بأولئـك الذيـن عهدتهـم طفـلا طـلّاب علـم، وقـد أضحـوا في الثمانينيـات زعمـاء وقـادة. سـتدخل بيوتهـم هـذه المـرّة، وتتباسـط معهـم، يشـاركونك اهتماماتهـم، وتخـرج محمّـلا بالكتـب. تـروي شـغفك للمعرفـة وتتجـرّأ بأسـئلتك عـلى تخطّـي حـدود اللّياقـة أحيانـا كثـيرة، وتسـتغلّ سـماحة مضيّفيـك وسـعة صدورهـم، ثـمّ تغـيّر شـيوخك كلّ فـترة، إذا مـا شـحّ نبـع الاسـتفادة المرجـوّة، وتتحـيّن فـرص تحصيـل جديـدة أينمـا أتيحـت. كنـت تسـتزيد مـن العلـوم في نهـم، وتشـبع اهتمامـك تجاه الأشـخاص الذين يذكـرون في الاجتماعـات الطلّابيّـة بمزيـج مـن الإعجـاب والفضـول. كنـت قـد غـدوت

خـلال وقـت قصـير موسـوعة متنقّلـة، وقـد ألممـت بمعالـم التيّـارات الـتي تحـرّك الجامعـة وفكرهـا وسـبرت أغوارهـا عـن قـرب.

رغـم اطلاعـك عـلى كل تلـك الأفـكار والأدبيّـات، ولقـاء الكثـير مـن قيـادات العمـل الإسـلامي في الثمانينيـات، وتشـبعّك بالفكـر الإسـلاميّ، وحصيلتـك القويّـة الـتي تمثّـل النّـواة الصلبـة لعقيدتـك، وهـي الفكـر السّـلفي.. رغـم كلّ ذلـك، لـم تنخـرط في عمـل تنظيمـيّ، وبقيـت معـتزّا بفردانيتـك وأنـت تسـتمتع بالتّغريـد خـارج الـسّرب. ولأنّ جـزءًا واضحًـا مـن شـخصيتك كان «التّمـرّد عـلى القيـود»، فقـد عـزف كلّ مـن تعامـل معـك عـن قـرب وعـرف طبعـك عـن إغرائـك بالعمـل التّنظيمـي، فنأيـت بنفسـك عـن كلّ شـدّ وجـذب.

كانـت حصيلتـك الفكريـة مـا تنفـكّ تتضخـم يومـا بعـد يـوم. كنـت تقـرأ، وتناقـش، وتحّلـل، بـل في أحايـين كثـيرة تخطـب الجمعـة في مصـلّى الجامعــة، وتــؤمّ الطلبــة. وكنــت تعتكــف ســنويّا العــشر الأواخــر مــن رمضـان سـواء في مسـاجد العاصمـة أو أحيانـا في الرّيـاض حيـث ظلّـت تقيـم العائلـة، كنـت شـديد الثقـة في إيمانـك، وقربـك مـن الله.. مـا عـدا تلـك الأوقـات الـتي تعذّبـك فيهـا قصّـة حـبّ هوجـاء، فتتعلّـق بإحداهـنّ، زميلـة أو جـارة، وتهيـم بهـا.. ثـمّ مـا تلبـث أن تفـرّغ طاقتـك العاطفيّـة غـير المنضبطـة، وتثـوب إلى رشـدك، فترجـع ذلـك الشـابّ المثـالي مسـتقيم الأدب والخلـق.

لـم يكتـب لـك أن تحتفـظ باسـتقامتك تلـك إلى الأبـد. فقـد اقـترن اسـمك سريعـا بحـركات الشّـغب. لـولا تكـرار دخولـك السّـجن وخروجـك منـه، لكنـت قـد تخرّجـت طبيبـا في بلـدك. لكنّـك بقيت عـلى عتبات السّـنة الخامســة. تعــود إلى الكلّيــة وتعتقــل فيهــا، وتســتعدّ لاختبــارات السّــنة الرّابعــة.. عبثـا. كانـت الجامعـات مراقبـة عـن كثـب، وغـدت الاعتقـالات في صفـوف النّشـطاء السّياسـيّين روتينـا يوميّـا. وبعـد أن اعتقـل رمـوز

الحركة الإسلاميّة وصدرت بحقّهم أحكام بالسّجن المؤبّد، عمّ الهرج في صفوف الطّلبة، واعتقلتَ بدورك، للمرّة الأولى. كان حكمك مخفّفا، مراعاة لسجلّك النّاصع حتّى اللّحظة، ولحداثة سنّك وسلامتك من تهمة «الانتماء». فقد كان حساب «المنتمين» إلى الحركة الإسلاميّة عسيرا. دخلت السّجن شهرا واحدا، عرفت خلاله أهوالا ما كنت تصدّق وجودها. واعتبرت نفسك بطلا، وأنت تغادر أسوار الحبس سليم الجسد والعقل، ما عدا خدوش بسيطة في البدن وجراح في الكرامة.

لم تستطع بعدها أن تدخل اختبارات الفصل الدّراسي، وانشغلت بالعمل السّياسيّ حتّى النّخاع بقيّة السّنة. فقد جاء انقلاب نوفمبر ١٩٨٧ ليغيّر مفاهيم عالمك ويرسم مسارات جديدة في مخيّلتك ما كنت تجرؤ على مغازلتها في وقت سابق. وأعدت سنتك الثالثة في كليّة الطبّ. حين جاء الانقلاب الأبيض، حسبتَ وحسب رفاقك أنّ زمنا أسود قد ولّى، وزمنا آخر مشرقا قد أقبل. فقد أخلي سبيل عدد من القادة الذين زجّ بهم نظام بورقيبة في المعتقلات، وبدأت السّلطة حوارا مع الاتّجاه الإسلاميّ لإشراكه في «صناعة التغيير».

سنتان، هما عمر الأمل.

بعد ذلك ظهر وجه آخر للجنرال المنقلب، حين انقلب مرّة أخرى على وعود التّسوية والشراكة ووضع اليد في اليد مع جميع الجهات، لبناء مستقبل البلاد! انحسر الأمل حين مرّت موجة اعتقالات ثانية سنة ١٩٨٩، لتحصدك فيمن حصدت. أقمت في حبسك ثلاثة أشهر هذه المرّة، بينما بلغتك أنباء هروب بعض القادة إلى الجزائر. كانت تفاصيل الكابوس الأسود تتكرّر من جديد. فكّرت حينها أنّها ضريبة لا بدّ أن تُدفع لآخر مليم قبل أن يستتبّ الأمن ويعمّ الاستقرار، فقبلت بالتّضحية عن طيب خاطر. كان لا بدّ من تخطّي عقبة الانتخابات

التشريعية الحرّة الأولى من نوعها، والتي ستعطي الشرعيّة لمن يختاره الشعب حقّا، بعد دهور من الرّئاسة المحتكرة والزّعامة المزيّفة.

وكثيرا ما جلست تراجع النفس، تموج في ثنايا عقلك أسئلة كثيرة.

هل تراك تتشبث بأوهام؟

أم أنها ضريبة الثبات؛ لا بد أن يدفعها أهل الحقّ في كل مكان؟

هل تستحق الثّمرة كلّ هذه التّضحيات؟

وهل تراك تقطفها يوما ناضجة شهيّة، تلك الثمرة؟

أم أنها أرض السّراب؟

كنت تغيب -في حديث النفس هذا- حتّى وأنت تجتمع برفقاء الدّرب، في بعض الأمسيات الصيفية، في خلوتكم على الشاطئ، وفي الهزيع الأخير من الليل، والقمر بدر كقرص من الفضة، يتهادى انعكاس ضوئه على وجه البحر أمامكم.. حتّى يقاطعك أحدهم في حماس:

- أنشدنا يا مالك!

وسرعان ما يؤيّده آخرون، فتبتسم في رضا وتنشئ تصدح بصوتك العذب، منفّسا عمّا يجيش في صدرك من لوعة، وهم يردّدون من بعدك:

يا رسول الله هل يرضيك أنّا

إخوة في الله للإسلام قمنا

ننفض اليوم غبار النّوم عنا

لا نهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله في ساح الفداء

ثم جاء الاعتقال الثالث سنة ١٩٩١ ليصيبك بضربة قاصمة. ثلاث سنوات كانت المدّة التي قضيتها سجينا بعد أن ترشّحت للانتخابات التشريعيّة ضمن قائمة مستقلّة. كان لا بدّ أن تفعل شيئا، حتّى وأنت تتأخر عن ركب زملائك من الخرّيجين وتضيّع سنة أخرى في كليّة الطبّ. كنت تؤمن أن شخصا مثلك قادر على إحداث تغيير إذا ما وصل إلى مجلس النوّاب. لكنّ آمالك تبخّرت، حين طورد المرشّحون المحسوبون على التيّار الإسلامي، وامتلأت بهم السّجون. لقد تجرّؤوا على المجاهرة بأحلام غير مشروعة! فما كان من السّلطة إلا أن أخرجت شريط إثارة رديء النّوعيّة، عن محاولة اغتيال الرّئيس، لتحصد رؤوس المعارضة مرّة واحدة، وتكبّل أقدام القواعد الحركيّة التي قد تواصل منها النّضال السّياسي.

وبينما كنت خلف القضبان، بلغك نبأ تنفيذ حكم بالإعدام على المتّهمين في «قضيّة باب سويقة». شباب في عمر الزّهور، اتّهموا بإضرام النيران في مقرّ لحزب التجمّع الحاكم في باب سويقة، فراح حارس المبنى ضحيّة الفعلة. كانت العبثيّة التي تلفّ عالمك تهزّك من الدّاخل. كان ثباتك يُختبر، وقوّة عزيمتك تمرّ بأزمة وجود. بعد سبع سنوات من بدء نشاطك في ساحة الجامعة، كمستقلّ ثوريّ الفكر والعاطفة، انتهت رحلتك الشّبابيّة الطائشة، ليشيب قلبك موؤود الأحلام.

خلال فترات اعتقالك الثلاث، قاومت الملل والإحباط في السّجن بتدوين دروسك على علب السّجائر التي لم تدخّنها يوما، ومغلّفات قوارير المشروبات. تفكّ صمغها برفق وترفعها عن القارورة البلاستيك. ثمّ تمضي السّاعات تعتصر الذّاكرة وتكتب بخطّ دقيق كلّ ما تستحضره عن المناعة وعلم البكتيريا والتشريح. يطلق سراحك فتتحفّز للاختبارات، ثمّ لا تلبث أن تعاود الكرّة.

لكنّك على الأقلّ استثمرت معرفتك الطبيّة في خدمة المساجين. كان جيران زنزانتك مثلك، ممّن يسمّون «سجناء الرأي». لم يرتكب أحدكم شيئا ممّا يجرّمه القانون، لكنّ أفكاركم وآراءكم لا تناسب الدّولة والقائمين عليها. لذلك فإنّ معاملة السّجانين لكم كانت تتراوح بين الخشية والقسوة. يخشون عقولكم التي رفضت العبوديّة وتمرّدت على النّظام وقلوبكم الثابتة التي لم يردعها التعذيب الوحشيّ المستمرّ.. لكنّهم لا يتورّعون عن ممارسة القسوة في كلّ سياق، انتقاما لنفوسهم الخانعة الذليلة. لذلك كانوا يحرمونكم من حقّكم البديهيّ بعلاج جراحكم بعد كل «حفلة» تعذيب. فكنت أنت طبيب الزنزانة الرّسميّ، وكلّ ما بحوزتك أدوات مرتجلة ممّا يتوفّر بحوزة المساجين، وزاد طالب في السّنة الرابعة من العلوم الطبيّة.

حين غادرت السّجن تلك المرّة، لم يسمح لك بالتّسجيل في الجامعة من جديد. كنت قد انقطعت لوقت طويل، فسقط عنك حقّك في التعليم! حُرمت من دخول الجامعات التونسيّة، وبقيت طبيبا إلا ثلث!

تذكر الآن تلك الفترة بمزيج من الألم والحقد. ما جدوى نضالك السّياسيّ وقد نُفي القادة وهُجّروا إلى أوروبا وخلّفوا أمثالك من الشّباب المندفع حطاما؟ لا أنت حقّقت الحريّة التي من أجلها دفعت سنوات شبابك، ولا أنت نجحت في مشوارك التعليميّ وأصبحت طبيبا. لا تزال هزيمة انتخابات ١٩٨٩ مرّة في حلقك، بطعم الخبز الكالح الذي يقدّمونه في الحبس.

-٢-

لـم تكـن ابـن المدينـة الصّاخبـة، وإقامتـك في العاصمـة بعـد أن ترعرعـت طفـلا في قريتـك الوادعـة عـلى ضفـاف وادي «مجـردة»، أمـرا مسـتجدّا لـم تألفـه آنفـا، إلّا لفـترة وجـيزة قبـل رحيلكـم إلى الجزيـرة العربيّـة.

ولـدت عـام ١٩٦٦ في قريـة صغـيرة في ريـف «تسـتور»، العـروس الأندلسيّة العريقـة، عـلى مبعـدة ساعة وثلـث مـن العاصمـة. كانـت دُور القريـة كمـا عرفتهـا دائمـا، صغـيرة متفرّقـة متباعـدة، مبنيّـة بالحجـارة في معظمهـا، تلمـح عـن بعـد قبابهـا البيضـاء المنخفضـة الـتي تنبئـك حالمـا تـنزل في المحطـة أنّـك قـد وصلـت. ولـم تكـن عينـك تخطـئ، وأنـت عـلى بعـد مئـات الأمتـار بعـد، مبـنى «فيـلا» جـدّك الشّـامخة، المرتفعـة عـن كلّ مـا عداهـا، تتوسّـط مسـاحات شاسـعة مـن الأراضي الزّراعيّـة وغابـات الزّيتـون وأشـجار الخـوخ والمشـمش واللّـوز والبرقـوق.

ولـم يكـن مـن العجـب، وأنـت سـليل عائلـة عريقـة النسـب شـديدة الغـنى، أن يكـون مسـكن العائلـة مبنيّـا بالآجـر الأحمـر عـلى الطّريقـة العصريّـة لمسـاكن العاصمـة. تطـلّ شرفـات الفيـلا عـلى الجهـات الأربـع، لتـشرف عـلى ممتلـكات جـدّك متراميـة الأطـراف، وعـلى الجبـال البعيـدة المكلّلـةُ بالثلـوج شـتاءً، المكسـوّة بالخـضرة بـاقي فصـول السّـنة. ولـئن بقيـت القريـة طويـلا محرومـة مـن الكهربـاء والمـاء الصّالـح للـشراب، فقـد حظـي مسـكن عائلتـك بالإنـارة في وقـت مبكّـر، ومـدّت إليـه أنابيـب المـاء قبـل الجميـع! وكثـيرا مـا مـلأك الزهـو طفـلا، وأنـت ترقـب عـودة الجـرّارات سـاحبة صهاريـج المـاء المعبّـأة مـن روافـد الـوادي والعيـون

القريبة، لتسقي عطش باقي دور القرية، أو تراهم ينزعون بطاريات الجرّارات نفسها لتشغيل أجهزة التلفاز الصّغيرة مساءً.

آمنت مبكّرا وأنت الفتى الغرّ السّاذج أنّ الغنى والنفوذ إذا اجتمعا، كانا مفتاحا لكلّ الأبواب المغلقة.

تبدو ذكريات تلك الفترة القديمة بعيدة شاحبة، لكنّك تحتفظ منها بطعم الاعتزاز والاستعلاء. ألم تكن كريم المحتد، طيّب النّسب والعرق، ابن أسرة ضاربة الجذور في السّلطة والنّفوذ؟ أينما يمّمت وجهك في ربوع قريتك الصّغيرة وما جاورها من القرى في جهة «تستور»، كان يكفي أن تذكر اسم جدّك أو أبيك ليغدق عليك من التّرحاب والتّوقير ما لا يتناسب وسنّك الصّغيرة. وحيث كنت في روحاتك وجيئاتك مصحوبا بخالك عمّار غالب الوقت، فلم يكن أحد يحتاج إلى سؤالك من تكون، بل تمتلئ جيوبك بقطع الحلوى والأوراق النّقديّة من حيث لا تحتسب.

كانت عائلة أمّك كذلك ذات نسب كريم يكاد يكون مكافئا لمنزلة عائلة أبيك، لكنّها عرفت برجال العلم أكثر من الجاه. فبينما كان جدّك لأبيك وأعمامك من بعده ذوي مناصب حكوميّة، أو مسؤولين في الجيش والشّرطة، فقد كان جدّك الأوّل لأمّك طبيبا شرعيّا، درس الطبّ في فرنسا، وأولاده وأحفاده مهندسو بناء وزراعة، أرسلهم إلى تركيا وروسيا وإنجلترا ليعودوا محمّلين بشهادات ترفع الرّأس وتزيد من شأن العائلة.

حين رجعت بعد اغتراب دام عشر سنوات في المملكة السعودية، وزرت بيت جدّك القديم، وجلست تحت ظلال الشجر الوارفة، وتنسّمت عبير زهور النّارنج الفوّاحة، أحسست برقّة عجيبة تغمرك. أدركت في عجب أنّ الغلظة التي ظننتها فيك أصيلة، والقسوة الظاهرة

التي تغلّف سلوكك، لم تكن إلّا قشرة هشّة أورثتك إيّاها سنوات عجاف من العيش في صحراء قاحلة، لا لون يداخلها إلّا صفار الرّمل والصّخر، ولا تستنشق في هوائها غير الغبار، ولا إحساس إلا بشواظ الشّمس الحارقة معظم فصول السّنة. تبدّد انطباعك الزّائف عن نفسك وقلبك خلال أسابيع قليلة من عودتك إلى وطنك، واكتشفت في نفسك تذوّقا استثنائيّا لآيات الجمال.

كانت الشّقة الفاخرة التي استأجرتها في ضاحية «المرسى» غير بعيدة عن البحر. وكان من العادات المستجدّة التي اكتسبتها بعد رجوعك، الجلوس لساعات طويلة قبالة البحر. تعلّقت سريعا بأشكال الجمال التي كنت غافلا عنها لسنوات مديدة.. جمال الشّواطئ وعذوبة نسيمها العليل. لقد ذهبت إلى الشواطئ من قبل.. شواطئ جدّة والخُبَر. لكن شتّان بينها وبين الشّواطئ التّونسيّة!

كنت تمكث سارحا، قرب مرفأ «سيدي بوسعيد»، متأمّلا الكائن الخرافيّ، ذي درجات الأزرق والأخضر المدهشة، الممتدّ إلى الأفق!

وجدت ملاذا في مقهى صغير مطلّ على البحر مباشرة. لم تكن تدرك أين سينتهي بك المطاف وأنت تنزل درجات السلّم الحجري المؤدّي إلى الشّوارع الخلفيّة الضيّقة التي لا يسلكها إلّا العارفون بالمكان. ولم تكن لتصبح من ضمنهم إلّا بعد هيمانك الطّويل بين الطّرقات بلا هدى. لم تكن واجهة المقهى العاديّة لتشفّ عمّا يخبّئه جانبه الآخر. لكنّ موقعه المتفرّد البعيد عن الزّحام والضّوضاء أغراك بالتّجربة، لتتعرّف عمّا سيصبح فيما بعد معتكفك الخاصّ والدّائم. انزواؤه عن الشّوارع السّياحيّة العامرة بالزوّار يوفّر خصوصيّة استثنائيّة تجعل منه المأوى المثالي للعشّاق الباحثين عن خلوة! لذلك فقد كان جلوسك بالسّاعات إلى طاولة منفردة، ناظرا إلى الأفق، أمرا مستغربا سريعا ما استرعى انتباه موظّفي المكان. شابّ وسيم تظهر

على هيئته علامات الثراء، ولا يصطحب معه أحدا كما يفعل أقرانه، هل هناك أدعى من هذا للاستغراب؟ ولم يكن يضاهي شكلك غرابة إلّا رجل أشيب يرتدي حلّة رسميّة كاملة، وربطة عنق، يضع على عينيه نظارات شمسيّة طيلة الوقت، ويطلب فناجين القهوة واحدا إثر الآخر، فيحتسيها ببطء ونظراته تتردّد بين الماء، وبين منديل حريريّ تعبث به أنامله. كنتما أنتما الاثنان زبائن المقهى الدّائمين.

كان مكانك المفضّل على الشّرفة المكشوفة، قواعدها الضخمة تنبت من الماء وكأنّها جذوع أشجار خراسنيّة، لحاؤها طحالب وفطريّات لزجة خضراء. وقد كان من الطّريف أن يشرع موظّفو المكان في معاملتك باحترام غريب، بعد أسبوع واحد من ارتيادك المتكرّر للمقهى. لاحظت في مزيج من الاستغراب والرّضا أنّ النّادل يترقّب قدومك في نفس موعدك اليوميّ، فيستقبلك عند المدخل ويقودك بحفاوة إلى مقعدك المفضّل عند الشّرفة. ثمّ راودتك الرّيبة والحرج حين أصبح يرفض أخذ الحساب على المشروبات التي تحتسيها ببطء طيلة جلستك المطوّلة! وكنت تصرّ في عجب على الدّفع، وينحني النّادل بدوره ملحّا على ألّا تفعل! فإذا طالت المساومة واستمرّ الإلحاح من الجانبين، أردف النّادل بخضوع وهو يتناول منك الورقة النّقديّة:

- ما تراه مناسبا يا سيّدي!

خالجك شكّ ذات مرّة بأن يكون صاحب المقهى على معرفة ببعض أعمامك أو أخوالك. لكنّه بقي مجرّد شكّ لم يبلغ مرتبة التّأكيد. ولم يكن الغموض لينجلي عن المسألة، إلّا بعد أن توطّدت العلاقة بينك وبين نادل شابّ لم يبلغ العشرين، كنت تمازحه مثل أخ أصغر من حين إلى آخر وتغدق عليه البقشيش رغم تمنّعه الغريب. تجرّأ ذات يوم وسألك بشيء من الرّهبة:

- ما هو عملك يا سيّدي؟

أجبت ببراءة:

- أنا طالب في كلّيّة الطبّ.

فردّ في صدمة وارتياب لم تخطئهما عينك:

- فقط؟!

قلت بنفس البراءة والعجب:

- هل من المفترض أن أكون شيئا آخر؟!

- إذن لست من المباحث؟!

بينما ظهرت على وجهك علامات الدّهشة مردفة برغبة عارمة في الضّحك، كتمتها بصعوبة، تراجع الولد وولّى راكضا، ليبلّغ بقيّة زملائه بالاكتشاف. سيطر عليك الذّهول لبرهة، وقد اكتشفت سرّ المعاملة فوق العاديّة التي حظيت بها خلال الأسابيع الماضية! أسرعت تلملم أشياءك المنشورة على المنضدة، واندفعت لا تلوي على شيء. حين بلغت المرفأ لاهثا، ألقيت بنفسك على أحد المقاعد الخشبيّة، وانتابتك موجة ضحك هستيري!

انقطع حضورك لأيّام ريثما واتتك الشّجاعة لتواجه النّادل من جديد. وقد سرّك أن تُستقبل بابتسامة متواطئة هذه المرّة، بدل الاحترام الزّائف المشوب بالرّهبة. وسريعا ما تباسطت مع كلّ العاملينْ الذين كانوا يخشون حضورك قديما، لتصبح بالنّسبة إليهم «الدّكتور»، فقط بدون اسم. لكنّهم عرفوا عنك أيضا عشقك للهدوء والسّكينة، فلم يكن أحدهم ليقاطع خلوتك مع البحر ما لم ترفع كفّك طالبا خدمتهم.

هل تدري ما سرّ ولعك بالبحر؟

كنت تجد الرّاحة على حافّته. تلقي بهمومك بين أذرعه المفتوحة على مصاريعها، وتستقبل موجاته الهادرة أو الحانية، لتجرف معها آهاتك وأوجاعك وكلّ ما يثقل الرّوح والعقل والضمير. لا أحد يعلم كم من الآلام يحتضن ذلك الكيان الهائل المشبع بالأسرار، وكم ينطوي ظاهره وباطنه على خبايا ألقيت إلى جوفه منذ آلاف السّنين! كنت تبثّه شجونك العميقة، بلا كلمات.. وكان عقلك يمور بين يديه بحوارات لا تنقطع.. وكان وحده يسمعك، يعي ما تهمس به، ويخفّف عنك. وكنت تغادر شاطئه. وقد أورثك من سكينته وحكمته الكثير. وكأنّما كنت تتلقّى الموعظة على يدي معلّم خبير.

احتفظت بعادتك الغريبة تلك لنفسك، حتّى لا يقتحم الفضوليّون عالمك، وحتّى لا تشوّه كثرة الزّوّار سكينة معتزلك. وحين كنت تستأذن من رفاقك في اتّحاد الطلّاب، أو من زملائك في المحاضرات لتنفرد بنفسك والبحر، كانت تتواثب التعليقات المازحة واللّامزة على ألسنتهم، عن سرّ اختفائك الغامض. وقد احتفظت بالسرّ لنفسك أبدا، حتّى قال أحد الظّرفاء يوما:

- أتمنّى أن أفهم أين تختفي كلّ مرّة؟ أتراك قد تزوّجت ونحن لا ندري؟!

وراق لك ما افترضه مازحا، فاعتمدته حجّة لهروبك، كلّما رغبت في الانسحاب داخل قوقعتك، فلم تكن تتوانى أن تلقي على مسامعهم وأنت تغادر الجلسة، بلهجة ذات معنى:

- أترككم الآن يا معشر العزّاب.. فأنا رجل متزوّج وعليّ واجبات!

فتلاحقك الضحكات والنّكات من البعض، ونظرات الغيظ والحسد من البعض الآخر!

وذات عصر يوم ربيعيّ، كنت شاردا ببصرك بعيدا، تتلقّى باحتفاء

خيـوط الشـمس الأخـيرة، وقـد آذنـت بقـرب المغيـب. كنـت في تأمـل عميـق كعادتـك، تصغـي إلى هديـر المـوج الـذي يتحطّـم في صخـب عنـد قدميـك، يقاطعـه صـوت أغنيـة يـأتي خافتـا مـن المقهـى. انتبهـت إلى كلماتهـا، بعـد أن سرى اللّحـن الشـجيّ في ثنايـا عقلـك. أنـت تعـرف جيّـدا تلـك القصيـدة.

لا تشغل البال بماضي الزمان　　ولا بآت العيش قبل الأوان

واغنـم من الحـــاضر لذاته　　فليس في طبع الليالي الأمان

ابتسـمت في سـخرية وأنـت تسـتمع إلى رباعيّـات الخيّـام. يـا لهـا مـن حالـة بائسـة رخيصـة، أن يعيـش الإنسـان لحظتـه فقـط! وهـل يعقـل أن تقطـع ذاتـك عـن جـذورك ومجـد أمتـك وتاريـخ أسـلافك؟ ولا تحلـم بمسـتقبل الأجيـال القادمـة مـن بعـدك؟ لا يمكـن لعاقـل أن يحتمـل العيـش منبتـا عـن ماضيـه، منفصـلا عـن مسـتقبله!

لا توحش النفس بخوف الظنون　　واغنم من الحاضر أمن اليقين

فقد تساوى في الثرى راحــــل　　غدا، وماض من ألوف السنين

أشـفقت عـلى الشّـاعر الشـقي الـذي يعيـش حالـة تيـه وضيـاع لا شـكّ. لكـنّ الأسـئلة تولّـدت في ذهنـك، ورحـت غصبـا عنـك تتأمّـل في كلماتـه باهتمـام. شـعرت فجـأة بـأنّ الكلمـات منطقيّـة نوعـا مـا. أليـس كلّ النّـاس إلى فنـاء، في نهايـة الأمـر؟

لبست ثوب العيش لم أستشر　　وحـرت فيه بين شتى الفـــكر

وسوف أنضــو الثوب عني ولم　　أدرك لماذا جئت؟ أين المفر؟

حـين وصلـت إلى هـذا الحـدّ، رحـت تسـتعيذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم. مـا هـذه الشـكوك؟ أنـت تعـرف لمـاذا جئـت، إيمانـك راسـخ كالجبـال الـرّواسي، ولا تعـرف تلـك الحـيرة الـتي لا تصيـب إلا أهـل النّفـوس الضعيفـة! قلـت لنفسـك في ثبـات، ورحـت تلملـم أشـياءك

لتمضي من المكان. كانت خطواتك في الخروج متسارعة كأنّك تفرّ من ساحة معركة!

وأنت تهرول فرارا من المقهى والأغنية والأفكار الدّخيلة التي أخذت تسيطر على وعيك، تساءلت في ريبة.. لماذا؟ هل هزّت الكلمات أعماقك؟ هل كانت حجرا ألقي في بحيرة ساكنة هادئة.. فنشر موجات من الشكوك؟

لم تكن تشقيك في ذلك الوقت أسئلة وجوديّة، ولم يكن عقلك قد تمرّد على شيء بعد، لا من المقدّس الموروث ولا من أحداث الحياة السّياسيّة الصّاخبة، لكنّها كانت البداية لكلّ ما تلاها. وحدتك المزمنة وخلواتك الطّويلة بنفسك، دونما شاغل يشغلك، لا هي ذكر وتسبيح ولا عبادة وتأمّل.. قد تكون الخلوة الطّويلة علاجا روحيّا بالنّسبة لآخرين، لكنّها بالنّسبة إليك قد ولّدت عادة خطرة.. «الإكثار من التّفكير»، ما قادك بعد ذلك إلى جحيم مقيم.

-٣-

وإلى جانب البحر، كانت هناك القرية. كان بداخلك حنين جارف على الدّوام يشدّك إلى القرية. فما إن تلوح فرصة إجازة ولو لأيّام قليلة، أو حتّى في نهايات الأسبوع العاديّة، وأحيانا بلا سبب أو مناسبة،إلا تترك أشغالك وكليّتك ومواعيدك، وتهرع إلى محطّة سيّارات الأجرة بـ«باب سعدون» وتمضي إلى ملاذك الثّاني.

في الثّمانينيات، كانت قريتك لا تزال تحتفظ بسحر ورونق ما يسمّى «قرية». خضرة يانعة على مدّ البصر، وحدائق غنّاء تخلب الألباب، وكتل سكنيّة محدودة. ما إن تلفظك سيّارة الأجرة على الطّريق الرّئيسيّة، حتّى تستنشق عبير القرية الذي تستجيب له جيوبك الأنفيّة بشكل خاصّ. هو مزيج من رائحة التّراب والطّين، وعبق الزّهر والعشب وروْح النّهر. نعم، لم يكن ذلك وهما. كنت مثل الطير تجد للماء رائحة تميّزها على بعد كيلومترات!

وبعد أن أقمت عقدا في صحراء الجزيرة العربيّة، عدت غريبا إلى قريتك، لا يكاد يميّز سكّانها فيك «مالكا» الفتى القديم، الصبيّ ذا السّنوات العشر، في آخر زيارة لك. كنت تسير على الطّريق غير الممهّدة، فتقابلك الدّور بأبوابها المشرعة. فقد كان إغلاق الباب في ذلك الزّمان علامة شحّ وانعدام مروءة! تفتح البوّابات الخشبيّة على مصاريعها من بعد صلاة الفجر من كلّ يوم، وتظلّ نسوة الدّور يرحن ويجئن ويقضين شؤون بيوتهنّ بمرأى ومسمع من المارّة والضّيوف المحتملين.

وكانت العيون تتابعك في عبورك مشيا إلى فيلا العائلة، وترقبك

الكلاب وتتمطّى، ثمّ تهمّ نابحة وقد استفزّها مرور الغريب الذي يتخطّى حدوده. كنت غريبا، والكلاب نفسها تدرك غربتك! غريبا بهيئتك ولهجتك، وعطرك الباريسيّ الذي تغدق منه على ياقتك وكلّ قطع ثيابك، وحتّى بلحيتك الكثيفة وشعرك المسترسل على كتفيك!

ولم يكن غريبا أن يقطع طريقك عجوز مسنّ يضع برنسا صوفيّا على كتفيه، فيهتف بك في غلظة:

- ابن من أنت؟

وما أن تفصح عن نسبك، حتّى ينقلب العبوس بشرا، وتجد نفسك مدعوّا إلى مائدة إفطار، عليها عسل وسمن، وبيض «عربي» وخبز «طابونة» ساخن.

كنت مصحوبا بهيبة اسمك ومكانة عائلتك أينما حللت. ومع تكرار الزّيارة، وجدت لك مكانًا في قلوب أهل القرية، فتعوّدوا على لكنتك وتقبّلوا هيئتك، وحظيت منهم بالاحترام والتّبجيل.

كان منزل جدّك، على بهائه وضخامته، فارغا! إلّا من حارس، تقوم زوجته بأمر أهل البيت إذا ما حلّوا زوّارا. فقد تفرّق ذووك في أرض الله الواسعة، ولم يتسلّم أحدهم مشعل الزّراعة عن جدّك رحمه الله. كانت شركة خاصّة، في تلك الآونة، تستثمر الأرض الزّراعيّة الممتدّة على ملك العائلة، وتدفع إيجارا لعمّك الأكبر القائم بشأن ميراث جدّك، ما عدا المزرعة المحيطة بالفيلا التي بقيت تحت رعاية الحارس وزمرة من العمّال الموسميّين تحت إمرته.

وكانت لك شرفة أخرى، في ملاذك الثّاني، يحلو لك فيها الجلوس المستمرّ، منذ الفجر وحتّى تطلع الشّمس من مشرقها، ومنذ العصر وحتّى تؤذن الشّمس بالمغيب وراء الجبال. شرفتك تلك تقبع في الباحة الخلفيّة للدّار، تظلّلها سقيفة خشبيّة، تعانقها سوق شجيرات الورد

الـتي تنمـو عنـد قواعدهـا.. فتنـشر في الفضـاء رائحـة سـاحرة، وآه مـن الرّوائـح الـتي تظلّـل ذكرياتـك! ولـم يكـن يؤنسـك في سـاعات السّـحر، إلّا شقشـقة العصافـير المبكّـرة، وهـي تـترك أعشاشـها وتنطلـق مسـبّحة.. ثـمّ وهـي تعـود إليهـا زرافـات ووحدانـا سـاعة الغسـق، وكأنّ تسـبيحها لـم ينقطـع.

في صبيحـة ذلـك اليـوم الهـادئ، أديـت صـلاة الفجـر في مسـجدك المحبّـب، وتلـوت أذكار الصبـاح كمـا تعـوّدت منـذ نعومـة أظفـارك، ثـمّ عـدت وحيـدا إلى مـنزل جـدّك. أعـددت كوبـا مـن القهـوة التركيـة -الـتي كان يحلـو لـك ارتشـافها كل صبـاح حـتى أدمنتهـا- وهممـت بالصّعـود إلى غرفتـك. كان ذلـك طقسـك اليومـيّ المفضـل مـا دمـت في قريتـك الوادعـة، تجلـس في شرفـة غرفتـك تراقـب تصاعـد بخـار القهـوة الحـارّ ليلامـس بـرودة صبـاح ربيعـي غائـم، وأنـت تطالـع كتابـا. كانـت متعـة رائحتهـا الثقيلـة، تسـبق متعـة طعمهـا السـخيّ، وأفـرع أشـجار حديقـة المـنزل الخلفيـة، الـتي تطـل شرفـة غرفتـك عليهـا مـن الطابـق الثـاني، تتمايـل وكأنهـا ترغـب في مصافحتـك، تـكاد تلامسـها يـداك.

عرّجـت عـلى المكتبـة في طريـق صعـودك، لتنتقـي كتابـا. وقـد كانـت المكتبـة أثمـن مـا في المـنزل العامـر مـن كنـوز. فقـد حـرص والـدك عـلى أن يقتـني عـبر عـشرات السـنوات آلاف الكتـب، مـن شـتى صنـوف المعـارف. فاكتسـت جدرانهـا الثلاثـة رفوفـا خشـبية متينـة امتـلأت عـن آخرهـا بالكتـب المتزاحمـة. أمّـا الضّلـع الرابـع مـن الغرفـة فقـد كان يشـغله مكتـب أنيـق مـن خشـب الـزان.

اتجهـت نحـو رفّ يضـمّ كتبـا أدبيـة، ودواويـن لأشـهر شـعراء العـرب، واسـتقرّت عينـاك -دون قصـد- عـلى ديـوان يضـمّ أشـعار الفيلسـوف أبـو العـلاء المعـري «رهـين المحبسـين»، ذلـك أنّـه كان رهـين العمـى ورهـين بيتـه لا يـكاد يغـادره.

ارتجفت. لم تلبث أن تناسيت أبيات الخيام المربكة لأفكارك، والعابثة بصفاء نفسك في الأسابيع المنصرمة، حتّى يظهر في طريقك اسم آخر يشوّش عليك هدوء عقلك! أنت لا تجهل أبا العلاء المعري، وموقفه الرافض لوجوده في الحياة، وأنّ فكرة توريط نفس أخرى بالوجود بسببه جناية عظيمة، فقال بيته الشهير:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

لكنّك كنت دائما تتجنّب قراءة شعره، لأنك تأثرت مبكرا برأي أهل الحديث فيه، وأنه كان ربوبيا يؤمن بالإله، وينتقد الأديان والشرائع، ووصمه بعضهم بالزندقة! لكنّ مزاجك يتوق إلى بعض الفلسفة، في هذا الصباح الرّائق، ذي الجوّ الضبابيّ البارد.

صعدت الدّرج متأبطا الديوان، وبيدك قهوتك الشهية حارة طازجة. جلست في استرخاء في شرفة غرفتك في هدوء مطبق، إلا من حفيف أوراق الأشجار تميل بها النسائم المنعشة، والطير يستقبل نور الصباح صادحا بالنغم. وفي جوّ من السّكينة العذبة، رحت ترتشف قهوتك، وتقرأ:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعْتِقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قِيسَ بِصَوْتِ البَشيرِ في كلّ نادِ

...

ضَجْعَةُ المَوْتِ رَقْدَةٌ يُستريحُ الجِسْمُ فيها والعَيشُ مِثلُ السّهادِ

رحت تقول لنفسك، هذا رجل ساخط تستوي عنده الحياة والموت، السّعادة والشقاء! إنّه يعتقد أنّ في الموت راحة من مصائب الدّنيا، وينسى أنّ بعد الموت حسابا يترقّبه. أم تراها حياته كانت عصيّة بلا لحظة هناء فهانت مقارنة بها أهوال الآخرة في نظره القاصر؟ هل يا ترى ستحصّل أنت من الحياة غير ما حصّل أبو

العلاء؟ ألن توقظك خيبات الأمل، وكذب الرجاء، وظلمة اليأس، وحرقة القنوط، من زيف الأماني وخداع الأحلام، ووهم السعادة، وحتى من بهجة الحب؟

لكنّك كنت مفعما بالتّفاؤل في تلك المرحلة، منتشيا بالشّباب والأمل. لا يمكنك أن تستوعب ما يدّعيه من ظلم الحياة!

يَرتَجي الناسُ أَن يَقومَ إِمامٌ	ناطِقٌ في الكَتيبَةِ الخَرساءِ
كَذَبَ الظَنُّ لا إِمامَ سِوى ال	عَقلِ مُشيرًا في صُبحِهِ وَالمَساءِ
فَإِذا ما أَطَعتَهُ جَلَبَ ال	رَحمَةَ عِندَ المَسيرِ وَالإِرساءِ
إِنَّما هَذِهِ المَذاهِبُ أَسبا	بٌ لِجَذبِ الدُنيا إِلى الرُؤَساءِ

لا إمام سوى العقل؟ فهل تكون النبوّات والشرائع في نظره سوى أباطيل؟ هززت رأسك في استياء. لقد أسرف في الإيمان بعقله فشقي به، وأسلمه إلى اليأس والجزع، ولم يظفر بشيء سوى العذاب. برمت بهذا الفيلسوف البائس، وضقت ذرعا بشعره. لقد اكتفيت! أغلقت الكتاب في ضيق لا تدري مصدره. رفعت رأسك إلى السّماء.. فألفيتها قد اكفهرت وتلبّدت بالغيوم! تجمّعت سحب سوداء كثيفة، كأنما تعكس ما جثم على صدرك من همّ. أغمضت عينيك، وقد شرعت قطرات خفيفة من المطر تتساقط، أنبأك بها وقعها على ورق الأشجار الكثيفة من حولك، وملمسها الندي على بشرة وجهك المتطلع نحو السماء.. كأنه يلتمس منها ما يطمئن روحك القلقة.

رحت تتلو في خشوع، مغمضا عينيك في ابتهال:

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ).

-٤-

أمّا ملاذك الثّالث، فهو المسجد.

وقد كان مسجد القرية الوحيد، مسجد عائلتك أيضا! هو مسجد موروث عبر الأجيال، بناه الأسلاف على مقام وليّ من أولياء الله، هو جدّكم الأكبر، وبقيت مفاتيحه بيد أهلك يتوارثونه أبا عند جدّ، كأنّما هي مفاتيح الكعبة! كان مسجدكم الأقدم والأجمل كذلك في كلّ المنطقة، ترتفع جدرانه الحجريّة السّميكة خمسة عشر مترا عن الأرض. وكان ما يميّزه، إلى جانب ضخامته وهيمنته على الهضبة الّتي أقيم عليها، طابعه الأندلسيّ الأصيل الذي ينضح كلّ ركن فيه بتاريخ ممتدّ من العراقة، وقبّته الهائلة الّتي تعدّ تحفة معماريّة بحدّ ذاتها. وكنت تطيل الجلسة فيه، منتظرا الصّلاة، وبعد الصّلاة، وتغرق في أفكارك، تحيط بك السّكينة، حتّى يهيأ للنّاظر إليك في تحليقك الرّوحاني العميق أنّك تنتظر وحيا سيهبط لا محالة!

وكان أهل القرية ينسبون لصاحب المقام الكرامات والمعجزات، ويشتطّون في سردها، فتهتف بالإمام ما إن تنفرد به:

- يا مولانا، ألا ترى أنّ علينا منع الزّيارة عن المقام؟ هذا شرك!

فيبتسم ويقول مترفّقا:

- نحن نشرح للنّاس كلّ فترة وفترة في خطبة الجمعة، ونذّكرهم ببشريّة صاحب المقام، ونعظهم في التوحيد.. لكنّ النّاس يحبّون تناقل الحكايات والكرامات، وليس في ذلك شيء طالما اقتصر الأمر على الحكي!

- وماذا عن الذّبائح والعطايا؟

- النّاس يتصدّقون باللحم والطّعام في مناسباتهم، ويقصدوننا لتوزيعها على المحتاجين.. فننصحهم بإخلاص النّيّة لله، فهل علينا غير ذلك؟

تنسحب في غير اقتناع، تغالب نزعتك لتقويم سلوك العامّة المنحرف. لكنّ نظراتك كانت تتّسلّل دون وعي منك، في لحظات خلوتك، إلى النّافذة الوحيدة المشرفة على المقام من داخل المسجد. كنت تجد في نفسك سكينة غريبة وأنت تقبض بكفّيك على الأعمدة المعدنيّة للشبّاك، وتقف متأمّلا الكيان الخشبيّ المزخرف المحيط بالقبر المرتفع مترين تقريبا عن الأرض. تقف هناك، ما لا تحصي من الوقت، لتجد الدّمع يجري على وجنتيك بلا شعور منك، وكأنّك تشتكي عذابات قلبك لصاحب المقام! لقد كنت موجوعا منذ ذلك الوقت، وقد كنت شقيّا بفؤادك طيلة الوقت، وحزنك القديم يشقي روحك فلا تجد له شفاءً. وكنت تخشى أشدّ ما تخشى أن يضبطك أحد الأهالي متلبّسا، وأنت تقول ما لا تفعل، ولا تنتهي عما تنهى عنه!

في تلك السّويعات التي تنزوي خلالها عن أهل القرية، كنت كثيرا ما تتفكّر في أمرهم. يدهشك أشدّ ما يدهشك، الصّفاء النّفسي الذي يرفلون في نعيمه! هؤلاء النّاس ببساطتهم وضنك عيشهم -كما تحسب- كانوا أسعد منك. لم يكن أحدهم قد تلقّى ما تلقيته من علم شرعيّ، ولم يبلغ أحدهم ما بلغته من الثّراء المادّيّ، ولا نسبه يضاهي عراقة نسبك. ولكنّهم يبدون، ممّا لا جدال فيه، أوفر اطمئنانا وراحة بال.. فيما أنت تصارع التّناقض داخلك باستمرار، ولا تنقطع عن التفكير المزمن.

وكانت الصّلاة الأعظم مكانة والأشد تأثيرا في نفسك في تلك المرحلة، هي صلاة الفجر. وكان أهل الفجر، أهل السّحَر، يتربّعون في

المسجد قبل الأذان بساعة أو ساعتين ربّما. فمهما بكّرت قبل الأذان، كنت تجد الإمام، الشيخ إسماعيل، هناك، كأنّما هو يقوم اللّيل كلّه، من العشاء إلى الفجر. كان شيخا طاعنا في السّنّ، على مشارف الثّمانين من عمره، وجهه الأبيض مشرب بحمرة، ولحيته الكثّة بلون الحليب الصّافي، حسن الصّوت نديّه، ونور الإيمان يشعّ من قسماته. كان شيخا زيتونيّا، من الرّعيل الأوّل ممّن حمل شعلة التعليم، فكان مدرسا لوالدك، وللأجيال التي تلت في القرية. ولم يكن في القرية كلها من يعلوه مقاما في علوم القرآن إلا الشيخ الضّرير عبد الجليل، مؤدّب القرية. لا أحد يدري تحديدا كم يبلغ الشيخ عبد الجليل من العمر، لكنّ الشيخ إسماعيل تتلمذ على يديه طفلا وحفظ القرآن في كتّابه. وجهه الأبيض مغضّن مثل قطعة فاكهة جافّة، لكنّ ماء الحيّاة لمّا يفارقها.

وكنت تدعو في نفسك فترة ما قبل الفجر «محضر الملائكة». كنت تتخيّلهم وقد تجسّدوا، في تلك السّويعة قبل أذان الفجر، والشيخ إسماعيل يتلو القرآن بصوت رخيم، وقد انطفأت أنوار المسجد كلها إلا من مصباح وحيد يتوسّط المحراب، فيلقي بظلال من السكينة.. والشيخ عبد الجليل يهزّ رأسه مع التلاوة مطرقا، وكأنّه في عالم علوي، وليس لكم منه نصيب إلّا جسده.. أمّا روحه فمحلقة تهيم في ملكوت الله.

لم يكن يرتاد المسجد في ذلك الوقت من السّحر عادة سوى نفر لا يتجاوزون الخمسة، كنت أنت سادسهم، أو ستة أنت سابعهم.. فيغمرك إحساس قويّ بأنّكم من وصفهم الله في كتابه بالـ «مصطفين الأخيار». وكنت تستشعر حضور الملائكة حقّا، (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).. ومن أصدق من الله قيلا؟

كنت ترتدي ثوبك القصير نسبيا، حفاظا على السّنة، وتضع

عطرك المحبّب، وتحتفظ في جيبك بسواكك الذي لا يفارقك.. فتشعر بروحك تطير، تسابق قدميك إلى المسجد. وحين تتجاوز العتبة، ترى بأمّ عينك المشهد الملائكي، فتخطو بهدوء مهيب إلى الدّاخل، وتنضمّ في خشوع إلى «رفقة الجنّة». عبر الظلمة الخفيفة، يتجلّى شبح الشيخ إسماعيل بجوار المنبر يسترسل في تلاوة لا تنقطع، تثير الشجون وتذيب قسوة القلب.. وهيئة الشيخ عبد الجليل مسندا ظهره لسارية المسجد، وبجواره من يقوده من أبنائه، والشيخ يهزّ رأسه -شأن الحفاظ- لأعلى وأسفل، في حالة من الوجد.

كان يطيب لك أن تحمل في جيبك على الدّوام زجاجة من المسك الأبيض، يأتيك به الأهل من الرياض في إجازاتهم.. وكنت تحبّ أن تهادي به من تبجّلهم من كبار القرية، وتخصّ الشيخ عبد الجليل بأغلاها وأطيبها رائحة. وكان أجمل ما يكون، حين تفرغ من صلاة الفجر، ويهمّ الشيخ عبد الجليل بالانصراف، فتقوم مسرعا لتعترض طريقه، فتقبّل رأسه وظاهر كفّه، فيتعرّف عليك من رائحتك المميّزة، وقد كنت تلوت عليه خلال أشهر الإجازات الصيفية، القرآن كلّه، على مدار سنوات عدّة. كنت تسلّم عليه بما يستحقّ من تكريم، ثم تخرج قارورة المسك الأبيض، لتضع قطرات على ظهر يده، فيشمّها ويمسح بها لحيته، وما يلبث وجهه أن يشرق صفاءً ونورًا، وتعلو شفتيه ابتسامة ملائكية ثم يرفع رأسه ويمدّ صوته هاتفا:

- ياروااااائح الجنة!

كنت تشعر في تلك اللّحظة، من فرط تأثّرك، وكأنّما أخذت صكّا بدخول الجنة من ذلك الرّجل الرّبّانيّ! فتغمرك السّكينة، وتفيض عيناك هياما وشوقا إلى الجنّة، وألما وحزنا على شقاء نفسك، وشعث قلبك.. وتقول بضراعة:

- ادع لي يا مولانا!

فيرفـع يديـه، وقـد تعلّـق مقبـض عصـاه برسـغه، ويلهـج لسـانه بأطيـب مـا سـمعت مـن دعـاء أب حنـون لابنـه. فيتضاعـف السّـيل مـن مقلتيـك، وينتابـك نشـيج لا تـكاد تسـيطر عليـه، يطفـئ نـارا كانـت تشـتعل في صـدرك منـذ ذلـك الوقـت.

ولم تكن تعلم يقينا، ما مصدر ذلك الألم الذي يدمي فؤادك.

منـذ البـدء، كنـت تصـارع المتناقضـات بداخلـك، وتنتهـي إلى الاستسـلام.

كنـت مجبـولا عـلى الطّهـر والنقـاء، والنّزعـة الملائكيـة! تعـذّب نفسـك عـلى الصّغائـر، وتجلـد ذاتـك طويـلا عـلى النّظـرة المحرّمـة لإحـدى الفتيـات.. ومـع ذلـك تشـعر باسـتمرار أنّـك مـا زلـت ملوّثـا بالذنـوب.

كنـت كثـيرا مـا تقـول لنفسـك، في خلواتـك الطّويلـة تلـك، عـلى حافّـة البحـر أو في شرفـة بيـت جـدّك، لـو أنّ نفـوس البـشر تسـامت عـلى متـاع الدّنيـا الفانيـة لكانـوا عنـد الله في مكانـة أعـلى مـن الملائكـة، كـون الملائكـة مفطوريـن عـلى الطاعـة، ولا تنازعهـم نفوسـهم إلى المعصيـة! لـذا، فقـد كنـت في حلبـة سـباق لا ينافسـك فيهـا بـشر، بـل ملائكـة!

كنـت تقـول في تصميـم: سـأجعل الله يباهـي بي الملائكـة.. وأثبـت للملائكـة أنهـم أخطـؤوا حـين جادلـوا وراجعـوا الله سبحانه في خلـق أبينـا آدم، ووصفـوا جنسـنا بالإفسـاد وسـفك الدمـاء!

ومـع تلـك المحـاولات شـديدة النّرجسـية في منافسـة كائنـات نقيّـة مـن الملكـوت الأعـلى، كنـت دائـم النّقمـة عـلى ضعفـك البـشري، دائـم الحـزن والحـسرة، شـديد الاحتقـار لهـوى نفسـك وشـهواتك! كنـت تشـعر بالتقـزّز مـن جسـدك ورغباتـك! وأنـت تلعـب هـذه اللعبـة الخطـرة، كان ينتابـك في أحايـين نـادرة، إحسـاس بالنّدّيـة للملائكـة.. لكـن غالبـا مـا كنـت

تعترف بالهزيمة المرّة، يتلوها تداعٍ في غياهب النّقمة على الذات، ورغبة ملحّة في التّطهّر، من أبسط الذنوب وأقلّ التّقصير.

كنت في صراع مستمرّ، بين كائن علويّ يحدوه شوق الرّوح للملأ الأعلى، وآخر سفليّ تجذبه رغبات الجسد وثقل الخطيئة. لكنّ هذا الصّراع انتقل، بعد مرحلة قصيرة من عودتك إلى تونس ودخولك عالم الجامعة، من العالم الروحي إلى العالم المادي المحسوس والملموس. كيف لا، وأنت عاشق الجمال بجميع أشكاله؟ وكيف يمكنك أن تغمض عينيك عن حسناوات الجامعة اللّواتي يتهادين من حولك؟

عشت بوادر صدمة ثقافيّة حادّة. انتقلت من بلد عربيّ إلى آخر عربيّ، لكن الفوارق المجتمعيّة والحضارية كانت صادمة. وكان ذلك التفتّح المفاجئ يرهبك ويغمرك جزعا. كان البون شاسعا بين المجتمع السّعوديّ المحافظ إلى الدّرجة القصوى، والمجتمع التونسيّ الذي تبدّى أمام عينيك غير بعيد عن المعايير الأوروبية في لباس البنات وفتنتهنّ! لم تكن تلمح فيما مضى إلّا خيال امرأة متّشحة بالسّواد، تشدّ على ردائها وتغضّ البصر. أمّا في جامعتك تلك، فالجميلات الكاسيات العاريات يتمايلن في دلال وغنج، ويواجهن النظرة بأحرّ منها. ستعرف في تلك الفترة وأنت الغرّ الساذج، قصص حبّ أحاديّة الجانب، تعشّش في ذهنك وحده، بسبب نظرة عابرة وابتسامة جريئة. وهل الذّنب ذنبك؟ وقد تربّيت على أنّ الأنثى لا تختلط ولا تضاحك ولا تخاطب الغرباء.. فإن فعلت، فهو الحبّ إذن! ستمضي شهور، تخلّفك محمّلا برصيد غير هيّن من العواطف المحبطة وقصص الحبّ الفاشلة، قبل أن تلملم شتات نفسك الحائرة وتستردّ تركيزك على ما يهمّ.

في ذلك الأوان، كان التّواصل الثّقافيّ والفكريّ في تونس مع الغرب

محدودا، ولم تكن القناة الفرنسية الثانية قد شرعت في بثها على الهوائيات التونسيّة إلا في أواخر الثمانينيات. وكانت هناك مكتبة وحيدة في شارع الحبيب بورقيبة وسط العاصمة، تعرض أمام مبناها عشرات المجلات والصّحف الأجنبيّة. ولم يكن زبائن تلك الصّحف والمجلّات إلا نفرا قليلا من مدرّسي المعاهد الثانوية الخاصّة من الأجانب، أو أبناء بعض الأسر الفرنسيّة التي استقرّت في العاصمة إبّان الاستعمار.

وكان أن تعرّفت على مقاعد كليّة الطبّ إلى زميل كانت والدته ذات أصول فرنسيّة، وكانت تعمل في سفارة بلدها بالعاصمة التّونسيّة. وقد فتح لك ذلك الزّميل نافذة لم تكن تحلم بها على الثّقافة الفرنسيّة. كانت ثقافتك حتّى لحظة عودتك إلى تونس عربيّة - إنجليزية، بحكم إقامتك الطويلة في الرّياض. ولم يكن حظّك من الفرنسيّة يتجاوز حفنة من العبارات والكلمات المتفرّقة، كنت تحفظها في الإجازات على يد مدرّس خصوصيّ، استعدادا لعودتك المرتقبة إلى الوطن. كنت تعلم أنّ دراسة الطبّ في تونس تحتاج الإمساك بزمام اللغة الفرنسيّة التي كانت آنذاك، ولا زالت، تعتبر في تونس لغة العلم. ومع ذلك فإنّك لم تنضبط في تعلّم اللغة بشكل جادّ حتّى أتيحت لك فرصة دخول المركز الثّقافيّ الفرنسيّ الملحق بالسّفارة. فلبثت أسابيع تصارع الكلمات وتلوي لسانك بها بصعوبة، فتقاطع المحاضرات تارة وتحضرها طورا حتّى لا تضيّع الفصل الدّراسيّ.

إذن قمت في وقت مبكّر من وصولك إلى تونس بالاشتراك في المركز، وعزّزته باشتراك ثانٍ في المجلس الثقافي البريطاني، حتّى لا تقطع علاقتك بالثقافة الإنجليزية. كنت تدرك أنّ ولوج تينك المنشأتين في ذلك الوقت يعدّ ميزة لا تتاح إلّا لنفر يسير من التونسيّين، أبناء علية القوم والطبقة المخمليّة! ولعلّك لا تنكر أثر تردّدك عليهما على

شخصيّتك الازدواجيّة الفريدة! كنت تنهل من معين الثقافات الأجنبيّة من منبعها، وتستزيد من الفكر السّلفيّ والإخوانيّ والجهاديّ بحكم النشأة واللقاءات الدّوريّة في منزل خالك. وقد كان توفّر كلّ ذلك في متناول يدك شيئا استثنائيّا حقّا، في عصر لم يكن العلم مكتسبا ديمقراطيّا بعد، ولم تكن الشبكة العنكبوتيّة الكونيّة توصل المعلومة إلى كلّ بيت بعد!

كنت تحضر بانتظام أهمّ الأنشطة الثقافية في كلا المركزين، وتطالع في نهم ما حوته المكتبة الورقية من كتب ومجلات وصحف، وتشاهد الأشرطة في قاعة السينما التي كانت تعرض الأفلام الأجنبيّة متزامنة مع عرضها في الدّور الأوروبيّة، دون ترجمة ودون أن يطالها مقصّ الرّقيب! وكنت تخالط حين تدخل المركز صفوة الصّفوة من الجامعيّين والمثقّفين، فلا تسمع أذنك إلا الفرنسيّة أو الإنجليزيّة بلكنة أهلها، لأنّ روّاد المكان من الطلّاب إمّا أجانب وإما هجين عربي أوروبيّ، وإما تونسيّون ولدوا في أوروبا وأمريكا وعاشوا هناك سنوات طوال حيث كان ذووهم إمّا ديبلوماسيّين وإما رجال أعمال، ثمّ عادوا واستقرّوا في تونس. فيهيّأ إليك ما إن تطأ قدماك المركز أنّك قد قطعت الحدود وسافرت عبر الأجواء، لتحطّ في التوّ واللحظة على أرض أجنبيّة، وأنت لم تغادر الأراضي التّونسيّة! كان الجوّ أوروبيّا صرفا، والجميع -بما في ذلك العاملون- على هيئة ولغة وسلوك غربيّ في الصّميم، ولا شكّ أنّ ذلك قد أسهم إلى درجة كبيرة من تمكينك من الأخذ بناصية اللغة الفرنسيّة بأسرع من المتوقّع.

كنت تداوم الحضور، خاصّة يوم الأحد، يوم إجازتك الأسبوعيّة الوحيد، لتعيش فصلا من فصول الملهاة المستمرة التي انغمست فيها، وحلقة من حلقات انفصام الشخصيّة الفكريّة التي كنت تمارسها دون وعي، وكأنّك منوّم مغناطيسيّا، ولا حيلة لك في تحديد

هويّــة واحــدة لنفســك! كان يومــا مشــهودا بالفعــل، يجــدّد المأســاة بتفاصيلهــا.

كنـت تحـرص عـلى صـلاة الفجـر، تغـادر شـقتك قبـل الفجـر بنصـف ساعة أو أكـثر، وحينهـا لا تجـد في شـوارع ضاحيـة المـرسى الـتي تقطنهـا سـوى مـن لـم يحالفهـا الحـظ مـن بنـات الليـل الـلاتي يقفـن في زوايـا مظلمـة وفي مداخـل العمـارات، يرتديـن أشـبارا قليلـة مـن الثيـاب، وحـين يشـعرن مـن مكمنهـنّ بمـرور رجـل يظهـرن أمامـه فجـأة في ذلـك العـري الفاضـح ويسـتعرضن مفاتنهـنّ في غنـج. فكنـت تحـث الخطـى، غاضـا بـصرك، حـتّى لا تدنّـس عينيـك بذلـك المشـهد الشـنيع وأنـت تقصـد المسـجد، تسـأل الله أن يجعـل في قلبـك نـورا وفي بـصرك نـورا وفي سـمعك نـورا وفي لسـانك نـورا وعـن يمينـك نـورا وعـن يسـارك نـورا، ومـن فوقـك نـورا ومـن تحتـك نـورا وأمامـك نـورا ومـن خلفـك نـورا. كانـت اللحيـة والثـوب القصـير كفيلـين بحمايتـك، لكنّـك كنـت تخـشى عـلى طهارتـك أن تبطلهـا نظـرة تلهـب الغرائـز، وتعكّـر طمأنينتـك وتشوّشـك لأيّـام.

كان المســجد يقــع عــلى بعــد شــارعين مــن مســكنك. لــم يكــن بالمسـجد الكبـير، إلّا أنّ إمامـه طبيـب الأسـنان الشـابّ الـذي لا يكـبرك سـوى بسـنوات قليلـة قـد حبـاه الله بحنجـرة ذهبيّـة، تهـتزّ لهـا الأفئـدة وتطـرب لهـا الأسـماع، ويحفـظ القـرآن كلّـه عـن ظهـر قلـب، لا يـكاد يخطـئ. وحـين يحلّـق بـك ذاك الصـوت الملائـكيّ في صـلاة الفجـر، تستشـعر البركات تنهمـر عليـك مـن السّـماء، مثـل شـلّال يغمـر صـدرك وينعشــه.

كنـت تمكـث في المسـجد مـع رهـط مـن شـباب الحـيّ، سـلفيي التوجّـه في الغالـب، مـن بعـد الصّـلاة إلى طلـوع الشّـمس، تقـرؤون أذكار الصّبـاح ثـمّ تتلـون مـا تيـسّر مـن القـرآن، كلّ بمفـرده، مسـتندين إلى حيطـان المسـجد أو متكئـين إلى سـارية مـن سـواريه. وبعـد أن تراجـع جـزءا أو

جزءين من ذكر الله الحكيم، لتتسنّى لك مراجعته كلّه مرّة كلّ شهر، كنت تغادر المسجد مع شابّ أو اثنين، فتيمّمون وجوهكم شطر مطعم «الصفصاف»، مطعمك المحبّب، حيث تتناولون إفطارا يسيل له اللّعاب.. «صحن تونسيّ» قوامه سلطات وهريسة حارّة وبيض وزيتون وفلفل مخلل، أو «صحن كفتاجي» من الخضار والبطاطس المقليّة، بالإضافة إلى قطعة أو اثنتين من فطائر «البمبلوني».

ثمّ تعود إلى الشّقة، تستحمّ وتتعطّر، وتغيّر هندامك استعدادا إلى القسم الثّاني من نهارك الحافل! على السّاعة الثالثة عصرا، تغادر الشّقة مجدّدا، ليبدأ مشهد مختلف مغرق في السرياليّة. يخرج إنسان آخر، بسمت آخر وعقل آخر ولهجة أخرى، ومشاعر أخرى!

تستقلّ قطار الضاحية إلى المركز الثقافي الفرنسيّ، مولّيا وجهك قبل الغرب، لتلقى هناك رفاقا آخرين، شبابا وفتيات، كنت قد واعدتهم لمشاهدة شريط أو حضور عرض، أو جلسة لهو بريء. وبعد إغلاق المركز، حوالي الساعة التاسعة، تخرج مع مجموعة مختلطة من الشباب لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة في ضواحي العاصمة، وتسهرون حتّى وقت متأخر من الليل!

ثمّ تعود إلى شقّتك وحيدا. تلقي بجسدك على فراش من شوك، منهك الفكر حائر العقل، تعاني صراعا نفسيّا حادّا وضياعا وجدانيّا، وتمزّقا في الهويّة، تكاد جمجمتك تنفجر من وطأة الألم.

لم يكن أحد ممّن عرفك في أحد العالمين، هذا أو ذاك، يتخيّل ولو لوهلة واحدة ما تكون عليه حين تعبر الحاجز الفاصل بين شقّي ذاتك المنفصمة.

كنت تجمع المتناقضات ذاتها في ما تأتيه.. فكانت لك هيئتان مختلفتان.. هيئة حين تصاحب من تعدّهم من الأخيار، من أتباع

التيّارات الإسلاميّة داخل الكلية وخلال النّشاط الدّعويّ، أو خارجها في مجالس خالك عمّار ومن امتدّت إليهم علاقاتك بفضله.. وهيئة أخرى حين تكون في محاضراتك ونشاطك الطلّابيّ وناديك الثّقافيّ. الأولى، ثوب أبيض قصير وعمامة وسواك.. والثانية جينز من الماركات العالميّة، وأقمصة مستوردة وعطور باريسيّة هي أبلغ ما يعبّر عمّا كنت فيه من ترف زائد، وشعور بالزهو وحظ النفس، حين تبدو علامات الإعجاب في عيون من تتوق إلى محادثتهنّ من الفتيات!

هل تذكر آسيا، غادة الكلية وفاتنة القلوب فيها ذلك الحين؟ كانت هجينا تونسيّا فرنسيا، حسناء بشكل لم تألفه، وأنت من يأسرك الجمال ويسبي روحك، وقد كانت معك في الفصل ذاته. وقد وجدت نفسك تنساق معها، وتنسى ذاتك، فتفتح لها قلبك، وتتقرّب إليها. وكان أن استلطفت حديثك واستعذبت صحبتك، وكثرت بينكما نظرات العيون والابتسامات. ورفرفت أجنحة الحبّ في سماء أحلامك، وأصبح الترنّم بأبيات شعر الغزل إحدى لازماتك في خلواتك.

هل تذكر يوم رآك بعض الإخوة تحادثها في ساحة الكلّيّة؟ اتّجه نحوك غاضبا وقد عزم على تأنيبك بشأن علاقتك بها. فلمّا وصل أمامكما هتف بلهجة صارمة:

- مالك، هل لي بكلمة؟

ثمّ استدارت آسيا، لترمقه بعينين واسعتين فاتنتين، فتسمّر مكانه وراح يتأتئ في تلجلج وتلعثم. فابتسمت في خبث وأنت تشاغبه:

- ما الأمر يا خالد؟ تكلّم!

تنحنح الرّجل في ارتباك وتمتم:

- سأراك لاحقا.

- طبعا.. الكلام لاحقا.

فـإذا وقفـت أمـام حسـنك صامتًـا.. فالصمـتُ في حَـرَم الجمـال جمـالُ!

ضحكت، بينما همس لك خالد وهو يبتعد:

- أيّها المحظوظ!

ثمّ هرول مبتعدا وأنت تواصل ضحكك.

استمرّ نعيمـك لشـهور، والدّنيـا لا تتسـع لسـعادتك، حـتّى كان يـوم لـه ما بعـده.

كان صبيحـة يـوم أحـدٍ شـتويّ ماطـر، وكنـت قـد بكـرت مـع صديـق لـك إلى جامـع «صاحـب الطابـع»، حيـث بـدأت تحـضر درسـا أسـبوعيّا. ركبـت القطـار مـن محطّـة المـرسى، وقـد كانـت العربـات شـبه خاليـة في ذلـك الوقـت مـن اليـوم، والنّهـار لمّـا يتثـاءب. بعـد بضـع دقائـق، في محطـة قرطـاج، صعـدت فتاتـان، إحداهمـا تحمـل مظلّـة. تابعتهـا بـدون اهتمـام وهـي تطـوّح بهـا لتنفـض قطـرات المطـر، قبـل أن تغلقهـا. حـين طـوت المظلّـة الـتي حجبتهـا عنـك، التقـت نظراتكمـا عـلى حـين غـرّة. كانـت هـي، ملكـة الجمـال الـتي همـت بهـا حبّـا. اتسـعت عيناهـا الفاتنتـان ذهـولا، وهـي تـرى مـن شـاغل قلبهـا في أروقـة الكليـة بأناقتـه ووسـامته، وقـد تجـلّى أمـام ناظريهـا في هيئـة كأغـرب مـا تكـون.. كأنّمـا هـو أحـد أولئـك الذيـن لا تشـاهدهم قـطّ إلا في أفـلام التلفـاز الـتي تعـرض في ذكـرى المولـد النبـوي أو رأس السـنة الهجريـة، والـتي غالبـا مـا تكـون فيهـا السّـيوف والرّمـاح، والخيـل والـدروع.. و«هيـا يـا قـوم».. و«ويحـك يـا عكرمـة»!

كانـت تلـك نهايـة علاقتـك بهـا، حـين اكتشـفت الوجـه الثّـاني لشـخصيّتك المزدوجـة.

عرفـت بعـض الانضبـاط لاحقـا، وتحكّـم العقـل في اختياراتـك أكـثر،

فخطبـت زميلـة لـك حـين بلغـت الرّابعـة والعشريـن. كانـت تصغـرك بعامـين، ولـم تكـن مسـيرتها الدّراسـيّة قـد تعطّلـت مثـل مسـيرتك. ولـم تكـن باهـرة الحسـن، مثـل آسـيا، لكنّهـا جميلـة.. ذاك الجمـال الهـادئ الـذي لا يـأسر مـن النّظـرة الأولى، لكنّـه يسـتقرّ في النّفـس ويورثهـا ارتياحـا عنـد النّظـرة الثانيـة ومـا يليهـا مـن النّظـرات. وقـد راقـت لـك صفاتهـا الأخـرى الـتي تتجـاوز الجمـال الخارجـيّ، وقـد ازددت نضجـا واتّزانـا. كانـت ملتزمـة دينيّـا، ناشـطة اجتماعيّـا، ومتفوّقـة دراسـيّا. فمـاذا تطلـب بعـد؟

كنـت جـادّا والفتـاة ليسـت بلعـوب، فلـم تتأخّـر في التّقدّم لهـا. ورغم تعـثّرك الـدّراسيّ، فقـد كنـت واثقـا بـأنّ مثلـك لا يُرفـض. وقـد كانـت هناك خطبـة، ودبلـة ذهبيّـة لهـا وأخـرى فضّيّـة لـك، في حفـل عائـليّ مضيّق.

وبعد أسبوع واحد، كنت وراء القضبان.

امتـدّت المحاكمـة لشـهور طويلـة، ثـمّ صـدر الحكـم بسـنوات ثلاث. خطيبتـك وأهلهـا أدركـوا أنّ مسـتقبلك قـد غـدا غائمـا ضبابيّـا. هـل يكـون لـك أن تصبـح طبيبـا يومـا مـا؟ بـل هـل بقـي لـك أيّ مسـتقبل في البـلاد وقـد مُهـر جبينـك بختـم «عـدوّ النّظـام»؟ كان التعلّـق القلـبيّ هشّـا بعـد، ولـم يكـن أحدكمـا متيّمـا بالآخـر. لعلّهـا أجـرت حسـابات كثـيرة، بالورقـة والقلـم، عـن الحظـوظ والإمكانـات والاحتمـالات.. ثـمّ رأت أنّهـا تسـتحقّ أفضـل ممّـا تهديهـا، فأرسـلت إليـك دبلتـك مـع أخيهـا، وأنـت في حبسـك.

الفصل الثالث

- هروب -

-١-

حاولت الانتحار.

لا، ليس بعد خيبتك العاطفيّة.. بل بعد خروجك الثالث من السّجن!

وهل ينتحر المؤمن؟

لعلّك بدأت تفقد إيمانك منذ ذلك الحين. لعلّ الخيبة صدّعت أركان عقيدتك. لعلّك لم تكن مؤمنا بتلك القوّة منذ البداية. ولعلّها كبوة الفارس.. لحظة ضعف عابرة تمالكت نفسك بعدها. وما السّقطات العظام إلّا نتاج لحظات ضعف عابرة كتلك. لو أنّك لقيت حتفك تلك المرّة، لانتهى كلّ شيء إلى غير رجعة.

تعلم منذ الأزل أنّ الإيمان يزيد وينقص. لكن هل كنت تعتقد قبل ذلك أنّه قد يختفي يوما؟ يتبخّر؟ هل ينضب معين الإيمان كما تجفّ منابع العيون في موسم الجفاف؟ وهل كان موسم جفافك ممّا يمكن التنبّؤ به وتوقّع عواقبه؟ تستيقظ يوما فلا تجد في قلبك إيمانا؟

كانت وحدتك بعد فترة الحبس الثالثة مفتاح الشّرور. كانت شقيقتك قد أنهت دراستها وتزوّجت وسافرت مع زوجها إلى ألمانيا، وشقيقك هو الآخر أنهى سنوات تعليمه وعاد إلى الرّياض حيث تنتظره وظيفة جاهزة هيّأتها معارف الوالد الكريم. أمّا خالك عمّار، فقد استمرّ سجنه سنوات بعدك. ولم يكن هناك من أقاربك بالعاصمة من يمكنك اللّجوء إليه. رفاق الأمس تنكّر بعضهم لبعض وانزوى كلّ في قوقعته درءًا للشّبهات وتضليلا لعيون المراقبة اليقظة. كنت ممنوعا من السّفر بعد الإفراج عنك، مقيّدا بإقامة جبريّة في مدينتك لا تبرحها. تسجّل حضورك في مركز الشّرطة صباحا ومساءً، كلّ

يـوم، بإمضاء سـخيف عـلى دفـتر أصفـر. ورغـم الابتسـامة الـودودة الـتي يلاقيـك بهـا موظّفـو المكتـب، كيـف لا وأنـت زائرهـم اليومـيّ، فإنّـك لـم تـزد يوما عـلى تحيّـة الإسـلام وأنـت تصلهـم وتغادرهـم مطأطـئ الـرّأس، لا تـرى عينـاك غـير الصفحـة الملعونـة الـتي تمهرهـا بإمضائـك.

هـل تراهـم افتقـدوك يـوم فقـدت الوعـي وغبـت عـن الدّنيـا سـاعات طويلـة؟ لعـلّ مشـاغل أخـرى ألهتهـم عـن ردّ الزّيـارة وتفقّـد وضعـك. لـم تصـل دوريّـة شرطـة إلى شـقّتك ذلـك الصّبـاح الـذي طالـت فيـه نومتـك إلى المسـاء. بـدا أنّ أحدهـم لـم ينتبـه إلى غيابـك. فاجـأك ذلـك الاكتشـاف. لـو أنّـك خططـت للهـرب مثـلا، لكنـت وصلـت إلى سـواحل أوروبـا أو حـدود الجزائـر الآن، دون أن تجـد دوريّـات غاضبـة تجـدّ في إثـرك. حـين ظهـرت في مركـز الشرطـة صبـاح الغـد، قـرأت علامـات الدّهشـة عـلى وجـه الموظّـف الـذي طالـع السّجل في حـيرة مسـتفسرا عـن الغيـاب الـذي انتبـه إليـه لتـوّه. غمغمـت في شـبه اعتـذار:

- كنت مريضا.. لم أستطع مغادرة السّرير بالأمس.

يهـزّ رأسـه متفهّمـا، ثـم يوصيـك بلهجـة حـادّة ألّا تعيـد الكـرّة، حـتّى لا تواجهـك عواقـب وخيمـة.. ولعـلّ العواقـب تكـون مـن نصيبـه إن اكتشـف رئيسـه تهاونـه!

تلـك الصّدفـة فتحـت عينيـك عـلى حقيقـة الأمـر. أنـت لسـت مهمّـا. ذاتـك نفسـها لا أهميّـة لهـا بالنسـبة إلى جلّاديـك. لـو أنـك قضيـت نحبـك في حفلـة تعذيـب في وقـت سـابق، لألقيـت جثّتـك في المجـاري دون تـردّد. لـو أنـك مـتّ وحيـدا في شـقتك ربّمـا لـم يكـن أحـد لينتبـه حـتّى تنفـذ رائحـة العفـن إلى الشّـقق المجـاورة. ذلـك التوقيـع المتكـرّر كان علامـة خضوعـك واستسـلامك. كان تنويمـا لا شـعوريّا لإرادتـك. سـتظلّ تسـعى صاغـرا جيئـة وذهابـا، صباحـا ومسـاءً، دون أدنى محاولـة لفـكّ قيـدك الوهمـيّ. آلاف مثلـك، يسـيّر الخـوف حياتهـم. وكان يمكـن لوضعـك أن

يستمرّ كما هو لسنوات طويلة أخرى، لولا استفاقتك المفاجئة. بعد أن فشلت محاولة الموت، فكّرت أن فرصة الحياة لا تزال ممكنة.

هاتفت والدك بعد أيّام قليلة. كان هناك قلق مترسّب من التّجارب الماضية يجعل المكالمات الهاتفيّة شبيهة بالأحاجي. الخطوط قد تكون مراقبة. إذا تناهت إليك خشخشة أو سمعت تكّة تسبق وصول صوت المُتّصَل به، فهذا يعني أنّ طرفا ثالثا يستمع إلى المحادثة. لكنّك كنت مشبعا بالتمرّد ذلك المساء. قلت في تحدّ:

- لقد فاض بي الكيل.. أريد مغادرة البلد في أقرب وقت.

حلّ الصّمت لبرهة على الجانب الآخر. تقرأ صدمة والدك الذي يفكّر حتما بأنّك جننت. لم يكن يخاف سلامتك وحدك، فالعائلة كلّها مهدّدة، حتّى في المهجر. لم يزر والدك تونس منذ سنين، ولعلّ اسمه يمثل في لوائح المطلوبين. ألم يرجع خالك عمّار إلى الوطن بعد غربة امتدّت زهاء عقد ونصف من الزّمن، لم يكن له خلالها أيّ نشاط سياسيّ، ليلقى عليه القبض في المطار فور وصوله! تهمته التورّط في تمويل «جماعة مشبوهة»، فقد استمرّ في إرسال حوالات ماليّة لعائلة صديق قديم في تونس، بعد أن ألقي بعائلها في السجّن بحكم مطوّل. لذلك لم يكن أحدكما في مأمن إن هو جاراك في حديثك اللّاعقلاني. أمام صمته، واصلت في عناد:

- أريد أن أواصل دراستي.

لم يكن من المناسب أن يناقشك على الهاتف. مجرّد الأخذ والردّ في الموضوع يؤكّد تورّطه في جريمة تهريبك المزمعة. تحزر سبب تردّده، لكنّك تعلم أنّه سيفعل شيئا حتّى لو لم يصرّح بالموافقة. يقول أخيرا في حذر:

- والدتك قلقة عليك.. تحدّث إليها قليلا.

تأخذ والدتك السمّاعة، وتتكلّم في لهوجة يخالطها الدّمع. هكذا

هـي كلّ اتّصالاتـك بهـا. سـيل مـن العاطفـة وطوفـان مـن العـبرات. ولدهـا الأصغـر، قـرّة عينهـا، بعيـد عنهـا ولا سـبيل إلى رؤيتـه. حـين أعـادت السّـماعة إلى والـدك، قـال بصوتـه الرّصـين الهـادئ:

- سأتّصل بك خلال يومين. اهتمّ بنفسك.

ذلـك الوعـد الضمـنيّ كان كافيّـا لتوقـن بأنّـه سـيفعل شـيئا بشـأن طلبـك.

جمعـت متاعـا قليـلا في حقيبـة ظهـر، ثلاثـة أثـواب ومصحفـا وسـواكا وقـارورة عطـر. ولـم تنـس إجازتـك في القـرآن الكريـم، فقـد كنـت تعدّهـا أثمـن مـن كلّ مقتنياتـك. نزعـت عنهـا إطارهـا المذهّـب، وحفظتهـا في ظـرف كرتـونيّ لتعيـد تأطيرهـا حـين تصـل إلى وجهتـك.

بعـد توقيعـك مسـاء السّـبت، كانـت سـيّارة خاصّـة داكنـة اللّـون في انتظـارك في الممـرّ الخلفـيّ لعمارتـك السّـكنيّة. لـن تعـرف أبـدا مـا لـون السيّارة تحديـدا، فقـد انتشـلتك في الظـلام وخلّفتـك في الظـلام. وصلـت إلى المنطقـة الحدوديّـة قبـل انبـلاج الفجـر. طلـب منـك سـائقك أن تترجّـل، فـسرت خلفـه متعـثّرا في عتمـة اللّيـل. أنزلـك إلى وادٍ تـرابيّ جـافّ أشـبه بحفـرة عميقـة، وقـال: انتظـرني هنـا!

خلّفـك صاحبـك في ظلمـات ثـلاث، ظلمـة الليـل وظلمـة الحفـرة وظلمـة أفـكارك المتشـائمة. مـاذا لـو نسـيك ولـم يعـد؟ اسـتمرّ انتظـارك سـاعة أو نحوهـا، تقاذفتـك خلالهـا الظّنـون. ثـمّ لاح الفـرج مـع صـوت محـرّك قديـم يقـترب.

ظهـر صاحبـك برفقـة مهـرّب جزائـريّ في منتصـف الثلاثينيـات. كان الاتّفـاق قـد حُسـم بينهمـا، فجـرى اسـتلام الطّـرد البـشريّ في صمـت يضاهـي سـكون الخـلاء مـن حولكـم. ركبـت الصنّـدوق الخلفـيّ لشـاحنة نقـل بضائـع مكشـوفة. بـين خزّانـات الوقـود الفارغـة، اسـتقرّت بـك الجلسـة. مهرّبـو البنزيـن عـبر الحـدود التونسـيّة الجزائريّـة كانـوا قـد

انخرطوا في نشاط جديد في السّنوات الأخيرة، يشمل تهريب الآدميّين. كثيرون من المطلوبين أو الممنوعين من السّفر لا يجدون لهم مخرجا من جحيم الوطن إلّا بعبور الحدود. وهي رحلة طويلة مرهقة، وغير آمنة.

انطلقت بك الشّاحنة الجزائريّة مترنّحة عبر الطّرقات الرّيفيّة الوعرة، وكلّ شيء حالك من حولك. كان المهرّب قد أنهى عمليّات تبادل عدّة مع مهرّبين محلّيين. أفرغ حمولته من البنزين واستلم الطرد البشريّ وها هو يقفل راجعا في اتّجاه التّراب الجزائريّ.

تتقدّم الشّاحنة على مهل، مطفأة الأنوار الأماميّة، على طريق ترابيّة مدروسة. بغتة، تظهر في الأفق كشافات سيّارات حرس الحدود. كنت على أبواب العبور، ورحلتك المحفوفة بالمخاطر توشك على الانتهاء. لكنّ كلّ شيء مهدّد بالتّداعي خلال لحظات. رأسك مرجل قلق يغلي. تشعر بارتباك سائقك حين تضغط قدمه بعصبيّة على دوّاسة الوقود، لتنتفض العربة وتنفضك معها.

عبر مسافة كيلومترات عدّة، تندفع الشّاحنة المجنونة، تطاردها أبواق سيّارات الحرس التي تطوي الأرض وراءها، وزخّات رصاص حيّ وفيرة. تمرّ الرّصاصات قريبا منك، فوق رأسك، يهشّم بعضها زجاج الشّاحنة الخلفيّ ويستقرّ آخر في حاويات البنزين الخاوية. وفي لحظة ما، يفقد سائقك السّيطرة. عند منعرج ضيّق، اختلّ توازن العربة. مال ثقلها على الجانب الأيمن، ثمّ تدحرجت منقلبة رأسا على عقب. انقُذف جسدك خارج الحاجز المعدنيّ مسافة أمتار، وارتطمت بالأرضيّة التّرابيّة غير المريحة. أنت لا تزال واعيا. والظلام حالك على حاله. سيّارات حرس الحدود تقترب، تتوقّف عند العربة المنقلبة، وتسلّط كشافاتها على موقع الحادثة. تزحف بما تبقّى فيك من رمق، بطنك ملتصق بالتّراب، تحجبك عن الأضواء تلّة ترابيّة منخفضة. لا أحد يعلم بوجودك. جهودهم مركّزة على السّائق وحده. عليك أن

تبتعـد. أن تبتعـد إلى حيـث الأسـلاك الشـائكة الـتي تفصلـك عـن الجهـة الأخـرى. سـتفعل ذلـك رغـم الألـم، وتـودّع بنظـرة مذنبـة مهرّبـك الـذي اسـتخرج مـن السّـيّارة فاقـد الوعـي.

بعـد ليلـة عـذاب مضنيـة، سـتعثر عليـك عائلـة جزائريّـة، تعيـش في تلـك البقعـة المنعزلـة مـن العالـم. لـم تكـن تفقـه سـلفا معـنى «أن تعيـش عـلى الحـدود». لقـد سـافرت كثـيرا، وقطعـت حـدودا جغرافيّـة بـين بلديـن. تسـلّم جـواز سـفرك لموظّـف الجمـارك ليمهـره بختمـه فتغـادر بلـدا وتدخـل آخـر. عرفـت مجـازا حـدود اليـأس والأمـل، حـدود العقـل والجنـون، وفي تلـك الليّلـة الـتي عشـت فيهـا تفاصيـل الترنّـح بـين حـدود الحيـاة والمـوت، وعيـت أخـيرا كيـف يكـون «العيـش عـلى الحـدود» بالمعـنى الحـرفيّ للعبـارة. هنـاك أنـاس يعيشـون عـلى الحـدود طيلـة الوقـت. ليسـت الحـدود بالنّسـبة إليهـم تجربـة عابـرة، فهـم هنـاك، في فضـاء الـ«مـا بـين بـين»، إلى مـا شـاء الله!

لا شيء مغـرٍ في الحيـاة عـلى الحـدود. كلّ شيء شـحيح، بدايـة بأبسـط مرافـق الحيـاة الضروريّـة مـن مـاء وغـذاء وكهربـاء. حـتّى الأرض معظمهـا بـور. البيـوت أشـبه بالأكـواخ المتداعيـة، وكلّ شيء مقفـر فيمـا حولهـا. وفي أفنيـة البيـوت القليلـة المكوّنـة للقريـة، تتكـدّس حاويـات بلاسـتيك تنتظـر دورهـا للرّحيـل. سـكّان القريـة بـلا اسـتثناء، يمتهنـون التّهريـب كحرفـة أصيلـة متوارثـة عـبر الأجيـال.

جـاد فقـراء الحـال بمـا لديهـم بسـخاء وإخـلاص. شـاركت العائلـة مسـكنها المتواضـع لأيّـام لبثـت خلالهـا ممـدّدا في إرهـاق، وقـد أنهكتـك سـقطتك وخلّفتـك كتلـة مـن الرّضـوض والكدمـات. حـين اسـتعدت عافيتـك وتماثلـت جراحـك للشّـفاء، خرجـت تتمـشّى في الأنحـاء. لـم يكـن هنـاك الكثـير لـتراه. امتـداد شاسـع للقفـر، وأسـلاك شـائكة، تظهـر وراءها مـن حـين إلى آخـر دوريّـة خيّالـة تونسـيّة تـشرف عـلى الشريـط الحـدوديّ ثـم تقفـل راجعـة أدراجهـا. وراعٍ هائـم بـين التّـلال الجـرداء، صحبـة

قطيعه الهزيل. الطريق التي يتبعها المهرّبون تتلوّى هناك، في عمق الغابة. تلمح المنطقة المشجّرة التي كان من المفترض بك أن تعبرها منذ أيّام، وتتنهّد. تتساءل، ماذا حلّ بسائقك؟ هل تراه نجا؟

حديث الرّصاص والشاحنة المنقلبة تناقله الجيران القلّة لأيّام، بمنتهى الإثارة. خرج معظمهم تلك اللّيلة حين تناهى إليهم دويّ الطّلقات. دفعهم الفضول للاقتراب والفرجة، غير عابئين بخطر الرّصاصات الطّائشة. فكتبت لك النّجاة، حين عثر عليك مسجّى غير بعيد عن الحدود. لكن لا أحد يعلم ما الذي حلّ بالسّائق المنكوب. ليس من المنطقة. لم يكن يفترض به المرور قرب هذه النقطة، فالمنفذ على الجهة الأخرى، داخل الدّغل.

اقترب منك الرّاعي بابتسامة سمحة وقد عرف قصّتك من أهل القرية -ومن لم يعرف قصّتك وأنت الغريب جليّ الغربة- جلس إلى جوارك على الأرض، وأخرج من جرابه قرص خبز من القمح وكوز لبن ماعز، ودعاك إلى تقاسم وجبته. قبلت الدّعوة دون تردّد، تناولت قطعة الخبز الجافّة وأخذت تلوك لقيماتها في تؤدة، وتحتسي جرعات اللّبن في صمت.

ترمي بصرك إلى الأفق، حيث تعانق خضرة الجبال زرقة السّماء. لكنّها سكينة ما بعدها سكينة، وخلاء ما بعده خلاء، وأمواج من الأفكار تهاجمك وقد انهارت دفاعاتك، تماما كما كانت تتمكّن منك فتصرعك على ضفاف بحر المرسى. تأخذ صورا من شريط حياتك في التدفّق من بوابّة الذاكرة، فتدمع عيناك جزعا لما مضى من عذاب، ولما سيأتي من مجهول.

هناك، في تلك الخلوة مع نفسك، في منطقة الحدود، بدأت الأسئلة الوجوديّة تتسلّل مرّة أخرى إلى روحك المنهكة. لقد اكتويت بلهيب المحنة لسنوات، غادرت موطنك شريدا، ودفعت ثمن إخلاصك

لعقيدتك، واصطفافك في خندق الحقّ، في مواجهة الباطل. وها أنت تقف على عتبة اللّاشيء، ترمق في حسرة مشاهد الفقر المدقع التي تملأ ناظريك. هؤلاء الأحياء الأموات على الحدود، على هامش الوطن والبشريّة، نسيتهم الحياة أو كادت، فما جادت عليهم من معانيها بأكثر من فتات.. بينما يعيش الظلمة المتجبّرون ذوو النّفوذ من خونة الدّين والوطن في ترف متبطرين. تتأمّل الأكواخ المتداعية وأسمال الأطفال المهلهلة، أين هي من القصور والجنّات التي يرفل فيها أصحاب السلطان؟ لا ذنب لهم إلّا أنّهم ولدوا على الحدود، فكان قدرهم الشّقاء!

تتصاعد المرارة إلى حلقك، وتتساءل في حرقة، أين الله من هؤلاء؟ وأين الله من أولئك؟ أوليس بيده أن ينصف هؤلاء، ويفتك بأولئك؟ فلماذا إذن؟

تضيق بك الدّنيا بما رحبت، ويشتدّ بك اليأس في ساعات الهجير، تحت لهيب الشّمس الحارقة يهيأ إليك من لفحاتها أنّ أبواب جهنّم قد فتحت على مصاريعها، فتفتك بك الهلاوس. يغلبك سوء الظنّ واليأس من رحمة الله، وتنتابك الرّيبة. هل كان جهادك مجرّد وهم؟ لماذا لم ينصركم الله وأنتم أولياؤه؟ لماذا تهجّرون من دياركم ووطنكم طوعا وقسرا؟ لماذا يترككم الله لآلة البطش تسحقكم ولا يحرّك ساكنا؟

يتقلّب مزاجك بين الصّباح والمساء، ويعتريك الشكّ.. هل أنّ مثلك كمثل الصّحابة الذين تكالبت عليهم الأحزاب من كلّ صوب (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)؟ أم أنّك ممّن قالوا (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)؟

هل كان وعد الله لكم غرورا؟!

-٢-

خلال أسبوع، كنت قد اتّفقت مع مهرّب آخر. المسيرة من القرية إلى المدينة أكثر أمنا. لم تطاردك الرّصاصات هذه المرّة. وأنت تبتعد عن الحدود وتتوغّل في التّراب الجزائريّ، سيلازمك إحساس غريب بالحرقة. تعلم أنّك لن ترجع في الاتّجاه المعاكس مرّة أخرى. أنت مطرود من بلدك، محروم من العودة إليه. أنت تفرّ من جحيم السجّن والتعذيب والإقامة الجبريّة والحرمان من حقّك في مواصلة دراستك الجامعيّة.. لكنّك مترع بالمرارة، متخم بالحنين.

كان تركك للوطن، وخروجك منه خائفا تترقب، طعنة في قلبك. ورغم المرارة التي تجدها في حلقك، تهوّن على نفسك.. أليست لك أسوة في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الكرام؟ (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله).

فما بالك جزعا كسير الفؤاد هكذا؟ لقد خرجت ونفذ سهم القضاء، فانس أو تناسَ ما استطعت، لأن ليالي الحرمان من دفء الأهل والأحباب، ومن حلو الذكريات ستطول، وما تلك إلا البداية!

أوصلك المهرّب إلى منزل متواضع في مركز ولاية «سوق أهراس» الجزائريّة، حيث كان عدد آخر من الحرّاقة مجتمعين. كان الإخوة الجزائريّون يجتهدون لتوفير الحلول الممكنة لإخوانهم التّونسيّين الفارّين من وطنهم. تساررت مع رفاق رحلتك ممن قادتهم خطواتهم إلى ذات المنزل. بعضهم ينوي البحث عن عمل، والبعض الآخر سيكتفي بالاختفاء لفترة ريثما يصله الخبر اليقين: هل تجدّ السّلطات التونسية في إثره؟

اتّصلت بوالدك. كان من المفترض بك أن تتصل بالوسيط منذ أسبوع، واختفاؤك الغامض ملأه جزعا. حين وصله صوتك بعد أسبوع من التقلب على جمر القلق، انتحب على الهاتف دون مواربة. أنت الآن بأمان. استعدّ للخطوة التّالية. استلمت اسم الوسيط وعنوانه، واتّصلت به على الفور. كان كهلا جزائريّا سبقت له زيارة تونس سياحة، فتعرّف إلى والدك في ظروف لا تذكرها، لكنّ العلاقة بينهما وإن كانت سطحيّة فقد استمرّت ودّيّة، وكان بينهما من الارتياح والثقة ما جرّأ والدك على طلب هذه الخدمة من الرّجل.

وصلت إلى العنوان، فسألت عن صاحب الاسم حتّى دلّوك عليه. استقبلك الرّجل بترحاب وحفاوة لا نظير لهما كأنّك صديق حميم، وأبدى تفهّما لوضعك:

- ستكون ضيفا علينا ريثما ننظر في سبل مساعدتك.

لبثت عنده بضعة أيّام، بينما تواصل مضيّفك مع إخوة آخرين، ثمّ عاد إليك بمقترحه:

- بوسعي تدبير عمل مؤقت لك في مصنع قريب لي، حتّى تتمكّن من إعالة نفسك في الفترة المقبلة.. في انتظار حلّ أفضل.

في الأثناء اتّصل بك بعض الإخوة من الحرّاقة الذين لقيتهم في دار الضّيافة. كانوا قد انتقلوا في غيابك إلى منزل عمّ أحدهم، وهو مدرّس في مدرسة إعداديّة في مدينة جزائريّة قريبة. كانت شقّته خالية آنذاك لعودته إلى تونس أثناء العطلة الصيفيّة. فكّرت في الفرص المتاحة، ثمّ اتّخذت قرارك. غادرت منزل مضيّفك شاكرا، لكنّك لم تقبل بعرضه رغم ما تكبّده من عناء لتدبيره. شعرت أنّك إن انفصلت عن الحرّاقة وقبلت بالاستقرار والعمل، فقد تضيّع فرصا مقبلة. كنت تجهل أنّ تلك الأيّام في ضيافته كانت آخر عهدك بالرّاحة

والرّفاهية قبل سلسلة طويلة من الابتلاءات. لكنّك كنت تدرك حتما بأنّك منذ تلك اللحظة قد تمرّدت على الحماية الأبويّة وشرعت في تدبّر أمرك بنفسك.

التحقت برفاقك إذن، وأنت لا تملك تقدير فرص فوزك من خسارتك. في الأيّام التّالية، عاد اثنان منهم أدراجهما إلى تونس بعد أن وصلتهما أخبار مطمئنة بأنّ الملاحقات لم تشملهما. أمضيت أسابيع أخرى من الترقّب، حتّى اقترب موعد العودة المدرسيّة، وصار عليكم إخلاء شقّة العمّ الذي أوشك على الرجوع.

انتقلت من جديد، إلى مبيت جامعيّ في الجزائر العاصمة هذه المرّة. كنت متمسّكا بهويّتك كطالب وتتصيّد فرص الالتحاق بالجامعات، ورغم حيرتك بشأن خططك المستقبليّة فقد انتابك شعور بأنّ الفرص ستكون أفضل في العاصمة.

في المبيت الجامعيّ، تعرّفت إلى سامر، أحد شباب التوجّه الإسلاميّ من الضفّة الغربيّة. ارتاح أحدكما إلى الآخر وسارّه بأمره. وكانت بينكما محادثات طويلة باعتبار الاستئناس والصحبة. كان فيلسوفا، ولوعا بالجمال مثلك. لذلك لم يكن من الغريب أن تستمرّ مسامراتكما بالسّاعات، حتّى خيوط الفجر الأولى في متعة وانسجام. وقد كانت تلك الأوقات تسلّيك وتنسيك ما يشقيك من تفكير في مستقبلك وقادم أيّامك. كنت كالنّعامة، تدفن رأسك في رمال النّقاشات الفكريّة، وتنتظر فرجا قد يأتي قريبا.. وقد لا يفعل أبدا.

بعد أسابيع من مراوحتك مكانك دون أن يستجدّ شيء بخصوص ملفّك في الجامعة الجزائريّة، اقترح عليك سامر الانتقال إلى بيروت. كان عائدا إلى الضفة ويمرّ بالعاصمة اللّبنانية، ويمكنه تيسير قبولك في جامعة بيروت. لكنّك تردّدت. لبنان على مسافة شاسعة من الوطن،

لكنّهـا أقـرب إلى المملكـة العربيّـة السّـعودية، حيـث العائلـة. شـكرت لطفـه وطلبـت مهلـة للتفكـير. كان عليـك استيفاء جميـع السـبل الممكنـة قبـل اتّخـاذ قـرار التّرحـال البعيـد.

بإيعـاز مـن زميـل لـك في السّـكن، حاولـت أن تجـرّب حـلّا آخـر. غـادرت إلى فـاس عـن طريـق الـدّار البيضـاء لتحـاول الالتحـاق بالجامعـة في المغـرب الشـقيق. غامـرت بشـكل لا يصـدّق وأنـت تسـتظهر عـلى الحـدود بجـواز سـفرك التّونـسيّ ممهـورا بختـم مزيّـف! عـلى ممحـاة بيضـاء، رسـمت بعنايـة ختـم الحـدود الجزائـريّ بقلـم حـبر أزرق. لقـد كنـت ماهـرا والحـقّ يقـال. لكـنّ المجازفـة فاقـت كلّ مسـتويات الجنـون السّـابقة. كان يمكـن لأمـرك أن ينتهـي عنـد تلـك المغامـرة، فتسـاق إلى السّـجون مـن جديـد. لكـنّ لطـف الله كان ملازمـا لـك، لعلّهـا دمعـة وجـد صادقـة ذرفتهـا ذات ليلـة في قيامـك؟ فعـبرت جيئـة وذهابـا بسـلام بعـد فشـل مسـعاك.

أمضيـت يومـين يتيمـين في فـاس، زيـارة خاطفـة لالتمـاس فرصـة ممكنـة. قصـدت الجامعـة، حيـث التقيـت عميـد كليّـة الطـبّ. كان لقـاءً غريبـا وملتبسـا. وقفـت أمـام المكتـب تصـارع الارتبـاك والأمـل الزّائـف الـذي تتشـبّث بتلابيبـه حـتّى آخـر رمـق. أولـم تصـل إلى هـذه الغرفـة بطريقـة مـا؟ لعلّـه الفـرج إذن. عايـن الرّجـل شـكلك باهتمـام، ثـمّ ألقـى نظـرة عابـرة عـلى ملفّـك. رفـع رأسـه بابتسـامة غريبـة، ثـمّ قـال:

- لا بأس، يمكنك الالتحاق بالكليّة...

هـل أشرقـت الأنـوار في ثنايـا صـدرك وصدحـت البلابـل في رأسـك وهو ينطـق بالكلمـات الـتي تنهـي معاناتـك؟ لكـنّ للحديـث بقيّـة.. وأيّ بقيّـة! سـمعت الرّجـل يضيـف، لتتـلاشى علامـات الانـشراح الـتي غمـرت ملامحـك لبرهـة:

- إذا صادقت القنصليّة التّونسيّة على ملفّك.

تلك الـ «إذا» الشّرطيّة كانت القاصمة. مصادقة القنصليّة كانت تعني ببساطة تسليم نفسك إلى جلّاديك. كان شرطا تعجيزيّا، وقد رمى الرّجل فأحسن التّسديد. فرجعت على عقبيك بخفي حنين.

دعني أصارحك بشيء لا يخفى عليك. لقد بليت بالحبّ والعاطفة الجارفة منذ الأزل.. لكن هل تعلم من كانت محبوبتك الأثيرة، تلك السّاكنة في السّويداء؟

إنّها نفسك!

أنت لم تحبّ أحدا كما أحببت نفسك، لا سارة ولا آسيا ولا غيرهما! ولعلّك عشقتهن لأنّك رضيت عن صورتك في عيونهن! كنت تتيه إعجابا بانعكاس قوامك في المرآة، وتستزيد من عبارات الإعجاب وحتّى الغيرة التي تنهال عليك أينما حللت. كنت تقتات على نظرات الانبهار التي تحيط بك كلّما وقفت في ساحة الكليّة تخطب، فتنمو الأنا داخلك وتتغوّل. كنت مغرورا نرجسيّا بلا مبالغة!

لكن ذاتك المستعلية تهبّ في المقابل تجادل عن نفسها: أليس لمثلك حق في هذه النرجسية؟ في زمن التردّي والهزيمة.. وقد عزّ فيه نظيرك! لسان حالك ينطق بقول الشاعر:

وَمَا الدّهْرُ إلّا مِنْ رُواةِ قَصائِدي إذا قُلْتُ شِعرا أصْبَحَ الدّهرُ مُنشِدَا

لكن تلك التّجربة المريرة كلّها.. من السّجن إلى الهجرة، كانت تحطّم أناك وتسحقها. لم تعد تطيق صورتك الهزيلة في المرآة. سوء التّغذية خلّف جسدك كومة من العظام، بعد أن كان مثالا للكمال! أهملت وجباتك ولم يعد يدخل جوفك سوى ما يسدّ الرّمق. لقد حاولت التخلّص من حياتك واستعجلت المرور إلى العالم الآخر، وهل كنت لتفعل لو أنّك لم تصل إلى مرحلة متقدّمة من ازدراء

ذاتـك؟

وأنـت تواجـه الرّفـض والنّبـذ مـرّة إثـر أخـرى، كان تقديـرك لنفسـك يتضـاءل، واعـتزازك بذاتـك ينكمـش ويضمحـل. عـدت مـن رحلتـك تلـك وقـد ازداد داخلـك إظلامـا واسـتحال قلبـك قطعـة مـن السّـواد.

-٣-

عـاد صاحبـك سـامر مـن الضّفـة، وقـد تدبّـر لـك كمـا وعـد وثيقـة سـفر فلسـطينية!

عودتـه أنعشـتك. ووثيقـة السّـفر أوقـدت حماسـك، لا لوظيفتهـا في حـلّ مشـكلاتك، بـل لرمزيّتهـا. مـا زلـت تتلقـى الحـبّ رغـم كلّ شيء، وهنـاك مـن يهتـمّ لأمـرك! رفضـت لفتتـه الكريمـة شـاكرا، لكنّـك نفضـت عنـك غبـار اليـأس، وقـرّرت محاولـة شيء مـا. في الحقيقـة، كان اسـتخدام تلـك الوثيقـة مخاطـرة بالغـة. كان مـن الممكـن كشـف انتحالـك ببسـاطة، فأنـت لا تتقـن بـأيّ شـكل اللهجـة الفلسـطينية. لكـنّ اللهجـة الجزائريّـة، ذاك شـأن آخـر.

بدأت الحكاية بملاحظة عابرة من أحد الإخوة:

- هـل تـدري أنّ ياسـين يشـبهك كثـيرا؟ حـين رأيتـه بالأمـس في مدخـل المبيـت، حسـبته أنـت!

كان شـبها طفيفـا لا يصـل إلى حـدّ التّطابـق، لكنّـه قـد يخـدع عينـا غـير مدقّقـة. تبـدوان مثـل ابـني عـمّ، أو قريبـين بينهمـا رابطـة دم، لا أكـثر. سرعـان مـا نمـت الفكـرة في عقـل سـامر وأورقـت:

- إن كنـت ترفـض المخاطـرة باسـتعمال الوثيقـة الفلسـطينية، فالأمـر أيـسر بجـواز سـفر جزائـريّ!

أقنعـك. وبحـرج شـديد، صارحـت الشـبيه بطلبـك. قلـت في حـرج بعـد مقدّمـات طويلـة شرحـت فيهـا حساسـيّة وضعـك:

- مـاذا لـو طلبـت تأشـيرة السّـفر إلى لبنـان باسـمك، ثـمّ بلّغـت بعـد رحيـلي عـن ضيـاع جـواز سـفرك؟

كانت خطّة متهوّرة، لكنّ الأخ ياسين وافق!

وهكـذا أصبحـت «ياسـين عبـد الهـادي». في غضـون أسـبوعين، حصلـت عـلى جـواز سـفر وتأشـيرة دخـول إلى لبنـان، وأصبـح بمقـدورك المغـادرة مـتى شـئت. أعـددت حقيبـة ظهـر صغـيرة، حـوت مقتنياتـك القليلـة منـذ وصولـك إلى الجزائـر. ودّعـت سـامر، رفيـق الـدّرب الـذي تقاطعـت طريقـه مـع طريقـك لشـهور يسـيرة، وانطلقـت.

في المطـار، سـجّلت في الرّحلـة ثـمّ قصـدت مكتـب مراقبـة الحـدود. مـررت بسـلام واسـتقررت في قاعـة المغـادرة تنتظـر الطائـرة مـع بـاقي المسـافرين. فجـأة، دخـل رجـل في بدايـة الكهولـة، يرتـدي معطفـا طويلا، إلى فضـاء الانتظـار ونـادى باسـمك المنتحـل «ياسـين عبـد الهـادي». ارتجفـت. فكّـرت للحظـة بالتّـواري عـن الأنظـار، التّـلاشي، وإنـكار علاقتـك بالاسـم وصاحبـه. لكنّـك وقـد عـبرت الحـدود، لـم يعـد يفصلـك عـن بغيتـك إلّا بوّابـة الصّعـود إلى الطّائـرة.. فكيـف تعـود أدراجـك وقـد غـدوت قـاب قوسـين مـن الهجـرة؟ تماسـكت، وأجبـت المنـادي رافعـا ذراعـك.

- تفضل.

ترتعش أنفاسك وأنت تترقّب حكما بإجهاض خطّة هربك.

- لقد نسيت ملء هذه.

تمتـدّ كـفّ الرّجـل إليـك ببطاقـة الخـروج الـتي أهملـت تعبئـة عـدد مـن حقولهـا مـن بـاب الحـذر والتّمويـه.

- آه، أنا آسف.

تنكـبّ عـلى الورقـة وتـشرع في مـلء الفضـاءات الفارغـة مسـتنفرا خيالـك الواسـع.

تمّـت المعجـزة وركبـت الطّائـرة. ولـم يقـترب منـك أحـد مجـدّدا حـتّى أقلعت.

يتكـرّر مشـهد الرّعـب عنـد شـبّاك مراقبـة الجـوازات في بـيروت. ترمـق

الموظّـف الشّـاب بابتسـامة مهـتزّة، بينمـا تتنقّـل عينـاه الفاحصتـان بـين ملامحـك وصـورة الجـواز الـتي لـم يكـن مـن العسـير كشـف الفروقـات بينـك وبينهـا. يلقـي عليـك بعـض الأسـئلة. أنـت تعـرف كلّ مـا تحتـاج معرفتـه عـن صاحـب الجـواز، ويمكنـك تقديـم مـبرّر مقنـع بشـأن سـفرتك. يهـزّ رأسـه وهـو يمـلأ استمارة الدّخـول، ثـمّ يطلـب توقيعـك أسـفلها. توقّـع لاإراديّـا، ثـمّ تنتبـه بغتـة. لـم يكـن ذلـك إمضـاء صاحـب الجـواز، بـل إمضـاءك أنـت يـا مالـك! وشـتّان بـين الإمضاءيـن! يطلـب منـك الموظّـف مرافقتـه، فتنصـاع وأنـت تـكاد تمـيّز شـبح ابتسـامة نـصر مزهـوّة عـلى شـفتيه. لقـد كشـف أمـرك.

في المكتـب الدّاخـلي، كان موظّفـا أمـن في انتظـارك. طلبـا منـك الجلـوس، وطرحـا أسـئلة أخـرى.

- لماذا جئت إلى لبنان؟

- سياحة!

فتحا الحقيبة التي تحوي أغراضك القليلة، فوجدا وثائق دراستك.

- إنّها تخصّ صديقا.. يريد التّسجيل في جامعة دمشق.

سـلّماك جـواز السّـفر وسـمحا لـك بالمغـادرة. لـم تصـدّق أنّـه قـد سمح لـك بالخـروج مـن الـشّرك الـذي وقعـت فيـه بغبـاء بتلـك البسـاطة. فكّـرت حينهـا بأنّـك لا تعتـبر صيـدا ذا بـال بالنّسـبة إليهمـا. وربّمـا يتسـلّيان بمناكفتـك ثـمّ يطلقـان سراحـك في انتظـار صيـد أوفـر قيمـة.

خرجـت مـن المطـار، واسـتقللت سـيّارة أجـرة باتّجـاه فندقـك. وأنـت تغـادر السـيّارة وتمـشي نحـو مدخـل البنايـة، انتبهـت إلى شـابّ مفتـول العضـلات يـنزل مـن سـيّارة سـوداء توقّفـت عنـد المنعطـف. كان يتجـاوزك طـولا، رغـم سـنتيمتراتك المائـة والخمسـة والثمانـين، وبـدا مثـل جـدار فـولاذي متحـرّك. راودك إحسـاس متشـائم بأنـه كان وراءك طيلـة الرّحلـة مـن المطـار، واقتفـى أثـرك إلى داخـل الفنـدق. تقاذفتـك الظّنـون، وأنـت تنهـي إجـراءات التّسـجيل في بهـو الفنـدق، بينمـا يجلـس حارسـك بهـدوء

في قاعة الانتظار. وحالما توجّهت إلى المصعد، تحرّك على أثرك فورا.

لم يطل ترقّبك للمواجهة كثيرا. ما إن التقت دفّتا المصعد لتحبس كليكما في المساحة الضّيقة، حتّى ضغط مرافقك على زرّ الإيقاف، ليظل المصعد معلّقا بين طابقين، بينما ارتفعت قبضة الرّجل باتّجاه صدرك. باغتتك الحركة رغم توقّعك لشيء ما، لكن هذا؟ لم تدرك ما الذي يحصل في البداية، ولم تملك أن تدافع عن نفسك وأنت الضليع في فنون الرّياضات القتالية. كان الموقف خارج توقّعاتك. ثبّتك مهاجمك على الجدار بذراعه الصّلبة، ثمّ شرعت كفّه الأخرى تفتّشك تفتيشا جسديّا حميما. ما لم تجرؤ قوات الأمن على اقترافه في فضاء المطار، تولّى الرّجل تنفيذه بين جدران المصعد. لقد أثرت شكوك ضباط الأمن في المطار في نهاية الأمر. ربّما حسبوك مهرّبا لبعض الممنوعات.

بعد دقائق طويلة من الاستسلام القسريّ، أفلتك رجل الأمن. فُتح باب المصعد، فجررت نفسك خارجه، دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الرّجل. مضيت صامتا إلى غرفتك، مبتلعا المهانة والذلّ. حين بلغت الغرفة، توجّهت مباشرة إلى الحمّام وأنت تلهث. فتحت الحقيبة، أخرجت دفترك وشرعت تمزّق كل الأوراق التي تحمل عناوين الإخوة الجزائريّين الذين عرضوا مساعدتك وأرقام الاتّصال بهم. رميتها كلها في المرحاض وأغرقتها دون تردّد. ثمّ استلقيت على السّرير طلبا للرّاحة.. ونمت بعمق حتّى الفجر.

خرجت بعد الصّلاة لتتمشى في محيط الفندق. كانت الشّمس قد أشرقت، وأخذت تنير طرقات المدينة الخاملة. بعد مغامرة الأمس، كان من المنطقيّ أن يلازمك الحذر. أثناء سيرك، كنت تتوقّف بين الفينة والأخرى أمام إحدى الواجهات الزّجاجيّة، تتظاهر بالفرجة، بينما يمتدّ بصرك إلى المشهد المنعكس على الزّجاج، تختلس النظر إلى ما وراءك، تتثبّت إن كنت مراقبا. لكنّك لم تكن.

-٤-

كانت السّاعة قد شارفت على الثّامنة صباحا حين أوقفت سيّارة أجرة. أعطيت السّائق العنوان. إلى مخيّم صبرا. ثمّ سرح ذهنك في ملكوت الله، تتجاذبه هواجس الهجرة وهلاوس المراقبة. لم تعرف من بيروت أكثر ممّا رأيته في رحلة السيّارة القصيرة تلك، ثمّ التهمتك المخيّمات المكتظّة الخانقة. ستحتفظ في ذاكرتك بوجه قاتم معتم، هو لون تجربتك، لمدينة ملوّنة نابضة بالحياة.

انتهت الرّحلة عند مدخل المسجد، حيث دكّان يبيع الدّجاج. تعرّفت إلى الموقع الذي وصفه سامر. دخلت الدّكان، ولبثت ساكنا. كانت بعض النسوة داخل المحلّ. انتظرت مغادرتهنّ قبل أن تتقدّم إلى البائع وتسأل عن الشّيخ «يحيى».

- سيأتي بعد قليل.. تفضّل واجلس.

على كرسيّ خشبيّ قديم، جلست نحو ثلث الساعة، تتابع عيناك في اهتمام كلّ زبون يدخل المحلّ ثمّ يغادره محمّلا بقطع الدّجاج، دون أن يعيرك انتباهه. ثمّ دخل شابّ في حدود الخامسة والثلاثين، قصير قمحيّ البشرة بلحية كثّة، يلبس زيّا خفيفا وعمليّا ويضع غطاء الرّأس الرّوسيّ. ألقى عليك نظرة واحدة، ثمّ اقترب مبتسما وحيّاك باللّهجة التّونسيّة:

- عسّلامة يا راجل!

لو أنّك لم تكن متيقّنا بأنّك في بيروت، لحسبت نفسك قد انتقلت فجأة إلى تونس. وقفت في دهشة، لتصافح الرّجل الذي كان يتوقّع مجيئك. الشيخ يحيى. كان غزّاويا فتحاويّا ذا انتماء إسلاميّ،

وصاحب نفوذ في المخيّم. درس الشريعة في تونس وتعلّم اللّهجة التّونسيّة. كانت لديه مهارة تقمّص شخصيّات متعدّدة والتمكّن من مختلف اللّهجات العربيّة بسهولة ويسر، وهي ملكة شائعة لدى الفلسطينيّين بشكل عام ستلحظها مع الوقت، نظرا لطول تهجيرهم وتفرّقهم في أصقاع الأرض.

أخذك إلى منزله ودعاك إلى وجبة غداء شعبيّة مشبعة، وقضيت الليلة عنده في انتظار ترتيب مكان إقامة جديد. سرعان ما توفّر المسكن، فقد جاءك الشيخ في الغد برفقة شابّ من معارفه:

- حسن لديه غرفة شاغرة فوق منزل أهله ذات مدخل مشترك مع العائلة. ستقيم هناك حتّى تسوّي وضعيّتك وتلتحق بجامعة بيروت.

لكنّ مساعيك باءت بالفشل. كان عليك تحقيق المعادلة المطلوبة من قبل وزارة المعارف اللّبنانيّة. لكنّ ردّ الوزارة جاء بعد طول انتظار برفض ملفك! كان رفضا غامضا وغير مبرّر، إلّا أنّ دخولك البلاد بأوراق هويّة مزوّرة كان يقفز أمامك كمبرّر قويّ وكافٍ! رغم أنّ طلبك يحمل اسمك الحقيقيّ، مالك الشريف، ورغم الشهادة وبطاقات النتائج لسنواتك الماضية في كليّة الطبّ! وإن لم يكن قد وقع الرّبط بوسيلة ما بينك وبين ياسين عبد الهادي، فهناك مبرّر قويّ آخر.. أن تكون الوزارة قد اتّصلت بالقنصلية التونسية وعرفت بحقيقة فرارك وأنّك مطلوب في بلادك. وهذا يعني أنّ بقاءك في المخيّم لم يعد آمنا.

كنت تتهيّأ للسّفر إلى دمشق برّا، حين وصل خبر للشّيخ يحيى يقتضي الاستنفار العامّ. كان ذلك يوم ١٣ أبريل ١٩٩٦. كانت المناوشات بين إسرائيل وحزب الله قد اندلعت منذ أيّام وتبادل الفريقان بضعة صواريخ في المناطق الجنوبيّة. وبالأمس، اقتحمت طائرات إسرائيلية المجال الجويّ السّوريّ وقصفت موقعا عسكريّا. ستنتشر الأخبار

سريعا ذلك اليوم بمحاصرة إسرائيل لموانئ بيروت وصيدا وصور. كانت الحرب قد أعلنت في المنطقة، وأغلق المطار عشيّتها. لم يكن بيدك إلّا العودة أدراجك.

التحقت بمجموعة الشيخ يحي في مخيم صبرا وشاتيلا، فالبلاد في حالة حرب ولا بدّ من تنظيم المقاومة. كل من بالمخيّم يتذكّر حرب لبنان سنة ١٩٨٢ واحتلال الجيش الإسرائيلي لبيروت، لذلك فقد كانت حالة التأهّب في أقصى مستوياتها. لكن لا أحد من شباب المجموعة لديه خبرة في القتال أو دراية بالشّؤون العسكريّة والحربيّة، باستثناء الشيخ يحي. فكان الخيار إيجاد نقطة استراتيجيّة للمراقبة وتنظيم نوبات حراسة.

وقع الاختيار على عمارة في مخيّم صبرا. كنت في الحراسة مع بعض الإخوة تلك الليلة. حفرتم خندقا قليل العمق في تراب الباحة الأماميّة يمرّ تحت سور العمارة ويسمح بالمراقبة من موقع متوارٍ عن الأعين. كنتم تسمعون أزيز الطائرات الإسرائيلية وهي تحوم حول المنطقة، وتقوم بدوران لولبيّ استعراضيّ.

لأول مرة تواجه الموت عن قرب.

في الحرب، هناك مفردات أخرى يتحدث بها العقل قبل اللسان. فإنّ للحرب لغتها. حين تحمل السلاح لتقتل، وتعلم أن عدوك بيده أيضا السلاح ليقتل.. تتيقن حينئذ أنّ الموت يحوم فوق رأسك، وأنه في كل مُنعطف حولك، وتتضح في ذهنك الصورة.

يا لهذه الحياة.. ننغمس فيها بكلّ ذواتنا وتجرفنا مشاغلها وأحداثها، وكأنّنا خالدون فيها! لا ندرك حقيقة سخافتها إلا حين نقترب كثيرا من الموت، فنصبح قاب قوسين أو أدنى.. نوقن بأنّ جزعنا على تفاصيلها الصغيرة حماقة. لمَ الجزع ما دمنا سنفارق كل

شيء بالموت؟

أيّتها الدّنيا.. غرّي غيري! فلقد عرفتك وعرفت قدرك، فصرت هيّنة عليّ!

شقت الفضاء مقاتلة إسرائيلية نفاثة على ارتفاع منخفض جدا. كاد قلبك ينخلع من بين أضلعك لصوت محرّكها الفتّاك! هل سيقصفون مواقعكم الآن؟ هل لديهم إحداثياتها؟ تسارعت أنفاسك، وتعرّق جبينك، ورحت تتخيل كل لحظة أن قذيفة ستهبط على خندقك فتدكه وتمزقكم أشلاء.

تمنيت فقط لحظتها لو أنك تحتضن أمك للمرة الأخيرة وتقبل يديها.. وأن تقبل رأس أبيك. مرت أكثر من مقاتلة في غارة أخرى. اهتزت العمارة التي تجاور الخندق، حتى شعرتم أن حوائطها ستنهار على رؤوسكم، ليس من قصف حدث، بل من عنف أزيز المحركات النفاثة.

اضطرب قلبك مرة أخرى، ورحت ترتجز بيتين، قفزا إلى خاطرك دون غيرهما -وما أكثر ما تحفظ من الشّعر- لم تعلم تأثيرهما على نفسك سوى تلك اللحظة:

أذلُّ الحياة وعزّ الممَات ... وكلًّا أراه طعاما وبيلا

فإن كان لا بد من واحد ... فسيروا إلى الموت سيرا جميلا

تبادلت مع أحد رفاقك نظرات قلقة، ثمّ اقترحت في ضيق:

- يجب أن ننسحب ونعلم الإخوة!

أومأ موافقا، فانسللتما خارج الحفرة وركضتما نحو المسكن الآمن. بعد تشاور مع أفراد المجموعة، كان القرار بضرورة الانسحاب ضمانا للسّلامة.

في تلك الأيّام، كنت قد تدرّبت بشكل مستعجل على استعمال

السّلاح، وكيفية تركيبه وتفكيكه. وأثناء عمليّة الانسحاب، كنت تحمل بندقيّة آليّة. كنتم مضطرين إمعانا في الحذر إلى سلوك طريق مواربة، تقتضي تسلّق سور المبنى والقفز إلى الجهة الأخرى. كانت عمليّة شاقّة بذاتها، فما بالك إذا أضفت السّلاح على كتفك. تقدّمت ببطء ترفع قدما إثر الأخرى حتّى صرت أعلى الحائط، تنظر إلى الارتفاع الشّاهق الذي ينبغي اجتيازه هبوطا وتتنهّد. تلك مهمّة يسيرة مقارنة بما انقضى. تحكم قبضتك على سلاحك حتّى لا يسقط أثناء الرّحلة وتهمّ بالانطلاق. في تلك اللّحظة، انطلقت زخّة من الرّصاص بصوت قويّ يصمّ الآذان. قفزت على الفور، أو بالأحرى اندفعت دون تفكير لتحطّ كومة واحدة. لقد كان الصوت قريبا. قريبا جدّا. كأنّه من سلاحك! تتفقّد صندوق الذخيرة، بينما يعمّ الهرج من حولك. سبع رصاصات. ذلك هو العدد النّاقص! في حركة لاإراديّة انفكّ صمّام الأمان وانطلقت رصاصاتك الطّائشة. لكنّها لحسن الحظ لم تسبّب سوءا غير الهلع. فكّرت حينها أنّك لن تكون رجل ميدان ولن تحمل سلاحا ما دمت مخيّرا. كنت قادرا على التعرّف على الأسلحة ومناقشة مزايا كلّ منها، لكنّك بعيد عن السّيطرة عليها!

في وقت ما من تلك اللّيلة، تناهت إلى سمعك أصوات انفجارات متتالية. هاجمت الطّائرات محطتي طاقة في بيروت، وانطفأت أنوار المدينة. تفرّقت المجموعة بعد ذلك. التحقت بفرقة دفاع مدنيّ قبلت إيواءك. كنت في منطقة هادئة بعيدة عن خطّ النّار. لم تحتج إلى حمل السّلاح مرّة أخرى، ولم يكن وجودك يشكّل مساعدة فعليّة. كانت الفرقة توفّر لك الإقامة لا أكثر.

بعد أسبوعين، وقّع الطرفان اللبناني والإسرائيلي اتّفاقية وقف إطلاق النّار.

كانت تجربة عملية ثرية لمثلك. لطالما داعب خيالك مصطلح

«الجهاد»، مثل الآلاف من أبناء الحركة الإسلامية. كان لجرس حروف الكلمة وقع سحريّ يحلق بك إلى آفاق علوية، ويشدك إلى مجد ماض تليد.. ولم يكن ينقصك -بعد تجربة السّجن- سوى خوض غمار حرب، وحمل شرف هذا المسمى «مجاهد في سبيل الله»، ليكتمل سجلّك الشّرفي!

ها أنت قد حملت السلاح، ورابطت على ثغر، وقاتلت -ولو نظريا دون اشتباك- أعداء الأمة من الغاصبين! صحيح أنك لم تواجه خطرا محدقا، ولم تشتبك بشكل مباشر، ولم تقتل، أو تلقَ جراحا. لكنّك وقفت ثابتا، وطائرات العدوّ تحلّق فوق رأسك! وقد كانت غزوة! وقد كان حلما وأضحى حقيقة!

كنتم تتواصون في مرحلة الفتوة، في الجامعة، وقبلها بفضل الرباط في الجهاد: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها).

فلتحمد الله.. أن أقرّ عينك، بنوال شرف الجهاد في سبيله!

كانت حالتك الإيمانيّة تتأرجح بشكل عجيب، مثل رقّاص ساعة يزور قطبين متناقضين كلّ ثانية! وقد كانت تلك الأيّام، رغم قسوتها، أيّام علوّ همّة وشحن مكثّف لبطاريّة الإيمان التي نفدت طاقتها أو كادت.

بعد يومين، جمعكم الشيخ يحيى على عشاء شهي في منزله. كانت الدعوة لسريّتك الذين رابطوا معك، وكان يخاطبكم في فخر: (أيها المجاهدون)! ولم لا؟ ألستم وفيتم بما عاهدتم الله عليه؟ وكان الشيخ يحيى «شيخ المجاهدين» آنذاك، قبل أن يرتقي إلى الله شهيدا بعد تلك الحادثة بسنة ونيف على أيدي الصهاينة، وهو يحاول

العبـور تسـلّلا إلى فلسـطين المحتلّـة.. بعـد رحيلـك عـن بـيروت بوقـت قصـير!

وبعـد العشـاء، اجتمعتـم في جلسـة معـدّة عـلى سـطح المـنزل، حيث تناثـرت الوسـائد المريحـة عـلى السـجّاد، وانسـاب شـعاع رقـراق مـن القمـر، أضفـى جـوا مـن الجمـال والدّعـة، ودارت أكـواب الشـاي الأخـضر، ووريقـات النعنـاع المنعـش. التفـت إليـك الشـيخ يحـيى مخاطبـا، وقـد بلغتـه أصـداء ولعـك بالشـعر والإنشـاد:

- اشجنا بنشيد جهادي يا مالك!

واستحسن رفقاء سريّتك الطلب، فرحت تترنّم بصوت رخيم:

فوقَ المنابرِ قِفْ ونادي لبّيكَ يا صوتَ الجهادِ

لـبّيك إنّا ثائرون متى عَـــزَمْتَ على الأعــادي

بالـــدّمّ نكتُبُ للألى ســرّا دفينا في الفـــؤادِ

لِيَلوحَ رَكْبُ محمّدٍ رَكْبُ الغـــطارِفَةِ الشّــدادِ

نــارٌ إذا حـــضر الوغى نــورٌ يَدُلُّكَ للرّشـــادِ

سَمِعَ الهنا صوتَ الجهادِ وبِتَّ من ألمٍ تنادي

بعـد تلـك الأزمـة الدّوليّـة، راجعـت مخطّطاتـك الشّـخصيّة. صـار لزامـا أن تغـادر إلى أوروبـا. وعـدك الشّـيخ يحـيى مـرّة أخـرى بتدبّـر الأمـر، لكـنّ السّـبل ضيّقـة والإجـراءات طويلـة. في الأثنـاء، وجـد لـك عمـلا في مدرسـة تكويـن في اللّغـات والرّقـن عـلى الحاسـب الآليّ. كان صاحـب المدرسـة شـابّا مصريّـا عـلى صلـة بالشـيخ. كنـت تهتـمّ بتسـجيل الطـلّاب -ومعظمهـم مـن الإنـاث- تسـلّمهم بطاقـات الانخـراط وجـدول الـدّوام وتقـدّم التّوجيهـات الأوليّـة. وكثـيرا مـا كنـت تقـدّم أيضـا درسـا بسـيطا في الرّقـن، كلّمـا تغيّـب المـدرّس المـصريّ المسـنّ، وهـو كثـير الغيـاب نظـرا

لحالته الصحيّة المتداعية. لم تكن معرفتك النظريّة السّاذجة تزيد على ما يلمّ به كلّ شابّ في مثل سنّك نشأ على التّرف ودخلت الأجهزة الذكيّة حياته في وقت مبكّر. وقد كانت تلك المعرفة السّطحيّة كافية لتعطي دروسا للغير.

كنت تبيت في المدرسة، وتقوم بمهام التنظيف والكنس أيضا. وفي إحدى اللّيالي، وصلك خبر بتمشيط الحيّ من قبل قوات الأمن اللّبنانيّة، بحثا عن أمثالك من المقيمين غير القانونيّين. قرّرت المغادرة برفقة صديق فلسطيني على الفور. أغلقت المدرسة في وقت مبكّر وخرجتما مشيا على الأقدام. لم تكن لديكما وجهة محدّدة. مررتما بمقبرة موحشة. تبادلتما نظرة متشاورة. لم يكن دخول المقابر ليلا يخيفك، لكنّك لا تمانع إن توفّرت فرصة أوفر رفاهية. استقرّ بكما الرّأي على قطع مسافة مائتي متر إضافيّة، إن لم يحالفكما الحظّ بإيجاد مكان للمبيت، تعودان إلى المقبرة.

بعد حوالي مائة متر، توقّفتما عند عمارة قيد التّشييد. كانت هناك غرفة حارس مضاءة، ثمّ ظلام حالك يسود البناية. تسلّلتما في حذر حتّى المدخل. كانت الشّقق بلا أبواب. تحسّستما الطّريق على ضوء القمر المنساب من شقوق النّوافذ. من حسن الحظّ، كان بالحمّام حوض استحمام. كان مغبّرا تعلوه بقايا موادّ البناء، لكنّه كان سريرا ملائما لتلك اللّيلة. رغم كلّ شيء، نمت بعمق حتى الصباح.

لم يستمرّ عملك في المدرسة طويلا. كان كلّ شيء ينبئ بنهاية قريبة، بداية من صحّة الأستاذ المتردّية وصولا إلى تشغيل أمثالك للاضطلاع بأكثر ما يمكن من المهام من باب التوفير. كان صاحب المدرسة يعاني من أزمات مالية متكرّرة، وبعد شهرين من إقامتك في المبنى، تقرّر إغلاقها. استعاد صاحب المؤسّسة المفاتيح، وبتّ بلا مأوى مرّة أخرى. أقمت لأسابيع مع بعض الشّباب اللّبنانيّ في مخيّم

لـم تتوفّـر فيـه أدنى مرافـق الحيـاة الكريمـة. ثـمّ توسّـط الشـيخ يحـيى -مـرّة أخـرى- لمعالجـة وضعـك، فالتحقـت بمسـجد هـو جـزء مـن جامعـة بـيروت العربيّـة.

منـذ غـادرت شـقّتك في ضاحيـة الفـرسى، تنقّلـت بـين مسـاكن عـدّة، كلّهـا تتنافـس في تعليمـك الزّهـد والتّواضـع! أنـت المزهـوّ بمكانـة عائلتـك الاجتماعيّـة وإمكاناتهـا الماديّـة، لقـد كان كلّ حديـث مـن الأجهـزة المنزليّـة يصلـك إبّـان ظهـوره، ومفروشـاتك الجميلـة الفاخـرة يتـمّ تغييرهـا كلّ سنة بأخـرى جديـدة. كنـت تعيـش ترفـا حقيقيّـا. وتلـك الغـرف الخاليـة تقريبـا مـن كلّ أثـاث، ذات الجـدران المتـآكل طلاؤهـا، تتضـوّع في فضائهـا رائحـة نفّـاذة هـي مزيـج مـن رائحـة السّـجائر والمجـاري والأنفـاس الكريهـة لسـوء تهويتهـا.. كيـف يمكـن أن تكـون مـأوى لأمثالـك؟ كنـت تـنزل دُركا إثـر آخـر، حـتّى وصلـت إلى الحضيـض.

وقد كان الحضيض مقصورة إمام الجمعة!

أقمـت بتلـك المقصـورة الضيّقـة الخانقـة، وقـد كانـت عـلى ضآلتهـا تحـوي مكتبـة ودورة ميـاه. لكـنّ المكتبـة المهملـة كانـت قـد غـدت مرتعـا للقـوارض الـتي تتسـلّل مـن المرحـاض. لـم تكـن تدخـل مخدعـك إلّا في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، بعـد أن يتـمّ إغـلاق المسـجد، وإلّا فإنّـك كنـت تؤثـر السّـهر في مجالـه الرّحـب، حـتّى يـؤذن لـك بالمغـادرة. ومـا إن تغلـق عليـك بـاب المقصـورة حـتّى يتملـكّك الجـزع. كنـت تـرصّ الكتـب والمجـلّات عـلى الأرض وتضـع حشـيّة نومـك عليهـا خوفـا مـن الفـئران الـتي يأتيـك حفيـف أقدامهـا كلّ ليلـة وهـي تـذرع فضـاء الغرفـة جيئـة وذهابـا، فـلا يـزورك النّعـاس إلّا بعـد لأي.

ذات يـوم، زارك الشـيخ يحـيى الـذي أهمّـه أمـرك. قدّمـت لـه عـلى اسـتحياء كوبـا مـن الشـاي، مقرونـا ببعـض قطـع الكعـك والحلـوى

اللبنانيـة، وكان كل مـا تملـك في غرفتـك البائسـة مـن طعـام. وشـق عليـك حالـك، وأشـفقت عـلى نفسـك الـتي أزرى بهـا الدّهـر.. وأنـت الكريـم ابـن الكـرام. كان جـود يـدك، وكـرم ضيافتـك مـضرب الأمثـال أينمـا حللـت.. فطفقـت تعتـذر لضيفـك عـن تواضـع مـا قدمـت إليـه، لضيـق ذات اليـد، الـذي يعلمـه دون حاجـة منـك لـشرح.

زفرت متأوها:

- آه يا شيخنا، لقد ضاقت الدنيا في عيني وكأنها ثقب إبرة.

ثم رغبت في تلطيف ذاك الجوّ الحزين، فقلت ممازحا:

- هـل أنشـدك شـعرا؟ فأنـا أحفـظ الكثـير.. هـل تطـرب للشـعر يـا شـيخ؟

قال الشيخ مبتسما، ولم يكن جاهلا بهوايتك تلك:

- هات ما عندك!

أدخلـت أصابـع يديـك كلتيهمـا -كعادتـك- في خصـلات شـعرك، تتخللهـا لتـأتي بهـا للخلـف، والتمـع بريـق في عينيـك، وتلـك عـادة لازمتـك حـين تتحمّـس لفعـل أمـر تهـواه نفسـك، وتمثلـت أبياتـا لأبي فـراس الحمـداني قالهـا في الأسر، وهـو مكـروب محـزون، في ذلّـة القيـد، وهـو الفـارس الأمـير:

سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جِـدّهُمْ ... وفي الليلة الظلماءِ يفتقدُ البـدرُ

ولوْ سدَّ غيري ما سددتُ اكتفوا بهِ ... ما كانَ يغلو التِّبرُ لو نفقَ الصفرُ

وَنَحْنُ أُنَـاسٌ، لا تَـوَسُّطَ عـندنا ... لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أو القَبرُ

وَإنْ مُـتّ فالإنْسَانُ لا بُدّ مـيّتٌ ... وإنْ طَالَتِ الأيّامُ وَانْفَسَحَ العُمْرُ

ضحك الشيخ في هدوء وعلم ما يجيش بفؤادك.. ثمّ قال مترفّقا:

- أعلـم يـا مالـك أنّ هـذا وضـع ليـس لمثلـك.. لقـد طالـت فـترة

إقامتك هنا دون هدف. وقد صار من الضّروري لك أن تتعلّم صنعة تقتات منها وتعيل نفسك بدل التنقّل المستمرّ من مأوى مؤقت إلى آخر.

ولم يكن بوسعك إلّا أن توافقه الرّأي. كنت قد مللت الانتظار والترحال بلا فائدة ترجى. وكان لدى الشّيخ يحيى مرّة أخرى خطّة مناسبة من أجلك. كنت تتحرّج كلّما سدّت الأبواب في وجهك من طلب مساعدته، لكنّه لم يكن يعدم التّدبير، فيخرج من «جراب الحاوي» كلّ مرّة حلّا جاهزا لأزماتك المتكرّرة. تنقّلت بين المخيّمات والمساكن التي تتفاوت مستويات تجهيزها والرّفاهية فيها، لكنّك بفضل الشيخ لم تعان الوحدة والتشرّد. من أجل كلّ ذلك، أومأت في استسلام، وباشرت من الغد عملك الجديد.

كان قد وجد لك مكانا في ورشة كهربائيّ، تتعلّم عنده تلفيف المحرّكات. لم تبارح مسكنك في مسجد جامعة بيروت، وبدأت التردّد على المحلّ من الثامنة صباحا وحتّى الخامسة مساء. بعد ستّة أشهر -وقد صبرت كثيرا إكراما للشيخ يحيى- أيقنت أنّك لا تتقدّم في تعلّم الحرفة. كان صاحب الورشة شديدا في المعاملة، ولم يكن يهتمّ بما تتقنه طالما كان المحرّك يعمل! فوجدت نفسك تتعلّم بتقليب محرّكات الحرفاء، تفتحها وتجرّب كلّ شيء لعلّها تعمل! نعم هذا ما كنت تفعله. وقد حالفك الحظّ -أو لعلّه تفكيرك المنطقيّ السّليم- فأصلحت معظم المحرّكات التي عهدت إليك، دون أن تقرأ مرجعا واحدا في الهندسة الكهربائيّة أو تتلقى تدريبا من أيّ نوع. كان بوسعك أن تصبح كهربائيّا، مثل معظم الكهربائيّين في سوق المهنة، تخاطر لتصلح الأجهزة وتتهوّر أحيانا، وتعتذر في برود إذا ما أفسدتها. لكنّ ساعات انكبابك على المحرّكات طيلة الشّهور السّتة المنصرمة، غذّت في صدرك حلمك القديم. أنت تريد أن تكون طبيبا، وستفعل

مهما كلّفك ذلك.

كانت وضعيّتك القانونية في بيروت غير قابلة للتّسوية. أما والأمر كذلك، فلا مفرّ من هجرة جديدة. كانت باريس تناديك، بملء صوتها، كلّ ليلة في منامك، وكلّ صباح في صحوتك وأنت تزاول عملك في الورشة.

في الأثناء، كنت توهم عائلتك بأنّك قد وصلت إلى باريس بالفعل. كان تواجد الحركة الإسلاميّة قد غدا كثيفا في المهجر بشكل عام، وفي باريس بشكل خاص. وكان الشيخ يحي قد يسّر لك توصيل الرّسائل عن طريق ملتفّة تمرّ بالأردن ثم فرنسا، حيث يقطن قريب له يعيد إرسال الظّروف بختم فرنسيّ. لم تكن اتّصالاتك بهم كثيفة في تلك الفترة، بل لعلّه كان خيارا استراتيجيّا منك، فلا تعلمهم بأنّك في بلاد حرب فتقلقهم عليك، ولا تعلمهم بموقعك المحدّد فتؤكّد تواطؤهم في تهريبك. لم تكن تصلك منهم ردود إطلاقا. أنت بلا عنوان بالنّسبة إليهم. ورسائلك لم تكن سوى إشارات طمأنة مقتضبة، حتّى يدركوا أنّك حيّ ترزق. لم ترفع سمّاعة الهاتف لتتصّل مرّة واحدة. كنت تؤجّل ذلك حتّى تسوّي وضعك، تستقرّ وتباشر الدّراسة من جديد. لكنّ التّأجيل استمرّ ثلاث سنوات كاملة، هي عمر رحلة العبور عبر قارات ثلاث.

لم تكن المغادرة من مطار بيروت متاحة، حتّى لا تتعرّض إلى سين وجيم من النظام الأمنيّ، لكنّها ممكنة عبر طرابلس لبنان. انتقلت إذن إلى طرابلس، حيث توفّر قارب صيد مستعدّ للمجازفة. ودّعت الشّيخ يحي ورفاق المخيّم بحرارة وحسرة، وسالت عبرات الإخوة سخيّة وأنت تشاركهم الأحضان والعناق. لقد كانت مرحلة لبنان «مؤقّتة» منذ اليوم الأوّل، لكنّها طُبعت في فؤادك لما صاحبها من أحداث مثيرة ومواقف مؤثّرة وصداقات صادقة.

كان هنـاك أخـوان لبنانيـان يرافقانـك، أحدهمـا يقصـد السّـعوديّة، والثّـاني يـروم بعـض السّـياحة في قـبرص. هـل خامـر تفكـيرك حينهـا أن تحـذو حـذو الأوّل وتصاحبـه في رحلتـه إلى الرّيـاض؟ لا شـكّ أنّـك فعلـت، ولـو لوهلـة بسـيطة. لكـنّ تركـيزك عـاد لينصـبّ عـلى الهـدف الواضـح الـذي تريـده: كليّـة الطـبّ في باريـس.

أفـضى الرّبّـان إلى ثلاثتكـم بمـا يتكهّنـه مـن خطـر محـدق بالرّحلـة. كان مـن الـوارد أن تعـترض سـبيلكم دوريّـة بحريّـة إسرائيليـة، فيلقـى القبـض عـلى أربعتكـم. لكـن مـن لطـف الله بـك -مـرّة أخـرى- وبرفـاق رحلتـك، أبحـر القـارب في سـلام، ولـم يلـح أيّ تهديـد في الأفـق. وفي تلـك الأوقـات كنـت تتسـاءل عمّـا يخفيـه قـدرك بعـدُ، من مراوحـة بـين اللّطـف والابتلاء. كانـت فـترات عصيبـة تعتـصرك، ثـمّ يسـبغ الله رحمتـه.. لعلّـه يبتليـك أتشـكر أم تكفـر؟ وقـد كنـت تتقلّـب بـين الاثنـين، تمـرّ بـك سـاعات تكـون فيهـا شـاكرا حامـدا متقبّـلا لاختبـارك الدّنيـويّ القـاسي.. وسـاعات أخـرى تنقـم فيهـا عـلى حياتـك البائسـة الـتي لا تسـاوي جنـاح بعوضـة!

وصلتـم إلى شـواطئ جزيـرة نائيـة غـير بعيـد عـن سـواحل اليونـان. تطـوّع صاحـب المركـب رغـم الأجـر الزّهيـد الـذي نقدتمـوه لتدبـير وثائـق دخولكـم إلى البوّابـة الأوروبيّـة. ترككـم طيلـة النّهـار وقـضى يومـه في السّـمسرة والاتّصـالات يمينـا وشـمالا حـتّى وفّـر تأشـيرات دخـول إلى الـتّراب اليونـانيّ لـك وللشـابّ اللّبنـانيّ الثـاني! حصلـت عـلى وثيقـة سـفر قانونيّـة مـن نقطـة عبـور جنـوب البـلاد. قضيـت ليلتـين في فنـدق رخيـص قريـب مـن البحـر، وفي اليـوم الثالـث كانـت هنـاك رحلـة باتّجـاه باريـس عـبر الخطـوط الألمانيّـة.

بعـد أن تجـاوزت شـبّاك الجمـارك بوثيقتـك اليونانيّـة، اتّجهـت إلى أقـرب جهـاز هاتـف عموميّ. كوّنـت الرّقـم في لهفـة تصارعـك منـذ ثـلاث سـنوات، وهمسـت بصـوت مزيّـف الاتّـزان، مثقـل بالعاطفـة، مـا إن

وصلـك الـردّ مـن الجانـب الآخـر:

- أمّي.. كيف حالك؟

الفصل الرّابع

- لقاء -

-١-

كانت هناك تجربة النّضال السّياسي، والسّجن المتكرّر، ومحاولة الانتحار، ثمّ الهرب برّا وجوّا وبحرا، والجهاد في سبيل الله، والشّتات التّام عن نفسك ومحيطك، قبل أن تجد نفسك مجدّدا على مقاعد الدّراسة! كان من اليسير عليك بعد كلّ ذلك اجتياز اختبار التّأهيل لدخول كلّية الطبّ بباريس «ديديرو» دون المرور بمقاعد المدرسة التحضيريّة. ما تحتاج أن تعرفه كنت قد خزّنته في ذاكرتك منذ زمن بعيد، حين جلست على مقاعد نظيرتها في تونس العاصمة.

رافقتك الوحدة في سنوات دراستك الباريسيّة الأولى. كانت صداقاتك قليلة على الدّوام، تنتقي بدقّة من تخالط ومن تصاحب. وكان عددهم أقلّ في الغربة. شلّة أربعة أنت خامسهم، لكنّك لا تراهم إلّا فيما ندر -لظروف دراستك وعمل كلّ منهم- أيّوب وغالب وحاتم ومحسن.

أيّوب طبيب مثلك، تعرّفت إليه في كليّة الطبّ في تونس أيّام دراستك هناك. لحق بك إلى باريس منذ سنوات قليلة من أجل التخصّص. لم يعرف السّجن وليست لديه سوابق عدليّة ولا انتماء سياسيّ. يفضّل أن يكون على الحياد، جانحا إلى السّلم بعيدا عن الاستهتار، وإن كان انتماؤه الإسلاميّ الوسطيّ نقطة مشتركة بينكما.

أمّا غالب، فهو «رفيق كفاح»، تقاطعت طرقكما في سجن «٩ أفريل» حيث كان يقضي فترة محكومية تبلغ أضعاف أضعاف فترتك الأولى.. لذلك التقيتما مجدّدا في اعتقالك الثاني والثالث! كان لا يزال هناك، يراوح مكانه، بينما تخرج وتدخل. أطلق سراحه أخيرا بعد

أن تعـرّض لعاهـة مسـتديمة في عينـه اليـسرى، وطالبـت عائلتـه بترحيلـه للعـلاج خـارج البـلاد. بعـد شـدّ وجـذب اسـتمرّا لسـنتين مضنيتـين فقـد خلالهمـا غالـب الرؤيـة بعينـه المصابـة بشـكل كامـل، جـاءت الموافقـة عـلى هجرتـه. لـم يرجـع إلى تونـس منـذ ذلـك الوقـت. تعلّـم السّـباكة مـع معلّـم جزائـريّ، ثـمّ أصبـح يديـر محلّـه الخـاصّ. لـم يفكّـر أبـدا في اسـتئناف دراسـته للهندسـة المعماريّـة.

حاتـم، رفيـق صبـاك، أقـرب الأصدقـاء إلى قلبـك. ارتدتمـا نفـس المـدارس في الرّيـاض. كان شـاهدا عـلى نجاحاتـك في المراحـل الابتدائيـة والمتوسـطة والثانويّـة.. ومـن العسـير عليـك أن يشـهد أفـول نجمـك الذي ظـنّ الجميـع أنّـه سيسـطع عاليـا، أعـلى مـن الجميـع. حـين رجعـت أنـت إلى تونـس لاسـتكمال دراسـتك الجامعيّـة، حـطّ هـو في باريـس مبـاشرة لدراسـة العلـوم السّياسـيّة. كان سـلفيّ المنهـج والسّـمت، وأكـثر الرّفـاق حرصـا عـلى السّـواك والقميـص الأبيـض المكـويّ بعنايـة يـوم الجمعـة، كأنّـه لـم يغـادر المملكـة السّـعوديّة يومـا. اهتمامـه بعلـوم السّياسـة كان عـلى الـدّوام مصـدر اسـتغراب لـكلّ مـن عرفـه، وهـو خرّيـج المـدارس السّـلفيّة المحافظـة. شـكله وعقلـه يشـكّلان مفارقـة يعجـز الجميـع عـن حـلّ لغزهـا.

آخرهـم محسـن، وهـو الوحيـد الـذي لـم يجمعـك بـه تاريـخ قديـم. التقيـت بـه في باريـس، حيـث كان والـده مـن اسـتقبلك أوّل وصولـك بتوصيـة مـن والـدك. عـاش معظـم حياتـه هنـا، حيـث هاجـرت عائلتـه في وقـت مبكّـر. مثـل والـده درس الحقـوق، وتخصّـص في قضايـا حقـوق الإنسـان. لديـه سـجلّ حافـل رغـم صغـر سـنّه مـع حـالات اللّجـوء والنّفـي.. ويشـارك باسـتمرار في اجتماعـات سياسـيّة مـع ممثّلـين لتيّـارات معارضـة مختلفـة، هدفهـا الحصـول عـلى تسـوية مـع الحكومـة التونسـيّة والسّـماح للمنفيّـين بالعـودة إلى الوطـن.

هذا النّسيج غير المتجانس من الأشخاص، كنت أنت همزة الوصل بينهم. عن طريقك، تعرّف بعضهم إلى البعض الآخر، وامتدّت عرى المودّة بينهم حتّى تخالهم عرفوا بعضهم منذ أمد بعيد. لو أنّك اختفيت، فلن يؤثر ذلك في صداقتهم. وقد تصيبك الغيرة من حين إلى آخر، خاصّة من العلاقة الوطيدة التي أصبحت تجمع أيّوب بمحسن. كلّما بلغك لقاؤهما في مكان ما، وإن كان صدفة، «من وراء ظهرك»، أحسست بوخزة في صدرك. أنت الذي عرّفت أحدهما بالآخر، لذلك «يجب» أن يكون لديك مكان دائم في أيّ جلسة تجمعهما!

جميعهم متزوّجون، وهو أمر منطقيّ لمن جاوز الثلاثين مثلك. حتّى غالب، رغم عاهته، ورغم جروحه العميقة وتجربته الدّاميّة، فقد تزوّج من ابنة معلّمه الجزائريّ بعد فترة وجيزة من وصوله إلى باريس! وكانوا يمازحونك في جلساتهم، ويحثّونك على الاستقرار وإيجاد شريكة الحياة المناسبة.. بل كثيرا ما يعرض عليك أحدهم أن يعرّفك إلى شقيقة زوجته أو إحدى صديقاتها. لكنّك كنت تبتسم، وتشيح بوجهك، وتتمثّل وجه سارة الدائريّ الصغير وابتسامتها الهادئة. لم تكن تريد غيرها.

كانت معاييرك قد اختلفت في مرحلة ما، لست تدركها. مباشرة بعد وصولك إلى تونس، كان الجمال الصّاخب هو ما يشدّك ويحرّكك. تتبّع قامات الحسناوات وشعورهنّ المتهدّلة، وتبحث عن جمال شكليّ زائل. بعد تجاربك القاسية، تغيّرت نظرتك للجمال وغدت أكثر نضجا. لم تعد الفتى الغرّ الذي تذيبه ابتسامة متغنّجة. وأنت في منتصف الثلاثينيات، صار همّك أن تجد شاطئا آمنا ترسو عليه سفينتك، وأن ترتبط بمن تعينك على نوائب الدّنيا، تقوّيك وتشدّ أزرك.

في الجامعـة، كنـت وحيـدا شريـدا. كان فـارق السـنّ يدفعـك إلى الانـزواء عـن الشّباب الغرّ الـذي تحاذيـه في قاعـات المحـاضرات ومخابـر التّجـارب وأروقـة المستشـفى الجامعـي. وحدهـا سـارة شـدّت انتباهـك، ووحدهـا تجـرّأت عـلى اقتحـام عزلتـك. تسـاءلت حينهـا، هـل تراهـا ملّـت مـن تفاهـة الشّبّان الذيـن يماثلونهـا سـنّا ورغبـت في مقاربـة رجـل ناضـج، فحـطّ اختيارهـا عليـك؟ أم تـراه الفضـول تجـاه قصّتـك الشـخصيّة الغامضـة مـا دفعهـا إلى الاقـتراب منـك؟ ولعلّهـا تلـك الألفـة الحتميّـة بـين مسـلميْن مغتربـيْن مـا حطّـم حواجـز السـنّ وطـوى المسـافات الـتي تفصلكمـا دون وعـي منهـا؟ مهمـا كانـت دوافعهـا، فأنـت ممـتنّ. فمنـذ اللحظـة الـتي خاطبتـك فيهـا، تحـوّل قفـار روحـك عمـارا، وجَـرَدُ قلبـك ينْعـا.

كانـت العلاقـة بينكمـا جـادّة ورسـميّة، مثـل أيّ زميلـين في الجامعـة. وكنـت قـد توقّفـت زهـاء السّـتة أشـهر عـن مراسـلتها واكتفيـت بحضورهـا أمامـك مثـل فراشـة رقيقـة، تمـرّ أمـام عينيـك بخفقـات أجنحتهـا المتسـارعة، فتراقبهـا عـن بعـد، مكتفيـا بكلمـات وجـيزة تجـود بهـا مـن حـين لآخـر. ظننـت أوّلا أنّ الغيـاب يُسـهّل عليـك المهمّـة ويجنّبـك حـرج مواجهتهـا.. لكـن تبيّـن لـك إبّـان إجـازة منتصـف السّـنة أنّ الغيـاب يؤجّـج الشّـوق، فتعوّضـك الكتابـة إليهـا عـن مشـاهدتها رأي العـين! كتبـت إليهـا مـرّة أخـرى، أثنـاء الإجـازة الـتي مـن المفـترض أن تنهمـك خلالهـا في مراجعـة جـادّة، تـأتي بعدهـا اختبـارات حاسـمة. لـم يكـن هنـاك الكثـير ليقـال، بعـد أن سردت مشـوار حياتـك في رسـائلك السّـابقة.

أن تناجـي محبوبـا، ولا يأتيـك جـواب سـوى رجـع الصـدى، فتلـك تجربـة محبطـة! شـعرت تلـك الليلـة أن معينـك قـد نضـب، وأنّـك لا ترغـب أن تذكـر لهـا المزيـد مـن أحـداث حياتـك المؤلمـة. كفـى المسـكينة مـا ابتليتهـا بمعرفتـه.. ومـا عليهـا مـن كل هـذا الشـقاء؟

لكن معين الشعر لا ينضب.. وأنت فارس هذا الميدان دون منازع! اعتصرت ذاكرتك الشعرية، تنتقي من شعر الغزل العفيف أرقّه وترصف الأبيات التي تحقّق مرادك وترتّبها لتصنع مقطعا جديدا. وراحتِ أناملك تتراقص على لوحة المفاتيح، كأنها تعزف على البيانو:

مُعَذِّبتي لولاكِ ما كنتُ هائما ... أبيتُ سَخينَ العين حَرَّانَ باكيا

أَعُدُّ اللَيالي لَيلَةً بَعدَ لَيلَةٍ ... وَقَد عِشتُ دَهرا لا أَعُدُّ اللَيالِيا

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني ... أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بِاللَيلِ خالِيا

خَليلانِ لا نَرجو اللِقاءَ وَلا نَرى ... خَليلَينِ لِّا يَرجُوانِ تَلاقِيا

وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعسَةٌ ... لعَلَّ خَيالا مِنكِ يَلقى خَيالِيا

مثل المرّة الأولى، لم يكن لديك أدنى أمل بأن يأتيك ردّها.. وكيف لها أن تردّ على أبياتك الجامحة الجريئة وهي التي تجاهلت كلّ هذا الوقت اعترافاتك المخلصة؟ لكنّك دأبت على تفقّد بريدك الوارد مثل العادة، حتّى هبطت المفاجأة الصّاعقة على أمّ رأسك بعد يومين: وردت رسالة منها!

تذكر ردّة فعلك حين وقعت عينك على عنوانها في صندوق بريدك؟ فقد هببت واقفا كالملدوغ، وسقط الكرسيّ خلفك من عنف الحركة، ورمشت عيناك بعصبيّة، قبل أن تجرؤ على فتح الرسالة. وسبّابتك تعبر المسافة تجاه لوحة المفاتيح، انتقلت تعبيراتك بسرعة بالغة من الاحتفاء إلى الوجل. ماذا لو كان فحوى رسالتها سيلا من الشّتائم؟ قلت في نفسك: لا بأس! لا ضير في ذلك طالما خرجت من ظلال التّجاهل إلى نور التّواصل! لماذا كلّ هذا القلق والارتباك أمام رسالة مغلقة؟ مهما كان ما تحمله، فهو خير من عدمها. نقرت على العنوان، والتهمت السّطور التي ظهرت أمامك في ثوانٍ، ثمّ عدت لقراءتها من جديد على مهل:

«متى فكّرت في الانتحار آخر مرّة؟

هل تشغل وقتك بأنشطة طبيعيّة: عمل أو دراسة؟

هل تعاني من اضطرابات النّوم؟

هل تعاني من نقص الشّهيّة؟

هل لديك علاقات اجتماعيّة، صداقات؟

هل تمارس هواية ما؟

هل تعاني من الخمول وعزوف عن الحياة الاجتماعيّة؟

هل تجلد ذاتك بعبارات متشائمة؟

كيف هو تقديرك لذاتك؟».

وقفـت مشـدوها أمـام مجموعـة الأسـئلة التحقيقيّـة الـتي فاجأتـك بهـا، دون تحيّـة أو مقدّمـات، وقبـل أن تنجـرف إلى الاحتفـاء باهتمامهـا غـير المتوقّـع، تذكّـرت واجـب درس «علـم النّفس السّـلوكي» الأخـير! فمـا لبثـت أن انفجـرت ضاحـكا، وأنـت لا تصـدّق مـدى دهـاء تلـك الصّغـيرة! هـل تحـاول أن تسـتغلّك كعيّنـة لدراسـتها الاسـتقصائيّة حـول «السّـلوك الانتحـاريّ»؟ أعـدت تـلاوة الأسـئلة في ذهـول.. لا شـكّ لديـك في أنّهـا تفعـل!

فكّـرت كثـيرا بعـد ذلـك. نازعتـك رغبـة نزقـة في مشـاغبتها وردّ الصّـاع صاعـين. اعتـصرت دماغـك ليومـين، تسـتنبط دعابـة تليـق بتحقيقهـا الجـريء، تكتـب ثـمّ تمسـح. ثـمّ أصابـك فتـور مفاجـئ. مـا كنـت فيـه كان منتهـى العبـث، وقـد آن للهـوك أن ينتهـي.

لـم تـردّ عـلى رسـالتها تلـك أبـدا. ولـم تعـد إلى مراسـلتها بعـد ذلـك إطلاقـا. أيقنـت بعـد برهـة قصـيرة بـأنّ مشـاعرك قـد وصلـت إلى مرحلـة اللّاعـودة، وقـد بـات محتّمـا عليـك أن تعـترف. كلّ ذلـك اللـفّ والـدّوران

كان بلا فائدة. كنت قد دخلت دائرة معارفها الآن، وقد صار التّواصل المباشر معها متاحا، فماذا تنتظر؟

كان عليك أن تتخذ خطوة حاسمة، وتعبر الجسر حتّى بابها.

تذكر يوم جلستما في ركن المكتبة لتتحدّثا مطوّلا. مطرقا كنت، بينما تتدفّق الكلمات من شفتيك بصوت جادّ وقور. كنت تبثّها اعترافات سبق أن وصلتها على البريد الإلكتروني، باستفاضة ودون تنميق. تعرّي سوأتك أمام عينيها وتكشف ماضيك الحافل بالنكسات والكُربات. تعيد على مسمعها الرجاء نفسه.. هل تداوين جراحي؟ تذكر صمتها الطّويل، دهشتها، وهي تكتشف متأخّرة هويّة مراسلها الغامض، اختناقها بعبرة لا تدرك لها سببا، ثمّ كلماتها الهادئة التي انسابت فجأة وقد كاد يصيبك اليأس:

«لا تحزن إنّ الله معنا».

كلّ شيء تلا ذلك اللّقاء كان مثل حلم جميل. كيف عرّضتَ بالارتباط، فألفيتها تطرق في خفر وتفرّ من أمامك حياء. وكيف دخلت منزل والديها، مرتبكا بلا ثقة، فدافعت عنك بضراوة وتحمّلت عنك الاعتراضات والمساءلات. هل كان تهوّر شباب منها؟ أم عاطفة صادقة لا تقبل المساومة؟ مهما كان ما يحرّكها، فقد استغللته بلا تردّد. وهل يسعك أن ترفض عطاياها وأنت الفقير إلى كلمة منها؟

في علاقتكما، كانت هي الآخذة بزمام المبادرة. ولم تشعر على امتداد السُّنوات الثلاث التي عرفتها خلالها، أنّها أنثى ضعيفة، تحتاج إلى رجل يجبر كسرها، ويكمّل نقصها. كانت حيّية، قليلة الثرثرة، زاهدة في الزّينة، معرضة عن اللّغو، ولم تكن تبتزّ عواطفك بإفراط في الدّمع أو استجداء الاهتمام، كما تفعل غالبيّة البنات في سنّها مع خاطب ودّهنّ. وقد يصادف أن تتجاهلك لأيّام، فتحسبها تتعمّد

الإعـراض لغضبهـا مـن أمـر تجهلـه. فـإذا مـا قصدتهـا تسـأل عـن أسـباب إعراضهـا، فاجأتـك بدهشـتها، فهـي لـم تقصـد شـيئا ممّـا فهمـت، بـل هـي منشـغلة لاهيـة عنـك وعـن ظنونـك!

كانـت الفـترة الأولى لعلاقتكمـا عسـيرة عليـك، حـتّى تعـوّدت عـلى طبعهـا وعرفـت مفاتيحهـا. كنـت تعتمـد في البدايـة عـلى تجاربـك السّـابقة في تقييـم سـلوكها، أو بالأحـرى عمّـا تسـمعه مـن الشّـباب في مثـل سـنّك عـن خطيباتهـم. لكنّـك ألفيـت سـارة في غايـة الاختـلاف. لـم تطلـب منـك أن توقظهـا برنّـة عـلى هاتفهـا لصـلاة الفجـر، ولا أن تقومـا اللّيـل «معـا» كلّ منكمـا في غرفتـه، فيذكـر أحدكمـا الآخـر في دعائـه، ولا أن يكـون لكمـا ورد ذكـر وتـلاوة مشـترك.. لـم تكـن «رومانسـيّات» الشّـباب الملـتزم تلـك تعـني لهـا شـيئا، ولـم تحـاول أن تشـدّك إليهـا عمـدا بـأيّ نشـاط يجمعكمـا، فتجـد مسـوّغا لمزيـد مـن النّظـرات واللّفتـات «البريئـة». في الحقيقـة، لـم يختلـف شيء في سـلوكها قبـل الخطبـة وبعدهـا. بقيـت تتـصرّف عـلى سـجيّتها، تـروح وتجـيء في دروب كلّيّـة الطـبّ مـع رفيقتهـا المعتـادة، وإذا التقـت خطواتكمـا حيّتـك كغريـب، أو سـألتك مـا أرادت بـكلّ عفويّـة، كمـا تفعـل منـذ البدايـة!

ولشـدّ مـا حيّرتـك، وأرقـك التفكـير في مغـزى سـلوكها. هـل هـي بـاردة بطبعهـا؟ ألـم تحـرّك فؤادهـا كمـا ألهبـت عواطفـك؟ هـل أنـت بحاجتهـا وهـي مسـتغنية عنـك؟ لمـاذا تبـدو ملهوفـا متحرّقـا للقياهـا ومرآهـا ومبادلتهـا أطـراف الحديـث، في حـين تغـالي هـي في التمنّـع وكأنّ شـأنك لا يعنيهـا؟ تقـف كلّ صبـاح عنـد مدخـل الجامعـة، تراقـب الوافديـن في قلـق محمـوم، لا يهـدأ لـك بـال حـتّى تلمحهـا قادمـة مـن طـرف الشّـارع، فتتشـاغل بـأيّ شيء متظاهـرا بعـدم الاهتمـام، حـتّى تلقـي هـي عليـك التحيّـة! وآه ممّـا يحـلّ بـك إذا هـي يومـا تأخّـرت أو تغيّبـت! كيـف كانـت تلعـب بـك الظّنـون وتأخـذك إلى دهاليـز لا تنتهـي، وتتـوه مـن نفسـك

كأنّما أخذت روحك معها!

وغدا وقتك كلّه، بين بهجة أن تكون إلى جوارها، أو لهفة الانتظار كي تكون معها مرّة أخرى.

هل تعيش أنت مراهقة متأخّرة؟ أم هي التي نضجت سريعا قبل الأوان؟

عذّبتك طويلا تبعيّتك العاطفيّة. ولم يردعك عن مطاردتها بالرّسائل والاتّصالات إلّا خوفك من شكّها في رجولتك ونضجك! وأيّ شيء قد يكون شدّها إليك غير تلك الرّجولة الكاملة التي توحي بها مغامرات شبابك، ونضجك العميق الذي تفرضه سنّك؟ ولولا حفاوتها بك حين تزورها في منزل والديها، وإصغاؤها الجميل لكلّ ما ترغب، وإقبالها على مناقشتك في شتّى اهتماماتك، ومصارحتها لك بما تحبّ وتكره، لشككت في رغبتها في إتمام الخطبة. وفي حين أنّها تقتضب كلماتها في فضاء الجامعة، فإنّها تُسهب دون حرج، حين يكون أحد والديها شريك الجلسة. ثمّ إنّ لهفتك قد هدأت بعد شهور الخطبة الأولى، واستراح بالك من الشّكوك المضنية حين أدركت كم تراقب الله فيك!

وهل كان ذلك إلّا ليزيدك لها حبّا وبها تعلّقا؟ كانت الملاك الطّاهر الذي لطالما حلمت بأن يؤنس وحشتك ويداوي جراحك. ولم يكن يثقلك إلّا طول الانتظار، حتّى تنهي دراسة الطبّ.

في يناير ٢٠٠٢، كنت قد أنهيت اختبارات المرحلة الأخيرة، ولبثت مترقّبا النتيجة. نجاحك في اختتام سنوات الطبّ الخارجيّ شبه مضمون، لكنّ الترتيب يعني الكثير. كلّ مرحلة من مراحل كليّة الطبّ تنتهي بسباق.. من يصل أوّلا يملك حقّ الاختيار. كان سباق السّنة الأولى قد غدا مجرّد ذكرى الآن. لكنّ تصدّرك الترتيب ضمن العشرة

الأوائل من أصل ألف وخمسمائة طالب خاضوا الاختبار كان مدعاة فخرك لوقت طويل بعدها. كنت قد أحرزت أسبقيّة لا شكّ فيها بحكم سنوات انخراطك السّابقة في كليّة الطبّ بتونس العاصمة. أمّا الآن، فلا أسبقيّة ولا هم يحزنون! أنت وسارة ومائتا طالب وطالبة على قدم المساواة في وجه الاختبار النهائي. من يصل أوّلا يملك حقّ اختيار التخصّص الذي يرضيه.

قبل أسبوعين من النتيجة، اتّصل والدك من الرّياض مستبقا التّهنئة.

لوّح أمام الكاميرا بسلسلة مفاتيح. شقشقت مفاتيحه هناك في المملكة بإغراء لا يقاوم، وهو يحدّثك عن العيادة التي في انتظارك. يومها نازعتك نفسك وحاجتك. آن أوان العودة والاستقرار. هناك عيادة جاهزة، وأنت قد شارفت على السّابعة والثلاثين. هل ما زلت تأمل التخصّص؟ وتصبر سنوات طويلة أخرى؟ ماذا عن فتاتك؟ لعلّها لا تستعجل الزّواج مثلك، فكيف تتقبّل أن تغادر باريس مخلّفة أحلام الصّبا وراءها؟

منذ وصولك إلى باريس، تفانيت في كسب قوتك من كدّ يمينك. حين صرت طبيبا داخليا، انتهت مأساة غسيل الصّحون، بفضل الرّاتب المرضي الذي كفلته الوزارة لأمثالك. ألف وأربعمائة يورو راتب مناسب لإيجار شقتك الصّغيرة ومصاريف حياة العزوبيّة.. لكنّها لا تفتح بيتا. الوقت أكثر من مواتٍ للاحتفال بزفافكما، لكنّ إمكاناتك الماديّة الحاليّة تجعلك تتردّد. عائلتك الموسرة بوسعها تحمل مصاريفك وعروسك، لكنك لا تريد. وما يضيرك لو تنازلت هذه المرّة وهيأت لسارة ما تأمله من دعة ورفاهية؟ قدّرت أن حديث الزّواج آتٍ لا محالة. أنت أيّها السّائر في خطوات حثيثة نحو الأربعين، أتظنّ والدتك ستغفل عنك لوقت طويل؟ عرفت أنّ سمفونيّة الضغوطات

ستبدأ عزفها مباشرة بعد ظهور النتيجة الرّسميّة. تعرفان بعضكما بعضا منذ ثلاث سنوات، ومخطوبان رسميّا منذ سنة واحدة. ربّما كانت سارة ذات السنوات الأربع والعشرين تعتبر صغيرة السنّ بعد، لكنّ العائلات المسلمة المحافظة في المهجر غالبا ما تزوّج بناتها في سنّ مبكّرة.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، كنت ضيفا عند عائلة فتاتك. مال حموك تجاهك، وقال مستفسرا بجدّية:

- ها، ما العمل الآن؟

لم يكن قرارك ليرضي كلتا العائلتين بأيّ حال. فكّرت أنّه لن يُسرّ إن أنت لوّحت بدورك بمفاتيح وهميّة للعيادة المترقبّة وصولك. طمأنت باله حين قلت في هدوء:

- أرغب في التخصّص.

- وأنا كذلك!

تقاطع سارة حديثكما الثّنائي وهي تدخل بطبق المشروبات، فينتقل اهتمامك إلى مشروعها المهنيّ الخاصّ. حتّى تلك اللّحظة، لم تكن قد ناقشتها في مستقبلها الوظيفي. لقد جرّبتما معا في السّنوات الماضية حياة الطبيب المقيم، وعرفتما معا مدى الصّعوبات التي تواجهه في التّوفيق بين حياته الأسريّة والخاصّة، وبين متطلّبات الوظيفة المجحفة. هل يمكنك أن تتخيّل زوجتك في قادم الأيّام، تقضي الليلة في مناوبة الطّوارئ، مهملة رضيعا أو طفلا في سنواته الأولى؟ هل يمكنك أن تتقبّل غياب زوجتك نصف ليالي الأسبوع لأنّ جدولها يتطلّب ذلك، وتتقبّل سفرها وحيدة لحضور دورات وتدريبات ومحاضرات؟ كنت تأمل أن تقتنع سارة وحدها بعد أن جرّبت ما جرّبت بأنّ مسار الطبّ المعقّد لا يناسبها! كنت ترجو، وهي بطبعها

الأنثـويّ الحسّـاس الـذي تعرفـه، أن تقـرّر مـن تلقـاء نفسـها ألّا داعـي لاسـتمرارها في سـباق التخصّـص، لأنّ طموحهـا سـيميل كفّـة التّـوازن الأسريّ ويعكّـر صفـوه!

لكنّهـا فاجأتـك باعترافهـا المباغـت، وفاجـأك حمـوك وهـو يربّـت عـلى ذراعهـا مبتسـما ويسـألها:

- وما التخصّص الذي ترغبين فيه؟

- طبيبة أطفال!

- جميل.. يسّر الله أمرك يا ابنتي.

ليـس جميـلا أبـدا، في نظـرك! ألا تـدرك خطيبتـك المصـون أنّـك قـد تجـاوزت مرحلـة الشّـباب وتتشـوّق للاسـتقرار قريبـا؟ ألا تعـرف كـم تشـتاق إلى أطفـال يملـؤون فـراغ وحدتـك ويجمعـون شـعث قلبـك.. إلى زوجـة تشـاركك همومـك وتخفّـف ضيقـك بعـد سـاعات عمـل مضنيـة، ولا تزيـدك همّـا عـلى هـمّ بمواعيـد عمـل غـير مواتيـة وغيابـات متكـرّرة؟ تطـرق في ضيـق وقـد أهمّـك تفكـير لا تملـك الإفصـاح عنـه؛ فتكـدّر مضيّفـك وابنتـه. لكنّـه لاحـظ صمتـك، فسـأل، ويـا ليتـه لـم يفعـل. ينفجـر مـا بصـدرك دفعـة واحـدة.

تسـمع تنهيدتـه المتعبـة، وتـرى العـبرات عـلى أعتـاب مقلـتي سـارة، وتطفـو ذرّات الهـواء المشـحونة في فضـاء الغرفـة. تحـاول تلطيـف الجـوّ، تضـع الحـقّ عـلى والديـك اللذيـن تغرّبـت عنهمـا مراهقـا، ولـم يجتمـع شـملكم منـذ ذلـك الحـين. إنّهمـا يتلهّفـان للفرحـة، ويضغطـان عليـك لتعجيـل الـزّواج والإنجـاب! وقـد تربّيـت وعـوّداك منـذ نعومـة أظفـارك عـلى أنّ مـآل المـرأة إلى بيـت زوجهـا، وأولويّتهـا الأطفـال وشـؤون مملكتهـا الخاصّـة.

يحتـدّ النّقـاش، وترفـع سـارة صوتهـا فـوق صوتـك للمـرّة الأولى منـذ

عرفتهـا:

- ومـا الـذي كنـت تتوقّعـه حـين تقدّمـت لخطبـة طالبـة طـبّ؟ هـذه مهنـة لهـا متطلّباتهـا، وليسـت في متنـاول أيّ كان. وقـد كانـت المسـلمات في السّـلف يمهـتنّ الطـبّ، وليـس هـذا مسـتجدّا في عصرنـا، فـأيّ ذنـب أقـترف وأيّ عـرف أخالـف؟ ثـمّ هـي سـنوات قليلـة قبـل أن تصبـح لي عيـادة خاصّـة، فتنتظـم مواعيـد العمـل نهـارا.

تـدرك التّناقـض في تفكـيرك. أوليـس ذاك هـو المعتـاد مـن الرّجـل الـشرقيّ الـذي تـسري دمـاؤه في عروقـك؟ أن تريدهـا قويّـة الشـخصيّة وطموحـة، ولكنّهـا في ذات الوقـت مسـتعدّة للتّنـازل عـن مسـيرتها المهنيّـة بعـد الـزّواج؟ كأنّمـا أنـت تختارهـا لسـبب، ثـمّ تريـد لهـا أن تكـون نقيضه! لكـنّ ذلـك لـم يمنعـك مـن الامتعـاض، لأنّهـا لـم تتنـازل عـن طموحهـا لترضيـك، فغـادرتْ منزلهـا وعـلى شـفتيك التّوصيـة التقليديّـة بـأن «تفكّـر جيّـدا بمـا فيـه مصلحتهـا».

-٢-

كان ذلك أوّل عهدك بالخلافات بينك وبين سارة. سارة حلوة الرّوح والمعشر، طيّبة الحديث حسنة المضحك، رأيتها غاضبة للمرّة الأولى. واستمرّ غضبها منك دهرا. خلّفك جفاؤها في ضيق شديد، ولم يكن الصّفاء ممكنا إلّا بتنازل أحدكما للآخر. هل كنت تتوقّع أنّ غضب حسنائك قد يجلب على رأسك وبالا؟ لو كنت تدري ما ينتظرك، هل كنت لتراضيها وتنصاع لطلبها؟ أم أنّه كان مقدّرا لك أن تغضبها وتتركها، وتخوض غمار تجربتك الأليمة تلك؟

حين لوّح أيّوب بفكرة الانضمام إلى بعثة طبيّة متطوّعة تابعة لهيئة الإغاثة العالميّة، هلّلت لها ورحّبت. كانت فرصة فرار مواتية، وتأجيلا للمواجهة. إذن وجدت لك مكانا ضمن القافلة التي انطلقت في اتّجاه فلسطين المحتلّة، بعد الانتفاضة الشعبيّة الثانية. ستعود ومعك القرار الذي تأخّرت في اتّخاذه. لم تكن تدرك ساعتها أنّك ستعود بأكثر من ذلك.. أو لعلّه أقلّ!

لم يكن عدد المسلمين في قافلة الأطبّاء بالكثرة التي حسبتها. كان هناك الكثير من «السّافرات» و«المتبرّجات»، بشعورهنّ الشقراء المتهدّلة وأذرعهنّ العارية وصدورهنّ النّافرة، والكثير من «الكفّار» على غير ملة الإسلام الذين لم يمنعهم كفرهم من إبداء علائم الرّحمة. جميعهم كانوا قد تركوا عائلاتهم ووظائفهم ونعيمهم الدّنيويّ وساروا لمواجهة معتد غاشم سلب إخوانهم في الإنسانيّة الحريّة وأبسط أسباب الحياة الكريمة. طيلة الأيّام التي جمعتك بهم على متن الباخرة، وهناك في الضفّة الغربيّة، رأيت آيات في الأخلاق

والاحترام. تلك المشاهد التي تعوّدت أن تراها بين «الإخوة» في أحضان الحركة الإسلاميّة، كانت هي هي، تتكرّر أمام عينيك، لكن بلاعبين من نوع آخر.. من أولئك الذين يحكم الشيوخ بكفرهم وعذاب مقيم في نار جهنّم يترصّدهم!

كانت رحلتكم من الميناء إلى نقاط مباشرتكم العمل طويلة ومضنية. تجربة المعابر المتكرّرة كانت تحمل في كلّ مرّة نفس القدر من الرّهبة والتوتّر. في كلّ مرّة، يمرّ رفاقكم الأجانب بسلام، بينما يتلكّأ الحرس أمام جوازي سفرك أنت وأيّوب. كنتما تحملان وثائق سفر فرنسيّة، لكنّ الأسماء والملامح توحي بغير ذلك. بعد دقائق طويلة من المماطلة، يسمح لكما بالعبور. كان الأمر مختلفا بالنّسبة إلى الفلسطينيّين. قد ينتظر أحدهم السّاعات الطّوال حتّى يسمح له بالوصول إلى مقصده!

على المعابر، كنت شاهدا على أطفال الفلسطينيّين، يرمون الجنود المتربّصين بعدّتهم وعتادهم بالحجارة. يناوشونهم ويستفزّونهم، بأجسادهم النّحيلة وقبضاتهم العارية.. فتردّ عليهم الرّشّاشات والقنابل المسيلة للدّموع. وعلى جدران البيوت القائمة على جانبي الطريق، لم تخطئ عينك آثار الرّصاص والدّمار الذي خلّفته القنابل.

في زيارة لمركز أبو ريّة لإعادة تأهيل مصابي جرحى الانتفاضة في رام الله، تأكّد حدسك وأنت تمرّ عبر المعبر، وأنت تعاين أجساد الأطفال والمراهقين الذين كانوا بالأمس ولا بدّ يقذفون الحجارة عند نقاط التفتيش وفي مواجهة الدبّابات.. ثمّ يولّونها الأدبار فرارا من القذائف والرشّاشات، فلا عجب أن تكون معظم الإصابات على مستوى الظهر!

طوال شهرين أقمتهما في الضفّة الغربيّة، لم تكن حاضرا على

أعمـال عنـف تذكـر. لكـنّ مـا رأيتـه في ظـلّ سـكون الحـرب المؤقّـت كان أقـسى مـن أيّ عنـف. الجـدار العـازل الـذي شرع الكيـان الصّهيـوني في إقامتـه كان يحـوّل حيـاة الفلسـطينيين إلى جحيـم مقيـم. حائـط يمتـدّ على مسـافة تفـوق السـبعمائة كلـم، وارتفاعـه يناهـز الأمتـار الثّمانيـة، مثـل معتقـل ذي سـماء مفتوحـة! مـن وجهـة نظـر طبيّـة، كان الحاجـز يمنـع وصـول الرّعايـة الصحيّـة إلى أكـثر مـن مليـوني شـخص محـاصر، ويعطّـل تنقّـل الأطبّـاء والإمـدادات الطبيّـة وسـيّارات الإسـعاف. وقـد كانـت المراكز الصحيّـة بالضّفـة تفتقـر إلى المرافـق الـتي تعـدّ أوّليّـة في فرنسـا، ولا يمكـن مقارنتهـا بمـا يتوفّـر في مستشـفيات الكيـان المحتـلّ. أمّـا الجـدار، فقـد جعـل المناطـق الرّيفيّـة المتباعـدة شـبه معزولـة صحيّـا، فبـات الاعتمـاد الأوّل عـلى نشـاط المنظّمـات الإنسـانيّة. لكـنّ الحاجـة إلى تصاريـح مـرور عـبر أكـثر مـن خمسـمائة نقطـة تفتيـش متناثـرة في أراضي الضفّـة، زادت الأمـر تعقيـدا.. ناهيـك عـن التصاريـح الخاصّـة للوصـول إلى مستشـفيات الاحتـلال إذا مـا اسـتدعت الحاجـة.

تـوزّع المتطوّعـون عـلى فـرق مختلفـة، لتغطـي كلّ منهـا منطقـة معيّنـة مـن المسـاحة المحـاصرة. اخـترت وأيّـوب الانضمـام إلى عيـادة متنقّلـة. وقـد كانـت عيادتـك تقـدّم رعايـة أوّليّـة ومجانيّـة في المناطـق الرّيفيّـة والأكـثر انعـزالا، حيـث تنعـدم المرافـق الصحّيّـة كليّـا. تلـك المناطـق تكـون في الغالـب ذات أعـلى مسـتويات جهـل، نظـرا لمغـادرة الشـباب مقاعـد الدّراسـة باكـرا لامتهـان الفلاحـة والتّجـارة، ومحاطـة بالمسـتوطنات مـن كل جانـب. عرفـت مـن خـلال تعاملـك مـع أهـالي المنطقـة، أنّ العـوز وقلّـة ذات اليـد مأسـاة دخيلـة عليهـم. لـم يكـن الوضـع بـذاك السـوء قبـل الانتفاضـة. بـل لعـلّ أهـل القـرى أفضـل حـالا وسـط زيتونهـم وحقولهـم مـن أولئـك داخـل المخيّمـات.. لكـنّ الحصـار المفـروض والعـزل الإجبـاريّ جعـل الحـال العامّـة تبـدو مزريّـة أكـثر ممّـا

هـي عليـه حقيقـة.

وكان التنقّـل مـن مـكان إلى آخـر يمثّـل المعضلـة الأكـبر بالنّسـبة إلى وحدتـك. المسـافة الـتي لا تحتـاج أكـثر مـن خمـس دقائـق في باريـس، كانــت تسـتغرق منــك نصــف سـاعة أو أكـثر، بالاعتمـاد عـلى عـدد الحواجـز ونقـاط التفتيـش الـتي تجتازهـا. كانـت وحدتـك مكوّنـة مـن تسـعة أشـخاص أنـت عاشرهـم.. سـتّة أطبـاء، ممرّضـة، تقـنيّ مختـبر، صيـدليّ وسـائق. بالإضافـة إليـك وإلى أيّـوب، كان معكـم عنـد انطـلاق القافلـة طبيبـان فلسـطينيّان، وآخـران ألمـانيّ ونمسـاويّ، فيمـا كان بقيّـة أفـراد الوحـدة فلسـطينيّين أيضـا. كانـت قافلتكـم تسـافر عـبر الضفـة في حافلـة صغـيرة بـين القـرى المتناثـرة حسـب جـدول مـدروس، ويتغـيّر عـدد أفرادهـا مـن فـترة إلى أخـرى، حسـب التزامـات كلّ منكـم، فمـن المعتـاد في قوافـل المتطوّعـين أن يقـدم طبيـب ويغـادر آخـر.

قبل رحيلك بأسبوعين، قدم الزّوجان البريطانيّان راشيل ودانيال.

دانيـال الـذي كان جـار مقعـدك في الحافلـة، عـرض عليـك مـع أوّل نظـرة ودّ فنجـان شـاي دافئ مـن وعـاء حافـظ للحـرارة حضّرتـه زوجتـه الشّـابة. حاولـت الاعتـذار، لكـنّ راشـيل سـارعت بإضافـة طبـق بسـكويت الزّبـدة، فلـم تـترك لـك مجـالا للتهـرّب. قبلـت الدّعـوة اللطيفـة، وشـاركتهما إفطارهمـا الإنجليـزيّ ودردشـتهما الخفيفـة، بتحفّـظ. لـم تكـن قـد تعـوّدت التعاطـي مـع الأجانـب بتلـك الـرّوح المنفتحـة. تجاربـك الماضيـة يطغـى عليهـا الـبرود والمجامـلات.

تحدّثـت راشـيل فيمـا بعـد عـن تجربتهـا في فلسـطين. كان الزّوجـان يـزوران الأراضي الفلسـطينية للسّـنة الرّابعـة عـلى التّـوالي. يقضيـان إجازتهمـا السّـنوية كمتطوّعـين. قالـت راشـيل مـع ابتسـامة:

- بالمناسـبة، أنـا يهوديّـة! جـدّتي لأمّـي نجـت مـن الهولوكوسـت

وهاجـرت إلى الولايـات المتّحـدة.. ثـمّ اسـتقرّت والـدتي في شـبابها في بريطانيـا، وهنـاك ولـدت وعشـت حيـاتي كلّهـا. جـدّتي لـم تكـن يومـا مسـاندة لسياسـة الاحتـلال! مـن عـرف ويـلات التعذيـب والتهجـير، كيـف لـه أن يقبـل تطبيـق نفـس الممارسـات عـلى الآخريـن؟!

أثنـاء عيادتهـا، لـم تكـن راشـيل تـتردّد في توضيـح هويّتهـا اليهوديّـة. وكانـت تؤكّـد عـلى رفضهـا وعائلتها لمـا يحصل عـلى الأراضي الفلسـطينيّة.. وتطوّعهـا مـا هـو إلّا أقـلّ مـا يمكنهـا فعلـه للاعتـذار عمّـا يصـدر عـن بـني جلدتهـا. وكان الفلسـطينيّون يتقبّلونهـا.. يهـزّون رؤوسـهم في تفهّـم، ويصافحونهـا في حـرارة. يكفـي أنّهـا كانـت هنـاك.

رأيتهمـا كثـيرا فيمـا بعـد، وكانـت الابتسـامة الـتي يسـتقبلانك بهـا في كلّ مـرّة تباغتـك بحفـاوة لـم تعهدهـا. لعـلّ القضيّـة الـتي جمعتكـم تربـة مواتيـة لنمـوّ علاقـات إنسـانيّة مـن نـوع آخـر، غـير تلـك الـتي اعتدتهـا منذ وطئـت قدمـاك أرض باريـس؟ كنـت تـلازم أيّـوب معظـم الوقـت، لكـن خـلال الأسـبوعين اللذيـن تقاطعـت خلالهمـا طريقـك بطريـق الزّوجـين، توطّـدت علاقتـك بدانيـال. لكنّـك سـتتذكر ابتسـامة راشـيل الدّافئـة أكـثر مـن أيّ شيء آخـر.. ولسـنوات كثـيرة لاحقـة. هـل كنـت لتفعـل لـولا الفاجعـة الـتي شـهدت تفاصيلهـا في الأيّـام الـتي تلـت؟ ولـولا ارتبـاط ذكراهـا في وعيـك بشريكتهـا في الاسـم، راشـيل الأخـرى أمريكيّـة الجنسـيّة؟

كانـت المعاينـات تتـمّ غالبـا في مبـاني المـدارس بالقـرى الـتي تزورونهـا، وكثـيرا مـا يضطـرّ الطبيـب منكـم إلى معاينـة مـرضى لا يشـملهم اختصاصـه، في غيـاب المتخصّصـين. وكثـيرا مـا تمـرّ بـك حـالات حرجـة، ولا يكـون بيـد أحدكـم حيلـة أمامهـا! أطفـال مصابـون بمـرض كلى مزمـن، ورجـال انتـشر السّرطـان في أجسـادهم إلى مراحـل متقدّمـة، وأمـراض أخـرى تحتـاج عنايـة فائقـة وجراحـة لا قبـل لكـم بهـا. مـا الـذي يمكنكـم صنعـه بقائمـة الأدويـة المختـصرة الـتي تطالهـا أيديكـم؟ وكـم

غلبتكم المرارة وأنتم تضطرّون إلى تقسيم كميّة الإنسولين الشحيحة على الأعداد الهائلة لمرضى السّكّر! عرفت تحدّيًا آخر تلك الأيّام، أن تفعل ما بوسعك باعتبار الموجود.. وتغالب دمع العجز والقهر في نهاية نهار مشبع بالألم.

العمل ضمن عيادة متنقلة في فلسطين كان شرفا لك، وتجربة عميقة عزّزت خبرتك الميدانيّة وشحنتك عاطفيّا بكثير من التّضامن والحماس وفي أحيان أخرى بالتمرّد والإحباط. الصّراع القائم والعنف الممارس يوميّا على الفلسطينيّين وإحساسهم المتواصل بعدم أمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم كان قد جعل حياة أكثرهم ضغطا متّصلا. وكنتم تتعرّفون مباشرة على حالات الانهيار النّفسيّ، رغم أنّ أحدهم لا يتحدّث عن معاناته النّفسيّة. يشتكي الكبار عامة من ضعف عامّ وآلام في الرّأس واختلال في نبضات القلب.. في حين يعاني الأطفال من اضطرابات في النّوم والتبّول اللاإرادي والكوابيس الليليّة. وفي حالات متقدّمة، يصل الأمر إلى آلام الأمعاء والصّداع والتهاب المعدة.

من العادات المسلّية التي اكتسبتها خلال الرّحلة، إدمانٌ حديثٌ على القهوة العربيّة. القهوة لا تغيب في فلسطين عن أيّ مجلس. هي قانون الضّيافة الأوّل، والبند الأساسيّ في كلّ اتفاقيّة تعقد. تقدّم القهوة أثناء العيادات من قبل المرضى الممتنّين كعلامة شكر، وهي اللّبنة الأولى لمدّ جسور التّواصل وتوطيد العلاقات. وفيما كنت تجاذب مرضاك الحديث بطلاقة وسلاسة، فإنّ راشيل ودانيال كانا يجتهدان لالتقاط الكلمات المتكرّرة وتسجيلها في مذكّرات من أجل محادثات قادمة! وبعد أربع سنوات من ممارسة تلك الهواية، صار دفترهما يضمّ مئات الكلمات. وكثيرا ما ضحكت على نطقهما المعوج لعربيّة هما حديثا عهد بأبجديّتها. لكنّهما ينجحان، وخاصّة راشيل، في كسب ثقة المراجعين، باجتهاد ومثابرة ملحوظين. كانت

تسعى بإصرار للاستغناء عن مترجم وسيط بينها وبين مرضاها، تقول بابتسامة:

- النجاح في المهمّة الطبيّة يبدأ بالضرورة بفهم حقيقي ومباشر لكلمات المريض الخام غير خاضعة لترجمة وتأويل!

في ذلك اليوم، دخلت راشيل مقرّ الوحدة الصّحيّة مهتاجة متوعّدة:

- الأوغاد! المجرمون! سأنتقم منهم يوما! سينالون عقابا يستحقّونه! سيأتي يومهم قريبا!

كانت قد فقدت مريضة للتوّ. عادت سيّارة الإسعاف التي غادرت منذ ساعة تقريبا باتّجاه المشفى أدراجها بعد أن مُنع مرورها عبر معبر رام الله الشّمالي، حيث الطريق الوحيدة الموصلة إلى بير الزّيت. مريضة مصابة بذبحة صدريّة وتحتاج إلى إنعاش عاجل، يصدّها جنود الاحتلال! كانت تصرخ في هيستيريا:

- ليسوا بشرا.. لا إنسانيّة لديهم! جنود المعبر أولئك.. إنّهم وحوش!

لكنّ الصّدمة ألجمتها، وهي تخطو داخل مقرّ الوحدة، لتجد العيون مركّزة على شاشة التلفاز.

لاحقا، سيتكرّر المشهد أمام عينيك كثيرا في نشرات الأخبار العالميّة والمحليّة التي تناقلت في هوس محموم صور المناضلة الأمريكيّة «الشهيدة». رأيتها، راشيل كوري، وهي تقف في طريق الجرّافة، تصنع من جسدها سدّا يحول بين البيوت والهدم. كانت تعوّل على إنسانيّة موهومة في شخص السّائق المندفع في اتّجاهها. لكنّها لم تدرك وهمها إلا حين تخطّتها الجرّافة بعد أن دهست جسدها الهشّ مرّتين.

ستدرك الفاجعة في دموع راشيل البريطانيّة التي لم تتوقّف عن البكاء ليومين، تنعي شقيقتها في الإنسانيّة. سيخيّم الوجوم على المركز الطبيّ بعد ذلك لأيّام، وسيصيب عقلك شلل عن التفكير لزمن أطول. كيف يمكن لأولئك الذين صفّقوا لتفجيرات مترو الأنفاق بباريس ١٩٩٥ وأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أن يقدّروا شخص راشيل، وتضحية راشيل، وأفكار راشيل؟

الفصل الخامس

- شكّ -

-١-

كنت تحسب نفسك منذ الصّبا «باحثا عن الحقيقة».

ألـم تنكـبّ في شـبابك عـلى دراسـة الحـركات الإسـلاميّة في نهـم شـديد؟ ألـم تعكـف عـلى قـراءة إصـدارات فلاسـفة الثـورة الإسـلاميّة في إيـران والمقاومـة الشّـعبيّة في الجزائـر وحركـة الإخـوان المسـلمين في مـصر؟ ألـم تبحـر في مؤلفـات فلاسـفة الأنـوار في أتـون الثـورة الفرنسـيّة؟ ألـم تلـمّ بمعظـم تصنيفـات الثـورة البلشـفيّة في روسـيا وثـورة الصّـين ضـدّ مـاو تـسي تونـغ؟

لم يكن هدفك سوى الوصول إلى الحقيقة.

كنـت تؤمـن بعقيـدة أهـل السـنة والجماعـة في القضـاء والقـدر.. أنّ الله يعلـم مـا كان ومـا سـيكون ومـا لـم يكـن لـو كان كيـف يكـون. وأنّـه يحقّـق الرّبوبيّـة المطلقـة بالمعيّـة العامّـة للـبرّ والفاجـر، وأنّـه محيـط بهـم، محـصٍ لأعمالهـم. وأنّـه خلـق الخلـق بـلا حاجـة إليهـم. وقـدّر مقاديرهـم قبـل أن يخلقهـم، وكتـب مـا يصـيرون إليـه مـن سـعادة وشـقاء. وأنّـه جعـل الخلائـق فريقـين، فريقـا في الجنـة وفريقـا في السّـعير. ولـو شـاء لجعلهـم أمّـة واحـدة.

ولكن.. (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا).

وأنّـه يُضـل مـن يشـاء، ويهـدي مـن يشـاء. وأنّ للعبـاد مشـيئة وقدرة، ولكنهـم لا يشـاؤون إلا أن يشـاء الله. وأنّـه لا يصيـب المـرء إلا مـا كتبـه ربـه، ولـو حـاول الخلـق أن يغـيّروا ذلـك مـا قـدروا.. (رُفِعَـتِ الأَقْـلامُ وَجَفَّـتِ الصُّحُـفُ).

لكـن منـذ دخولـك الجامعـة، بـدأ شـغفك بالفلسـفة يـزداد، فقـد

صادفـت هـوى لديـك، كونهـا تعتمـد عـلى المنطـق، ممّـا يقربهـا مـن علـوم الرياضيـات، فهـي تراكيـب تـؤدي إلى نتائـج.. وكأنهـا معـادلات. أصبـح عنـدك استعداد نفـسيّ أن تحلـل حـتّى مسـائل العقيـدة!

وحـين خضـت تلـك التّجربـة الـتي هزّتـك مـن الأعمـاق، اعتبرتهـا تكليفـا، وقلـت لنفسـك: لمـاذا تـتردّد؟ إبراهيـم عليـه السّـلام قـال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْـيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَـالَ بَـلَى وَلَكِـن لِّيَطْمَـئِنَّ قَلْـبِي). أولسـت أولى مـن إبراهيـم بالشـك؟ أوليـس قلبـك أحـوج مـن قلـب خليـل الله إلى الطمأنينـة؟

كنـت تثـق أنّ بحثـك سيزيدك إيمانـا. ولـو أنّـك استقبلت مـن أمـرك مـا استدبرت، لمـا خضـت المهالـك في هـذا البحـث.. ولكـن ليقـضي الله أمـرا كان مفعـولا!

لبثـت تتفكّـر في قولـه تعـالى: (وَمَـن يَبْتَـغِ غَـيْرَ الْإِسْـلَامِ دِينًـا فَلَـن يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِـرَةِ مِـنَ الْخَاسِرِيـنَ).

نشـأ السّـؤال صادقـا بريئـا في ذهنـك. كيـف يكـون مصـير راشـيل ومـن شـابهها النـار؟ أليـس فيهـم مـن الخـير مـا يزاحـم خيريّـة شـيوخك الرّافلـين في النّعمـة والمنظّريـن للتكافـل الاجتماعـيّ دون خطـوة عمليّـة واحـدة؟ ألا يشـفع لهـم الصّـدق الـذي تشـعّ بـه قسـماتهم؟ أنـت مهمـا عملـت، فأنـت تطمـع في ثـواب أو تهـرب مـن عقـاب.. أمّـا هـم! فـلا رادع لهـم إلا ضمائرهـم، ولا محفّـز لهـم إلا السّـعادة الـتي يرسـمونها عـلى وجـوه مـن يحسـنون إليهـم! مـن بينكـم أرق نيّـة وأدعـى إلى الإكبـار؟!

تملكتـك الحـيرة، وشـغلك التفكـير. أيعقـل أن ينطبـق مبـدأ الخيريّـة في المفاضلـة بـين كافـر أخلاقـه عاليـة، ومسـلم شـديد الأذى؟ كيـف يكـون الثـاني أثقـل ميزانـا بـين يـدي الله؟ هـل هـو «الإيمـان» وكفـى؟ كيـف تكونـون «خـير أمّـة أخرجـت للنّـاس»، وتتشـدّقون بخيريّتكـم، كمـا قـال

اليهود من قبل «نحن أبناء الله وأحباؤه»؟ كيف تكونون خيرا منهم إذن وأنتم تتّبعون مبدأهم وتماثلونهم فعلا؟!

ولمّا فاض بك الكيل، قرّرت أن تصارح حاتم بما يعتمل في نفسك. كنت تحسبه أكثر رفاقك علما شرعيّا، وهو الذي تربّى منذ نعومة أظفاره بين يدي شيوخ السّلفيّة في المملكة السعودية، وتخرّج في كليّة شرعيّة بالإضافة إلى تخصّصه في العلوم السّياسيّة. وقفتما عند موقعكما المفضّل على ضفاف السّين، قرب «جسر الفنون»، تراقبان أفواج الحمام المتزاحمة على الحبّ الذي تنثره أيدي السيّاح. قال حاتم بلهجة قاطعة:

- هم كفّار قولا واحدا، بلا جدال.. فقد قامت عليهم الحجّة ببلوغ البعثة النّبويّة إليهم.. وليس هناك من يجهل اليوم بخبر النّبيّ الخاتم!

قلت في عناد:

- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).. أليس هذا نصّا قرآنيّا صريحا؟

- ذاك حكم اليهود والنّصارى والصّابئين قبل زمن بعثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم! أمّا المعاصرون له ومن جاؤوا بعدهم، فلا ينفعهم عملهم ما لم يؤمنوا به ويصدّقوه!

اكتأبتَ، وتألّمت في صمت. تتأمّل كلّ يوم في أفعال المحيطين بك. تتفكّر في الحديث النبويّ (اليد العليا خير من اليد السّفلى)، وتتساءل، كيف تكون خيرا ومصيرها النّار؟! هل ذنب هؤلاء أنّهم ولدوا لآباء غير مسلمين، وتربّوا على غير الإسلام، فلمّا شبّوا عن الطّوق عرفوا صورة غير مشرّفة عن الإسلام، إرهاب ودكتاتوريّة

وتخلّف، فلم يجدوا ما يشجعهم على الاقتراب؟

ثمّ ما ذنب من ولد غير ناطق بالعربيّة -وهم مليارات البشر- إن هم لم يتأثّروا على الإطلاق إذا تلي عليهم القرآن أو طالعوا آياته؟ أوليست معجزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هي القرآن، بما فيه من تحدٍّ بلاغيّ ولغويّ؟ فكيف لمن لا يفهم العربيّة أن يدرك ذلك، أو يكون معنيّا بالتّحدّي الإلهيّ.. (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ)؟

بل لعلّ معظم النّاطقين بالعربيّة غافلون عن مدى إعجاز لفظ القرآن.. فلا يدركون منه إلّا ما تدركه أنت من بلاغة شعراء اللّغة الصينيّة! بل لعلّ أحدهم لا يفرّق بين آيات القرآن وما درج على ألسنة العوام. أولم تطرق أذنيك كثيرا في سابق الأيّام عبارات يتداولها الجاهلون عدوانا على أنّها قرآن منزّل، فيصدّقهم آخرون دون تردّد؟ فماذا بشأن غير النّاطقين بالعربيّة من شعوب أوروبا وأعماق إفريقيا وشرق آسيا والأمريكتين؟ من يقرأ منهم القرآن سيقرأه مترجما إلى لغته، وأنت تدرك أنّ كلّ نصّ يترجم يفقد جزءًا من روحه مهما كانت براعة المترجم. فمن سيقرأ هنا لن يقرأ كلمات الله في الحقيقة بل كلمات المترجم!

فكّرت حينها، لو أن القرآن تنزّل على الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) معجزا بكل لغات العالم، ليصبح فعلا حجة على الناس، كل الناس، في كل زمان ومكان! لو.. ولو تفتح عمل الشيطان.

ثمّ هالتك النتيجة التي وصلت إليها.. كم عدد الذين يتحوّلون من معتقد إلى آخر، مقارنة بأولئك الذين يرثون معتقداتهم، مع هويّاتهم الإثنيّة وثقافاتهم وجيناتهم؟ عدد ضئيل لا يكاد يذكر! لو أنّك أنت يا مالك، كنت قد ولدت لأبوين مسيحيين في أوروبا، لكنت نشأت وكبرت مسيحيّا مؤمنا، لا تشوب إيمانك شائبة! ولو أنّك نشأت

في الهند لأبوين هندوسيين، أو في الصين لأبوين بوذيين، لكنت راضيا تمام الرّضا عن دينك، مستقيما في عبادتك! مهما كان الدّين الذي نشأت عليه، كنت لتؤمن به إيمانا خالصا، وتعتقد أنّك على صواب، وبقيّة البشر كفّار ضالّون! كنت لترى آثار دعائك إلهك ومعجزاته، ولتتحدّث عن الاختبارات والابتلاءات التي خضتها وحصّنت عقيدتك وملأتك قوّة. بل إنّك لو كنت ولدت في بيت ملحد، لبقيت ملحدا قفرا من الإيمان، أيّا كان نوعه!

أدركت في لحظة فاصلة، أنّ دينك وراثة، وعبادتك تقليد وإيمانك وهم.

حين عودتك من الرّحلة، كنت في حال نفسيّة متردّية. ما أملت تحقيقه من صفاء ذهنيّ لتكوين رؤية مستقبليّة لمشاريعك الشّخصية غدا هباء منثورا. عدت بخفي حنين.. أو أقلّ؟ وكانت الفكرة الوحيدة التي تملأ رأسك هي أن تجد تفسيرا منطقيّا لعدالة قدرك وقدر غيرك. إن كان قدرك أن تولد مسلما، فتنعم بالجنّة.. وقدر غيرك أن يولد كافرا فيعذّب في جهنّم، فلا شكّ أنّ وراء ذلك حكمة ما تغاضى الشّيوخ عن تلقينك إيّاها.

انكببت إذن على مبحث القضاء والقدر، متجاهلا التحذير النّبويّ (وإذا ذكر القدر فأمسكوا). أقدمت على الخوض في وهدة الشّوك بلا مهابة. كانت ثقتك بعقلك لا تضاهى. كنت قد حصّلت من العلوم الشرعيّة والدنيويّة ما خلته يؤهّلك إلى مراكز الأساتذة والواعظين، وحزت من الثقافة وسعة الاطّلاع ما تدّعي أنّ قلّة ممّن يناظرونك في العمر قد حازوه.. هل كان الغرور ينازعك؟ أم أنّك قدّرت نفسك حقّ قدرها فقرّرت أن تزن كلّ شيء بميزان عقلك وحده؟ أم أنّ الشكّ الذي وضع أطنابه بين جنباتك كان مثل فراش من المسامير، لا يهنأ لك النّوم ما لم تجد له حلّا؟!

بعـد أيّـام طويلـة مـن البحـث، تناثـرت الحجـيرات الأولى، منـذرة بانهيـار جبـليّ مزلـزل. كنـت تخـوض في متاهـات لا نهايـة لهـا، تقـرأ تفسـيرات العلمـاء واجتهـادات المجتهديـن لمعضلـة الإنسـان المخـيّر والمسـيّر، ولا تجـد مـا تقرّ بـه عينـك. رفضـت أن تسـلّم بـأنّ العقـل البـشريّ -أيّ عقـل- لا يسـتوعب «الغيبيّـات». كنـت تؤمـن بـأنّ الإسـلام هـو ديـن العقـل. ديـن يخاطـب العقـل ولا يعتمـد عـلى الخرافـات. لذلـك تُعمـل عقلـك حـدّ الإنهـاك في كلّ شيء. القـرآن ذاتـه يسـتحث العقـل، ويعـزز التفكـير الفـرداني، أو النقاشـات الثنائيـة فقـط، ليكـون أدعـى للتأمـل والتعمـق والجديـة.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا).

لـم تعتـبر مـن تجـارب السّـابقين مـن العلمـاء والمفكّريـن والفلاسـفة، أولئـك الذيـن فقـدوا إيمانهـم بعـد خـوض في هـذا المبحـث ذاتـه.. كنـت تعـرف قصّـة الفخـر الـرّازي، العلاّمـة المسـلم الـذي ألّـف مصنّفـات في القضـاء والقـدر هـي عـين الإلحـاد! ثـمّ تـاب عنهـا في نهايـة عمـره واستسـلم لإيمـان العـوام، حـتّى قـال مقولتـه الشـهيرة: اللهـم إيمانـا كإيمـان العجائـز!

هل حسبت نفسك أكبر من ذلك؟ لعلّك فعلت!

أقبلـت عـلى المؤلّفـات الفقهيّـة وكتـب الـتّراث الإسـلامي لفـرق متعـدّدة كالمعتزلـة والأشـاعرة والماتريديـة وغيرهـم، ممـن لـم تكـن تـولي مصنفاتهـم سـابقا اهتمامـك بمصنفـات أهـل الحديـث المتحفظـة، تتفحصّهـا بعـين النّاقـد. تمتعـض أمـام الآراء الـتي تراهـا مترمّتـة متحجّـرة، وتتبّـع الشـاذ منهـا، بمـا يوافـق هـواك. فـإذا وجـدت رأيـا يرضيـك ويصـبّ فيمـا تـراه، احتفيـت بصاحبـه وعكفـت عـلى مؤلّفاتـه كلّهـا تفكّكهـا وتسـبر أغوارهـا.. حـتّى إذا وجـدت منـه رأيـا لا يرضيـك، رميـت

بكلّ ما صدر عنه عرض الحائط. لم تعد تستحي من انتقاد أفكار شيخ أو آخر، وإطلاق الأحكام بالتخلف والرّجعيّة على العلماء الذين طالما اعتبرت لحومهم مسمومة. كانت هيبة العلماء قد تبخّرت من وعيك، وقد هان عليك أن تفنّد رؤاهم ومواقفهم الشرعيّة وتنعتهم بشتّى الأوصاف المهينة. وطالت ثورتك صحيحي البخاري ومسلم، فسمحت لنفسك بتفحّص الأحاديث بعين العقل، فما قبله منها فهو صحيح، وما لفظه فهو مدسوس!

وقد سعدت في تلك الفترة حين عثرت على محاضرات مصوّرة لشيوخ عصريّين، يتكلّمون لغة العلم.. أولباحثين من المسلمين ذوي الأصول الأجنبية، مثل البروفيسور «جيفري لانج»، أستاذ الرياضيات الأمريكي. قرأت كتابه الشهير «حتى الملائكة تسأل» مرارا، ورحت تروّج له بحماس منقطع النظير.. وأعجبت أشدّ الإعجاب بمحاضرته التي يروي فيها قصّة إسلامه (الغرض من الحياة). كنت تتماهى مع هذا التيّار من المفكرين، ممن اعتبرتهم يشاركونك هجومك الشّرس على القدماء. وإن كان لا بدّ لكل مُلهَم من عرّاب، فقد كان جيفري عرّابك بلا نزاع.

كنت حتّى تلك اللحظة، تهتمّ بأن تجد لآرائك الشاذّة خلفيّة شرعيّة. طالما كان هناك من يدعم موقفك، فأنت على حقّ! واستمرّ الأمر لأسابيع، تستمع بشكل يوميّ لما يناهز السّاعات العشر من المحاضرات، وتستمتع بما اعتبرته تجديدا للدّين الإسلاميّ ومعالجة علميّة للغيبيّات، بنظريّات ومعادلات.. حتّى وجدت لجوادك الجديد كبوة. حين اختلفت مع شيخك المفضّل، انتابتك ثورة عارمة. من يقترف خطأ بتلك الفظاعة، كيف يمكنك أن تأخذ منه شيئا؟

انتهيت إلى إقصاء مؤلّفات البشر كلّها.. وحده القرآن جدير باهتمامك. لكنّك كنت قد وصلت إلى مرحلة متقدّمة من تطوّر

الحسّ النقديّ. حتّى أنّك كنت تتلو آيات القرآن، ثمّ تتوقّف، وتقول في نفسك: أليس جرس الآيات المكية، وسبك لغتها، أظهر كثيرا من القرآن المدني؟ ألم يكن من الأجدر أن تكون تلك الآية بهذا الشكل؟ أو ما جدوى تكرار المعنى الفلاني في آيات متعاقبة؟ بل ما ضرورة سور بأكملها؟ هل الصّراع الشخصي مع أبي لهب وزوجه يرتفع إلى مقام كلام إلهي؟ كان الكبر في داخلك قد تضخّم، وهيبة الدّين وقدسيّته في عينيك تتضاءل وتتصاغر. حتّى لم يعد للمقدّسات معنى!

أخذت كرة الخيط تتدحرج وتتدحرج وتترك خلفها أميالا من الأسئلة المبهمة. يتلوّى الخيط في ذهنك ويلفّه، وتسكن عقلك حيرة تتحوّل إلى غضب واستعلاء. تجرأت على كل ما كان يقشعر له بدنك فيما سبق. هتكت جلال العبودية، ومزقت الغلالة الرقيقة من هالة القداسة للسّبّوح، ربّ الملائكة والرّوح!

أين أنت من (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)؟

كنت تشعل الحرائق دون وجل، وتوليها ظهرك! كنت تحتج بأن الملائكة سألت ربّ العزة، وطرحت الأعذار والحجج العقلية.. وفاتتك (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)!

إبليس كذلك طرح الحجج العقلية والمعاذير تبريرا لموقفه!

كنت تدرك أنّ من هم مثلك نادرو الوجود، ليس غرورا، ولكنّك تعلم قيمة ما كنت عليه. فقد بذلت وبذل من ربّوك وقاموا على تنشئتك خمسة وثلاثين عاما من الجهد لبناء القامة الفكريّة التي أصبحتها، وترسيخ جذورها عميقا. وفجأة جاءت ريح عاصف أتت على هذا الصّرح الشّامخ من القواعد! فكيف بمن حصيلتهم أقلّ، وبضاعتهم مزجاة؟ هل يصمدون أمام زلزال مماثل؟ هل ستكون لأحدهم فرصة النّجاة من البركان الثائر الذي يحصد الأخضر

واليابــس؟ أم تــراه إصرارك عــلى تمحيـص المســألة حــتّى أصولهــا مــا أهلـكك؟ غـيرك كان ليســلّم بجهلـه ويهـزّ كتفيـه ويمـضي. ولكنّـك أنـت الفخـور بحصيلتـك والمعتـدّ بعقلـك وزادك، لـم ترفـع رايـة الاستسـلام حـتّى انهـار كلّ شيء فـوق رأسـك!

تداعــى إيمانــك وتصــدّع، وفقــدت ثقتــك في كلّ مســلماتك دفعــة واحـدة. بقيـت أسئلتك فاغـرة فاهـا تنتظـر أن تلقمهـا جوابـا. لكـنّ دارات عقلـك كانـت تحـترق مـن الدّاخـل دون أن تفـرز إجابـة منطقيّـة واحـدة. دكّ الجبـل في داخلـك دكّا. كان عقلـك الألمعـيّ عاجـزا عـن فـكّ شـيفرة هـذه المعضلـة!

في لحظة فاصلة، أيقنت أنّ مسلّماتك قابلة للمساءلة.

وحقائقك قابلة للتشكيك.

وثقتك المزعومة غصين هشّ في مهبّ ريح عاصف!

-٢-

مضت عليك فترة من الزّمن قبل أن تدرك حقيقة الأمر.

استمررت لأسابيع تمارس حياتك بشكل طبيعيّ ظاهريّا، وبكثير من الفتور داخليّا. جاءت القرارات دون عناء. اعتذرت من والدك وشكرت عرضه السخيّ. لم يكن واردا أن ترجع إلى أحضان العائلة في حالتك النّفسيّة تلك. وتنازلت دون نقاش كثير لرغبة سارة بالتخصّص في طبّ الأطفال، فيما استقبلت بفرح حقيقيّ نتيجتك اللاّمعة التي مكّنتك من التخصّص في جراحة العظام. لكنّها فرحة مشوبة بوخزات لا تفتر. أين رسالتك وتجديد نيّتك؟ لم تستطع أن تكتب أيّا منها بإخلاص، كما تعوّدت أن تفعل كلّما هممت بخوض مرحلة جديدة.

هل كانت البعثة سببا كافيا لينهار توازنك؟ ربّما نعم.. وربّما لا. الإيمان يذهب ويجيء، والقلب يتحوّل بأقلّ من ذلك. لكنّك فوق كلّ شيء وفيّ لعادتك، لا تقبل استسلاما ولا أنصاف حلول. تمضي في الطّريق إلى نهايتها، مهما كانت شاقّة وشائكة.. وتتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لا يهمّ إلى أين يقودك، فأنت ستتبعه وحسب! حتّى لو كانت الطّريق مسدودة، فإنّك ستحفر خندقا تحت الأرض وتستمرّ! ذلك هو أنت.

بدأت مرحلة التخصّص مترنّحا. وإن كان توتّر فترة التأقلم الأولى قد أهداك أعذارا جاهزة تقدّمها لكلّ من يتساءل عمّا غيّرك وشغلك. عدت إلى الوحدة التي تمقتها، وقد اخترتها على المواجهات التي لا قبل لك بها. كنت ترسم بسمة مصطنعة، وتطلق ضحكة مغتصبة، حين تجمعك الجلسة بالأصحاب. تداري عنهم وجع قلبك وقلاقل

روحـك، وتسـتمرّ في جـرّ قدميـك نحـو المحطّـات المعتـادة: المستشـفى، الكليّـة، المسـجد، المكتبـة والشـقّة. تتوضـأ في حركـة روتينيـة خاويـة، وتدخــل المســجد تسـجد وتركــع، دون حــرارة. تصافــح الإخــوة وتــردّد العبـارات الاعتياديّـة، ثـمّ تـنزوي في المكتبـة حيـث ركنـك الأثـير الهـادئ. تقـرأ وتقتـل المسـألة الـتي حيّرتـك بحثـا، فمـا يزيـدك البحـث إلّا حـيرة وضياعـا.

حينهـا فقـط وعيـت أنّ الإيمـان هـو مـا يعطـي للكيـان البـشريّ أصالتـه. مـا تؤمـن بـه هـو أنـت. لـو غـيّرت لغتـك ولـون بشرتـك وتشرّبـت عـادات قـوم غـير قومـك، لبقيـت في نهايـة المطـاف نفسـك، في جوهـرك. لكـنّ تغـيّر قناعاتـك يجعلـك شـخصا آخـر. هـل كنـت لتـدرك ذلـك لـولا نظرتهـا إليـك؟ في عينيهـا قـرأت ذاتـك الجديـدة، فولّيتهـا ظهـرك.

بكل قسوة الدّنيا، أقفلت الأبواب دونها.

لشـدّ مـا طرقـت، وألحّـت لترفـع عـن نفسـك الحصـار.. أو لتفـكّ حصارهــا هــي. فقــد كنــت معــتزلا إيّاهــا دون الجميــع. قاطعتهــا دون سـبب، فمــا مــن سـبب بحوزتــك يمكــن الإعــلان عنــه! لكنّــك لــم تعــد تحتمـل رؤيتهـا. كانـت النسـخة المؤنّثـة لمـا كنـت عليـه. لكـنّ رفاقـك كانوا كذلـك عـلى شـاكلتك، رجـال علـم وديـن وإصـلاح ودعـوة، فلمـاذا نبذتهـا دونـا عنهـم؟ كانـوا أنـدادا لـك، خطاكـم تسـير بشـكل متـوازٍ، وإن كانـوا قـد سـبقوك في خـوض سـوق العمـل، فقـد كنـت ومـا زلـت مرجعهـم العلمـيّ بامتيـاز. والأهـمّ مـن كلّ شيء هـو أنّ أحدهـم لا يتوقّـع منـك شـيئا ولا يُلزمـك بـشيء تجاهــه. أمّـا سـارة، فهـي تتوقّـع منـك الكثـير! نظرتهـا إليـك تثقلـك بالالتزامـات والمسـؤوليّات الـتي مـا عـدت أهـلا لهـا. كيـف تخبرهـا أنّـك لـم تعـد الـزّوج المثـاليّ «الـذي سـيأخذ بيدهـا إلى الجنّـة»؟ كيـف تُفهمهـا أنّـك عـلى مشـارف الانهيـار، أنّـك أنقـاض مـن الدّاخـل، وهـذا الخـارج الـذي لـم يتغـيّر إلّا قليـلا مـا هـو إلّا واجهـة

زائفـة تـداري بهـا حقيقتـك الملتبسـة؟

كنــت خائفــا. كأنّهــا بنظــرة واحــدة ســتطلّع عــلى ســوأتك. تباعــدت اتّصالاتـك بدايـة، وجفّـت لهجتـك واقتضبـت ردودك. كنـت قـد تعـوّدت منــذ الخطبــة أن تــزور مــنزل خطيبتــك مــرّة في الأســبوع وأحيانــا كلّ أسـبوعين. لكنّـك منقطـع عنهـا منـذ أكـثر مـن شـهر. ممّـا جعـل والدهـا يتّصـل بنفسـه لدعوتـك. تكـرّرت الاعتـذارات بشـكل مثـير للرّيبـة. أنـت متعـب تـارة، ومشـغول تـارة أخـرى. لا وقـت للقـاء هـذا الأسـبوع.. ولا الأسـبوع الـذي تـلاه. ثـم حصلـت القطيعـة الكاملـة. توقّفـت مكالماتـك جملـة واحـدة. ثـمّ لـم تعـد تـردّ عـلى مكالماتهـا الـواردة.

طاردتـك عـبر البريـد الالكـتروني، كأنـثى مكلومـة، تريـد أن تفهـم لصـدودك سـببا. إن كنـت لـم تعـد تريدهـا، فتحـلّ بالشـجاعة وأعلنهـا صراحـــة، بـــدل الإمعـــان في الفـــرار الجبـــان! رأيـــت عبراتهـــا مـــن خـــلال الكلمـات. كانـت تبـكي وهـي تكتـب رسـالتها تلـك. تـردّدت بـين خياريـن. ردّ جـاف وقـاسٍ دون الكشـف عـن حقيقـة وضعـك. انتهـت الرّحلـة. ليـس هنـاك نصيـب. مـن الأفضـل لـك أن تبتعـدي عـني يـا بنـت الحـلال. أو مكاشـفة بمـا آل إليـه حـال قلبـك، دون مواربـة. كنـت تعتقـد في داخلـك أنّ مـا أصابـك خلـل مؤقّـت، مـا تلبـث أن تقـف عـلى علّتـه، ثـمّ ترجـع كمـا كنـت. لذلـك فـإنّ العزلـة والمسـافة خيـار مناسـب حـتّى يسـتقرّ وضعـك. لـم يكـن يجـدر بـك التّفريـط في سـارة وقـد عانيـت كثـيرا حـتّى حظيـت بودّهـا.

وددت لـو اسـتطعت أن تـردّ عليهـا بأبيـات شـاعرك المفضـل الآن، ذاك أبـو العـلاء الفيلسـوف، الـذي كنـت تسـتعيذ بـالله مـن كلماتـه! أدمنـت شـعره ورحـت تـردد بينـك وبـين نفسـك:

خُذي رَأيِي وَحَسبُكِ ذاكَ مِنّي عَلى ما فِيَّ مِن عِـوَجٍ وَأَمتِ

وَماذا يَبتَغي الجُلَساءُ عِندي أَرادوا مَنطِقي وَأَرَدتُ صَمتي

أنت تحتاج بعض الوقت لا أكثر.

لكنّ «بعض الوقت» غدا «الكثير من الوقت».

كانت الأيّام تمضي، وأنت لا تزداد إلّا تخبّطا. حين طال أمد الجفوة، وخفت الأمل بالرّجعة التي تمنيّتها، صار من المحتّم أن تكون أكثر وضوحا تجاهها. لم تعد المسألة ابتعادا مؤقّتا، تعود بعده المياه إلى مجاريها. اكتشفت بعد شهرين من التباعد، أنّك صرت تنفر منها. لا، ليس نفورا حسيّا بين ذكر وأنثى، بل هو أشبه بقوّة طرد مغناطيسيّة: صرت تمقت فيها كلّ ما كنت عليه ولم تعده. مجرّد التفكير فيها يعيد إليك ذكريات قريبة لم تعد ترغب في استرجاعها.

بدأ الأمر حين لم تعد تستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر. أصبح نومك ثقيلا فجأة، أشبه بالغيبوبة التي لا تنفع معها منبّهات ولا نداءات. ثمّ تثاقلت خطاك تجاه المسجد حتّى انقطعت. ثمّ أفقت يوما وأنت تشعر بألّا قيمة لصلاتك الخاوية، فلم تصلّ. خرجت لأوّل مرّة في حياتك من الشّقة دون أن تصلّي الصّبح. سرت في اتّجاه محطّة المترو وإحساس غريب لا تفسير له يضجّ في صدرك. أنت لم تصلّ اليوم! منذ التزمت بالصّلاة قبل بلوغك السّابعة، لم تفرّط في فرض واحد، فضلا عن السّنن التي واظبت عليها حتّى وراء القضبان. أنت لم تنسَ ولم تنشغل، ولكنّك اخترت ألّا تصلّي.

هل هذه هي الحريّة التي يتحدّثون عنها؟ هل هذا هو التمرّد؟

ماذا لو رأتك سارة اليوم، وقرأت على وجهك أنّك لم تصلّ؟ ماذا لو اتّصل بك أيّوب، فأخبرته عمدا أو عرضا بأنّك لم تصلّ؟ كانت مسألة إعراضك عن الصّلاة تملؤك إثارة غريبة. أخيرا أقدمت

علـى خطـوة حقيقيّـة تترجـم مـا وصلـت إليـه في قـرارة نفسـك خـلال رحلـة البحـث والتقـصّي. «العهـد الـذي بيننـا وبينهـم الصّـلاة»، هـذا حديـث تعرفـه.. وأنـت اليـوم قـد نقضـت العهـد.

ذلـك الصّبـاح، اتّخـذت قـرارا بالمواجهـة. سـارة لـم تعـد تنفـع لـك. فلتنظـر إلى حقيقـة الأمـر. سـارة نفسـها ستحتقرك لـو أنّهـا عرفـت بقـرارك تـرك الصّـلاة. أنتمـا منفصـلان الآن فكريّـا وعقائديّـا، بقـي أن تنفصـلا وجدانيّـا. كنـت قـد هيّـأت نفسـك لهـذا خـلال الأسـابيع الماضيـة، حـتّى حسـبت عاطفتـك تجاههـا قـد ماتـت. لكـن حـين أمسـكت الهاتـف وأخـذت تنقـر حـروف رسـالتك، شـعرت بيـد بـاردة تعتـصر قلبـك.

«لـم أعـد أومـن. الشـكوك تملـؤني. أحتـاج إلى العزلـة والابتعـاد عـن كلّ المؤثـرات، حـتّى أجـد تـوازني مـن جديـد».

هـل تخيّلـت أنّهـا سـتقدّر وتستسـلم، وتقبـع جانبـا تنتظـر مـا تصـير عليـه بعـد أن تسـترجع توازنـك؟ تعلـم أنّهـا لـم تكـن لتفعـل! لكنّـك تدرك أنّهـا كانـت تريـدك أنـت بالـذات، مـن أجـل إيمانـك. تريـد ذاتـك الأخـرى الـتي لـم تعـد. حـين سـقط الإيمـان مـن قلبـك، لـم تعـد العلاقـة بينكمـا ممكنـة. لكنّهـا لـم تيـأس منـك. رغـم يأسـك مـن نفسـك! بالأحـرى، أنـت لـم تعـد تـرى الأمـور مـن المنظـور نفسـه. كنـت تعيـش لحظـة انسـحاب لقواتـك الخاصّـة وراء خـطّ الصفـر. تقـف الآن في منطقـة محايـدة، وتحـاول معاينـة الخسـائر مـن زاويـة أخـرى. أمّـا هـي فقـد أرادت لـك أن تعـود أدراجـك. أن تقـف بشـجاعة علـى أرض المعركـة وتحـارب الشـكوك حـتّى تهزمهـا وتبيدهـا كافـة! أن تنقّـب عـن الإيمـان في أعماقـك حـتّى تعـثر علـى المنبـع المطمـور فتزيـح عنـه مـا تراكـم مـن لبـس. لكنّـك أبيـت. لـم تكـن ترغـب. أوصـدت أبوابـك وحكمـت باللّاعـودة. وكيـف يمكنـك أن تحكـم بغيرهـا وأنـت لا تؤمـن؟ لـم يكـن إيمانـا باليـا، متضعضعـا أو متذبذبـا يحتـاج أن تنفـض عنـه الـتّراب أو تقـوّي دعائمـه. كنـت قـد

وصلـت إلى مرحلـة اللّاإيمـان. لـم تعـد لديـك ثوابـت.. فقـط متغـيّرات لا تـدري عـلى أيّ وضـع سيسـتقرّ حالهـا، وإن كانـت ستسـتقرّ!

بقيت تتلقّى رسائلها الغزيرة في صمت.

وهي كانت تستميت في محاولة إقناعك.

-٣-

٢٠٠٢/٠٣/٢٠

الشك، كان دوما طريقا إلى اليقين.

الشكّ ليس عيبا، ليس جرما، ليس ذنبا.

إن لـم تشـكّ ولـم تتسـاءل ولـم تعايـن إيمانـك بنظـرات ثاقبـة، فأنـت مؤمـن بالوراثـة، لأنّـك ولـدت مسـلما، لأبويـن مسـلمين، في محيـط مسـلم. أمّـا أن تشـكّ وتعـبر رحلـة الإيمـان مـن بدايتهـا، فذلـك عـين الشّـجاعة. أن تشـكّ وتبحـث فتهتـدي، فتصـير أقـوى، وإيمانـك أقـوم وأبهـى!

لا تخجـل مـن شـكّك ولا تستسـلم لـه. تعامـل معـه مثـل محّطـة ضروريّـة. أنـت تأخـذ اسـتراحة، تتراجـع إلى خانـة البدايـة، وتراجـع قناعاتـك. تتأمّـل في الخلـق وتسـتدلّ عـلى وجـود الخالـق، وترجـع إلى ربّـك عـلى بصـيرة.

لا تغلـق قلبـك عـلى الشـكّ وحـده. اطـرح الأسـئلة وابحـث عـن الإجابـات. حـاورني إن شـئت، ودعنـا نفتّـش معـا عـن إجابـات شـافية. وإن لـم نجـد سـننقب أكـثر، نعـود إلى المصـادر، ونسـأل مـن هـو أعلـم منّـا. وسـننهي الرّحلـة ونحـن أكـثر اطمئنانـا.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢١

هل تعلم من عرف الشكّ أيضا؟ نبيّ الله موسى!

ألـم يقـل الله تعـالى في سـورة الأعـراف: (وَلَمَّـا جَـاءَ مُـوسَى لِمِيقَاتِنَـا

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(أرني أنظر إليك).. لقد احتاج نبي الله أن يرى الله بأمّ عينه ليدركه اليقين! فأراه الله دليلا على قدرته -سبحانه- وضعفه -عليه السلام- حين تجلّى للجبل. فكيف لنا نحن البشر العاديّين الذين لا تصلنا بالله صلة مباشرة ألّا نصاب بفتور وضعف وضيق؟ تلك محطّات متوقّعة، فيرتفع مستوى الإيمان أو ينخفض، وثباته على معدّل واحد غير ممكن.

أجبني بالله عليك. أفض إليّ بشكوكك، ودعنا ننظر فيها سويّة.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢٢

أنت لا تريد التحدّث إليّ، ولكنّني لن أتخلّى عنك. أتدري لماذا؟

لأنني أومن بالآية الكريمة: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

إيمانك لن يضيع بسهولة، لكن عليك أن تقاوم من أجله. ليكون الرّضا والطمأنينة هديّتك المنتظرة. إيمانك محفوظ عند الله، لأنّك كنت صادقا فيه، متفانيا من كلّ قلبك. وسيعود إليك إن أنت سعيت إليه بصدق.

لا تستسلم الآن. لا تترك نفسك عرضة للوساوس تبعثر عزمك. استرجع تركيزك وانتبه إلى نداء قلبك. ستسمع صوته في أعماقك. «لا تضيّعني. أنا في انتظارك».

أجب على الهاتف أرجوك!

***

٢٠٠٣/٠٥/٢٣

إن كنت لا تريد أن تسألني، فاسأل الله.

توجّه إليه بكلّك، في عتمة الليل، واسأله بانكسار وتذلّل أن يهديك وينير بصيرتك، ويرفع عن قلبك الغشاوة، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.

الله أمر بالدعاء، ووصف نفسه بالقرب، ووعد بالإجابة.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).

اسأله الرحمة من هذه الحيرة القاتلة.

-٤-

الله لن يضيع إيمانك؟ ولكنّك ضيّعته بالفعل!

تساءلت، هل يمكن أن يكون إيمانك محفوظا في مكان ما فوق السماوات كما تقول سارة؟ كنت أوهن من أن تبحث في الأمر وتفكّر. كنت تقرأ رسائلها بفتور لامبالٍ، وقلبك أصمّ عن ندائها. أملها فيك يثير سخريّة لاذعة في داخلك. هل تدّعي أنّها تعرفك أكثر من نفسك؟! وهل كلّ ما يهمّها من أمرك أن تعود إلى القالب الذي وضعتك فيه في رأسها؟ لن تكون إنسانا محترما إن لم تكن كما تريدك أن تكون؟!

انتابتك ثورة مفاجئة. سخط وتمرّد.

ستكون شيئا مختلفا، وإن لم تتقبّلك كما أنت فليست جديرة بك!

وبما أنّك تدرك بشكل مسبق أنّها لن ترضى بذاتك الجديدة، فقد قرّرت أن تمحوها من تفكيرك أوّلا. رسائلها المتواترة أصبحت تثير غيظك. حوّلت بريدها على «الرّسائل غير المرغوبة». لكنّك بقيت تتفقد تلك الزاوية التي لم تكن تهتمّ لها سابقا، تختبر خلسة طول نفسها، رغم لامبالاتك المزعومة. لكنّك كنت أسرع منها في الانهيار. كثرة التفكير أجهدت دماغك واستنزفت روحك. عادت إليك حالة الاكتئاب القديمة بشكل أكثر حدّة.

أغلقت هاتفك، وانقطعت عن جلسة الأصحاب والمكتبة. ثمّ الكليّة.. وأخيرا المستشفى. لأيّام طويلة، لم تغادر غرفتك. لم تفتح كتابا. لم تتحدّث إلى بشر. ولم تسجد لله سجدة واحدة. يستلمك

النّعاس ثمّ يلفظك وأنت مسجّى لا تبرح مكانك إلا لحاجة ملحّة من حاجات البدن الأساسيّة. استسلمت لإنهاك شامل أرداك طريح الفراش، لا تقوى على الحركة ولا يردّد عقلك صدى فكرة واحدة.

أيّ فكرة.

ابتلعك ثقب أسود.

حتّى جاء ذاك اليوم الذي قرعتْ فيه جرسك.

قمت متثاقلا، ساخطا، مثل جذع خاوٍ يترنّح. فتحتَ الباب لتوقف رنين الجرس الملحّ المزعج، فألفيتها عنده.. ترمق هالات عينيك وشعرك المنكوش وهيئتك الفوضويّة في جزع ولوعة.

- ما الذي حلّ بك؟

كان صوتها مبحوحا مختنقا، ولم تكن لديك إجابات جاهزة. كان يمكنك أن تواجه أيّ أحد، إلّاها. كنت تهمّ بطردها والاعتذار بالمرض، بالتعب، بأيّ حجّة تجعلها تتركك في حالك. لست مستعدّا لنقاش ما ألمّ بك. خاصّة معها. لكنّك بدلا من ذلك، تحرّكت إلى الوراء، وأوسعت لها مدخلا لتدلف إلى الشقّة. أيّ شيطان استيقظ في تلك اللحظة وألهمك مخططك المتهوّر؟ رأيت التردّد في عينيها. تردّد قصير لم يدم، جعل شيطانك المتراقص يبتسم ساخرا، وهي تخطو في اتّجاه الفخّ الفاغر فاه. لم يكن في الشقّة غير سرير واحد ومنضدة ومقعد. رائحة نفس كريه تملأ الهواء وتجعل التنفّس عسيرا على المسكينة. لكنّها تواجهك في جلد، وتهتف بصوتها المتهدّج بينما تنتفض قسماتها:

- أين هاتفك؟ لماذا أغلقته؟ منذ متى لم تغادر الشقّة؟

تتوالى أسئلتها المستنكرة والمستجوبة، في حين لا تملأ فراغ عقلك إلا فكرة واحدة. فكرة شيطانيّة دنيئة. لكنّها حاضرة بشدّة،

ومستحوذة. كلّ فتاة تسعى بقدميها إلى شقة رجل بالتأكيد تدرك ما ينتظرها. كلّهن. لم يشفع لها أنّها تقف على بابك خوفا عليك «أنت»، وتمضي وراءك قلقا عليك «أنت»، تدفعها ثقة فيك «أنت»، لأنّها تعرف ما جُبلت عليه «أنت» من شهامة وخُلق.

فاتها أنّك لم تعد «أنت»!

تتنقّل نظراتك بين دفّة الباب التي انسابت بهدوء حتّى استقرّت على الوضع المغلق، وبين السّرير غير المرتّب الذي تقف هي على مبعدة خطوتين منه. تجسّد السيناريو في ذهنك بسيطا ويسيرا. لن تقدر على مقاومة عضلات ساعديك. أنت تفوقها طولا وعرضا وسطوة. حتّى بمعدة خاوية، كانت الرّغبة وحدها لتمدّك بما يكفي من الطّاقة.

هل رأتْ الشرّارة في عينك؟ لعلّها فعلت، وأدركت ما أحاق بها من خطر، بما تعرفه عنها من حدس لخوالج نفسك بالعين المجرّدة. فقد تراجعت، تبتعد عنك خطوة، وتقترب من السّرير، حيث تريدها، خطوة. ولقد هممتَ بها وما همّتْ بك. هممت بها تريد الفتك بعفّتها، وراحت هي تدفع وتصرخ.

لولا أن رأيت برهان ربّك!

لقد شددت حجابها بيمناك حتّى انتزعته من رأسها، لتكشف خصلاتها السوداء المتهدلّة حتّى كتفيها، ودفعتها بعنفوان لتسقط على السّرير تشهق وتصرخ من هول صدمتها. لقد ثبتَّ بيسراك ذراعيها النحيلتين المذعورتين فوق رأسها، والتهمت عيناك بياض نحرها فيما رحت تحاول بعصبيّة فكّ أزرار قميصها. بينما أنت غارق في فورة جنونك، وقع بصرك على الإطار المعلق فوق المنضدة، فسرت في عمودك الفقري شحنة كهربائيّة عطّلت حركتك دفعة واحدة

وأحالتك إلى سكون عميق. كانت إجازتك في القرآن الكريم، تستقرّ في إطارها المذهّب، فخورة تتصدّر الجدار. تلقيّتها كصفعة صمّاء، وكأنّك تنتبه إلى وجودها في الغرفة للمرّة الأولى. أفلتّ الفتاة الراقدة على سريرك، وتهاويت على الأرض، لا حول لك. ينساب إلى سمعك نحيبها المتقطّع وقد انكمشت على نفسها، لا تقوى على الفرار. استمرّ النشيج المرّ لدقائق يملأ أذنيك، يعذّبك، بينما يتردّد لهاث متعب في صدرك.

الويل لك! ما كنت تصنع؟

هل إذا فقدت إيمانك، فقدت أخلاقك؟!

تلك نظريّة أخرى تثبت هشاشتها خلال فترة وجيزة. أنّ أخلاق الرّجل أصيلة في ذاته، لا تتعلّق بحلال وحرام، خوفا من العقاب وطمعا في الجزاء! تقول أنّ الأخلاق التي تصنعها المحظورات الدينيّة هي أخلاق وهميّة! أنّك لو بقيت وحدك في جزيرة مهجورة، مثل حيّ بن يقظان، لتشكّلت ذاتك بنفس الشكّل واستوت مبادئك كما عرفتها فيك منذ نعومة أظفارك! أيّ هراء هذا؟!

تسللت إلى ذاكرتك قبسات من حواراتك السابقة مع رفقاء جلستك. كنت تردّد أمامهم سؤال سقراط ليوثيفرو -والذي يسمى «المعضلة الأخلاقيّة- عن مصدر الأخلاق.. ما هي حقيقة الخير ومعاييره؟ وما هو مصدر الصّلاح والعدل؟ هل الأخلاق حسنة لأنّ الله يريدها.. أم أنّ الله أرادها لأنّها حسنة؟ هل الخير خير لأنّ الله أراده وأحبّه.. أم أنّ الله أحبّه وأمر به لأنّه صواب وخير؟ هل أمرنا الله بالصّلاح لأنّه صواب في ذاته.. أم أنّ الصلاح اكتسب الخيريّة لأنّ الله أمرنا به؟ وهل يعدل الله لأنّ العدل خير في ذاته بمعزل عن إرادة الله.. أم أنّ فعل الله هو الذي جعل العدل عدلا؟

ها أنّك قد رفعت الغطاء عن سوأتك وأبصرتها في وضح النّهار.. فألفيت معدنك ترابا.

- اخرجي.

تمتمت مختنقا، تدفن رأسك بين ركبتيك. لا تريد أن تلمحها وهي تلملم نفسها وخيبتها وتجرّ قدميها كسيرة، وهي التي رأتك كبيرا، فصغّرت نفسك في عينيها حتّى تقازمت إلى ما لانهاية. ستتلاشى الآن من قاموسها، كأنّك لم تكن.

لبثت منكس الجبين ردحا من الزّمن بعد أن اختفى وقع خطواتها في الممرّ. نظراتك تتّجه إلى داخلك، تسبر أغوارك. هل مزّق الحيوان الغشاء السّاتر وظهر للعلن؟ حيوانك المتوحّش الذي أمضيت عمرا تهذّبه بالقرآن، أفلت من عقاله ما أن أتيحت له الفرصة! تنكمش أكثر، مجلّلا بعارك. حيوان!

بعد برهة قصيرة، كنت تفكّر في الاتّصال بها والاعتذار.

كان يمكنك أن تؤلف قصّة. جرعة زائدة من دواء الأعصاب. مخدّر قويّ جعلك لا تتحكّم في أفعالك! لولا أنّ الاعتذار والصّفح لا معنى لهما الآن! ماذا لو صدّقت كذبتك وصفحت؟ لن يمكنك العودة حينئذ إلى قوقعتك، إلى ثقبك الأسود الذي ابتلعك في الأيام الماضية! سيكون عليك أن تخرج وتردّ على الاتّصالات، وتقبل أن تناقشك في شكوكك. وأنت لا تريد. لا تقدر.

إنّها النّهاية إذن؟ ستفقدها إلى الأبد؟

ستعتذر. لكن فيما بعد. بعد أن تدرك ماهية ما تعيشه من ضباب.

لكن حين رنّ جرسك في الغد، هرعت إلى الباب في لهفة الظمآن إلى منبع الماء، وقد حسبتها عادت. وكيف تعود بعد الاستقبال الذي

لقيتها بـه؟ كان أربعتهـم عنـد البـاب، فرسـانك الأربعـة. مـا أن ظهـرت أمامهـم حـتّى اقتحمـوا المـكان دون استئذان. فتـح حاتـم النافـذة عـلى مصراعيهـا ليجـدّد هـواء رئتيـك العفـن، وتأبّـط محسـن وغالـب ذراعيـك وسـاقاك في اتّجـاه الحمّـام، حيـث وضعـا رأسـك تحـت الصّنبـور غـير عابئـين بصراخـك، في حـين أخـذ أيّـوب يسـتجوبك في حـزم:

- هل شربت شيئا؟ هل أنت سكران؟!

بـدا أنّ أصـداء فعلـة الأمـس قـد بلغتهـم بشـكل مـا. الآن، يقـف أمامـك أربعتهـم وقـد تآمـروا عليـك. يـصرخ أيّـوب:

- ما الذي حلّ بك؟ انطق!

خرجـت برفقتهـم إلى الشّـارع، قالـوا لنتمـشى. لـم تكـن قـد نطقـت بعـد. يجـرّك غالـب ومحسـن، يمسـكان بتلابيبـك ولا يفلتانـك. تـودّ أن تقـول: حسـن هـذا يكفـي يـا رفـاق! لكنّـك لا تملـك أن تـشرح شـيئا بعـد. حـين وصلتـم إلى ضفـاف السّـين، أطلقـا سراحـك. اتـكأت عـلى السّـور الحجـريّ وشردت نظراتـك في المـاء، بينمـا يتبادلـون نظـرات قلقـة. مـاذا بعـد؟ لوهلـة، شـغلتك فكـرة القفـز. كـم سـيكون عمـق المـاء في هـذه البقعـة؟ وكيـف هـي برودتـه؟

- سارة كانت عندك أمس، أليس كذلك؟

يكـسر أيّـوب الصّمـت مـرّة أخـرى. إذن فقـد ذهبـت تشـكوك إليـه! كنـت قـد عرّفتهـا عـلى أيّـوب ذات مـرّة، بصفتـه مـن قدمـاء الكليّـة. جلـس ثلاثتكـم في مطعـم قريـب مـن الجامعـة، وشرح لكمـا مختلـف التخصّصـات وكيفيّـة احتسـاب المجمـوع في سـباق التخصّـص. كان ذلـك منـذ سـنتين عـلى الأقـلّ. ثـمّ رافقـك وزوجتـه إلى مـنزل والديهـا لخطبتهـا. في تلـك المناسـبة، تبادلـت أرقـام الهاتـف مـع سـميّة، زوجـة أيّـوب، وأصبحـت بينهمـا علاقـة وديّـة وزيـارات متواتـرة.

تساءلت: ما الذي قد تكون قد قالته عن لقاء الأمس؟ جاءك الردّ بسرعة:

- لقد أرعبت البنت! قالت إنّك فقدت عقلك! ما الذي حصل بالضبط؟ أخبرني!

إذن لم تقل الكثير. فتاة عاقلة. لن تكون الفضيحة في مصلحتها أو مصلحتك.

- سأكون بخير.. أحتاج بعض الرّاحة، فقط.

تكلّمت أخيرا، فجاء صوتك عميقا مبحوحا، قادما من بئر سحيقة.

- ما الذي يقلقك؟ تخصّصك ممتاز! ووظيفتك في المستشفى يتمنّاها الكثيرون! وقد كنّا معا منذ شهور قليلة في رحلة، فهل تعبت بهذه السّرعة؟

آه، تلك الرّحلة. إنّها بيت القصيد! لو أنّك لم ترافق أيّوب!

تركك الرّفاق بعد أن وعدت بتدارك أمرك والانتظام في العمل مجدّدا. كنت الوحيد من بينهم الذي لم يتزوّج بعد، لذلك اتّفقوا على أن تحضر لتناول العشاء عند واحد منهم كلّ ليلة من الآن فصاعدا، حتّى تستقرّ حالتك النّفسيّة. لكنّك عارضت وتمنّعت، ليس هناك من داعٍ ليتحمّلوا مسؤوليتك. أنت راشد وبإمكانك تدبّر أمرك. أمام إصرارك العنيد، قرّر أيّوب أنّه سيحضر لك طبقا من طعام عشائه كلّ ليلة، وقرّر الباقون نفس الشيء. تركتهم يتّفقون فيما بينهم على دوريّات مراقبتك وإطعامك وسرحت مجدّدا عبر الماء. سيكون من الجيّد أن تنهي كلّ شيء هنا، ستنعم بعدها براحة بال أبديّة.

حقّا؟ هل هناك راحة بال أبديّة ممكنة؟

أعادوك إلى الشّقّة، وتركوك محمّلا بكثير من التّوصيات. فهززت

رأسـك باسـتمرار في تسـليم لتتخلّـص مـن حضورهـم الثقيـل. هكـذا أصبـح حضـور الرّفقـة بالنّسـبة إليـك. ثقيـلا. كأنّ الخفّـة تكمـن في خلوتـك بنفسـك؟ الوحـدة أثقـل. لكنّـك تعـوّدت عـلى التعامـل معهـا. جـزء منـك كان يـصرخ في ألـم، لا تتركـوني وحـدي! وجـزء آخـر كان يزمجـر في غضـب، ارحلـوا واتركـوني وشـأني!

طالعـت نفسـك في مـرآة الحمّـام حـين صرت وحيـدا، فقابلتـك نظرتك القاتمـة البائسـة. لقـد خـرج الحيـوان المكبّـل داخلـك. سرت في جسـدك قشـعريرة بـاردة. تلـك هـي الحقيقـة المخيفـة الـتي تدركهـا وحـدك.. وسـارة. مـزّق القيـد وحطّـم القفـص. لـم تعـد لـك عليـه سـيطرة. مـا الـذي سـتفعله حيـال ذلـك؟ بـدل أن تفكّـر في حـلّ للمـأزق الـذي أنـت فيـه، أخـذت تتأمّـل شـعيرات لحيتـك في ضيـق. ثـمّ وبعـزم لا تـدري مصـدره، تناولـت آلـة الحلاقـة وأخـذت تحلقهـا.. حـتّى آخـر شـعرة. تنظـر الآن إلى وجـه لا يشـبهك. وجـه أملـس حليـق. كأنـك أردت أن تؤكـد لنفسـك بأنـك غـدوت شـخصا آخـر غـير مـا كنـت عليـه.. ولـن تتراجـع.

بعد ذلك، ارتديت بدلة أنيقة، تعطّرت، وغادرت الشقّة.

كان هنـاك إصرار غريـب لا تـدرك كنهـه. رغبـة عميقـة تحـرّرت في أعماقـك وأصبحـت تسـيّر حركتـك. مشـيت في الشّـارع، تتلفّـت. أنـت تعـرف وجهتـك. سبق أن لمحـت اللافتـة الـتي تريـد. عـلى بعـد مائة مـتر مـن بنايتـك، كان المحـلّ. فـوق الواجهـة الزجاجيّـة البرّاقـة، كانـت لافتـة مضيئـة تناديـك: حانـة الزّمـن الجميـل!

أحطـت الواجهـة بنظـرة شـاملة، ثـمّ أخـذت نفسـا.. وخطـوت إلى الدّاخـل.

الفصل السّادس

- ضياع -

-١-

رحلتك نحو العالم السفليّ، بدأت مع الخمر.

أولست تعرِّفها طيلة حياتك باسم «أمّ الخبائث»؟

دخلـت الحانـة بخطـوات مرتجفـة. هـذا مـكان غريـب عنـك وأنـت غريـب عنـه. ومهمـا بلغـت جرأتـك الفكريّـة، فـإنّ جرأتـك العمليّـة تلخّصـت حـتى تلـك اللّحظـة في الـتّرك. تركـت المسـجد ثـمّ تركـت الصّـلاة والقـرآن والذّكـر ومجالـس العلـم وصحبـة الإخـوة. أمـا وقـد واتتـك الشّـجاعة، فعليـك أن تجـرّب أشـياء جديـدة تمـلأ بهـا الخـواء الرّوحـيّ الـذي خلّفتـه عاداتـك السّـابقة.

أخـذت مجلسـا عنـد المـشرب، وتلفـتّ حولـك متفقّـدا. كان هنـاك شـابان يجلسـان عـلى مقربـة، يتجرّعـان مـن كـؤوس طويلـة العنـق مترعـة، ويتجاذبـان الحديـث. مـددت ذراعـك لتلامـس كتـف أحدهمـا في خجـل، فلمّـا اسـتدار، قلـت مرتبـكا:

- معذرة، أنا جديد هنا.. بم يمكنني أن أبدأ؟

تبـادلا نظـرات دهشـة ثـمّ انفجـرا ضاحكـين، قبـل أن يجـزلا لـك النّصيحـة. عـدّدا الأنـواع الخفيفـة الـتي يمكنـك أن تسـتهلّ بهـا مغامـرة السّـكر. سـجّلت في اهتمـام ملاحظاتهمـا ثـمّ التفـتّ إلى السّـاقي تذكـر طلبـك، كأنّمـا أنـت في مهمّـة رسـميّة. رصفـت الكـؤوس الثـلاث الـتي عبّأهـا مـن أجلـك، تأمّلتهـا لبرهـة تخمّـن بأيّهـا تبـدأ، ثـمّ تلفّظـت بالبسـملة دون وعـي منـك!

توقّفـت فجـأة وارتجـف قلبـك في صـدرك. بسـم الله؟! تسـارعت أنفاسـك، وهممـت بالمغـادرة. لكنّـك توقّفـت. ألـم تتجـاوز تلـك

المرحلـة؟ ألـم تـترك الصّـلاة، لمـاذا تنتابـك الرّهبـة فجـأة لمجـرّد ذكـرك الله عـلى حـين غـرّة؟ مـا هـي إلّا عـادة سـتتخلّص منهـا قريبـا. تـزدرد ريقـك في توتّـر، ثـمّ تتنفّـس بعمـق لتطـرد عنـك الـتردّد. في اللحظـة التّاليـة، كنـت ترفـع الكـؤوس واحـدة تلـو الأخـرى، تفـرغ محتوياتهـا في جوفـك دفعـة واحـدة حـتّى لا تـراودك نفسـك مجـدّدا بالنّكـوص عـلى عقبيـك.

أمضيت بقيّة اللّيل تستفرغ ما بجوفك، وتتلوّى من ألم معدتك.

لا عليك، تلك ضريبة التّجربة الأولى. ستتعوّد.

ستشـهد الأيّـام التّاليـة تحـوّلات جذريّـة في ذاتـك وشـخصيّتك. أنـت الـذي كنـت في بدايـة شـبابك تشـبّه مـن قبـل الرّفـاق بالمـلاك الطاهـر، لبراءتـك ونقائـك وتقـواك وورعـك، أنـت الـذي كنـت تـرى اللّمـم كبائـر والسّـنّن فرائـض، سـتجد طريقـك نحـو الخطايـا والشّـهوات، لتنغمـس في مسـتنقعها تعـبّ منهـا عبّـا حـتّى الثّمالـة. هـل كنـت تنتقـم مـن طهارتـك عمـدا، فتلوّثهـا بـكلّ مـا اسـتطعت إليـه سـبيلا؟

حـين دخلـت المستشـفى ذلـك الأسـبوع، توقّفـت أمامـك زميلـة تشـيكيّة، إيرينـا، شـقراء شـاهقة تماثلـك سـنّا، وهتفـت مصدومـة:

- مالك؟ أهذا أنت؟

كان شـكلك قـد تغـيّر بقـدر ملحـوظ بعـد أن حلقـت اللّحيـة. تفرّسـت الشّـابة في وجهـك متمعّنـة، ثـمّ قالـت وهـي تضغـط عـلى ذراعـك في غنج:

- لـم أكـن أعلـم أنّ كتلـة الشـعر الكثيفـة كانـت تخفـي عينـين عسـليّتين جذّابتـين!

لـم تـدرك عـلى الفـور العلاقـة بـين اللّحيـة والعينـين. لكـنّ حركتهـا جعلتـك تسـتوعب. لـم تكـن لتعـرف لـون عينيـك مـن قبـل، وأنـت تطـرق كلّمـا مـررت بهـا وتخفـض بـصرك! لكنّـك اليـوم ترفـع رأسـك وتواجـه النّظـرة بالنّظـرة. لـو أنّـك بقيـت نفسـك، أولـم تكـن لتجـذب ذراعـك،

وتنفر من لمستها؟ لكنّك اليوم لا تستنكر الوقوف قبالتها، وكفّها البيضاء تستقرّ على ذراعك. لم يكن من العسير على أيّ كان أن يلحظ تغيّرك. ليس شكلا فحسب، بل سلوكا أيضا.

احتفالا بالتّغيير الذي طرأ عليك، انضممت إلى الزّملاء في سهرة صاخبة في علبة ليليّة! هكذا، كنت تخطو بخطوات لاهثة في عالمك الجديد. لو كنت في سابق عهدك، لما وجدت خيرا من الآيات القرآنية لتوصيف ما أنت عليه.. ألست ذاك الذي انسلخ عن آيات الله، واتّبع طريق الشّيطان.. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾؟

كانت إيرينا صاحبة الدّعوة. لم يكن أحدهم ليجرؤ من قبل، وأنت بمظهرك المتزّمت وفكرك المعقّد! لكنّ بوادر الانفتاح التي ظهرت عليك ذلك الصّباح جرّأتها على المحاولة. لم تتردّد كثيرا في الرّدّ. لمَ لا؟ هذا تغيير لا بدّ منه، لتمحو من أذهان المحيطين بك صورتك السّابقة. أنت شخص مختلف الآن، ولا ضير من تجربة كلّ المحظورات التي أملتها عليك تعاليم دينيّة لم تعد تعنيك.

وصلت قبل الموعد بربع ساعة، ووقفت قلقا متوتّرا أمام واجهة المبنى، يداعبك نسيم ربيعيّ قارس. حين وصلت إيرينا، اقتربت منك على غير العادة، وتطاولت على كعبها العالي لتطبع على وجنتيك الباردتين قبلتين صغيرتين وتبتسم عن صفّ من اللؤلؤ، ثمّ تأبّطت ذراعك وشدّتك باتّجاه المدخل:

- هيّا بنا!

كانت جرأتها مغرية.. ومخيفة. شعرت لوهلة بارتباك طفل غرّ أمام مدرّسة محنّكة. سرت إلى جوارها تتأمّل في ذهول تقاطيعها الحادّة وبشرتها الشّاحبة شديدة النّقاء. لأوّل مرّة تملأ عينيك من

جمالهـا عــن قـرب، دون حيـاء أو خجـل. بالأمـس، كنــت تعتــذر عــن مصافحتهـا. بالأمـس، كنـت تضـع نصـب عينيـك قـول عائشـة (رضي الله عنهـا): «لا -والله- مـا مسّـت يـد رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) يـد امـرأة قـط إلا امـرأة يملكهـا» لكـن اليـوم، كيـف أصبحـت اليـوم؟ رغـم يقينـك بـأنّ القبـلات العابـرة أمـر معتـاد في التحيّـة بـين الذّكـر والأنـثى في «المجتمعـات المتحـضّرة»، إلّا أنّ موضـع قبلتيهـا بقـي ملتهبـا طيلـة السّـهرة، كأنّمـا همـا جمرتـان حطّتـا عـلى خدّيـك.

صخـب السّـهرة لـم يفلـح في تحويـل انتباهـك عـن الـبركان الـذي يسـتيقظ داخلـك، بـركان شـهواتك المكبوحـة طويـلا. تتمايـل أمامـك شـقراء فاتنـة، ترقـص منطلقـة، وتغازلـك بنظـرات وإيمـاءات فاضحـة، وأنـت منسـاق. لا مزيـد مـن الحرمـان. لا مزيـد مـن الكبـت. أنـت حـرّ طليـق. حيوانـك يسـتأثر بالحضـور ويشـبع جوعـا دام دهـرا. ترقـص بـدورك في حـركات خرقـاء، وتستسـلم لقيـادة شـقرائك الـتي تقـود خطواتـك عـلى الحلبـة المزدحمـة. لـم يسـبق لـك الرّقـص قـطّ. وهـل كان رقصـك في زفـاف شـقيقتك يشـبه الرّقـص؟ خطـوات رزينـة وقـورة وأنـت تتأبّـط ذراع أبيـك مـن هنـا وذراع شـقيقك الأكـبر مـن هنـاك.. هـل تعتـبر رقصـا في عـرف الرّاقصـين؟ أنـت السـلفيّ الجـادّ الـذي لا يرتفـع صوتـه حـتّى ضاحـكا، تقهقـه في مجـون وتترنّـح بمفعـول الـشّراب الـذي استسـغت طعمـه.

اليـوم تنتـصر عـلى عقـدك القديمـة. لا تتوقّـف مقارنـا بـين انتصـار الآن وانتصاراتـك الشـخصيّة السّـابقة: إجازتـك في القـرآن الكريـم، حفظـك لمتـون آلاف الأحاديـث، تحمّلـك عذابـات السّـجن ورحلـة الهجـرة، تخصّصـك في جراحـة العظـام. فليـس هنـاك مجـال للمقارنـة. أنـت تكتـب في صفحـة جديـدة، تدشّـن سـجلا جديـدا، معاييرك فيـه جديـدة تمامـا. لا تقـارن.

في الصّباح، استيقظت نشطا على غير العادة. ملمس الشّفتين النّاعمتين على وجنتيك لا يزال هناك. سيظلّ هناك لزمن طويل. كانت قد طرأت عليك عادة جديدة، فلم يعد فنجان قهوتك التركية هو أول ما تستقبل به صباحاتك.. فقد استبدلت به كأسا من ذاك الشراب الاسكتلندي المعتق، ذهبي اللون! جلست إلى مائدتك، مواجها النافذة. مددت ساقيك، ووضعت قدميك على الإطار المعدنيّ تراقب قطرات المطر وهي تتساقط بانتظام على زجاجها محكم الإغلاق وتصغي إلى نقراتها المتتابعة في صوت رتيب.

لطالما أثار المطر شجونك، وهيّج فيك الذكريات.. لكن ما أبعد اليوم عن الأمس! تطلعت إلى الكأس في يدك، ورفعتها إلى شفتيك، وارتشفت جرعة في متعة ونفسك تحدّثك في عربدة: أين كنت غافلا عن هذا النعيم؟

قصدت المستشفى منتشيا من أثر كأسك الصباحيّة المترعة، وقد بيّتّ نيّة سوء. عاهدت الشّيطان على أن تبادرها أنت بمجرّد وصولها، وتطبع على خدّيها قبلتين بنفسك. وقفت في البهو، تترقّب مقدم إيرينا، شقرائك التي فتحت عينيك على عوالم جديدة. تضرب نبضات قلبك على جدار صدرك. ثمّ تظهر فاتنتك، تسير بثقة مستفزّة، مزهوّة بجمالها الأخّاذ وقوامها الرّشيق. وصلت عندك، ومدّت كفّها ذات الأصابع النّحيلة، لتلامس أطراف أصابعك، في تمنّع مصطنع. فاقتربت أنت، انحنيت حتّى لامست وجنتيها، وقبّلتها كما سبق أن عزمت.

حين تراجعت عنها مقطوع الأنفاس، هزّتك النّظرة التي قرأتها في عينيها. لمحت الابتسامة التي ارتسمت عند زاوية شفتيها، فيها لمحة مكر لا تخطئها العين. وقرأت كلمات تكاد تميّزها حروفا مكتوبة على صفحة وجهها. تقول.. ها قد علمتك أيها الهمجيّ شيئا من

الإتيكيـت والتّمـدّن.. جيّـد. تابـع التّحـضّر!

-٢-

بعد اندفاع جنونيّ تجاه الشّهوات المكبوتة، كبحت جماحك.

أمامك العمر كلّه لتتذوّق من الأطايب كلّها، فلمَ التّهافت؟ أخذت نفسا عميقا وقرّرت أن تعيد إلى حياتك توازنها. انتظمت في مواعيد العمل بالمستشفى في الأيّام التي تلت، ثمّ كان ظهورك الأوّل في الكلّيّة والمكتبة بعد أسبوعين. يغمرك إحساس بالإثارة وأنت تخطو عبر الممرّات، ترقب ما حولك بنظرات متلصّصة، تبحث عن أمارات الدّهشة في العيون المحدقة بك، لكنّك لا تلقى إلا تجاهلا ولامبالاة. لماذا على الآخرين أن يهتمّوا بما يحصل داخلك أنت؟ هذا أمر يخصّك وحدك!

لكنّ اتّصال أيّوب أعلمك أنّك مخطئ في تقديرك. لن يهتمّ بما حلّ بك إلّا من يهتمّ بأمرك من الأساس.

لم تكن قد تواصلت مع الرّفاق بعد لقائكم المشحون بالتوتّر عند نهر السّين. كان كلّ منهم قد وفى بوعده، وحرص على مشاركتك عشاءه، متداولين على خدمتك. لكنّك لم تكن في شقّتك في معظم المساءات. وحين تكون هناك، لا تفتح الباب لأحد. كانوا يتركون علب الطّعام عند الباب، فتأخذها في وقت لاحق. احترموا في اتّفاق صامت رغبتك في الوحدة.. إلى حين.

أيّوب زميلك في مهنة الطبّ، ومعارفكما المشتركون في الكلّيّة والمستشفى لا يسعك حصرهم. ليس لديك شكّ في أنّ بعض العيون قد حدّثت بما رأت من تغيّر حالك. ولم تكن تنوي الإخفاء في مطلق الأحوال. طوال الأسابيع الاستشكافية الأولى، جهّزت نفسك للمواجهة.

لقد تقبّلت ما أصبحت عليه، وعلى المحيطين بك تقبّله كذلك.

كان عليك أوّلا أن تجد مسمّى لما أنت عليه.

لم تعد مؤمنا. فما أنت؟

بحثت على شبكة الانترنت عن أناس يشبهونك.. فقدوا إيمانهم، أو لم يسبق لهم الإيمان، وتعرّفت إلى فروع شجرة الملحدين المختلفة. كان هناك العدميّون والدّهريّون، والرّبوبيّون واللّادينيّون، والمادّيون.. لكنّك وجدت نفسك في سلّة «اللّاأدريّين».. لم تكن تدري بعد أيّ موقف ستتّخذ من الألوهيّة والفلسفة الكونيّة. كنت في بداية طريق بحثك، وسرّك أن تجد تصنيفا واضحا لما أنت عليه. أنت لست وحدك!

حين وجدت أيّوب يترصّدك عند مدخل الجامعة، كان جوابك جاهزا. قلت ما تعرف جيّدا أنّه سيفحمه ويجعله يبتعد عن طريقك بعض الوقت:

- لا أدري.. أنا فقط لا أدري.. هل كنتُ على ضلال أم على هدى؟ أحتاج أن أبحث أكثر.. هذه معركتي الخاصّة، ولا ينفع أن أخوضها إلّا منفردا.

كان يدرك أنّك أغزر الرّفاق حصيلة وأكثرهم علما، ولن يعلّمك شيئا لا تعلمه إن هو جادلك. لذلك فقد سلّم لك. سيسمح لك ببعض المسافة. ستخوض معركتك وترجع منتصرا.. يشدّ بقبضة قاسية على كفّك وتلتمع عبرات حسرة وعتاب في مقلتيه. ستعود كما أنت.. يكرّر على مسامعك كلمات سارة.. الله لن يضيّع إيمانك. بينما تهزّ أنت رأسك في فتور، وتعده خيرا، قبل أن تنفصلا.. لشهور.

وأنت تسير بلا وجهة في شوارع باريس القديمة، وقعت عيناك الشاردتان دون قصد على لافتة مضيئة تومض بعبارة غريبة:

«دافيدوف». اقتربت فضولا من الواجهة الزجاجية، فلاحت من ورائها عشرات الغليونات المصقولة، بتصميمات متنوعة بديعة، ومن حولها علب أنيقة لشتى أنواع التبغ الفاخر. حدّقت فيها طويلا، بانبهار وانجذاب غريبين. ثمّ، دون تردد، اقتحمت المتجر. أخذت تسأل البائعة بشغف مبتدئ غرّ، عن كيفية استعمال الغليون وطريقة تدخين تبغه. كنت تشعر أنك تحقق غرضا دفينا في لاوعيك من التمرّد على كل ما ألفته في حياتك السّابقة.

خرجت من المتجر وبيدك كيس ورقي، بداخله غليونان خلابا الشكل، وعدد من علب التبغ جذابة الرائحة. كنت في تلك اللّحظات قد اخترت رفيقا جديدا لخلواتك. ستجلس بعد ذلك كثيرا، مغرقا في التفكير في قضاياك العقلية، وأنت تتأمل سحب دخان التبغ التي تنفثها. استحضرت المشهد المستقبليّ في خيالك، فارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيك. سخرية من نفسك ومن أيّوب وسارة! وما دخل سارة؟ بل سارة هي بيت القصيد! حدّثتك حينها نفسك الأمارة في فجور: (الغليون سيكون من الآن بديلا لك عن «سارة». سيكون الحبيب الصامت. لن يزعجك بالأسئلة، ويطاردك بالاتهامات.. والأهم، سيقبلك على ما أنت عليه، بل سيروح عنك ويمنحك متعة وفيرة). أطلقت ضحكة مسموعة. وأنت تتحسّس محتويات كيس مشترواتك، ومضيت في سبيلك راضيا.

حين وصلت إلى شقّتك، أعددت جلستك بحماس. الغليون والتّبغ، جهاز الحاسب الآليّ، وقهوة مركّزة، استعدادا لسهرة طويلة.

بعد أن تتلمذت طويلا على أيدي الشيوخ والتهمت كتب العلم الشرعيّ، كان أوان الاطّلاع على فكر الفصيل المناوئ قد حان. مررت بفترة أخرى من التخبّط، ارتبك خلالها نظام حياتك. كان لا بدّ لك أن تحسم أمرك لتعرف من تكون في هذا الكون. كلّ قراءة تفتح في

ذهنك أبواب أسئلة جديدة ولا تسدّ شيئا ممّا سبق.. لماذا ومتى وأين وكيف؟! تملأ عقلك علامات الاستفهام والتعجّب والإنكار.

لم تكن تقتنع بشيء ممّا يقع بين يديك. لا أنت إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولم تقدر أن تسلّم بكونك «لا تدري». هل تبقى من اللاأدريّين إلى الأبد؟ وما هذا العقل الألمعيّ الذي في رأسك إذن؟ إن لم يكن عليه أن يصوغ إجابات تفتّت حيرتك، فما دوره؟

كنت تقوم ليلك في صومعتك -غرفتك- متعبّدا في محراب الإلحاد. لا تنام إلا لماما. تدخّن في شراهة -وتلك عادة دخيلة عليك- لا يكاد الغليون يفارق شفتيك إلّا لتملأه بعناية من التبغ الفاخر، ذي الرائحة المعطرة بنكهة البرتقال. وتحتسي أقداح القهوة والشّاي واحدا تلو الآخر، لتحتفظ بيقظتك ما أمكنك. يغلبك النّوم قليلا، فتغفو على المكتب أو على الأرض، قد تنام ساعة أو نحوها، ثمّ تفيق مفزوعا، كأنّما قد فاتك أمر ذو بال، فتنكبّ من جديد على مهمّتك. وحين تتوسّط شمس النّهار كبد السّماء، تنتزع نفسك مكرها من بين دفاترك وأوراقك، وتقصد المستشفى الذي ما عاد يلهمك ويحمّسك، وهالات سوداء قبيحة تحفر وجنتيك وتغوص داخلها عينان ذاويتان.

بعد أربعة أشهر من العزلة الفكريّة، قرّرت أن تخطو خطوة أخرى. المناظرة.

تعبت من المناظرات الوهميّة التي تمور داخل عقلك وحده، تقدّم الحجّة وتدحضها بنفسك، وتستسلم لمتناقضات، تلفظك واحدة فتتلقّفك أخرى. ولعلّك مللت محاولات محسن اللّجوجة، فأردت أن تُبصر ما هو فاعله إن أنت فتحت أمامه باب المحاججة.

ضربت له موعدا، في شقّتك، وتجهّزت للقاء. لم يكن من الوارد أن تلقاه بهندام مهمل ولحية مشعثة، فتثبت صدق تخمينه وجواز

شـفقته. حلقـت وتعطّـرت ولبسـت حلّـة مكويّـة بعنايـة، ثـمّ نزلـت إلى المركـز التّجـاريّ واقتنيـت الفواكـه والعصائـر والمقبّلات البـاردة ممّـا يليق بأمسـيتك الثقافيـة. اسـتقبلته بحفـاوة، مثـل صديقـين حميمـين افترقـا لفـترة ثـمّ عـنّ لهمـا أن يسـتعيدا ذكريـات الأمـس الجميلـة، واسـتمتعت بالدّهشـة المطلّـة مـن عينيـه.

أجلسـته عـلى الكـرسيّ الوحيـد بالشـقّة، وفضّلـت أن تظـلّ واقفـا، مهيمنـا عـلى فضـاء الغرفـة بقامتـك الفارعـة. لـم تمهلـه حـتّى ينهـي كـوب العصـير، وبـدأت مرافعتـك بحماسـة. خـلال ثـلاث سـاعات، اسـتمرّ الجـدال، حاميـا في البدايـة، ثـمّ متدرّجـا نحـو الفتـور مـن طـرف صديقك، بينمـا حافظـت عـلى اتّقـاد جذوتـك حـتّى النهايـة، حريصـا عـلى أن تكـون الكلمـة الأخـيرة لـك.

غـادرك محسـن مهمومـا، عاجـزا. واحتفلـت أنـت بنـصرك في الجولـة الأولى. لكـنّ مقـدار الحـزن داخلـك يتعاظـم. كانـت تنبثـق منـك طاقـة هـدم هائلـة. تهـدم ثوابتـك ومسـلّماتك وتعبـث بمسـلّمات غـيرك، دون أن تكـون قـادرا عـلى بنـاء أفـكار أخـرى تحـلّ محلّهـا وتقيـم دعامـات روحـك المتهاويـة.

ظننـت أن محسـن يئـس منـك، لكنّـه فاجـأك. كلّهـم فاجـؤوك بأخوّتهـم الصّادقـة. فقـد ظهـر أربعتهـم عنـد بابـك بعـد يومـين لا غـير. لعـلّ محسـن اجتمـع بهـم وأفـضى إليهـم بمـا دار بينكمـا مـن نـزال غـير متـكافئ؛ فقـرّروا أن يضمّـوا قواهـم كلّهـا بعضهـا إلى بعـض، لعلّهـم يعدلـون الكفّـة الرّاجحـة! دخلـوا عليـك مثـل المـرّة السّـابقة، ولكـن بنيّـة مختلفـة. تربّعـوا عـلى السـجّاد في حلقـة، وأصغـوا إليـك منتبهـين.

لأنـك تفرّغـت لشـهور طويلـة، منكبّـا عـلى القـراءة والمشـاهدة والاسـتماع، فقـد تجـاوزت بمراحـل قدراتهـم في الجـدل الفلسـفي. صرت

تلتقيهم يوميا، حسب ما يسمح به وقتهم، أحيانا مع واحد أو أكثر، وفي نهاية الأسبوع يكتمل العقد.. وتكون أنت بالطبع «واسطة العقد». فتجلس منتفشا على الكرسي، والغليون بين شفتيك.. وتروح تعبث بالمسلّمات في عقولهم. تغمرك المتعة وأنت تنكبّ على تفتيت قوالب الدّين الموروثة لديهم بحجج عقلية لا يمكن لأحدهم دحضها. كنت ملك الجلسة بلا منازع، بتفوّقك اللّغوي، وذاكرتك الفذّة وإلمامك بشتّى الأحكام الشرعيّة.. بالإضافة إلى حصيلة هائلة لآلاف الساعات، قضيتها في التهام لكل ما وقع تحت يدك من مناظرات وكتب ومحاضرات أساطين الملحدين العرب والأجانب.

وفي نهاية كل جلسة، مهما كان الموضوع المثار، وبعد جدل تعلو فيه أصواتهم مدافعين باستماتة عمّا تقدّسه عقولهم وقلوبهم، كنت ترى الأعين قد زاغت، والأصوات قد هدأت، وتبدأ الرؤوس في الإيماء بالموافقة على ما تقول.. وقد طغت علامات العجز والألم على ملامحهم، وقد سلّموا بالهزيمة القاسية. فتغمرك مشاعر انتصار لا توصف!

كثيرا ما كانت الجلسات تستمرّ إلى وقت متأخر جدّا من الليل، وقد بدأت حول الثامنة أو التاسعة مساءً، ويحتدم النقاش، وتسوق الحجج العقلية المدمّرة الساحقة. وفي نهاية الجلسة يغادرك ضيوفك شبه مقتنعين بأن الأديان كلها وهم، وأنت تقول في زهو: ها قد حققت شيئا.. وللسّخرية المرّة، تجتمع بهم في الجلسة التالية مباشرة، فتجدهم كما هم تماما! بتديّنهم الفطريّ أو الموروث، وأفكارهم الثّابتة كالطّود، وكأنّك لم تقل حرفا واحدا على مدى جلسات كثيرة خلت!

كان غالب أشدهم ضجرا من هذا الحوار العبثي، فقال يوما يغيظك:

- ما عهدناك بخيلا يا مالك ألا تطلب لنا عشاءً؟

قلت في غضب مصطنع:

- لا أراكم تستحقون ضيافة أكثر من الماء، ومن الصّنبور فحسب!

فضحك الجميع، بينما رحت تبحث في هاتفك عن أرقام المطاعم القريبة. ارتفعت الأصوات بالاقتراحات، إلى أن استقر الرّأي على البيتزا، واختار كل منكم مراده. ثمّ أخذتم وقتا مستقطعا، في انتظار وصول الطلب.

قلت بضيق وغضب:

- أنتم مثل البدو الذين زارهم قسيس، قضى ليلة كاملة يبشر بالمسيحية، ويقنعهم بأنّ عيسى هو الإله، ويحضر لهم ما لذّ وطاب من طعام وشراب.. وهم يهزّون رؤوسهم، وكأنهم مقتنعون. وآخر الليل قال أحدهم للباقين: (وحدووووه!) فقال الجميع بصوت عال: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله!).

هتفت في غضب مكتوم ومزاح مفتعل:

- حرام فيكم ما أطعمه بطونكم كلّ ليلة!

فانفجروا ضاحكين وقال غالب ممازحا:

- صدّعت رؤوسنا يا شيخ.. لعن الله الفلسفة ومن اخترعها، لو كان الأمر بيدي لأصدرت قانونا يجرم الكلام فيها.. كالنازية تماما!

ضحُك الرّفاق، وابتسمت أنت. هممت بالردّ لكنّك وقفت حين رنّ جرس الباب. استلمت علب البيتزا ثمّ رجعت إلى وسط الغرفة، وقلت في حسم:

- وكيف لجاهل أن يدرك قيمة ما لم يعلم؟ هي ليست لأمثالك يا غالب!

- إيـــــه.. تركناهــا لــك أيهــا الفيلســوف العبقــري! اســتمتع بهــا وحــدك.. هنيئــا مريئــا.. ودع لي البيــتزا!

سـحب منـك غالـب العلـب الكرتونيّـة وسـط ضحـكات الرّفـاق. حـين أنهيتـم طعامكـم، التفـت إلى الجميـع وقـال وكأنـه سـيذيع سرّا:

- دعـوني أيهـا الإخـوان أقـص عليكـم حادثـة، نخـرج بهـا مـن ترهـات مالـك، وضـلالات عقلـه، الـتي صدّعـت رؤوسـنا لسـاعات!

ضحكـت بصفـاء قلـب مـن غلظـة غالـب وفظاظـة ألفاظـه، رغـم أنـه أطيبكـم سريـرة، وقلـت ممازحـا:

- سـتظل فلاحـا يـا غالـب، لـم تهذبـك باريـس، ولـم تعلمـك الإتيكيـت!

- اسـمعوا إذن.. كنـت آنـذاك في السـنة الثانيـة مـن كليـة الهندسـة المعماريـة، وكان نشـاطنا في الكليـة والحـيّ كذلـك عـلى أشـدّه، وكان اسـمي مطلوبـا لـدى المباحـث للتحقيـق معـي بشـأن تهمـة توزيـع منشـورات كنـت قـد قمـت بإلصاقهـا بتكليـف مـن الحركـة الإسـلاميّة عـلى جـدران منـازل الحـيّ في وقـت متأخـر مـن الليـل، ورصـدني أحـد المخبريـن، وكان يعرفـني بالاسـم، فـوشى بي، وخرجـت دوريّـة في اليـوم التـالي للقبـض عـليّ مـن مـنزل أهـلي، ولحسـن حظـي لـم أكـن متواجـدا في المـنزل.. وحـين عـدت وعلمـت بذلـك، أعـددت حقيبـتي عـلى عجـل وغـادرت مسرعـا، وأقمـت في شـقة أحـد الزمـلاء مـن دفعـتي، وكان مـن الطـلاب المغتربـين، ولـم تكـن حولـه شـبهة، فليـس لـه نشـاط، فرجحـت أن شـقته آمنـة لـن يطالهـا تفتيـش.. مكثـت أسـبوعا، إلى أن داهمـوا أخـيرا الشـقة، واقتـادوني إلى مبـنى المباحـث.. أنـت تعرفـه جيـدا يـا مالـك، هـل مـا زلـت تذكـره؟

قلت في أسى:

- لا أعادها الله من أيام يا غالب.. أكمل قصتك!

- وهناك مكثت يومي الأول في الزنزانة بصحبة بعض الإخوة المعتقلين، وفي الليل تم اقتيادي إلى غرفة التّحقيق، وبعد عدة أسئلة من الضابط المحقق لم يجد مني إجابة مرضية، فأمر أعوانه بإحضار «الفلقة».. وعلّقوا قدمي فيها وأنا ممدّد على الأرض، وحملها اثنان من مساعديه، وما أن أمسك أحدهم العصا ورأيتها في يده تهتز كأنّها جان، وهمّ بالضرب.. شرعت في الصّراخ دون وعي مني!

انفجرتم ضاحكين وأنتم تتخيّلون المشهد، بينما تابع غالب بمنتهى الجديّة:

- أتصدّقون.. لقد قهقه الضّابط المحقّق كما فعلتم تماما، وقال لي: تصرخ مبكرا قبل الضرب؟ فهل ستلزم الصّمت ونحن نضرب؟ وشاء الله أن يجعل الظلوم الكذوب صادقا في جملته.. أتصدّقون يا إخوان، بعد العصا السّابعة أو الثامنة فقدت الإحساس بقدمي تماما، وكأنّهما تخدرتا من شدّة الألم، وتوقفت تماما عن الصّراخ، ولم تصدر عني آهة واحدة، والضرب مستمرّ، والمحقق يواصل العدّ، إلى أن فوجئت به يخاطب مساعده: (كفى أوقف الضرب.. خذوه وارموه في زنزانته!) وتعجبت من هذه الزيارة القصيرة الخفيفة، هل تراهم شبعوا من الأنس بي مبكرا؟ ثمّ تبين لي السّبب، فقد كانت إحدى قدمي قد جرحت من شدّة الضّرب، وأخذت تنزف! أعطاني الأعوان مناديل ورقية ضمّدت بها الجرح، وكنت عاجزا تماما عن الوقوف على قدمي.. فضلا عن السّير إلى الزنزانة، فاحتملني اثنان منهم، أحدهما من تحت ركبتي، والآخر من أعلى ظهري، وسارا بي على أكتافهما ببساطة نظرا لخفة وزني آنذاك.

اهتزّت رؤوسكم أسى وألما، لهدر كرامة الرجال، في وطن الرجال، وتابع غالب:

- المهـم يـا إخـواني، وجـدت نفـسي محمـولا عـلى أكتافهمـا، وعينـاي تتطلعـان لسـقف الممرّ، وشـعرت ببعـض الرّاحـة، فاسـتمتعت بالإحسـاس للحظـات، وكأني أركـب مركبـة.. ونسـيت أيـن نحـن، وغلبتـني عـادتي في عـدم تـرك ذكـر مـن الأذكار في كل أعمـال اليـوم والليلـة، فـردّدت بصـوت مسـموع ودون قصـد مـني: (سـبحان الـذي سـخر لنـا هـذا ومـا كنـا لـه مقرنـين، وإنـا إلى ربنـا لمنقلبـون). ولـم أدرك هـول الكارثـة الـتي وقعـت فيهـا، إلا حـين رأيـت نفـسي أطـير في الهـواء، وأسـقط عـلى الأرض، وصرخ فيّ أحدهمـا بغضـب كالمجنـون: أنـت تقـول دعـاء ركـوب الدّابـة يابـن الـ.... ازحـف عـلى بطنـك إذن إلى الزنزانـة، عقابـا لـك حـتى تتعلـم الأدب وتكـون عـبرة لأمثالـك!

انفجرتـم ضاحكـين -بمـا فيكـم غالـب صاحـب القصـة- وسـاد جـوّ مـن البهجـة وأنتـم تعلقـون، عـلى براءتـه، وطيبـة قلبـه. بينمـا قلـت في تعجـب:

- صدق القائل: لكل امرئ من دهره ما تعوّدا!

وكانـوا لا ينفكّـون يعـودون إليـك، لا ييأسـون مـن أمـرك، رغـم عنـادك الواضـح، وعجزهـم الجـليّ. صـارت تلـك الجلسـة في غرفتـك موعدهـم الدّائـم، لا يـكادون يتخلّفـون عنـه إلّا لمانـع قاهـر. وقـد كنـت تعجـب من حرصهـم عـلى التّواجـد حولـك، رغـم تشـبّثك بموقفـك وقلّـة حيلتهـم أمـام صلفـك. ولـم تكـن السّـهرة تحافـظ عـلى جدّيّـة مسـارها إلّا بقـدر مـا تتفـانى في هجماتـك الشّرسـة عـلى مسـلّماتهم وعقائدهـم. فمـا أن ترخـي قبضتـك وتمـلّ احتـكار الكلمـة المطـوّل، حـتّى تتحـوّل الأجـواء إلى حكايـات ونـكات! وقـد كان حضورهـم يـسرّي عنـك رغـم كلّ شيء، ويطـرد جـزءًا مـن وحشـة قلبـك. ولعـلّ الأوقـات الوحيـدة الـتي تنتعـش خلالهـا روحـك هـي تلـك الـتي ترخـي أثناءهـا دفاعاتـك وتسـتمتع بصحبتهـم، وتستسـلم لأنسـك بالرّفقـة القديمـة، بـدون إعمـال عقـل كثـير.

وذات ليلة، حاولت أن تثبت لهم أن إبليس لم يكن يوما على خطأ، بل هو كائن نقي، لم يتلوّث بنفاق المنافقين ومداهنة المداهنين! بيّنت كم هو متصالح مع أفكاره ومعتقداته. قلت وأنت تحدّق في عيونهم مباشرة، تبثّهم سمومك، تريدها أن تنفذ إلى سويداء قلوبهم:

- هل تعلمون أنّ إبليس هو أول من محّص التّوحيد؟ لأن رفضه للسّجود لآدم كان من باب رفض عقله أن يسجد لغير الله، إجلالا وتعظيما للإله، فهل يلام على ذلك؟

ثمّ واصلت خطبتك العصماء متطرّقا إلى قضيّة عصيانه للأمر الإلهي. ألم تكن خطيئته قدرا إلهيا وقضاء محتوما على هذا الكائن المسكين؟ أليس إبليس منفذا لإرادة إلهية بالعصيان؟ هل كان لإبليس التمرّد على المقّدر ومخالفة المكتوب، ثم السّجود لآدم كما أمره الله؟

كانوا مرهقين، من طول المقارعة بالحجج، مقطوعي الأنفاس من اللّهاث خلفك وأنت تقفز برشاقة من شبهة إلى شبهة. كنت أطولهم نفسا وفخورا بذلك. تجعلهم يرفعون أذرعهم في استسلام في كلّ مرّة.. لا اقتناعا بما تقول، بل يأسا من إمكانيّة ردّك إلى الطّريق التي يرونها أقوم. فجأة قال أيّوب بمسحة حزن بعد أن تأمّلك طويلا:

- يهيّأ إليّ وأنا أستمع إليك أنّني أرى الشيطان نفسه يقف خلفك، يربّت عُلى كتفيك تأييدا.. بل أتمثّله وقد تلبّسك وصار يطلّ من عينيك! فلم يسبق لي أن قابلت من يدافع عنه مثلما تفعل!

ضحكتَ حينها. ضحكت دون مرح. كم كان أيّوب صادقا في زعمه!

لم تنجح طوال سنة كاملة في تغيير قناعاتهم، وإن كنت قد نجحت في جعلهم يشكّون فيها أحيانا كثيرة.. مجرّد شكّ عابر يطرق

قلـب المؤمـن المطمـئّن فيمحّصـه ويخلّفـه أكـثر اقتناعـا واطمئنانـا. وكنت تتسـاءل في مـرارة.. لمـاذا لـم يكـن إيمانـك مثلهـم؟ لمـاذا لـم يمـرّ بـك الشـكّ كضيـف خفيـف الظـلّ، بـل اسـتقرّ وطـاب لـه المقـام؟

-٣-

كنت تعرف الكثير من الملحدين في محيطك، لكن لم يبد على أحدهم همّ مثل الذي يثقل كاهلك. شأنهم شأن المؤمنين الذين عرفتهم في حياتك السّابقة، مطمئنو البال إلى إلحادهم، لا يتساءلون ولا يعذّبهم التفكير! لماذا تنشغل وحدك بـ«مَنْطقة» الحياة والموت، والخير والشرّ؟ هؤلاء إلحادهم فطريّ، مثل إيمانك الموروث.. أو خمول فكريّ وعزوف عن التأمّل في حقيقة الحياة، أو إنكار لسلطة الأديان التي فشلت مؤسّساتها البشريّة عبر التّاريخ في إقناع معارضيها بعدالة قضيّتها! لم تكن تريد أن تنتمي إلى هؤلاء الملحدين السلبيّين.. إن كان من نصيبك أن تكون ملحدا، فستكون ملحدا عن قناعة.

تعرّفت إلى «أصدقائك الجدد»، ريتشارد داوكينز وستيفن هاوكينغ. أحدهما عالم بيولوجيا والثاني فيزيائيّ، يضعان العلم في مركز اهتماماتهما -مثلك تماما- ومقتنعان بأنّ العقل يملك إجابات على كلّ شيء! قرأت جلّ إنتاجهما الفكريّ، بداية من «الجين الأناني» و«صانع السّاعات الأعمى» وصولا إلى «التصميم الكبير» و«وهم الإله».. فأبهرتك النتائج وأشبعت نهمك. هل اقتنعت حقّا بتلك النظريات العلميّة التي تفسّر كلّ شيء منذ بداية الكون؟ أم أنّها عملت عمل المسكّن الذي دوّخ أسئلتك إلى حين؟ فقد كنت تحتاج إلى تهدئة عاصفة شكوكك حتّى تواصل مسارك.

لكنّك تقف متحيّرا أمام كلمات داروين، صاحب نظريّة التطوّر، وهو يتساءل عن نجاعة العقل وجدوى الثّقة فيما يفرزه من أفكار، وهو وليد الصّدفة والانتقائيّة العشوائيّة! لم تكن تقبل ذلك بأيّ حال من الأحوال. كيف يكون عقلك المتميّز بقدراته الفائقة مجرّد

عضـو مـاديّ تشـوبه عيـوب صناعـة وأخطـاء تكويـن؟

وصلتـك إنـذارات متفرّقـة، بلهجـة تصاعديّـة، مـن المستشـفى والكلّيّة. جراحـة العظـام ليسـت ترفـا يمكنـك التخـلّي عنـه بسـهولة. عليـك أن تكـون عـلى قـدر المسـؤوليّة حـتّى لا تُفصـل مـن البرنامـج. تزامـن قـرار التزامـك تجـاه مهنـة الطـبّ مـع اسـتقرار عاصفتـك الدّاخليّـة وتسـليمك للمعتقـد العلمـيّ. أغمضـت عينيـك عـلى حيرتـك القديمـة وركنـت جانبـا نقـاط الاسـتفهام العالقـة. سـتركّز الآن عـلى: كيـف تكـون ملحـدا مثاليّـا.

في وقـت مـا مـن مرحلـة دراسـتك الجامعيّـة، كنـت تـردّ عـلى الملحديـن وتتحدّاهـم في مناظـرات علنيّـة أو في لقـاءات خاصّـة مـع قلّـة مـن الحضـور. تتذكّـر الآن كيـف كنـت تقـف شـامخا، في عينيـك نظـرة شـفقة واسـتصغار.. هـؤلاء الخرفـان الشّـاردة عـن القطيع، سـنعيدهم إلى مكانهـم في حظـيرة الـرّبّ الآمنـة. كانـت فكرتـك عـن الشـخص الملحـد أنّـه ضائـع وتائـه، أنـانيّ، وأخلاقـه ناقصـة أو منعدمـة. والآن تريـد أن تثبـت لذاتـك القديمـة أنّـك لـن تكـون عـلى تلـك الشـاكلة المذمومـة.. سـتثبت -ولـو متأخّـرا- أنّـك سـتكون ملحـدا صالحـا كمـا كنـت مؤمنـا صالحـا!

لـم تنقطـع عـن صحبـة إيرينـا طيلـة شـهور بحثـك، وإن كانـت لقاءاتكمـا قـد غـدت متباعـدة. لكـن كلّمـا قابلتـك في بهـو المستشـفى، أخـذت بذراعـك وانتحـت بـك جانبـا، تغـدق عليـك مـن حضورهـا الممتـع وحديثهـا المسـلّي. كانـت سـارة قـد غـدت ماضيـا سـحيقا لا يخطـر لـك عـلى بـال في تلـك الفـترة. دفنتهـا في ثنايـا عميقـة مـن ذاكرتـك، وأهلـت عليهـا تـراب النّسـيان. وإيرينـا كانـت تشـغل فراغهـا بجـدارة وحرفيّـة. إنّهـا قطعـة مـن السّـكر تنسـي أيّ رجـل حماقاتـه الماضيـة مـع غيرهـا مـن النّسـاء. كانـت كذلـك، قبـل أن تملّهـا، أو تـدرك أنّـك تسـليتها المؤقّتـة!

إيرينـا تسـبقك بسـنوات ضوئيّـة مـن حيـث التجربـة والمهـارات الاجتماعيّـة. أنـت قـد عشـت تجاربـك الخاصّـة الـتي لا تخطـر عـلى قلـب

إيرينا قطّ -السجّن والنّضال السّياسي والهجرة السرّيّة والجهاد- لكن تنقصك الخبرة الحياتيّة الكافية لتندمج في عالمك الجديد. لذلك استسلمت لخطواتها تقودك، في حلبة الرّقص، وفي المحافل الاجتماعيّة والسّهرات الجامحة. تعلم أنّها في مهمّة معك، ترضي غريزة أمومة ما، تأخذ بيدك إلى عالمها وتعلّمك أبجديات الحياة الحرّة المنفتحة. كانت تكتفي بدورها الإرشاديّ، ويكفيها فخرا أن تكون «مرّتك الأولى» لأيّ شيء على يديها. وما أكثر ما علّمتك إيّاه! الرّقص، القمار والعلاقات الجسديّة!

لم يكن انجرافك وراء الشهوات إلّا اندفاعا مؤقتا.. مثل مراهق يكتشف العالم للمرّة الأولى. ثمّ ما لبثت أن سيطرت على قاربك ووجدت توازنك على جانب الوادي، حتّى لا يأخذك التيّار بعيدا، إلى حيث الشلالات الهادرة والهاوية السّحيقة. قرّرت أن تترك التّدخين الذي أدمنته في ليالي سهرك باحثا عن الحقيقة، فأنت طبيب في نهاية المطاف، والصحّة شاغلك الأساسيّ. إنّها مسألة منطق ليس إلّا. أمّا الكحول، فقليل منه من حين إلى آخر لا يضرّ. ستحرص على ألاّ تثمل ويغيب عقلك وتخدّر حواسّك، حتّى يكون سلوكك قويما متّزنا، مثل أيّ مواطن صالح.

تكرّر لنفسك في إصرار: الدّين لا علاقة له بأخلاقك! ستحتفظ بأخلاقك رغم غياب القناعة الدينيّة. كأنّما تحاول أن تقنع نفسك أوّلا.. تثبت نظريّة سبق أن أعلنت فشلها في بداية تعرّفك على ذاتك الجديدة.

بعد سنة أولى من التذبذب والتردّد والاكتشاف والبحث، بدأت حياتك تستقرّ. أصبحت واثقا ممّا تريده. أمّا عائلتك، فقد أبقيت كلّ شيء سرّا عنهم، إلى حين. ما عدا أمر انفصالك عن سارة. انقطع عنك محسن وغالب وحاتم، بعد أن يئسوا من إمكان رجعتك إليهم كما عرفوك. وحده أيّوب، طاله نصيب من اسمه، فصبر معك صبر

أيّوب. كان يتردّد عليك من حين إلى آخر في المستشفى، فتحرص على أن تلقاه بترحاب، وتبالغ في إظهار سعادتك وارتياحك لما آل إليه أمرك. ورغم اجتهادك لتثبت أنّ كلّ شيء على ما يرام، فقد كانت تغيظك نظرة الأسف والشّفقة في عينيه.

نفس النّظرة التي كنت تلقيها على الملحدين الذين تناظرهم.

خراف الرّبّ الشّاردة!

وذات مرّة، قال وهو يودّعك عند باب مكتبك:

- من تراه الخاسر بيننا؟

حدّقت فيه في استغراب. عن أيّ خسارة يتحدّث؟

- هل فكّرت لبرهة.. ما الذي تجنيه من إلحادك؟ ما الذي يضيفه نسف المعتقدات الدّينيّة لوجودك؟ هل يستحقّ منك كلّ هذا التفاني؟ في المقابل.. ما الذي تخسره، لو تبيّن أنّ الإله حقّ، والجنّة والنّار حقّ؟ من منّا أعظم ندما يوم لا ينفع ندم؟

هززت كتفيك حينها في ضيق وقلت:

- ألا يجب أن أقتنع بوجود تلك الأشياء أوّلا لأخشى النّدم لاحقا؟

لكنّك لم تكن بتلك الثّقة في جوابك، وأنت الضّليع بمسائل الإحصاء والاحتمالات. لم يغب عن ذهنك «رهان باسكال».. «أن تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في الجنّة، وهذا ربح غير محدود.. فإذا لم يكن موجودا فلن تجزى شيئا وتلك خسارة محدودة. أمّا ألا تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في جهنّم وتلك خسارة غير محدودة، فإن لم يكن موجودا فلن تعاقب، لكنّك تكون قد عشت حياتك كما تشاء، وذلك ربح محدود»! بتحليل رياضيّ بحت، يبدو الإيمان بالله الخيار الآمن.. يجلب الرّبح ولا خسارة فيه. لكنك لم ترد أن تمعن التّفكير في خسارتك المرجّحة. ليس وأنت لم ترسم صورة مكتملة الأركان بعد عمّا تريد أن تكون عليه.

الفصل السابع

- نكران -

-١-

حين رأيت ريم، فاجأك إحساس شبيه بما عرفته حين رأيت سارة أوّل مرّة.

إحساس عجيب بالألفة، بين غريبين متشابهين. كانت تشبهك كما شابهت سارة ذاتك القديمة. راودك ذات الاحتياج العميق للغارق المتعلّق بقشّة. كما انتشلتك سارة في وقت سابق من إحباطك المزمن وفراغك العاطفيّ، فقد امتدّت كفّ ريم لتخرجك من بوتقة البحث التي تصهرك وتعجنك بقسوة. حين التقيتها، قرّرت أنّك تريد أن تستريح لبعض الوقت، وتستمتع فقط برفقتها.

كان لإيرينا الفضل في لقائكما الأوّل. في المطعم الصّاخب الذي اجتمعت فيه شلّة السّهر، رأيتها. كانت شلّة إيرينا تتغيّر كلّ مرّة صاحبتها فيها، كأنّ معارفها وأصدقاءها لا حصر لهم ولا عدد. تختلف الوجوه في كلّ مرّة، ويبقى الجوّ المبهج المشتعل عنصرا قائما. جلست في تلك الأمسية عند طرف المائدة، تصغي في صمت لثرثرة جيرانك، وتلوك لقيمات «السّتيك» المشويّ ببطء. على الطّرف الآخر جلست حسناء ذات ملامح شرقيّة، هادئة هي الأخرى، تبتسم من حين لآخر وتهزّ رأسها مجاملة. بدت لك مألوفة من أوّل نظرة، بخصلاتها الثائرة التي تلتفّ حول عنقها وتحيط وجهها الصّغير النّاعم بهالة كستنائية محبّبة، وعينيها الواسعتين الجريئتين، وبشرتها القمحيّة الصّافية. فلبثت تحدّق فيها لبرهة، وحين انتبهت لنظراتك خفضت عينيك حرجا وتظاهرت بالانهماك. يستحضر عقلك مشهدا مشابها، مشهد نظرتك الأولى لسارة في مدرّج الجامعة. لكنّ ريم من

طينـة أخـرى، تنسـيك الذكريـات البعيـدة وهـي تقـترب منـك عـلى منصّـة الرّقـص، وتبـادرك في مـرح:

- أعـرف أنّـك لا تغازلـني بنظراتـك. أبـدو وجهـا مألوفـا، أليـس كذلـك؟ لسـت شـخصيّة عامّـة ولكنّـني أظهـر عـلى التلفـاز مـن حـين لآخـر!

ريــم مراســلة صحفيّــة لقنــاة «سي نيــوز»، تتمتّــع بحضــور قــويّ وشـخصيّة مرحـة. تنسى بسرعـة وقـار سـارة الزّائـد عـن الحـدّ، بينمـا ريـم تـدور أمامـك حـول نفسـها منسـجمة مـع نسـق الموسـيقى. تحدّثتمـا كثـيرا تلـك الليلـة، لا شيء شـخصيّ، مجـرّد عموميّـات لبقـة بـين غريبـين متآلفـين. سـألتك بـدون اهتمـام:

- هل أنت صديق إيرينا؟

نفيـت التّهمـة بسرعـة. لسـت صديـق أحـد. تعلـن أنّـك متـاح وغـير مرتبـط. لكنّهـا ضحكـت مـن ردّة فعلـك، وتاهـت عنـك بـين الرّاقصـين. لـم تعـرف تلـك الليلـة مـتى انصرفـت وبرفقـة مـن، لكنّهـا اختفـت ولـم تظهـر بقيّـة السّـهرة، مثـل سـندريلا لـم تخلّـف خفّـا زجاجيّـا ولا مـن أيّ نـوع آخـر. ظللـت تلـوم نفسـك طويـلا لأنّـك لـم تطلـب رقـم هاتفهـا! لـم تجـرؤ عـلى طلبـه مـن إيرينـا، لكنّـك عـدت مـرّات كثـيرة إلى المطعـم ذاتـه وحيـدا في الأيّـام الـتي تلـت، علّـك تلقاهـا صدفـة.. دون فائـدة.

شرعـت منـذ ذلـك الحـين في مشـاهدة محطّـة عملهـا، «سي نيـوز»، الـتي لـم يسـبق لـك الاهتمـام بمـا تقـدّم. وبحثـت في جنون عـن صفحتهـا الشـخصيّة، معتمـدا عـلى اسـمها الأوّل وحـده.. وسـقطت في متاهـة لأيّـام طويلـة، حـتّى أصابـك اليـأس. فتجـرّأت، وسـألت إيرينـا عنهـا. تذكـر النّظـرات الـتي طالعتـك بهـا، صمتهـا المتعمّـد، كأنّهـا تحـاول التذكّـر، بينمـا تـكاد تجـزم أنّهـا تتخّـذ قرارهـا، هـل عليهـا إخبـارك أم التكتّـم، ثـمّ لهجتهـا البـاردة وهـي تشـيح بوجههـا في عـدم اهتمـام:

- لا أذكر! لا أظنّني أعرفها.. الأصدقاء يحضرون أصدقاءهم أيضا.. لا أعرف معظم الحاضرين!

انصرفت عنها في خيبة. هل ضايق إيرينا اهتمامك المفاجئ بأنثى غيرها؟ تعلم جيّدا أنّك لم تكن محلّ اهتمام إيرينا ذاتها، ولم يكن هناك من داع لغيرتها الغريبة، لكنّها حسبتك لفترة لعبتها، ولم ترد التنازل عنك لغيرها. بقيت متردّدا لفترة.. هل تبتعد عن إيرينا التي أصبحت تتصرّف بغرابة، أم تواظب على مرافقتها علّك تلقى ريم مجدّدا بواسطتها؟

لكنّ الصّدفة كانت حليفك غير المتوقّع هذه المرّة!

كنت مناوب الطّوارئ نهاية ذلك الأسبوع، ولم يكن أحد غيرك في قسم جراحة العظام. رأيتها تدخل عليك فجأة، بعيون منتفخة دمعا، مستندة إلى الممرّضة التي تلقّفتها عند المدخل وهي تنزل من سيّارة الأجرة. كيف تعرّفت من نظرة واحدة إلى الحسناء ذات العيون المرسومة بدقّة بقلم الكحل والشّفتين اللاّمعتين تحت إضاءة المطعم الخافتة، في الفتاة الباكية ذات الوجه الخالي من الأصباغ التي دخلت عليك جناح الطوارئ ذلك الصّباح؟ هرولت نحوها في لهفة وأنت لا تصدّق أنّها هي هي! ورغم الشكّ الذي راودك بأن تكون مخطئا، فإنّك اخترت أن تصدّق قلبك، وتحتضن الأمل الجميل الذي طرق بابك.

لمْ يكن الظّرف ملائما لعتاب أو استرجاع ذكريات، أو حتّى مجرّد التّثبّت من هويّتها! كشفت بسرعة على ساقها، ثمّ تنهدّت. كان مجرّد شرخ يحتاج جبيرة ولا يستدعي الجراحة، فطمأنتها وقمت باللاّزم.

حين انتهيت من عملك، كانت قد هدأت وبدت أكثر توازنا. تحدّثت بتلقائيّة عن حادثة سقوطها على درج العمارة بينما كانت

تخـرج لحصّـة الرّكـض اليوميّـة. كانـت ترتـدي بدلـة رياضيّـة وتربـط شـعرها السَّبط في شـكل ذيـل حصـان، والحديـث يتدفّـق مـن شـفتيها ناعمـا ومريحـا. خـلال دقائـق، تأكّـد إليـك أنّـك قـد عـثرت عـلى سـندريلا الخاصّـة بـك. ثـمّ رأيتهـا تتوقّـف فجـأة وتحـدّق فيـك غـير مصدّقـة.

- أنت مالك! صديق إيرينا!

ابتسـمتَ وقـد تعرّفـتْ إليـك أخـيرًا. لقـد تطلّـب الأمـر بعـض الوقـت مـن طرفهـا، ونظـرة واحـدة مـن طرفـك. لكنّـك لا تلومهـا، فهـي لاهيـة عنـك بألـم سـاقها. واصلـتْ هـي في حمـاس:

- أنت طبيب إذن! هذا مدهش!

وددت لـو تخبرهـا كـم افتقدتهـا، وكـم بحثـت عنهـا.. لكنّـك لـم تـرد إحراجهـا أو إظهـار تهافتـك. لكـنّ الدردشـة استمرّت بينكمـا طويـلا، ووجـدت نفسـك تتعمّـد التلكّؤ لتطيـل عمـر الجلسـة. وكأنّمـا انتبهـت إلى مـا تفعلـه، فقـد قالـت بنفـس العفويّـة الـتي أسرتـك وهـي تخـرج هاتفهـا:

- هـات رقمـك، مـن الأفضـل أن نواصـل الحديـث خـارج أوقـات عملـك!

ضحكـت مـن جرأتهـا ووافقتهـا الـرّأي دون تـردّد. لوّحـت لـك وهـي تغـادر حجـرة الفحـص، متحاملـة عـلى رجـل واحـدة وقالـت:

- انتظر اتّصالي!

وجاء اتّصالها مساء اليوم ذاته كما وعدت.

عرّفتـك عـلى نفسـها أكـثر، فرنسـيّة مـن أصـل مغـربيّ، في التّاسـعة والعشريـن مـن عمرهـا.. بينمـا تحتفـل أنـت بسـنتك التّاسـعة والثلاثـين خـلال شـهور قليلـة! لمـاذا تنجـذب باسـتمرار إلى فتيـات يصغرنـك بعقـد أو أكـثر؟ مـا الخطـأ في إيرينـا؟ ألـم تكـن أقـرب إليـك سـنّا وتجربـة في الحيـاة؟ ربّمـا كنـت تـرى نفسـك غـرّا سـاذجا أمامهـا، في حـين تجـدك

سارة وريم رجلا ناضجا؟ لكنّ ريم تكبر سارة بثلاث سنوات كاملة. وهي المقتربة الآن من عتبة الثلاثين لا شكّ في كونها أكثر مسؤوليّة وخبرة من الفتاة ذات الواحد والعشرين ربيعا التي كانتها سارة حين تعرّفت إليها.. وإن كنت لا تشكّ في نضج سارة المبكّر!

بعد حوالي شهر من الاتّصالات المتفرّقة، أخبرتك باستئنافها العمل في المحطّة. ستحرص منذ ذلك الحين على متابعة فقراتها على القناة الإخباريّة، وقد أصبحت عالما بمواعيدها الدّقيقة. كانت تبدو جديّة ورسميّة إلى حدّ بعيد وهي تمسك المصدح وتسرد نشريّتها بكلمات فصيحة منتقاة وتهزّ رأسها في وقار بعد كلّ تعقيب من مقدّم الفقرة. لكنّك تلمح في طرف عينها شقاوة لا تقاوم، تشدّك إليها كلّ يوم أكثر.

كانت ريم هديّة غير متوقّعة في وقت كنت فيه في أمسّ الحاجة إلى رفيق.

بعد فترة، تحدّثتما عن ميولكما الفكريّة وقناعاتكما الدينيّة، فاكتشفت بارتياح كبير أنّها هي الأخرى قد تركت دينها الموروث وآمنت أنّ العلم يقدّم كلّ الإجابات على حقائق الكون. لم تبحر في نقاشك معها إلى المناطق الملغومة التي سبق أن ابتلعتك ولم تجد لها حلّا بعد، لكنّها دعتك إلى مشاركتها هواية مشاهدة الأشرطة الوثائقيّة. ستكون أوّل زيارة لشقّتها، بعد شهرين من لقائكما الأوّل، لمتابعة عرض عن «نظرية الأوتار الفائقة والأكوان المتعددة»!

كنت تندهش كلّ يوم أكثر، وأنت تغوص في عالمها أعمق. ريم لا تشرب ولا تدخّن. ليس لقناعة ما، ولكن لأنّها تهتمّ لصحّتها. ريم تمارس رياضة الجريَ واليوغا بانتظام، وتتناول وجبات خفيفة وصحّيّة معظم الوقت. وجباتها مُحضّرة منزليّا غالبا أو من مطاعم

موثوقة حين يستدعي الأمر. ريم مثقفة ثقافة غزيرة وعالية، مهتمّة بأنواع المعارف كلّها دون تمييز، تصنع فكرتها وموقفها الخاصّين من كل شيء تقريبا.. الفلك وعلم الأحياء والجيولوجيا والفيزياء والتّاريخ والرّياضيّات والأدب! كنت تعيد اكتشاف نفسك من خلالها وتسترجع شغفك القديم الذي سرقتك منه دراسة الطبّ. وأعدت بفضلها هيكلة عالمك الخاصّ ورمّمت نظام حياتك الذي تبعثر في فترات انقطاعك عن محيطك ولم تعد ترتيبه منذ ذلك الحين.

متى عبرتما حدود الصّداقة البريئة وخطوتما في منطقة الحبّ؟ ربّما كان الأمر جليّا بالنّسبة إليك منذ النّظرة الأولى. فلطالما سقطت في الهوى من نظرة! لكنّها أخذت الوقت الكافي لتختبر مشاعرها، وأنت لم تستعجلها. حتّى قالت ذات يوم بأسلوبها العفويّ المعهود:

- عليّ أن أعترف.. لقد أدمنت أحاديثنا على الهاتف ولقاءنا الأسبوعيّ! أنت لا تنوي تركي في القريب، أليس كذلك؟ وليست لديك زوجة وأطفال تخفيهما عنّي؟

ضحكت كثيرا، كما تضحك دائما أمام تصريحاتها الجادّة التي ترسلها في قالب نكتة! ثمّ طمأنتها إلى أنك لن تتركها أبدا، وألّا تاريخ خفيّا لديك تحجبه عنها. ستتخذ بعد ذلك لقاءاتكما طابعا أكثر حميميّة وانفتاحا. كان كلّ منكما منشغلا بعمله طيلة الأسبوع، فتتحادثان على الهاتف لساعة أو نحوها خلال السّهرة، وتمضيان معا كامل عطلة نهاية الأسبوع. تتسكّعان أمسية السّبت في أحياء باريس الصّاخبة وتنجرفان مع تيّار مدينة الأنوار سريع النّسق، ثمّ تسترخيان نهار الأحد، تتمدّدان على العشب النديّ في إحدى الحدائق وتستقبلان أشعّة الشّمس بحفاوة، أو تحتسيان الشوكلاتة السّاخنة والفشار أمام شاشتها العملاقة، إن توارت الخيوط الذهبيّة وراء السّحب.

كان الوقـت مـع ريـم يتـسرّب دون أن تشـعر، وكان إحساسـك بهـا يتعمّـق كلّ يـوم أكـثر. تسـتعذب قربهـا، واهتمامهـا. سـارة لـم تكـن يومـا بذلـك القـرب! كانـت حواجـز الدّيـن والعـرف تباعـد بينكمـا وتخلـق العراقيـل. تراقـب كلماتـك وحركاتـك ونظراتـك، حـتّى لا تقـترف مـا لا يجـوز للخاطـب! لقـد تحـرّرت مـن كلّ ذلـك الآن. كـم كانـت مريحـة حيـاة الحريّـة!

كنتمـا تجلسـان معـا عـلى الأريكـة الوثـيرة في شـقّتها، حـين سـألتها باهتمـام:

- ما هو حلم البنت الصغيرة السّاكنة فيك؟

هتفت دون تفكير:

- أن أسافر حول العالم!

- أيّ جزء من العالم بالضبط؟

بحثـت عـلى مكتبهـا عـن خريطـة قديمـة، فردتهـا عـلى الطاولـة المنخفضـة أمامكمـا وانحنـت تعلّـم بالقلـم:

- زرت معظـم بلـدان أوروبـا وأمريـكا، وكانـت لي رحـلات عمـل إلى الخليـج والـشرق الأوسـط.. كذلـك شـمال إفريقيـا.. أمّـا الـشرق البعيـد فـلا أعـرف عنـه شـيئا!

قلت في حماس وأنت تأخذ منها القلم:

- منْ أين نبدأ؟

بادلتـك نظـرة طويلـة مسـتفسرة. هـل تتحدّثـان الآن عـن مـشروع سـفر مشـترك؟ أم هـو مجـرّد عبـث طفـوليّ؟ أغرتهـا نظرتـك الجـادّة فـسرت الحماسـة إليهـا. أشـارت بإصبعهـا عـلى نقـاط متتاليـة:

- الهند.. إندونيسيا.. الصين.. تركيا!

- لماذا هذه البلدان بالذّات؟

سألتها وأنت ترسم دوائر على النقاط التي أشارت إليها.

- الهنـد، لأنّـني أحـبّ رقصهـم الحيـويّ في جماعـات، وملابـس «السـاري» الملوّنـة المبهجـة، وطعامهـم الحـارّ المـليء بالبهـارات.. الصّـين، بلـد مثل قـارّة، يقـال أنّ أكثر المشـاهد الطبيعيّة خلبـا للألبـاب تقبـع هنـاك بـين جبالـه وأنهـاره.. إندونيسـيا، الشّـواطئ السّـاحرة وركـوب الفيلـة، والغـوص مـع الأسـماك الملوّنـة، وتنـوّع ثقـافيّ لأكـثر مـن ثمانيـة عـشر ألـف جزيـرة، ذلـك كاف لجعلهـا أكـثر بلـدان العالـم إثـارة.. وأخـيرا تركيـا، البلـد الواقـع بـين آسـيا وأوروبـا، الجامـع بـين الثقافتـين المتناقضتـين والمتكاملتـين.. أشـعر أنّ رحلـة عـلى امتـداد شـهرين تشـمل هـذه المحطّـات الأربـع سـتكون تجربـة حياتيّـة مميّزة!

تأمّلتَ الخريطة لبرهة، ثمّ رفعت عينيك إليها وقلت بمرح:

- أعتقـد أنّـه بإمـكاني أن آخـذ إجـازة مـن المستشـفى لشـهري يونيـو ويوليـو.. هـل يبـدو هـذا مناسـبا؟

- هل أنت جاد؟

قفـزت لتعانقـك في حمـاس ثـمّ أخـذت تصفّـق في جـذل طفلـة. أمامكمـا أربعـة أشـهر لتحـضّرا لتلـك الرّحلـة. كنـت مسـتعدّا لعمـل أيّ شيء يدخـل السّرور إلى قلبهـا، وهـي الـتي أهدتـك سـعادة صافيـة خاليـة مـن المنغّصـات. كنتمـا متوافقـين عقليّـا، منسـجمين فكريّـا وروحيّـا، وتجمعكمـا عاطفـة جيّاشـة متكافئـة ومعطـاءة تجـزم أنّ معينهـا لـن ينضـب. كنـت تعيـش عـلى قمّـة منحـنى السّـعادة في تلـك الفـترة، ولـم تكـن تـدرك أنّ المنحـدر قريـب.. قريـب جـدّا.

-٢-

مثلما كانت سارة الشّمس التي تدور في فلكها، أصبحت ريم المجرّة كلها! بل الكون بأسره! بل الأكوان المتعدّدة برمّتها!

لكنّك تعلّمت من تجربتك مع سارة ألا تثقل كاهل رفيقتك بتبعيّتك العاطفيّة. ستقاوم باستماتة وسوستك القهريّة حين يضطرّها عملها إلى السّفر في مهمّة صحفيّة ما. وستدفع عنك الهلاوس كلّما رنّ هاتفها طويلا على الجانب الآخر دون ردّ. فكّرت في تلك الآونة أنّه من الحكيم أن تقصد طبيبا نفسيّا ليساعدك على الخلاص من ارتباطك المرضيّ بمن تحبّ. لكنّك لم تقدم على الخطوة. بدل ذلك، اطّلعت على مراجع علميّة في مكتبة الكليّة وقرّرت اتّباع خطوات علاجك الخاصّ.

لكنّك لم تدرك أنّ كلّ شيء سينهار في تلك اللّيلة.

كانت ليلة سبت أخرى، قضّيتها مع ريم تتسكّعان على ضفاف نهر السّين. كنت نشطا ومستيقظا، لم تشرب كأسا واحدة منذ عرفت ريم وانقطعت عن رفقة إيرينا. كانت ريم تحدّثك عن الرّحلة التي تنويان القيام بها معا.. منذ تلك الأمسية أمام خريطة مكتبها وهي تعكف على التّخطيط! قالت لك حينها: اترك التّفاصيل لي! وقد فعلْت. كانت قد حدّدت مسار الرّحلة والفترة اللازمة لاستكشاف كلّ بلد ومدينة ومحطّة.. وهي في تواصل مستمرّ مع شركات الطّيران ووكالات الأسفار ومكاتب الحجز. لكنّها تحتفظ بالمفاجأة لنفسها.

- هات هاتفك وأغمض عينيك!

ضحكتَ، ثمّ أخرجت هاتفك وتركتها تفعل ما تشاء. مغمض

العينـين، استمعت إلى نقـرات أصابعهـا النّحيلـة عـلى لوحـة مفاتيحـك، وتخيّلـت ابتسـامتها الشـقيّة وهـي منكبّـة عـلى ترتيـب مقلـب مـا لا تـدرك كنهـه بعـد. في الخلفيّـة، تصلـك ضوضـاء الشّـارع وأبـواق السـيّارات ونشـاز مـن الألحـان الصّـادرة عـن محـلّات عـدّة.

- هاك.. أصبح كلّ شيء جاهزا!

فتحت عينيك، أخذت منها الهاتف وتطلّعت إلى شاشته في حيرة.

- مفاجأة! انتظر حتّى...

كانت تلك آخر كلمات ريم، قبل أن تختفي فجأة من أمامك!

هـل نبـت لهـا جناحـان فطـارت؟ هـل انطلقـت بفعـل محـرّك مـا إلى الأعـلى مثـل مكّـوك فضـائيّ؟ لا تـدري! ريـم اختفـت، حلّقـت في الهـواء ثـمّ هبطـت بعيـدا في الظّـلام، وأنـت تجمّـدت مكانـك لا تعـي شيئا مـن هـول الصّدمـة. لـم ينتبـه أحدكمـا إلى السـيّارة المسرعـة الـتي أقبلـت دون إنـذار لتطـوي الرّصيـف وتقتلـع البـلاط وعمـود الإنـارة، وتحصـد في طريقهـا ريـم والحاجـز المعـدنيّ، وتنتهـي في قعـر السّـين! حلّقـت ريـم، وحلّقـت السـيّارة، ثـمّ ارتطمـت كلتاهمـا بصفحـة الميـاه بلطخـة عنيفـة، وأنـت تقـف مكانـك، بكفّـك هاتفـك الـذي كان معهـا منـذ ثـوانٍ، وعـلى وجهـك تعبـير أبلـه.

هـل تنتهـي الحيـاة هكـذا فجـأة؟ هـل تتبخّـر السّـعادة كأنّمـا لـم تكـن يومـا؟ ريـم الـتي كانـت طـوق نجاتـك مـن نفسـك، تتوسّـل طـوق نجـاة لتعيـش، ولا مجيـب! تقـترب مـن الحاجـز المحطّـم مـع المقتربـين والفضوليّـين، ويعلـو صراخـك هلعـا ورعبـا وجنونـا. هـل يجـدي أن تلقـي بنفسـك وراءهـا؟ ألـم تكـن قـد وقفـت هـذا الموقـف منـذ سـنة ونصـف، وتسـاءلت كيـف يكـون السّـقوط مـن هـذا العلـوّ الشّـاهق.. هـل تلقـى حتفـك أم تنجـو؟ ريـم سـتخبرك الآن، سـتحدّثك عـن تجربـة كيـف يكـون

القفـز إلى النّهـر، مدفوعـا بقـوّة سيّارة عجـلى! ليتهـا تعـود وتخـبرك، بأنّهـا تجربـة قاسـية، لكنّـك سـتعيش بعدهـا. ليتهـا تفعـل!

تميـل باتّجـاه النهـر وتـصرخ مـلء رئتيـك باسـمها: ريـــــم! تبحـث عينـاك عنهـا في ظلمـات ثـلاث، ظلمـة الليـل وظلمـة المـاء وظلمـة الموت! تبصرهـا، أو تظـنّ أنـك تفعـل. تنبثـق رأس مـن العتمـة لتشـقّ سـطح النهـر، تقـاوم يـد المـوت الـتي تحـاول ابتلاعهـا. تتعكّـر صفحـة المـاء للحظـات، وتلـوّح كـفّ ترجـو النّجـدة. تـصرخ مـن جديـد:

- إنّها هناك! هناك! هل من حبل؟ طوق نجاة؟ أيّ شيء؟

تتلفّـت حولـك في تشـوّش، تبحـث عـن شيء.. أيّ شيء بوسـعه مسـاعدتها، فتقابلـك وجـوه متبلّـدة وملامـح عطّلتهـا الدّهشـة والبلاهـة. تعـود إلى النّهـر مـرّة أخـرى، تحـاول ألّا تضيّـع ريـم الـتي يسـحبها التّيّـار لتمـضي مـع مجـرى النّهـر. تركـض متابعـا حركتهـا، إنّهـا عنـد قاعـدة الجـسر، تحـاول التعلّـق بأعمدتـه المرتفعـة.. لكـنّ إرادتهـا تضعـف ومقاومتهـا تنهـار. تعـرف أنّهـا سـبّاحة ماهـرة، لكـنّ السـقطة أفقدتهـا توازنهـا. تلـوّح مـرّة أخـرى، كأنّمـا هـي تودّعـك.. وتـودّع الدّنيا. ثـمّ غاصت بعيـدا. ضاعـت منـك ريـم في العتمـة، وضعـت في نوبـة هيسـتيريا.

وصلـت فرقـة الإنقـاذ بعـد دقائـق حسـبتها دهـرا، وتمثّلـت خلالهـا كلّ النّهايـات الممكنـة، أنـت الطبيـب المنـاوب في الطّـوارئ لسـاعات لا تحـصى، وقـد مـرّت أمـام عينيـك حـالات شـتّى، بنهايـات مأسـاويّة أو معجـزة! راقبـت الغوّاصـين يتجهّـزون ويقفـزون إلى المـاء، فيبتلعهـم عمـق النّهـر.. فابتهلـت في صمـت، يـا ربّ، يـا الله، أنقذهـا!

أيّ إلـه كنـت تناجـي وأنـت الـذي كفـرت بالدّيانـات كلّهـا؟ ألـم تؤمـن بديـن العلـم وحـده؟ وعلمـك يقـول في تلـك اللّحظـة أنّ كلّ الظـروف تنـبئ بالكارثـة المحقّقـة. لـم تكـن حادثـة سـيّارة وحدهـا، بـل سـقوط

مـن علـوّ، وربّمـا نزيـف! الإحصـاءات النّظريّـة والاحتمـالات العلميّـة كلّهـا تقـول أنّ أمـل ريـم بالنّجـاة ضئيـل! وكلّ ثانيـة تمـرّ ترجّـح كفّـة النّهايـة. كنـت تحتـاج إلى معجـزة! مثـل معجـزات الأنبيـاء والصّالحـين.. وأنـت لـم تكـن نبيّـا ولا قريبـا مـن الصّـلاح، ومـع ذلـك تدعـو، تدعـو بلسـان لا يفـتر ويتفتّـت قلبـك داخلـك جزعـا. حالـك مثـل الذيـن (دَعَـوُا اللَّـهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الدِّيـنَ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِـنْ هـذهِ لَنَكُونَـنَّ مِـنَ الشَّـاكِرِين). لـم تكـن تـدرك مـا تقـول ولا مـا تفعـل، تفجّـرت الكلمـات عـلى شـفتيك دون وعـي، مـن مخـزون قديـم ظننـت نفسـك فقدتـه مـن الأدعيـة المأثـورة والابتهـالات.. وجـدت لسـانك يجـري بهـا مسترسـلا دون توقّـف، بينمـا تتابـع عينـاك الجاحظتـان الحركـة الدؤوبـة حـول موقـع الحادثـة.

بعـد انتظـار كئيـب، أخـذ المنقـذون يسـحبون الأجسـاد واحـدا إثـر الآخـر.. بنتـان وولـد في سـنّ المراهقـة، لا يتجـاوز أكبرهـم سـنّ العشريـن. أخرجوهـم مـن السـيّارة الغارقـة قبـل أن تغمرهـا الميـاه تمامـا. بـدا الشّـاب في وعيـه، بينمـا أغمـي عـلى البنتـين. ثـمّ ظهـر جسـد ريـم محمولا عـلى الأعنـاق! الغوّاصـون يلفّـون الحبـل حـول خصرهـا، ويبـدأ رفعهـا إلى أعـلى. تتابعهـم بعينـين جزعتـين، رافضـا التّسـليم لقضـاء الله وقـدره. أيّ قضـاء وأيّ قـدر؟ يسـتنكر عقلـك. هـل يكـون هـذا عقـاب الله لـك، لجحـودك وكفـرك بنعمـه؟ ينفجـر صمّـام القمقـم الـذي سـبق لـك أن أحكمـت إيصـاده عـلى عفاريـت الأسـئلة، ويخـرج المـارد شـامخا، مسيطرا عـلى المـكان. لا مهـرب لـك الآن!

روحـك تنـازع المـوت.. ففـي داخلـك يقـين بـأنّ في مـوت ريـم موتك.. وعقلـك ينـازع موتـا آخـر، وقـد أغرقتـك حسـاباتك القديمـة الـتي أهملـت تصفيتها !

يتناهـى إليـك صـوت مراسـلة تلفزيونيـة عـلى قيـد أمتـار قليلـة وراءك، تنقـل تفاصيـل الحادثـة عـلى الهـواء مبـاشرة إلى محطّـة مـا. كان يجـب

أن تكون ريم من تحصل على السّبق الصحفيّ! ألم تكن هي من عاشت الحادثة بنفسها؟ تنهمر العبرات من مقلتيك تباعا في زخّات سخيّة، وجثّتها المسترخية متدليّة الأطراف، مزرقّة البشرة، تقترب من السّطح، مستسلمة وضعيفة، لا حول لها ولا قوّة. تبتلع الغصّة، وتمدّ كفّك باتّجاهها، يداعبك أمل بأنّها لا تزال على قيد الحياة!

شعرت بالأذرع تبعدك، وتعليمات فرقة الإنقاذ الصّارمة تدعوك إلى فسح المجال. تراجعت خطوتين، بينما تلقّفتها محفّة الطوارئ، وهرول المنقذون بها إلى سيّارة الإسعاف التي صدحت صافرتها على الفور. حضرت نباهتك فجأة بعد شبه غياب عن الوعي، فاندفعت باتّجاه السيّارة صارخا:

- الضحيّة تهمّني!

كنت في حال يرثى لها من التأثّر، لذلك لم يطلب أحدهم التأكّد من هويّتك وسمحوا لك بمرافقتها إلى المستشفى. راقبت من وراء ضباب دموعك الإسعافات الأوّليّة التي أجريت لريم.. التنفّس الاصطناعيّ، وتدليك الصّدر، ثمّ رأيتها تسعل وتلفظ الماء الذي ملأ رئتيها!

- حمدا لله!

- من هنا.. قناع الأكسجين!

يغمرك الحماس على حين غرّة. هل حصلت المعجزة؟

تركض مع المحفّة داخل أروقة جناح الطّوارئ في مستشفى «فندق الربّ» على «جزيرة المدينة» التي تتوسّط مجرى السّين وتقسمه إلى مسارين. وفي نهاية الممرّ، تختفي المحفّة وراء باب موصد ولا يسمح لك بالدّخول. تستظهر ببطاقتك المهنيّة.

- أنا طبيب!

بلا فائدة. ليست لديك أيّ صلاحيّات هنا.

في غرفـة الانتظـار، تنكفـئ عـلى نفسـك، مثـل المحتـضر، تترقّـب خـروج ريـم تمـشي عـلى قدميهـا! يتوافـد أهـالي بقيّـة الضحايـا دامعـين. كان السّـائق المتهـوّر عـلى قيـد الحيـاة، في حـين لـم تسـتيقظ البنتـان المرافقتـان لـه. مراهـق يحتفـل بحصولـه عـلى رخصـة القيـادة منـذ أسـبوع واحـد، أخـذ سـيّارة والـده ودعـا صديقتيـه للاحتفـال.. لتنتهـي الحفلـة في قعـر السّـين. مـا ذنـب ريـم في كلّ هـذا؟ لمـاذا كانـت تقـف في مسـار السـيّارة، وليـس أنـت؟ وكيـف وصلـت السّـيارة إليهـا وهـي تقـف عـلى الرّصيـف؟ كنتمـا يقظـين، لمّـا تحتسـيا شرابـا، وكذلـك السّـائق، لـم يكـن مخمـورا. كنـت مغمـض العينـين وهاتفـك بـين كفّيهـا، حاسّـة السّـمع لديـك مركّـزة، تسـتقرئ بهـا مـا يـدور حولـك. لقـد أصغيـت إلى ضوضـاء الشّـارع، ولـم تكـن هنـاك فرملـة ولا تنبيـه لقـرب حـدوث مصيبـة. لـم يكـن هنـاك مـن سـبب منطقـيّ للحادثـة!

غير أنّه قضاء الله وقدره!

تصيبـك الفكـرة الـتي تعـود إليـك كلّ مـرّة دون كلـل بالجنـون. تحـاول أن تتجاهـل ضجيـج الأسـئلة في رأسـك.. لقـد اسـتيقظت ريـم، وهـذا يكفـي! لكنّـك تسـتحضر نظراتهـا الزّائغـة وبشرتهـا المزرقّـة فينقبـض صـدرك. سـتكون بخـير.. يجـب أن تكـون.

تقتلـع نفسـك مـن المقعـد وتقـاوم الشرنقـة الـتي تحيـط بعقلـك، تـسرع في اتّجـاه الطبيـب الـذي ظهـر في آخـر الممـرّ. تندفـع ضمـن المندفعـين مـن الأهـالي السّـائلين عـن مصـير ذويهـم. يعلـن بصـوت واضـح مصائـر الفتيـات الثـلاث. إحداهـنّ اسـتيقظت، والثانيـة توفّيـت متأثّـرة بجراحهـا، بينمـا سـقطت الثالثـة في غيبوبـة! تتسـارع نبضاتـك وتـدقّ في رأسـك، يـا الله، أيّهـنّ ريـم؟

- المتوفاة اسمها جولي.. هناك سلسلة تحمل اسمها.

تنهار السّيّدة الواقفة إلى جوارك أرضا ويرتفع صراخها باسم ابنتها، وحيدتها، زهرة عمرها.. بينما تنتشلها أذرع الأقارب المواسية. تختنق أنت بدموع الأمل.. لم يكن هناك من داع للقلق. أولم تفتح عينيها وتلفظ الماء؟

- يمكنكم المجيء لرؤية البنت الصّاحية، لقد فتحت عينيها.. لكنّها لا تزال تحت الصّدمة.

يندفع جمعكم عبر الممرّ.. أنت وعائلة الضحيّة الأخرى، وكلّ يمنّي نفسه بأن تكون من يهمّه أمرها هي النّاجية! وراء الحاجز الزّجاجيّ، تظهر أسرّة العناية المركّزة متوازية إلى نهاية الغرفة.

- السّرير الثاني من اليمين.. رجاء.

بينما تنشط عيناك بحثا، وقبل أن تستطلع حقيقة الأمر، يصلك هتاف السّيدة الثانية:

- صابرينا.. حمدا لله!

يقع الأبوان أحدهما في حضن الآخر في ارتياح. لقد نجت صابرينا! بينما تتعلّق عيناك أخيرا بالسّرير الرّابع الذي سجّيت فوقه ريم، شاحبة، مسبلة الجفون، وقد أحاطت بها الآلات من كلّ جانب. كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ يا الله، لقد استيقظت منذ قليل، ألم تفعل؟

- تفضّل معي.. أرجوك.

تسحب نفسك في إعياء وذهول إلى آخر الممرّ.

- هل أنت من عائلتها؟

- صديقها.

- فهمت.. إنّها في غيبوبة الآن.

- لكنّها استيقظت، وسعلت! لقد رأيت ذلك بنفسي!

- نعـم، لقـد فعلـت.. لكنّهـا مكثـت طويـلا تحـت المـاء وانقطـاع الأكسـجين عـن الدّمـاغ قـد تسـبب في تلـف بالـغ في وظائفـه. سنسـتمرّ في مراقبتهـا، لا أخفـي عليـك.. إنّهـا تتنفّـس بمسـاعدة الأجهـزة. إن لـم تسـتيقظ خـلال ثمانٍ وأربعـين سـاعة.. فمـن الأرجـح أنّهـا لـن تفعـل أبدا.

- من الأرجح؟!

تـصرخ في جنـون. هـل يتكلّـم عـن مـوت حبيبتـك ريـم بعبـارات مـن قبيـل «مـن الممكـن» و«مـن الأرجـح» و«نعتقـد» أو «نظـنّ»؟ مـن الأفضـل لـه أن يكـون واثقـا قبـل أن يعلـن أحكامـا مماثلـة!

- أنـا آسـف.. ليـس بإمكاننـا عمـل شيء لهـا بعـد الآن. فقـط ننتظـر.. في الأثنـاء، أرجـو الاتّصـال بعائلتهـا.. نريـد أن نعـرف إن كانـت مسـجّلة كمتبرّعـة بالأعضـاء.

دون تفكـير، هويـت بقبضتـك عـلى فـكّ الطّبيـب، فتراجـع مصطدمـا بالجـدار في ذهـول، وقـد تـورّم أنفـه وشـفته. طالعتـه في احتقـار وتشـفّ، بينمـا أخـذ يـصرخ مسـتنجدا:

- الأمن! من هنا رجاءً!

نفضـت كفّيـك عنـه وخرجـت مـن تلقـاء نفسـك قبـل وصـول الأمـن. حـين وصلـت إلى البوّابـة الخارجيّـة، انهـرت عـلى الأرض. أخـذ النّشـيج يهـزّك بعنـف متصاعـد، والعـبرات تسـيل مختلطـة بالمخـاط. كيـف يتحـدّث عـن التـبرّع بالأعضـاء، وكأنّ أمـر ريـم انتهـى؟ كيـف حصـل ذلـك؟ لا يمكنـك تفسـير مصيبتـك. لقـد كنـت عـلى بعـد قوسـين أو أدنى مـن المعجـزة. لقـد فتحـت عينيهـا! سـعلت وبصقـت الميـاه الـتي سـدّت مجـرى تنفّسـها.. لكنّهـا هربـت منـك مـن جديـد، بعـد أن أهدتـك أمـلا بنجاتهـا! لمـاذا؟!

مـررت بمرحلـة الإنـكار في السّـاعات الأولى، لـم تكـن تصـدّق بـأنّ مـا يحصـل حقيقـة. بـدا مثـل كابـوس طويـل يرفـض الانتهـاء. ثـمّ مـا لبـث وعيـك أن اسـتوعب الكارثـة. كنـت تقـضي السّـاعات تتأمّـل جسـد ريـم المسـجى في غيـاب تـامّ، تتّصـل بـه أجهـزة كثـيرة، تبقيـه متأرجحـا بـين الحيـاة والمـوت. ثـمّ أصيـب كلّ شيء في روحـك بالشـلل. لـم تكـن تفكّـر أو تشـعر أو ترغـب في شيء، سـوى أن تراقـب ذاك الجسـد الواهـن الـذي يفقـد نضارتـه تدريجيّـا، كأنّمـا يسـكبها قطـرة قطـرة.

اسـتحال عقلـك قاعـا صفصفـا، ثـم أخـذ الصّبّـار ينبـت بأشـواكه السّـوداء، تشـعر بمرارتهـا كالعلقـم في حلقـك. ينتابـك سـخط شـديد. لمـاذا يحـدث هـذا لريـم؟ ريـم الوديعـة المسـالمة، صافيـة السّريـرة رقيقـة القلـب؟ إنّهـا لا تـؤذي أحـدا، ووجودهـا ذاتـه مثـل نسـمة رائقـة في يـوم حـرّ. لـم تفعـل الـشرّ يومـا لتجـازى بـه.. فكيـف يكـون مصيرهـا بهـذه القسـوة والبشـاعة؟ مـا الـذي اقترفتـه لتعاقـب وتقطـف زهـرة شـبابها مبكّـرا؟

لـم تعـد العبـارة المأثـورة «لحكمـة لا يعلمهـا إلّا الله» تكفيـك وتشـفي غليلـك، ولا يرضيـك التّفكـير في «الابتـلاءات الـتي تطهّـر مـن الذنـوب وترفـع الدّرجـات».

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك!

الفصل الثامن

- بحث -

-١-

تجلس الآن في الطائرة التي أخذت تحلّق فوق سماء باريس، ويمّمت وجهها تجاه المحيط الأطلسي. تستعيد أحداث أيّامك الأخيرة، فينتابك إنهاك مباغت. أمضيت ليالي طويلة، تسهر خلف الحاجز الزّجاجي، تراقب ريم التي لا تفعل شيئا سوى التنفّس. اتّصلت بجهة عملها وأعلمتهم بالحادثة، فطار الخبر حتّى أفراد عائلتها.

رأيت والدتها تهرول عبر الممرّ بعد يومين. كانت سيّدة بسيطة ذات هيئة محتشمة، بجلباب ملوّن وغطاء رأس محكم، متماسكة أكثر ممّا توقّعت رغم الألم والحزن السّاكنين في حدقتيها. راقبتها في ذهول، لساعات طويلة، وهي تذرف الدّمع.. وتقرأ. لم يكن مصحفها يفارق كفّيها، تتلو منه بصوت خافت آناء الليل وأطراف النّهار، ثمّ تفلت منها آهة عميقة وترفع يدين مرتعشتين ليلهج لسانها بدعاء حارّ متضرّع. وفي ساعة السّحر، كانت تقوم راكعة ساجدة، تناجي الله في صلواتها.. كأنّما هي في اتّصال روحي مستمرّ بخالقها، لا ترجو منه انقطاعا حتّى تردّ إليها ابنتها!

تطالعها في شفقة ممزوجة بالسخرية.. هل تحسب دعاءها يجدي؟

كانت تلك المفجوعة بكارثة ابنتها، بفعلها ذاك، تجلد روحك دون وعي منها، بسياط خفيّة. آه لو علمت تلك الأم المكلومة بجوار ابنتها نصف الميتة ما يمور بخلدك من أفكار.. كانت لتبكيك مع ابنتها!

فقد كنت أنت أيضا نصف ميت.. بل لعلّك ميّت بحق. لم تعد لديك أدنى رغبة في هذه الحياة دون ريم. الحبل الذي يربطك بالسماء

كان قـد انقطـع. لقـد حسـبت روحـك قـد اسـتيقظت، حـين أجـرى الله عـلى لسـانك مـا أجـرى مـن ابتهـال ودعـاء. لكـنّ كلّ شيء انتهـى بعـد لحظـات، وخلّفتـك المأسـاة فارغـا مـن كلّ شـعور.. فـتزداد كآبتـك.

بعـد ذلـك، لـم يعـد مـن المريـح وقوفـك إلى جـوار والدتهـا المؤمنـة الدّامعـة لسـاعات لا تنتهـي. كانـت أفـكارك السّـوداء تكفيـك. لـم يكـن بوسـعك أن تتحمّـل وجـع أمّ مكلومـة فوقهـا. وريـم لا تفتـح عينيهـا ولا تسـتجيب.

انسـحبت مـن ردهـة المستشـفى، لكـنّ أفـكارك ظلّـت تحـوم حـول سريـر ريـم بـلا هـوادة. راجعـت في تلـك الأيّـام معتقداتـك السّـابقة واللّاحقـة عـن المـوت والحيـاة الآخـرة والـرّوح والمـادّة، وعـدت تقـرأ بنهم أكـبر بعـد الوقـت المسـتقطع الـذي منحتـك إيّـاه ريـم. لقـد كانـت هـي المحطّـة، ومنهـا تسـتأنف الرّحلـة. كنـت مجـبرا عـلى المـضيّ في طريـق البحـث، بـلا خيـارات متاحـة.

ريـم.. تـرى هـل فارقتهـا الـرّوح؟ وأيـن تكـون إن فعلـت؟ محلّقـة في فضـاء الغرفـة؟ أم في الـبرزخ؟ أيـن تذهـب بعـد ذلـك؟ مـا مصـير الـرّوح إن فارقـت صاحبهـا؟

يلـفّ دماغـك ويصيبـك الـدّوار. هـل ظننـت أنّـك سـتتجاهل نقـاط اسـتفهامك إلى الأبـد؟ إن كنـت قـد عدلـت عـن التفكـير في مصـيرك بعـد المـوت، في الجنّـة والنّـار، في الثّـواب والعقـاب، فإنّـك الآن تفكّـر في مصـير ريـم.

هل انتهت ريم فعلا؟

لقـد حسـبت في زمـن مـضى أنّ روحـك لـم تـترك واديـا ولا فجّـا إلّا وهامـت خلالـه. لقـد عـبرت كلّ تلـك الدّهاليـز المظلمـة، وبقيت حبيسـها، لـم تخـرج مـن المتاهـة أبـدا. وأنـت الآن تعـاود الكـرّة، تسـتأنف هيمانـك

التّعس، تسبح في ذات الظّلام وتترنح في الفراغ، وتتساءل.. إلى أين ستقذف بك الأمواج هذه المرّة؟

تستيقظ من أفكارك، حين تسمع جارة سفرك تنادي ابنتها «سارة». تلتفت في فزع. ذلك الاسم القريب البعيد، أما زال ذا سطوة على فؤادك؟ ترقب بنظرة مرتبكة البنت الصّغيرة ذات الجدائل الكستنائيّة، وتستحضر في رأسك مبسم سارة. تلك الـ«سارة» التي خلّفتها دامعة في آخر لقاء لكما، منذ سنتين. تتنهّد. كم يبدو ذاك الزّمن ساحق البعد. سنتان تفصلانك عن عهد غريب، ملامحه مشوّشة في ذهنك. وحده المبسم العذب يلحّ على ذاكرتك، ويعذّبك.

كانت الصّدفة ما وضعك على متن تلك الطّائرة بالذّات. لو أنّك كنت في سالف أحوالك لسميّتها «قدرا». لكنّها صدفة الآن. صدفة عجيبة ومحكمة، تكاد لا تحمل أدنى صفات العشوائيّة التي تحكم الصّدف. صدفة تآمر فيها على ضعفك وقلّة حيلتك، مؤتمر ومناظرة. رسالة إلكترونيّة، لا تقصدك بذاتك، من زميل سابق لم يواته الحظّ للتخصّص في جراحة العظام في باريس، فسافر إلى نيويورك، حيث هيّأت له علاقات عائليّة فرصة لا تفوّت. أرسل الدّعوة بالبريد الإلكترونيّ إلى كلّ معارفه السّابقين والعابرين، ممّن تهمّهم جراحة العظام من قريب أو بعيد. هناك مؤتمر طبيّ في المركز الذي يعمل به، والجامعة تموّل رحلتك العلميّة. ثمّ ومضة سريعة، على منتدى إلكترونيّ تزوره بشكل متقطّع، فتتابع نقاشات الملحدين وتهافت المؤمنين للردّ على ادّعاءاتهم المزعومة، بحجج واهية لا تقنع طفلا! هو إعلان سقط أمام عينيك سهوا، عن مناظرة علنيّة لأنتوني فلو، الـ«الملحد الأكثر تأثيرا في القرن العشرين»، في جامعة نيويورك أيضا!

كانت الرّحلة تناديك بكلّ إلحاح ممكن. ألم يكن السّفر وسيلتك إلى الهروب في كلّ أزمة مضت؟ هاجرت مرّات، ووجدت في الأرض مراغما

كثيرا وسعة. لكنّ هجرتك ما عادت في «سبيل الله» بل في «سبيل البحث عن الحقيقة». هربت إلى الجزائر ثمّ بيروت وباريس من الإقامة الجبريّة حين فشلت في الانتحار، وهربت من خلافك وسارّة إلى ضياع لم تنته منه ولم ينته منك! والآن، تهرب من مأساتك وريم، ولا تعرف هل ترجع وأنت كما أنت، أم بتحوّل يضرب بجذوره عميقا في السّويداء؟ يعتريك يقين صارخ. ما من مرّة سافرت وبقيت كما أنت! وسترجع هذه المرّة أيضا، بحال أخرى. لا تعلم إن كانت أفضل أم أسوأ.. لكنّها أخرى. وهذا كلّ ما بتّ تصبو إليه، أن تبدّل قشرتك. لا تعلم كيف سيكون حظّك، هل مثل فراشة تودّع شرنقة إلى الأبد.. أو مثل أفعى تغيّر جلدا بآخر مماثل، بلا جديد؟

تحضّرت للرّحلة كما يجب. انكببت خلال الأسابيع السّابقة على مؤلّفات فلو. كانت فلسفة الأديان خاصّته تعتبر مرجعا لكلّ ما تلاها من أطروحات في المجال، منذ خمسينيات القرن الماضي. مقاله «اللّاهوت والتزوير» كان أوّل مساهماته وأعظمها، وما زال إلى اليوم يمثّل نشرة بطوليّة عند الملحدين الملتزمين.

مبادئ فلسفته ترتكز على أعمدة ثلاثة: العالم أزليّ، الحياة عمليّة عشوائيّة، فكرة الإله مناقضة لنفسها فوجود الشرّ لا يتوافق مع وجود آلهة. وتلك الفكرة الأخيرة لمست داخلك نقطة حساسة، فما زال ألم حادثة السّين حيّا ينبض. «أنتوني فلو» يؤمن بالعلم وهو ملمّ بالكثير من النّظريات الحديثة. وهناك وجه شبه آخر بينك وبينه، لقد شبّ مؤمنا كاثوليكيا، ثمّ تمرّد على دينه الموروث في مراهقته! لا شكّ أنّ قناعته كانت عميقة، ليواجه في تلك السنّ الغضّة والده، المبشّر المسيحيّ، ويختار طريقه!

فاجأك أنّ اسمه لم يقع أمام عينيك في وقت سابق. قبل ريتشارد داوكينز وكريستوفر هيتشنز وسام هاريس ولورانس كراوس،

كان هناك أنتوني فلو. لكنّ الرّجل الذي بلغ من العمر أرذله، متخطيًا عتبة الثّمانين، قد اعتزل المنابر واستسلم لحياة وديعة رفقة زوجته في ضاحية «ريدينغ» الصغيرة، غرب لندن، ليستأثر جيل جديد من المبشّرين بالإلحاد بالأبواق الإعلاميّة. لقد كان على مبعدة ساعة ونصف من باريس، لكنّك تحلّق ثماني ساعات حتّى نيويورك لتستمع إليه! وقد كانت مناسبة نادرة، أن يخرج الفيلسوف المتقاعد من محراب صمته، ليواجه العالم بأفكاره من جديد. طيلة السّنوات التي تلت عزلته، لم يكن الرّجل يدرك كم أسالت تصريحاته المباشرة القليلة من حبر، وكم طوّعها الإنجيليّون والملحدون على حدّ سواء، لتوكيد معتقداتهم!

قبل السّفر، راسلت الرّجل على بريده الإلكتروني، تطلب منه اللّقاء بعد المحاضرة أو قبلها. كنت ترجو أن تحظى بوقت خاصّ مع الفيلسوف الرّمز. لكنّ الرّسالة ظلّت بلا ردّ لأسابيع كثيرة، حتّى حان موعد الرّحيل. ستمضي إلى نيويورك متطلّعا إلى لقاء ثمين مع رجل تعتبره حبل نجاتك. لكنّك ستكون مجرّد وجه مجهول ضمن أمواج من الوجوه في قاعة غاصّة بالمريدين!

تغادر الطّائرة في مطار ج.ف. كينيدي، تعبر نقطة التفتيش ومكاتب الجمارك، ثم تحطّ الرّحال في فندقك المتواضع ذي النّجمات الثلاث، قبالة مبنى الجامعة. نومك قليل في الأيّام الأخيرة، وسهادك طويل. تحضر المؤتمر الطبيّ نهارا، وتشغلك كلّ ليلة تساؤلات شتّى حول المناظرة وما ستجنيه منها، ويخاصم الكرى جفنيك.. ثمّ يغلبك النعاس أخيرا، فوق دفتر ملاحظاتك.

حتّى جاء اليوم المنشود.

قاعة المحاضرات ملأى عن آخرها، بوجوه شقراء وصفراء وسمراء،

توافدت من العالم بأسره، لتشهد عرسا فكريّا بهيجا! اتّخذت مجلسا، تراقب شاشة البثّ بانتباه، وهي تنقل صورة من قاعة التّسجيل التّلفزيّ بالجامعة، حتّى ظهر المتناظرون. كانوا ثلاثة رابعهم فلو، اثنان منهما من أشرس المدافعين عن الإيمان: الفيزيائيّ اليهوديّ الأرثوذوكسيّ جيرالد شرودر والفيلسوف المسيحيّ جون هالدان.

لدقائق طويلة، استمعت إلى شرودر وهو يلقي محاضرة مكرّرة، عن استحالة أن يتوصّل عدد لا نهائيّ من القردة، يضربون بشكل عشوائيّ على لوحة مفاتيح، إلى إنتاج ما يشابه من قريب أو بعيد قصيدة لشكسبير! كان يردّ بشراسة على ادّعاء هاوكينغ في «موجز تاريخ الزّمن»، أنّ الطبيعة بإمكانها، إذا ما أتيح لها وقت كاف، أن تؤدّي إلى مآثر عجيبة، ينسبها النّاس إلى الله.

ثمّ تكلّم هالدان، ليقرّ أنّ بعض القدرات الإنسانيّة، مثل الكلام والوعي والإدراك والمشاعر، لا يمكن تفسيرها إلّا بذكاء علويّ. ثمّ ظهرت على الشّاشة صور لألبرت أنشتاين وفيرنر هايزنبرغ، بينما يواصل الصّوت مؤكّدا أنّ كثيرا من العلماء الكبار كانوا يؤمنون أنّ قوانين الكون وتجلّياته تشير بوضوح إلى ذكاء لا محدود!

ثمّ جاء دور فلو أخيرا. تكلّم بهدوء وبساطة:

- عليّ أن أعترف، الانفجار العظيم الذي نؤمن به كعلماء يوافق ما ورد في سفر التكوين. كلّ تجليّات الحياة المعقّدة والمكتوبة في البصمة الوراثية (DNA)، تشير إلى وجود مصمّم ذكيّ. الذّكاء لا شكّ كان له دور محوريّ في استخدام مواد شديدة التنوّع وجعلها تعمل معا بشكل فعّال، لا العشوائيّة.. لذلك أجدني مضطرا للاعتراف، بأنّ هناك إلها!

في تلك اللّحظة، عمّ الهرج القاعة. ارتفع تصفيق إعجاب

مختلـط بصفـير اسـتهجان، وعلـت أصـوات الجمهـور لتغطّـي لدقائـق عـلى صـوت البـثّ الـذي تسـتمر إذاعتـه. عـلى الشّاشـة، تلمـح ابتسـامة هالـدان المحرجـة، وقـت تغلّـب عـلى خصمـه الألـدّ فجـأة وبشـكل غـير متوقّـع، بينمـا يواصـل فلـو اعترافاتـه المدهشـة ناسـفا عقـودا مـن البحـث والتّأليـف والخطابـة، كأنّ مشـواره الفلسـفيّ الحافـل لـم يكـن!

حين هدأت الفوضى أخيرا، سمعت شرودر يسأل خصمه باستمتاع:

- هـل تعتقـد إذن أنّ أصـل الحيـاة، يمكـن اعتبـاره بشـكل مـا نوعـا مـن الوحـي؟

بدا على فلو التّفكير، ثمّ قال بلهجة جافّة:

- لا أرى في الوقت الحالي أيّ سبيل للاعتقاد بهذا...

كنـت قـد حـضرت المؤتمـر الطـبيّ منـذ أيّـام قليلـة في ذات البنـاء، وتنقّلـت بـين القاعـات والسّـاحات، وبـتّ تعـرف كيـف تصـل مـن نقطـة إلى أخـرى. لذلـك، حـين انتهـت المناظـرة، قفـزت مـن مكانـك، شـققت الطّريـق بـين الحضـور المتدافـع وهرولـت تقطـع ممـرّات الجامعـة، باتّجـاه المخـرج الـذي حسـبت أنّ المتناظريـن سـيغادرون منـه. كنـت تلهـث، حـين وصلـت إلى سـاحة الجامعـة الخلفيّـة، وكنـت وحيـدا. تلفـتّ حولـك في جـزع. هـل تكـون وصلـت متأخّـرا؟

وقفـت لبرهـة في قلّـة حيلـة. ثـمّ هممـت بالرّجـوع عـلى عقبيـك. لكـنّ وقـع أقـدام تعـبر الـرّواق في تـؤدة ترافقهـا جلبـة حديـث وقهقهـات هادئـة جعلـت وجيـب قلبـك يرتفـع. كان جمـع المتناظريـن يقـترب، يرافقهـم ثلّـة مـن أسـاتذة جامعـة نيويـورك. كان حـدث اليـوم بالتّأكيـد محـطّ أنظـار الكثيريـن. مـن الجهـة الأخـرى مـن السّـاحة، لمحـت جمـوع الحضـور الذيـن جـاؤوا عـلى إثـرك ويـكادون يلحقـون بـك. كنـت تفقـد أسـبقيّتك وفرصتـك الذّهبيّـة في مخاطبـة الرّجـل. تنقـل بـصرك بـين الـرّواق

والسّاحة. ترى فلو وهالدان، يتصافحان، ويلتقط لهما آخرون صورا تذكارية.. بينما ترتفع ضوضاء أقدام تسارع إلى نفس وجهتك. كان عليك أن تتجاهل الآداب واللّياقة، لتقحم نفسك في الحلقة الضيّقة وتطرح السّؤال الذي بات يقضّ مضجعك قبل فوات الأوان:

- سير فلو، هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

التفتت إليك أعين كثيرة، وتوقّف اللّغط فجأة لمقاطعتك الفجّة. لكنّ العجوز الثمانينيّ ابتسم ولم يبد انزعاجا من وقاحتك، بل قال مداعبا:

- أرجو ألّا تكون هناك حياة بعد الموت!

ثمّ أردف موضّحا:

- إنّ الإله الذي أومن به، رغم أنه مطلق الحكمة والعلم، كلي الإرادة والقدرة، وقد صمّم هذا الكون في مرحلة ما، ضمن خطة فائقة القوّة، إلا أنه على خلاف إله اليهود والمسيحيّين وحتّى المسلمين -الإله الإبراهيمي بصفاته في الأديان الثلاثة- ليس مهتما بشأن المعتقدات البشريّة أو السّلوك البشريّ، فهو في النهاية ليس «إلها شخصيّا»!

كانت تلك الكلمات القليلة التي نجحت في اقتناصها، قبل أن تغمرك موجة المريدين المتدافعين الذين وصلوا أخيرا، فأحاطوا بالأساتذة وقد ارتفعت أصواتهم وتداخلت.. بعضهم يلقي أسئلة لا تميّزها أذن، والبعض الآخر يطلب صورة مع متناظر أو آخر.. ممّا حدا بالمنظمين إلى استدعاء أمن الجامعة لمرافقة الضّيوف إلى سيّاراتهم.

-٢-

عدت إلى غرفة الفندق، مرتبك الحواسّ.

ها أنّك قد جئت، وقابلت الرّجل. فهل انقشع الغمام أم ازداد تلبّده؟

جلست على حافّة السّرير، مذهولا، مهزوما. ولبثت دهرا، لا تعلم أين تكون. هذه ضربة أخرى تطيح بالبناء الذي لبثت تشيّده سنوات، ترمّم ذاتك وتصنع صرحا جديدا، للملحد المثاليّ الذي تريد أن تكونه. أمّا الآن، فأنت في ضياع من نوع آخر. هل تصدّق الرّجل الذي قطعت نصف الكرة الأرضيّة لتراه؟ أم تصدّق من يقولون بخرفه نهاية عمره وخوفه ممّا بعد الموت؟!

بينما تتردّد نظراتك التّائهة في فضاء الغرفة، وقعت عيناك على كتاب مهمل على المنضدة، بغلاف جلديّ أنيق ذي حروف ذهبيّة. كان نسخة من الإنجيل! لا تدري كيف امتدّت كفّك لتقبض على شيء كان موقفك منه طيلة حياتك الرّفض! كنت فيما مضى من أمرك تنفر من ذكر الإنجيل، والتّوراة لما ورد في الصّحيحين من نهي الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) عن الانتفاع بكتب أهل الكتاب التي طالها التّحريف والاكتفاء بالقرآن.. وحين كفرت بالإسلام، كفرت بالدّيانات كلّها، فما عادت بك حاجة للبحث في كتبها! لكنّ هذا قد صار ديدنك لا محالة، فقد غدا يستهويك أن تمعن في كلّ ما رفضته في حياتك السّابقة.

أمسكت الكتاب بين يديك، بلا إثارة ولا توقّعات. تشغل نفسك بالقراءة فقط لتسدّ فراغ روحك وتُوقف عقلك اللّجوج عن اجترار

أفكار مدمّرة. أمضيت تلك اللّيلة، واللّيالي التي تلت من إقامتك في نيويورك، وأنت تقرأ، تلتهم السّطور بدون اهتمام أو حسّ نقديّ، كأنّما تطالع رواية أو جريدة على سبيل التّسلية. لم تكن تحاول أن تفهم أو تقتنع. حتّى وقفت أمام نصّ من إنجيل متّى، ورد ضمن «موعظة الجبل» للمسيح عليه السلام، كرّرت تلاوته مرّات، مستشعرا كلماته بشكل خاص:

«وَعِنْدَمَا تُصَلُّونَ، لاَ تَكُونُوا مِثْلَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا وَاقِفِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ لِيَرَاهُمُ النَّاسُ. الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ نَالُوا مُكَافَأَتَهُمْ. أَمَّا أَنْتَ، فَعِنْدَمَا تُصَلِّي، فَادْخُلْ غُرْفَتَكَ، وَأَغْلِقِ الْبَابَ عَلَيْكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ...».

توقّفت متأمّلا في الكلمات. تلك المعاني كانت مناقضة تماما لما تعوّدت عليه في الإسلام. الصّلاة جهرا جماعة في المساجد.. أمّا هذه فهي صلاة فرديّة في خلوة غرفة، مثل غرفة فندقك هذه! لعلّ طبيعة الصّلاة تختلف في التّشريعين الإسلاميّ والمسيحيّ، لكنّك شعرت بشكل غريب بأنّ الكلمات تخاطبك. لقد صلّيت طيلة عقود مرائيا -ليس لأنّ صلاة الجماعة رياء مطلقا، بل لأنّ قلبك كان مفتونا- ووقفت تخطب معتزّا مباهيا، وعظت ونصحت ورفعت صوتك في النّاس، فما وجدت إلّا نظرات إعجاب تزيدك غرورا. ابتلعت غصّة، وواصلت القراءة:

«فَصَلُّوا أَنْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلاَةِ: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ! لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ! لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي السَّمَاءِ! خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ! وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا! وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ...».

شرعت في البكاء فجأة.

كنت تقرأ ما عرفت فيما بعد أنّه الصّلاة «الرّبيّة»، الصلاة الأشهر

عنـد المسـيحيّين، كونهـا معتمـدة في كلّ كنائـس العالـم، الكاثوليكيّـة والأرثوذوكسـيّة والبروتسـتانتية. وقـد أعجبـت ببلاغـة النـصّ بشـكل غريـب. ليـس أنّـك لـم تقـرأ في بلاغتـه في القـرآن، لكنّـه فاجـأك عـلى حـين غـرّة، ودفاعاتـك متضعضعـة في أسـوأ حالاتهـا. كنـت وحيـدا في غرفـة الفنـدق، منقطعـا عـن العالـم منـذ أيّـام، ورغبتـك في مناجـاة صادقـة تنخـر داخلـك. تلـك الرّغبـة الـتي صددتهـا وقاومتهـا بمنتهـى إرادتـك منـذ حادثـة ريـم، تتدفّـق الآن بـلا اسـتئذان.. وهـذا النـصّ الـذي بـين يديـك هـو الصّـلاة الوحيـدة الـتي تقـدر عليهـا، بعـد أن هجـرت القـرآن والصّـلاة منـذ سـنتين.

«ولا تدخلنـا في تجربـة لكـن نجّنـا مـن الشّريـر».. تتـأوّه وأنـت تكـرّر الكلمـات. أنـت تنصهـر الآن في أتـون التّجربـة الـتي تـأبى الانتهـاء، وقـد استسـلمت تمامـا للشّريـر! تسـترجع كلمـات أيّـوب ذات ليلـة جمعتكمـا في شـقّتك، حـين وقفـت مدافعـا تتكلّـم عـلى لسـان الشّـيطان! تنهـار عـلى الأرض تخنقـك العـبرة.

خـلال الأيّـام التّاليـة، تابعـت القـراءة في فصـول تلـك الموعظـة البليغـة، وقـد رق قلبـك بشـكل لـم تعهـده منـذ زمـن بعيـد. كنـت تسـمع صوتـا في ثنايـا عقلـك يـصرخ: (ألا تنبـع تلـك الكلمـات والقـرآن، من مشـكاة واحـدة؟). ثـم قـرأت كلمـات اقتحمـت أسـوار مقاومتـك:

«اِسْـأَلُوا تُعْطَـوْا. اُطْلُبُـوا تَجِـدُوا. اِقْرَعُـوا يُفْتَـحْ لَكُـمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْـأَلُ يَأْخُـذُ، وَمَـنْ يَطْلُـبُ يَجِـدُ، وَمَـنْ يَقْـرَعُ يُفْتَـحُ لَـهُ. أَمْ أَيُّ إِنْسَـانٍ مِنْكُـمْ إِذَا سَـأَلَهُ ابْنُـهُ خُـبْزاً، يُعْطِيـهِ حَجَـراً؟ وَإِنْ سَـأَلَهُ سَـمَكَةً، يُعْطِيـهِ حَيَّـةً؟ فَـإِنْ كُنْتُـمْ وَأَنْتُـمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُـونَ أَنْ تُعْطُـوا أَوْلَادَكُـمْ عَطَايَـا جَيِّـدَةً، فَكَـمْ بِالْحَـرِيِّ أَبُوكُـمُ الَّـذِي فِي السَّـمَاوَاتِ، يَهَـبُ خَـيْرَاتٍ لِلَّذِيـنَ يَسْـأَلُونَهُ».

في تلـك الليلـة، خـررت راكعـا عـلى ركبتيـك، ثـمّ سـجدت طويـلا.

وخاطبت الله بحرارة -كما فعلت لاشعوريا يوم حادثة ريم- وسألته أن يهدي قلبك.

رجعت إلى باريس، بخفي حنين.. أو أقل؟ ما تنفكّ في كلّ سفرة تترك بعضك وراءك وتخفّف من حمل ذاتك. كيانك يتآكل ويتلاشى، وأنت لا تدري إلى أين المنتهى! ما الذي ستفقده بعد؟ كفرت بإيمانك، ثمّ شككت في إلحادك. ما تكون بعد هذا وأنت لا مؤمن ولا ملحد؟

كانت تأتيك، كلّ عام قبيل شهر رمضان، وثيقة «زيارة» من والديك، لتتقدّم بطلب التأشيرة لدى القنصليّة السّعودية وتقضي معهم جزءًا من الشّهر الكريم. لكنّك كنت قد اعتذرت السّنة الماضية، بعد ما ألمّ بك من تغيّرات، فلم تقو على مواجهة نظرات والديك الفاحصة.

وصلت الدّعوة تلك المرّة قبل أوانها، في مطلع شهر يونيو. كانت أشهر أربعة تفصلك بعد عن شهر الصّيام، لكنّ عائلتك التي غبت عنها لسنة ونصف تتعجّل حضورك. راودتك نفسك بأن ترفض. التبدّل الذي تعيشه واضح للعيان. لهجتك وفحوى كلماتك لا ريب قد زرعت بذرة الشكّ، ووالدك يريد أن يعاين رؤيةً حقيقة أمرك. رفضك لن يزيد الطّين إلّا بلّة. قد تجده أمامك خلال أيّام؛ وقد وصل يتحرّى المسألة بنفسه.

ظللت تتقلّب على جمر التردّد لأيّام ولا تستقرّ على رأي، حتّى فوجئت بحاتم يترصّدك عند بوابة المستشفى ذات يوم. كان قد تلقّى اتّصالا من والدك، يحرّضه على إقناعك بالمجيء. كان حاتم يشعر بالحرج، وهو يحاول رتق ما تمزّق بينكما من نسيج الصّداقة. لم تكن قد قابلت أحدا من رفاق الماضي خلال الشّهور الستّة الأخيرة. ولم يكن أحدهم يعلم بما حلّ بريم. كلّهم يعرفون عن

علاقتك بها، بعد أن لمحك أيّوب مرّات برفقتها.. والخبر سيصل منه لا محالة إلى مجالسهم.

لقاؤك بحاتم جاء في وقت حرج، كنت خلاله في أضعف حالاتك. كانت نفسيّتك هشّة في الفترة الأخيرة. بعد عودتك من نيويورك، لبثت تزور ريم في غيبوبتها بشكل يوميّ، تسكب الدّمع وتناجي جسدها المسجّى، الأبيض كالشّمع. رجعت إلى خلواتك الطّويلة وأفكارك السّوداويّة. كنت تحتاج كتفا تستند إليها، وحاتم كان كتفا محتملة في وقت مضى. لكنّه يقف أمامك الآن مثل غريب محرَج، محمّل برسالة من الأهل، وراء البحار.

- يا أخي، افعل ما تشاء بنفسك.. لكن لا تقطع أهلك وتشغلهم بأمرك!

رمقته طويلا، بنظرة منكسرة. ثمّ هززت رأسك تجاريه.

- لماذا لا تذهب للعمرة؟ تتذكر أحوال الماضي.. ولعلّ الله يشرح صدرك مرّة أخرى، وتزول هذه الشّبهات؟

رمقته في إشفاق. هذا حاتم يحاول أن يسترجع مالكا الذي كان يرافقه فيما مضى في رحلة العمرة كلّ عام، في العشر الأواخر من رمضان! لخمسة أعوام متتالية، لم تفوّتا هذا الأمر. لكنّك تخلّفت السّنة الماضية، ولا تنوي أن تعدل عن قرارك هذه السّنة أيضا. سارة أيضا.. كانت ترافق عائلتها إلى العمرة كلّ عام.. في رمضان أحيانا، وفي مختلف أوقات السّنة. لكنّكما لم تعتمرا معا في الوقت ذاته أبدا. ما تفتأ تذكرها مؤخّرا، وكأنّ كلّ حديث يخصّها بشكل أو بآخر.

رغم حيرتك في أمرك وانهيار سدّ الإلحاد الذي كان يوقف مدّ تساؤلاتك الوجوديّة، فإنك لم تكن مستعدّا للتّراجع. نظرت إليه في تهكّم وقلت:

- ما جدوى أن يخصّص الله بيتا معيّنا في الأرض؟ ثمّ ما معنى الطّواف سبعا والسّعي سبعا؟ لماذا ليست خمسا؟ أو مرّة واحدة؟ ثمّ ألم يكن الحجّ موجودا منذ الجاهليّة، وطقوسه تمارس قبل الإسلام من قبل المشركين، وقد كان لبني عبد مناف السّقاية والرّفادة؟!

- ...

- أليست تلك الطقوس صناعة بشرية قديمة ألبست ثوب الدين، والغرض منها أصلا التربّح والتجارة؟

- ...

- ما معنى الطواف حول حجارة، وتقبيل حجر، ورمي حجر بحجارة؟

- ...

- ما هو المغزى من الذبح للهدي؟ ولماذا قد يحبّ الإله الخالق التقرّب إليه دوما بسفك دماء؟

- ...

- ألا ترى يا حاتم أنها طقوس وثنية صرفة أخذت طابع شعائر مقدسة؟

- ...

هزّ رأسه في قلّة حيلة ورفع كفيه في استسلام واستدار مبتعدا.

ظننت الأمر سينتهي عند ذلك الحدّ، لكنّك فوجئت به بعد يومين يقف في الموقع نفسه وبين يديه ظرف عليه علامة الخطوط الجويّة السّعودية. قال في تحدّ:

- هذه تذكرة باسمك إلى جدّة. إن شئت سافرت، وإن شئت رميتها إلى القمامة.

وضـع الظّـرف بـين راحتيـك ومـضى، تـاركا إيّـاك مشـدوها، لا تـدري مـا تصنـع.

بعــد تــردّد ليومــين آخريــن، قصــدت القنصليّــة وتقدّمــت بطلــب التأشـيرة. لـم يكـن بإمكانـك الانتظـار أكـثر، وتاريـخ التذكـرة بعـد عـشرة أيّـام فقـط. أقنعـت نفسـك، لـم تكـن بحاجـة إلى تلـك السّـفرة. لكنّهـا رحلـة أخـرى، ترجـو أن ترجـع منهـا بقناعـة مـا، بطمأنينـة مـا. ولعلّـك اسـتحييت مـن إهـدار الثمـن الـذي دفعـه حاتـم لقاءهـا متطوّعـا.

وأنـت تعـبر صالـة الإقـلاع، فوجئـت بحاتـم يقـف قبالتـك. لـم تكـن دهشـته تقـلّ عـن دهشـتك. كان قـد حجـز لنفسـه عـلى الطّائـرة نفسـها. ورغـم كلّ شيء، لـم يكـن واثقـا مـن مجيئـك. كان مسـتعدّا لخسـارة ثمـن الرّحلـة، في سـبيل المحاولـة. اكتفـى بالتحيّـة وتربيـت حـارّ عـلى الكتـف، ثـمّ انتقـل كلّ منكمـا إلى مقعـده. كنـت ممتعضـا رغـم انصياعـك. اقتنـاؤه للتذاكـر عـلى حسـابه الخـاصّ، وإلحـاح والدتـك عـلى الهاتـف، شـكّلا نوعـا مـن الضغـط لـم تسـتطع مقاومتـه طويـلا. وقـد كان يغلـب عليـك التجهّـم خـلال الرّحلـة كلّهـا.

حـين أفضيتمـا إلى صالـة الجمـارك، فوجئـت بـه يشـدّ ذراعـك ويقـول في حماسـة:

- اتّصلـت بالأهـل وأعلمتهـم بتأخّرنـا يومـين إضافيـين.. سـنذهب إلى العمـرة أوّلا!

لـمْ تصـدّق مـا فعلـه، وتدخّلـه السّـافر في شـؤونك. لكنّـك لـم تملـك إلّا الانقيـاد -مـرّة أخـرى- لتعليماتـه. إن كان قـد أعلـم والـدك بذهابـك للعمـرة، فـلا مـبرّر لوصولـك في اليـوم نفسـه دون إثـارة تسـاؤلات واستفسـارات أنـت في غـنى عنهـا. مـا هـي إلّا ليلتـان، وهـذا أمـر مقـدور عليـه.

ثـمّ، كان قـد سـاورك الفضـول لاستكشـاف أحـوال قلبـك. هـل تـراه أصبـح أصـمّ، منيعـا أمـام العاطفـة الدّينيّـة؟ أم تـراه يتأثّـر ويستشـعر رهبـة لقدسيّة المـكان؟ ومـا بـكاؤك أثنـاء قـراءة الصـلاة الربيّـة و«موعظـة الجبـل» في الإنجيـل مـن ذاكرتـك ببعيـد.

ركبتمـا سـيّارة الأجـرة مـن مطـار جـدّة، لتصـلا بعـد سـاعة ونصـف أمـام الفنـدق الواقـع قبالـة الحـرم مبـاشرة. كان حاتـم قـد حجـز غرفتـين لكمـا، للمـرّة الأولى. كنتمـا تتشـاركان الغرفـة في المـرّات السّـابقة، لكنّـه قـدّر حاجتـك إلى بعـض الخصوصيّـة، وقـد تباعـدت بينكمـا المسـافات خـلال السّـنة الماضيـة. كان حاتـم قـد أحـرم اسـتعدادا للعمـرة.. لكنّـك امتنعـت. لـن تفعـل شـيئا لسـت مقتنعـا بـه. أنـت هنـاك بنـاء عـلى رغبتـه هـو، لا رغبتـك الخاصّـة. لذلـك لـن تفعـل شـيئا سـوى التأمّـل والتفكّـر.

مـرّ عليـك في موعـد خروجـه للـشّروع في الشّـعائر، فخرجـت برفقتـه. راقبتـه وهـو يرفـع كفّيـه بالدّعـاء حين مـرأى الكعبـة، وهو يشـير إلى الحجر الأسـود، ينـدسّ في زحـام الطائفـين وشـفتاه تتمتمـان بمـا تيـسّر مـن ذكـر ودعـاء وتـلاوة.. أشـياء كنت تشـاركه في ممارسـتها قديمـا بالتّفاصيـل ذاتها.. وراقبـك هـو خفيـة، يترصّـد اختلاجـات وجهـك ويبحـث في قسـماتك عمّـا يفضـح مكنونـات صـدرك. لكنّـك لبثـت صخـرا أصـمّ لا يتأثّـر.

بعـد الفـراغ مـن السّـعي، عدتمـا للجلـوس في صحـن المسـجد الحـرام، تفصلكمـا عـن الكعبـة أمتـار قليلـة. والنّـاس مـن حولكمـا بـين سـاجد وقائـم، ومسـبّح وتـالٍ للقـرآن. التفـتّ إلى حاتـم، وقـد سرحـت نظراتـه تجـاه الكعبـة، وقلـت بـبرود:

- حاتم.. ما رأيك في الصّلاة الرّبيّة؟

اتّسعت عيناه ذهولا، وهتف في حدّة:

- اسمع.. اترك هذيانك لما بعد.. نحن في الحرم!

ثـمّ أشـاح عنـك في وجـوم. لكنّـك كنـت مـصرّا عـلى إغاظتـه، بعـد المقلـب الـذي عرّضـك إليـه بإحضـارك إلى الحـرم عنـوة، فرفعـت يديـك كمـن يهـمّ بالدّعـاء، وبـدأت تتلـو بصـوت بـين الـسرّ والجهـر، مـن بـاب «ولا تجهـر بصلاتـك ولا تخافـت بهـا، وابتـغ بـين ذلـك سـبيلا»:

- أبانا الذي في السّماوات.. ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك...

تابعـت الصـلاة، وأنـت تختلـس النّظـرات المتشـفّية إلى وجهـه الممتقـع غضبـا وحرجـا.. فقـد شرع النّـاس القريبـون مـن مجلسـكم يلتفتـون، وينصتـون لمـا تقـول، والبعـض يتهامـس ويشـير في تسـاؤل وعجـب. كان حاتـم في أزمـة حقيقيّـة، وقـد سـاوره الشـكّ بأنّـك قـد جننـت قـولا وفعـلا. لـم يحتمـل أن يطـول المشـهد أكـثر مـن ذلـك. هـبّ واقفـا، وأحكـم قبضتيـه عـلى كتفيـك يهـزّك بعنـف، كأنّمـا يحـاول إيقاظـك مـن اسـتغراقك، وقـال بخـوف حقيقـي:

- إن لم تتوقّف، ستتسبّب في حبسنا، أيّها المجنون!

عندئـذ أوقفـت التّـلاوة، ولـم تتمالـك نفسـك أن غرقـت في نوبـة ضحـك متواصـل. استسـلمت لذراعيـه وهـو يجـرّك ويهـرول عـبر أروقـة الحـرم، قبـل أن يحـدث مـا لا تحمـد عقبـاه. كان يمـشي متلفّتـا في ذعـر، معرضـا عـن عيـون المتفرّجـين.

عدتمـا إلى الفنـدق، وحاتـم يخاصمـك ولا يخاطبـك بكلمـة. بينمـا لـم تكـن تخفـي اسـتمتاعك بمزحتـك الثقيلـة. كنـت تضحـك في هسـتيريا، وتغالـب بالسّـخرية الخيبـة.

لـم تجـد في نفسـك إلّا الخـواء، ولا في روحـك إلا الفـراغ. لـم يتحـرّك فيـك شيء.

أمضيـت أسـبوعا في الرّيـاض، إلى جـوار أهلـك، وكأنّـك غريـب بـين غربـاء. كان عليـك أن تمثّـل وتنافـق. تطيـل الاغتسـال عنـد الفجـر،

فتتأخّر حتّى يخرج والدك. وتوهم والدتك الحريصة بأنّك صلّيت في غرفتك! وحين لا تجد مفرّا، تخرج مع والدك إلى الصّلاة في المسجد القريب. تجلس بين المصلّين، وتحرّك شفتيك متمتما بكلمات لا معنى لها، أو محدّقا في ظهر الواقف أمامك. وحين ينصرف والدك متعجّلا لصلاة العشاء، تغادر متظاهرا باتّباعه، ثمّ تشرد إلى المقاهي البعيدة حيث لا يصادفك أحد من معارف الأهل!

كان سوء أحوال قلبك جليّا للعيان. لكنّك تنكر وتتعلّل بتأثير حادثة صديقتك الجديدة. فتعبس والدتك ولا تعلّق. لم تكن قطّ راضية عن انفصالك عن سارة، ولم تكن قد تقبّلت مواصفات ريم على الإطلاق. في حين يقول والدك بجدّيّة:

- هل فكّرت في العرض الذي اقترحته؟ يمكنك المجيء إلى الرّياض لإنهاء تخصّصك.. تحدّثت إلى عميد كلّيّة الطبّ في جامعة الملك سعود، وقد أكّد لي أنّ ملفّك الشخصيّ يهمّهم كثيرا...

تومئ مرّة وأخرى وتقول ما لا تعنيه:

- سأفكر في الأمر، إن شاء الله.

الفصل التاسع

- رحيل -

-١-

لـو أنّ أحـدا مـا تنبّـأ لـك منـذ سـتّة أشـهر أنّـك سـتعبر العالـم مـن شرقـه إلى غربـه خـلال أربعـة أشـهر لا أكـثر، لمـا صدّقـت! لكـنّ السّـفرات، التّلقائيّـة وتلـك المخطّـط لهـا منـذ أمـد، تتسـاقط عـلى رأسـك تباعـا، وتقـودك رغـم أنفـك إلى مـشروع «رحّالـة» معتمـد!

كنـت قـد عـدت مـن رحلتـك إلى الرّيـاض، منهـكا، مـرّة أخـرى، وقـد غـدا الإنهـاك حالـك الطّبيعيـة الـتي لا تـكاد تفارقهـا. أنـت منهـك مـن سـاعات العمـل والبحـث، ومنهـك مـن التّأمّـل الأسـود قبالـة سريـر ريـم، ومنهـك مـن قلـق والدتـك المزمـن، وقـد تبـيّن مشروعـا ولهـا كلّ الحـقّ فيـه، بعـد أن رأت بعينيهـا مـا صرتَ عليـه مـن إنهـاك!

كنـت قـد نسـيت أمـر إجازتـك، بعـد حادثـة ريـم، حـتّى وصلتـك رسـالة إلكترونيّـة ذات يـوم، مـن وكالـة أسـفار مـا، تحمـل اسـم «ماجـلان للأسـفار والرّحـلات».

«السّيد المحترم مالك الشّريف،

سـمحنا لأنفسـنا بالاتّصـال بـك كشريـك في الرّحلـة الـتي حجزتهـا السّـيدة ريـم مطـاوع، نظـرا لانقطـاع اتّصالاتهـا وعـدم تجاوبهـا مـع رسـائلنا،

نذكّركـم بأنّـه مـن الـضّروريّ تسـديد مـا تبقّـى مـن كلفـة الرّحلـة قبـل أسـبوع مـن موعـد المغـادرة لتجنّـب الإلغـاء، كمـا نرجـو إحضـار جـوازات السّـفر في أقـرب أجـل إلى عنوانـنـا المذكـور أدنـاه مـن أجـل تجهـيز التأشـيرات في الوقـت المناسـب».

دون تفكير، رقنت الردّ بشكل سريع:

«شكرا لتواصلكم. نرجو إلغاء الرّحلة».

حدّقت في الرّسالة لبرهة، ثمّ حفظتها في المسودّات وغادرت الشّقة.

صباح الغد، رنّ هاتفك بتنبيه سبقت برمجته من طرف ريم نفسها! وقفت تطالع شاشة الهاتف في صدمة، ثمّ أخذت تلتهم كلمات الرّسالة المصاحبة في لهفة.. لقد تركت لك شيئا منها! أتذكر حين أخذت هاتفك منك على رصيف السّين.. لقد وضعت التّنبيه ذلك اليوم!

تستحضر أمام عينيك شفتيها تتلوان النّصّ بأسلوبها الحلو المترنّح بين الرّصانة والخفّة، بينما تسيل عبراتك على وجنتيك:

«عزيزي مالك، أنت تنتظر هذا اليوم، أليس كذلك؟

احزم أمتعتك وانتظرني في قاعة الرّحيل! موعدنا بعد أسبوع من الآن!

سأحتفظ لنفسي بمخطّط الرّحلة، وسأحتفظ لك بنكهة المفاجأة!

أسمعك تحتجّ؟ صدّقني، المتعة الأكبر ستكون من نصيبك! مع أنّني نلت نصيبي من المتعة مسبقا، فلا شيء أحلى في نظري من التّخطيط لرحلتنا المشتركة!

أراك قريبا!».

زرت ريم في الغد، ووقفت تناجيها في صمت. هل يمكنك الرّحيل دونها؟ تلك الرّحلة التي تكبّدت عناء التّحضير لها، تضع المخطّطات لتفاجئك، كانت في نظرها «أحلى» من أيّ شيء فعلتماه سويّا! تتأرجح أفكارك في تلك اللّحظة في تردّد، بين أن تخذلها وتخذلها! أن تخذلها فتتجاهل الجهد الذي بذلته لتصنع شهرين من الدّهشة والسّعادة المشتركة.. وأن تخذلها فترحل دونها!

اقتربـت في تلـك اللّحظـة والدتهـا. كانـت سـبلكما تتقاطـع كثـيرا في ممـرّات المستشـفى، وعنـد سريـر الحسـناء النّائمـة. تتبـادلان كلمـات مواسـاة قليلـة، لا يجـد أحدكمـا فيهـا عـزاءً يذكـر. تجـاسرت السـيّدة الخمسـينيّة تلـك المـرّة ووقفـت إلى جـوارك. سـألتك فجـأة:

- هـل تعتقـد أنّ ريـم قـد تعـود إلينـا بعـد كلّ هـذا الوقـت الـذي مـضى؟

تلمـس الضّعـف والتيـه في كلماتهـا، وتجـد لهـا صـدى عميقـا داخلـك. أنـت طبيـب، لكنّـك تنـسى ذلـك حـين تواجـه سريـر ريـم! الطبيـب يقـول أنّ حالتهـا ميـؤوس منهـا، أنّهـا سـتبقى مسـجّاة بـلا حـراك، حـتّى تتّخـذ عائلتهـا قـرارا أليمـا بوقـف الآلات الـتي تمنحهـا نبضـا ونفسـا. قـد يسـتمرّ ذلـك شـهورا، أو سـنوات، اعتمـادا عـلى طـول أملهـم وإيمانهـم! لكـنّ مالـكا الصّديـق، مالـكا العاشـق، يسـتجدي أمـلا وإيمانـا خـلا منهمـا وجدانـه، ليترقّـب معجـزة ويعتقـد في حيـاة أخـرى ممكنـة!

- عليـك أن تعـود إلى حياتـك يـا ولـدي. لـو أنّ ريـم تسـتيقظ الآن، فلـن يؤلمهـا أكـثر مـن توقّـف حيـاة أحبابهـا مـن بعدهـا! الحيـاة يجـب أن تسـتمرّ.. فـإذا مـا فتحـت عينيهـا يومـا، كان لدينـا الكثـير لنحكيـه عمّـا فاتهـا!

في تلـك اللّحظـة، اتّخـذت قـرارك. سـوف تهـدي ريـم حيـاة أخـرى، مـن خـلال عينيـك. سـوف تكـون في جعبتـك حكايـات كثـيرة، عـن مفاجآتهـا الـتي لـم تضـع سـدى، وعـن ذكريـات مشـتركة، تخيّلتهـا هـي، وعشـتها أنـت!

حـين وصلـت إلى شـقّتك، فتحـت الحاسـب الآليّ في تصميـم. مسـحت الرّسـالة السّـابقة وكتبـت أخـرى:

«أعتـذر عـن الـردّ المتأخّـر نظـرا لظـروف ريـم الصحيّـة. للأسـف

يتعـذر عليها القيام بالرّحلـة، لذلـك سـأكون المسـافر الوحيـد. أوافيكـم في الغـد لتسـديد المبلـغ المتبقـي. أرجـو ألا يكـون الوقـت قـد تأخّـر بالنّسـبة إلى التّأشـيرات».

-٢-

حين حطّت الطائرة في دلهي، كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساءً. تفقّدت مسار الرّحلة التي أعدّتها ريم. أغرا، دلهي، ثمّ كيرلا. تلك محطّاتك الهندية التي تسلّمتها من وكالة الأسفار نيابة عن ريم مع نسخة من حجوزات الفنادق ووسائل التّنقل الدّاخلية. أمامك أسبوعان لتغطّي تلك البقاع الثلاث، وحيدا بدون ريم.

كانت رحلتك قد تأجّلت لثلاثة أيّام، للانتهاء من معاملات التأشيرات الخاصة بكلّ من الهند وجمهورية الصين الشّعبيّة. لم تكن في حاجة إلى تأشيرة لدخول كلّ من إندونيسيا وتركيا بجوازك الفرنسيّ.

بعد أن استلمت حقيبتك، خرجت إلى بهو المطار. تفحّصت اللّافتات المتزاحمة عند المدخل، تحمل أسماء الزوّار المتوقّع وصولهم، حتّى قرأت اسمك واسم ريم على أحدها. اقتربت من الرّجل الأسمر المبتسم، حيّاك بحفاوة ثمّ تطلّع خلفك في اهتمام، ليطرح سؤالا سيتكرّر كثيرا على مسامعك على امتداد الرّحلة:

- ألم يكن من المفترض وصول شخصين؟

ستهزّ رأسك في كلّ مرّة وتشرح معتذرا تخلّف رفيقتك لـ«ظروف صحيّة»، وأنت تصارع وخزة شديدة في صدرك. لم تكن وكالة الأسفار قد عدّلت ملفّ الرّحلة بعد التغيير الطارئ في اللحظة الأخيرة، نظرا لضيق الوقت.

حين استقرّ بك الأمر في السيّارة التي ستقلّك إلى أغرا، استدار السّائق وهو يقدّم إليك ظرفا عليه علامة وكالة الأسفار المحليّة، وأضاف بنفس الابتسامة التي لا تفتر:

- هذا برنامج الرّحلة التّفصيلي.

فتحت الظرف وتصفّحت الكتيّب المنسّق الذي يعرض محطّات السّفر. طالعت الصّور، والوصف المختصر لكلّ معلم أثريّ. تاج محل، قلعة أغرا، فاتحبور سكري، قطب مينار.. مررت على بقيّة الصّفحات بسرعة. لم تعد تقرأ. المزيد من القلاع والقصور والمتاحف والمساجد والمعابد. لديك أسبوع من الفرجة على المباني بين أغرا ودلهي! يا للهول! أصابك اختناق مفاجئ. ما هكذا حسبت إجازتك ستكون!

التفت السّائق ليلقي نظرة عابرة على الكتيّب بين يديك، وقال محاولا أن يجاذبك أطراف الحديث:

- رحلة إلى الهند لا تكتمل إلّا بزيارة تاج محل!

هززت رأسك ببطء، دون أن توافقه حقّا. «رحلة إلى فرنسا لا تكتمل دون زيارة برج إيفل»، و«رحلة إلى مصر لا تكتمل دون زيارة الأهرامات».. تلك القوالب المتعارف عليها للسّفر، لا تغريك الآن على الإطلاق. لقد وقعت ريم في فخّ التيّار السّائد، وأغرقتك بالمباني والمزيد من المباني! لعلّ ذلك كان ليروي شغفها بالهندسة والمعمار.. ولعلّ شيئا من ذلك كان ليمتعك في وقت مضى. لكنّك الآن تبحث عن تجربة مختلفة. تفتّش عن ذاتك الضّائعة، وهذا لا يساعد.

جاء الجزء الثاني من الرّحلة ليخفّف صدمتك. كيرلا مقاطعة خضراء، مطلّة على البحر. ستتنقّل خلال الأسبوع الثاني بين الجبال والأنهار وحقول الشاي. هذا أفضل.

حين وصلت إلى أغرا، كانت السّماء مظلمة تماما. أربع ساعات هي مدّة السّفر بين دلهي ومدينة التّاج. ولم تكن الظّلمة من نصيب السّماء وحدها. الطريق كذلك حالكة والرّؤية شبه منعدمة.

كنت قد غفوت لساعتين، وأيقظتك مراوغات السّائق المفاجئة على مشارف المدينة. في ذلك الليل البهيم، كانت الأبقار الشّاردة تخرج من حيث لا تدري، لتعبر الشّوارع بمشيتها الوئيدة، ثمّ تتوقّف لتطالع السّائقين بنظرات بليدة متحدّية، قبل أن تستأنف مسارها إلى الضفّة المقابلة.

أمضيت أسوأ ساعة في عمر رحلاتك على الطّريق منذ عرفت آلة تسمّى سيّارة. كانت أسوأ من الطريق المتعرّجة عبر شعاب مكة بعد عشر ساعات من القيادة انطلاقا من الرياض، وأسوأ من الطريق الصّاعدة في اتجاه منتجعات الألب الثلجية المحفوفة بالمنحدرات الزلقة. حتّى وصلت أخيرا، سليما معافى، إلى فندقك. أذهلك برود سائقك وثباته، رغم المفاجآت المتكرّرة والمطبّات المفزعة. أبقار مقدّسة؟ يا للسخافة! لقد مررت بمراحل الكفر كافّتها، وعبثت في عقلك بكلّ مقدّس، لتأتي الأبقار وتعبث بحياتك؟

ابتسمت في سخرية، وموظّف الاستقبال يسألك مجاملا إن «كنت قد أمضيت رحلة جيّدة»! فكّرت، هل كان يمكن أن تكون أسوأ؟ رغم كلّ شيء، غرقت في نوم هادئ وعميق تلك اللّيلة. حين استيقظت صباحا، كنت قد أضمرت نيّة تمرّد. لن تمضي أسبوعا تتفرّج وحيدا على المباني! ربّما لو كانت ريم هنا، لفعلت. إكراما لها. لكنّك الآن وحيد ومرهق العقل، ولا طاقة لك لدروس التّاريخ والمعمار! فكّرت، حين تستيقظ من سباتها الطّويل، ستفاجئها بدورك، بذكريات صنعتها أنت وفاتها هي أن تتخيّلها!

تذكّرت محادثة في وقت سابق مع زميل عمل هنديّ الأصل. كنت آنذاك قد اتّفقت مع ريم على تنظيم رحلتكما، وجئت على ذكر زيارتك المرتقبة للهند أمام «راجو»، قال حينئذ بعفويّة:

- إن فكّرت بزيارة فاراناسي، يسّرني المساعدة.. عائلتي تقيم هناك، ويمكنني أن أنظّم استقبالك وزيارتك.

قاطعه آنذاك زميل آخر بامتعاض كان يصغي لمحادثتكما:

- مع كلّ احترامي لعائلتك راجو، ما المغري في زيارة «مدينة الموت» تلك؟ لا أظنّ أنّ شخصا سويّا سيفعل!

شكرته حينها واعتذرت. كانت رفيقتك الموكّلة بتنظيم الرّحلة.

مدينة الموت. كان ذلك مناسبا لمزاجك الحاليّ! تلك الفكرة التي بدت مضحكة وربّما مقرفة منذ شهور، تروقك بشدّة الآن. قصدت مكتب الاستقبال واستفسرت عن سبل الوصول إلى فاراناسي. شرح الموظّف الخيارات المطروحة: السيّارة، القطار، الطّائرة. بدا القطار أفضل الوسائل المتاحة، من حيث الكلفة والوقت. هناك رحلة مسائية. وافقت على الفور، فليقتن تذكرة من أجلك.

عدت إلى الغرفة وراسلت راجو: هل ما زال العرض ساريا؟ تحتاج دليلا عند وصولك إلى مدينته. ماذا بعد ذلك؟ أمامك يوم تقضيه في أغرا، وسائق ينتظرك في مواقف الفندق. تاج محل؟ لا بأس بذلك.

ركبت «التكتك» -وهي دراجة ناريّة ذات عجلات ثلاث، صمّم فوقها صندوق مغطّى لاستضافة راكبين أو أكثر بالإضافة إلى السّائق، تستعمل غالبا للتنقل داخل الفضاءات التي لا تسمح بمرور السيّارات العاديّة- لتقطع المسافة الفاصلة بين الشّارع الرّئيسي ومدخل الحديقة التي تحيط بالمعلم، لتجد دليلك السّياحيّ بانتظارك عند المدخل. خطوت وراءه باتّجاه الممشى العريض الذي يتربع في نهايته «قصر التّاج». تجيل بصرك بين الحديقة الخلّابة والبناء الرّخامي الأبيض، مستسلما لشروحات الدّليل بإنجليزيّة مهشّمة.

«كان القصر الذي بناه الإمبراطور المغولي المسلم شاه جاهان

يعتبر درّة الهندسة المغولية، في مزيج بديع بين الهندسة الإسلاميّة والإيرانيّة والعثمانيّة والهنديّة. وقد تمّ تشييده ليكون ضريح زوجته «ممتاز محل» التي توفّيت أثناء وضعها طفلهما الرّابع عشر...».

توقّفت عن الاستماع عند ذلك الحدّ. لقد كان ضريحا! تتّسع عيناك في دهشة ويتعلّق بصرك بالبناء الفاره الذي تلتمع فسيفساؤه البديعة تحت أشعّة الشّمس، ثمّ تراقب في استمتاع أفواج الزّوار الذين يتزاحمون في الأروقة والممرّات. كلّ هذه الحياة.. حول قبر؟

تتتالى صور في ذاكرتك، لمشهد آخر، منذ أكثر من خمسة عشر عاما. لقد عرفت ذلك النّوع من الدّهشة حين كنت تزور شقيقتك في مدينة المنستير في تونس، حيث تدرس الصّيدلة. خرجت وإيّاها تلك المرّة تتمشيان عبر شوارع المدينة، فتوقّفت مع اقتراب أذان العصر، وقلت وأنت تشير إلى بناء جميل بنهاية ساحة واسعة:

- تعالي.. نرتاح قليلا، ثمّ نصلّي العصر هنا.

انفجرت أختك ضاحكة حينها. لم تكن القبّة الذهبيّة والمآذن النّاصعة الباسقة جزءا من مسجد ما، بل الضّريح المرتقب للزعيم الحبيب بورقيبة! لم يكن قد توفّاه الله بعد في ذلك الوقت. لكنّه عُني بتجهيز «دار آخرته» في وقت مبكّر، وضمّ إليها رفات أفراد عائلته الذين سبقه الأجل إليهم. أتذكر انفعالك تلك المرّة، وخطبتك العصماء عن الطّغاة الظالمين وعمى بصيرتهم، واستخفافهم بالموت والحساب، يظنّون البناء سيعصمهم من الله؟ (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ).

الآن، تسيطر عليك فكرة واحدة. كم كان الإمبراطور شاه جاهان وفيّا لزوجته، حتّى يكرمها بمثل هذا الصّرح العظيم! كيف خطر بباله، أن يجعل قبرها «جنّة» على الأرض؟ وتخطر ببالك ريم.. لو

أنّها ترحل أخيرا، يوما ما، ما أنت فاعل؟ هل يسعك أن تكرّمها، بطريقة ما، تخلّد ذكراها بين العالمين؟ ينتابك مزيج من الكآبة والخوف، بينما يتناهى إليك صوت الدّليل وهو يواصل شرحه عن نظام التهوية والإضاءة الطّبيعيين داخل المبنى.

ستترك أغرا وتاج محل وقد ازداد انقباضك. لم تكن قد وصلت إلى مدينة الموت بعد، لكنّ ذكره يلاحقك منذ تلك الآونة. تركت سائقك ذاهلا على الرّصيف، بعد أن اتّصلت بوكالة السّفر وألغيت حجوزات بقيّة أيام الأسبوع. أجزلت له العطاء واعتذرت عن التغيير الطارئ. كنت راضيا وأنت تولّيه ظهرك وتمضي. لقد خسرت مبلغا لا بأس به، لكنّك لن تخسر أسبوعا من عطلتك!

تركب القطار، وتتّخذ مجلسك في «عربة النوم». كانت الرّحلة مسائية تستمرّ أكثر من عشر ساعات، وقد كانت إمكانيّة النّوم في القطار مغرية. العربة عبارة عن ممرّ جانبيّ، على امتداده رصفت أسرّة قابلة للطيّ سفليّة وعلوية. تحسّست المرتبة متفقّدا. كانت قاسية. لن تكون ليلة نوم مريحة إذن. تمدّدت على سريرك العلويّ وقد توسّدت حقيبة ظهرك، وناشدت النّعاس أن يتسلّل إلى جفونك.

استقبلتك فاراناسي، في ساعة مبكّرة من الصّباح، وقد عبق الهواء برائحة الموت!

تعرف رائحة الموت. تعرف رائحة البخور المحترق في سرادقات المآتم، ورائحة المسك التي تفوح من الصّالحين وقت الغسل والبسمة تزيّن ثغورهم البيضاء، ورائحة التّراب النديّ حين يهال على الجثمان حتّى يوارى إلى الأبد. وتعرف أيضا تلك الرّائحة النفّاذة لمادة «الفورمالين».. التي تسبح في فضاء قاعات التّشريح، تلتصق بأنفك وتلازمك أيّاما تأبى الانصراف، وتعبث بمعدتك وأمعائك! لكنّ

أيّا منها لم يكن يشبه شيئا ممّا تشمّه في فاراناسي، فقط يلازمك يقين بأنّ الرّائحة الغريبة التي استقبلتك وأنت تخطو على رصيف المحطّة هي رائحة موت لا تعرفه. موت على طريقة الهندوس.

وجدت «أيوش» شقيق «راجو» في انتظارك. رغم إعلامه المتأخّر بزيارتك ووصولك عند الفجر، لم يتردّد في المجيء. كنت تستيقظ من ساعات نوم متقطّع وغير مريح على مرتبة القطار، ثيابك مكرمشة وعيناك محمرّتان وشعرك مشعّث، بينما يبدو «أيوش» في كامل أناقته، بنظرته المتألّقة وسترته المكويّة بعناية وشعره الغارق في الزيوت. استقبلك بحفاوة، مثل صديق قديم، وقادك إلى المواقف حيث سيّارته الصّغيرة. أيوش مهندس إلكترونيات، ينتمي إلى عائلة موسرة وأفرادها ذوو ثقافة عالية. اختار البقاء في فاراناسي، في حين حطّ راجو رحاله في باريس.

بينما تعبر السيّارة الشّوارع الهادئة، في تلك الآونة من اللّيل، تتألّق في البعيد كتل جمر حمراء ملتهبة، يتصاعد منها دخان كثيف. يشرح أيوش بإنجليزية ذات لكنة هندية تجاهد لتلتقط مفرداتها:

- أنت تعرف بالتّأكيد أنّ فاراناسي هي مدينة مقدّسة عند الهندوس. يتوافد مئات الأشخاص كلّ يوم.. محتضرون على فراش الموت يرغبون أن تكون آخر ساعاتهم هنا، أو جثث وافتها المنيّة، يأتي بها ذووها لتحرق على ضفاف نهر الجانجا. تلك النّار التي تراها في البعيد، إنّها محارق في الهواء الطّلق، تلتهم مئات الجثث كلّ يوم!

تسرح نظراتك عبر الدّخان وتسري في بدنك قشعريرة باردة. لقد جئت لترى الموت بأمّ عينك. ما الإجابات التي تنشدها من مشهد السّائرين إلى مثواهم الأخير؟

- أتفهّم صدمتك.. لا تقلق، هذا ليس شأنك وحدك. حتّى الهنود

القادمون من باقي أنحاء البلاد يشعرون بالصّدمة التي تعيشها أنت كأجنبيّ في مدن الهند الأخرى، حين يأتون إلى فاراناسي!

تميّز عيناك فجأة في العتمة جسد رجل شبه عارٍ، إلّا ممّا يستر عورته وعمامة على رأسه، تتقد عيونه الحمراء في الظّلام مثل القطط، وهو يتربّع في سكينة على الرّصيف الخالي. تكاد تجزم في تلك اللّحظة بأنّه كان يوجّه بصره إليك، تحدّثك عيناه في صمت، بلغة لا تفقهها. انتبه أيوش إلى نظراتك الزّائغة فقال معقّبا:

- إنّه من «الأغوري»، أكلة لحوم البشر.. لا تحاول الاقتراب منهم!

نمت بضع ساعات حتّى الصّباح، في منزل عائلة أيوش. كانت فيلا أنيقة في الجانب العصريّ من المدينة، بعيدا عن نهر الجانجا ومحارقه وروائحه الخانقة. وكانت الغرفة التي خصّصت لك أجمل من الغرف الفندقيّة. تحدّث أيوش كثيرا على مائدة الإفطار، عن تقاليد الموت عند الهندوس، وعن نشاط «السّياحة المظلمة» في السّنوات الأخيرة. لم تكن فاراناسي قبلة الهندوس الباحثين عن الارتقاء إلى السّماوات وحدهم. عشرات الآلاف من السيّاح البيض يتوافدون كلّ عام لمراقبة المحارق عن كثب. البلديّة أقامت فرنا كهربائيّا على ضفاف النهر، غير بعيد من المحارق التقليديّة، أقلّ كلفة وضررا للبيئة. لكنّ الإقبال عليه ضعيف جدّا. الاحتراق لم يكن بالنّسبة إلى الهندوس مجرّد وسيلة للخلاص من جثّة المتوفّى، بل طقسا مقدّسا، تنفق في سبيله آلاف الروبيات، ويهمّ بالأساس أن يتمّ بالطّريقة السّليمة، على يد أشخاص مؤهّلين. حين تكون الطّقوس صحيحة ودقيقة، تكون الطّريق إلى السّماء أسرع.. مثل خطّ عمودي مستقيم!

- تريد أن ترى بنفسك؟

وهل جئت لغير ذلك!

خرجتما قبيل العاشرة، تتمشيان على ضفاف الجانجا. المشهد يبدو مشابها لما ستراه لاحقا في كلّ المدن الهنديّة. مدرّجات «الغات» الحجرية تنزل حتّى المياه، وعشرات الأشخاص يغتسلون أو يغسلون ثيابهم في النهر. النقطة الفارقة هي الماء نفسه. لقد كان أسود تماما. أقذر مياه يمكن أن تقع عليها عين على سطح البسيطة. وهي مياه مقدّسة!

يقترح عليك أيوش رحلة صغيرة في قارب. ذاك أكثر نشاط سياحيّ شعبيّة في المدينة. تلمح عشرات الزوارق الطويلة والضيّقة تتهادى على سطح النهر، في مقدّمتها هنديّ يجدّف، بينما «يستمتع» سيّاح أمريكيّون أو أستراليّون بتأمّل عمليّة الحرق أو إغراق الرّفات في الماء من موقع مميّز.

- انظر.. هناك!

تنحني لتحدّق في النّقطة التي أشار إليها أيوش. على بعد أمتار قليلة، تطفو قطعة لحم متآكلة بيضاء. تميّز أصابع نحيلة في نهاية الطّرف. إنّها ذراع بشريّة لم تحترق تماما. تتقلّص ملامحك في اشمئزاز، بينما تلحظ صبيانا عند الضفّة المقابلة، يغربلون الماء بهمّة.

- ماذا يفعلون؟

- يبحثون عن قطع الحليّ أو الأسنان الذّهبية. العائلات الموسرة غالبا ما تحرق موتاها دون أن تنزع عنهم قطع المجوهرات.. هذا جزء من التقاليد.

يمرّ القارب قرب محرقة متّقدة. تلمح بوضوح الجسد المتواري تحت أعواد الحطب، في ثياب حريريّة زاهية، تحيط بعنقه وصدره قلائد الزهور الملوّنة، بينما تقف عائلة المتوفّى على بعد أمتار قليلة، ترقب عمليّة إيقاد اللّهب. عند الموقد، ينشط صبيّان رقيقا

العـود، يضرمـان النّـار ويتعهّدانهـا بالرّعايـة حـتّى يتأجّـج الجسـد ويأخـذ في الذّوبـان، مثـل قطعـة بلاسـتيك. تتعلّـق عينـاك بالمشـهد، مذهـولا. تنفـذ إلى أعماقـك في تلـك اللّحظـة الرّائحـة ذاتهـا، رائحـة المـوت الـتي اسـتقبلتك في المحطّـة.

- يسـتخدمون غالبـا خشـب المانجـو، رائحتـه الزكيّـة تلطّـف مـن رائحة الشّـواء البـشريّ. والأكـثر ثـراءً يزفّـون فقيدهـم إلى العالـم العلـويّ، «النيرفانـا»، عـلى سريـر مـن الصّنـدل. عطـره هـو الأفضـل عـلى الإطـلاق.

تشـعر بالغثيـان. لقـد رأيـت أجسـادا كثـيرة مسـجّاة في السّـابق، عـلى طاولـة التّشريـح، لكنّـك لـم تـر عـلى الإطـلاق، مشـهدا أكـثر وحشـيّة مـن هـذا. يواصـل أيـوش شرحـه مثـل دليـل سـياحيّ:

- يتطلّـب الجسـد البـشريّ ثـلاث سـاعات حـتّى يحـترق تمامـا، ثـمّ يغـرق الرّفـات في النهـر. أحيانـا لا يكـون الاحـتراق مكتمـلا، حـين يسـتعجل القائـم عـلى الموقـد ليسـتقبل «زبونـا» جديـدا.. فتبقـى بعـض الأطـراف، كمـا رأينـا منـذ قليـل. وعندمـا يهبـط الظّـلام، يظهـر «الأغـوري». يصطـادون بقايـا الأجسـاد الغارقـة في النّهـر ويقتاتـون عليهـا.

يشتدّ بك المغص. أنت على وشك التقيّؤ.

- فلنعد.

تتمتم لمضيّفك راجيا.

كان مـن العسـير بعـد ذلـك أن تتنـاول وجبـة الغـداء. تـتراءى أمـام عينيـك مـع كلّ لقمـة صـورة الـذّراع البشريّـة الطّافيـة، وتتخيّـل الرّجـل العـاري عـلى الرّصيـف وهـو يغـرس أسـنانه في لحمهـا ويلوكهـا عـلى مهـل، بينمـا يراقبـك بعينيـه البرّاقتـين. عانيـت مـن آلام البطـن طيلـة الظّهـيرة.

-٣-

عنـد السّـابعة صباحـا، خرجـت مـن مـنزل أيـوش وحيـدا. كان مضيّفـك الـذي سـخّر يومـه لقيادتـك عـبر شـوارع المدينـة بالأمـس، قـد غـادر إلى عملـه منـذ دقائـق. بعـد ليلـة نـوم متقطّـع تحفّهـا الكوابيـس وتغمرهـا مشـاهد أكلـة لحـوم بـشر مروّعـة، قـرّرت أنّـك تريـد أن تعـرف المزيـد عـن فارانـاسي ولعنتهـا. سـتواجه كابوسـك وتنظـر، كيـف تكـون النّتيجـة. تبتسـم في خفّـة وأنـت تحـثّ الخطـى نحـو المدينـة القديمـة. ألـم تـأت إلى هنـا لتعايـن مخاوفـك وآلامـك مـن زاويـة جديـدة؟

كانـت الشّـمس تغمـر بنايـات المدينـة الكالحـة بـرداء مـن نـور، في تلـك السّـاعة مـن النّهـار وتهديهـا حلّـة برّاقـة متناقضـة مـع بشـاعة ليلهـا ونهرهـا الأسـود العظيـم! عـلى ضفـاف الجانجـا، كان حجّـاج هنديّـون يغمـرون أجسـادهم في الميـاه المقدّسـة القـذرة. رمقتهـم بامتعـاض وحثثـت الخطـى باتّجـاه «الغـات». كيـف يمكـن لملايـين البـشر أن يؤمنـوا بمعتقـد سـخيف كهـذا؟ لـم يكـن عقلـك قـادرا عـلى اسـتيعاب مقـدار الغبـاء البـشريّ المركّـز المحيـط بـك.

كان رجـال طائفـة «الـدوم» يسـهرون عـلى تأجيـج النّـار المعـدّة لاسـتقبال أضحيـة جديـدة. في نظـر الهنـدوس، يعتـبرون حرّاسـا للشّـعلة الأبديـة. في تلـك المدينـة الأكـثر تقديسـا في الهندوسـيّة، يعملـون بجـدّ لتسـير عمليـة الإحـراق عـلى خـير مـا يـرام. بدونهـم، لـن يتـمّ تحريـر الجسـد مـن أعبائـه الدّنيويّـة عـلى عتبـة النيرفانـا!

جلسـت تراقـب الحركـة حـول الموقـد في فضـول عـلى بعـد أمتـار قليلـة، غـير عـابئ باللّهـب المتطايـر والحـرارة الخانقـة والدّخـان الـذي

تدمع لـه عينـاك. بـين جثّـتين، تجـاسرت عـلى مخاطبـة «ماتـرو» القائـم عـلى المحرقـة، وابـن عمّـه «أنجـو» الـذي يهتـمّ بالحسـابات ويعطـي الضـوء الأخـضر للـشروع في الإحـراق. وقفـت إلى جانـب هـذا الأخـير بينما انغمـس في تدويـن نشـاط اليـوم في «دفـتر المـوتى» ذي الأوراق المصفـرّة، ثـمّ أخـذ يعـدّ رزمـة الأوراق الماليّـة الـتي تـزداد سـمكا كلّ سـاعة.

- هؤلاء أحفادي.. عشر سنوات، اثنتا عشرة سنة.

يشـير إلى الصبيـان أنصـاف العرايـا الذيـن يغمرهـم الماء حـتّى ركبهم، ويسـحبون إلى القـاع رمـاد اللّيلـة الماضيـة. تلـك المهمّـة الأساسـيّة تـورّث أبـا عـن جـدّ، وتبقـى حكـرا عـلى طائفـة الـدوم وحدهـم، مثـل «ملـوك» عـلى مدينـة المـوت. وعـلى بعـد خطـوات مـن الغـات، ينتصـب قـصر «الـدوم راجـا» مسـيطرا عـلى المدينـة القديمـة، ملقيـا بظلالـه حـتّى النهـر، يحرسـه تمثـالان لنمريـن حجريـين. ذاك هـو المقـرّ الرّسـمي لملوك الـدوم. يتـداول أفـراد العائلـة عـلى المحرقـة، ومـن يسـترح منهـم ذلـك اليـوم فهـو بالتّأكيـد يتسـكّع بالجـوار، يرتشـف الشّـاي عـلى ضفـاف النّهـر أو يطـارد السـيّاح ليقودهـم في زيـارة حـول المدينـة. حـين سـألته عـن عمر مهنتـه، أجـاب «ماتـرو» بابتسـامة خبيثـة:

- منذ الأزل!

كلاهمـا يجيـد بعـض الإنجليزيـة بحكـم تعاملهمـا مـع السـيّاح المتوافديـن بـالآلاف لمعاينـة نشـاط المحرقـة. لا أحـد يمكنـه الجـزم متى اسـتحوذت طائفـة الـدوم عـلى القوامـة عـلى أعمـال الحـرق. منـذ قـرون بالتّأكيـد. حـين يتعلّـق الأمـر بالرّوحانيّـات، لا تجـد التواريـخ والرّزنامـات لهـا مكانـا. كلّ شيء يحصـل هنـا «منـذ القـدم» وسيسـتمرّ «إلى الأبـد».. أوليـس ذلـك شـأن كلّ مقـدّس؟ بعـض الهنـدوس يؤمـن حـتى أنّ أولى دقـات سـاعة الزّمـن شـهدتها المدينـة النائمـة عـلى ضفـاف الجانجـا.

- حين كنت طفلا، كانت تمرّ أيّام دون أن تحرق جثّة واحدة على الغات! اليوم، تعدّ على ضفاف الجانجا مئات المحارق قبل غروب كلّ شمس.

سألك بشكل روتينيّ، كما سأل ربّما عشرات الزّوّار الذين يتوقّفون يوميّا لالتقاط صورة له أثناء عمله أو لتبادل بضع كلمات معه:

- من أيّ بلد؟

- تونس.

تساءلت أمام صمته، هل يعرف «ماترو» أين تقع تونس؟ فأضفت موضّحا:

- شمال أفريقيا.

- آه، أفريقيا! أليسوا سود البشرة في أفريقيا؟

يشير إلى بشرتك البيضاء في دهشة. قلت بابتسامة صغيرة:

- ليس كلّهم.

يومئ «ماترو» بدون اهتمام، ثمّ يردف بشيء من الفلسفة:

- صحيح أنّني لم أغادر فاراناسي وقد لا أفعل أبدا.. لكنني على ضفاف الغات قد تعلّمت حكمة الحياة الأعمق: كلّنا إلى رماد! لذلك لا داعي للخوف.

«لا داعي للخوف». تردّد العبارة متفكّرا بينما تراقبه عيناك في سهوم وهو يدفع بعصاه ذراعا بشريّة متآكلة لشيخ حرق للتوّ.

- لا أهميّة لكلّ هذا.. إنّه رجل عجوز، عاش حياته كما يجب.. والآن كلّ شيء انتهى. لقد رأيت في عينيه نظرة طمأنينة وهو يساق إلى مرقده الأخير ملفوفا في الحرير.. كلّنا نسير على خطاه، أليس كذلك؟

غير بعيد عن المحرقة، كان جمع من المهاجرين البنغال ينشطون

في تفريـغ أطنـان مـن الخشـب عـلى أكتافهـم المتعبـة. كنـت تتابـع مـن ركـن مراقبتـك طيلـة فـترة الصّبـاح عملهـم الـدّؤوب جيئـة وذهابـا بـين الشـاحنات المتدفّقـة واحـدة إثـر الأخـرى ورصيـف الغـات. حـين أصبحت الشّـمس في كبـد السّـماء، انسـحبوا إلى ظـلّ شـجرة وانهمكـوا في تنـاول خـبز «النـان» المغمـوس في صلصـة «كاري» حـارّة.

حـين تـركك «ماتـرو» ليطعـم نيرانـه جسـدا جديـدا، اقتربـت مـن الشّـجرة، وحاولـت أن تبـدأ حـوارا مـع بعضهـم.. لكنّهـم أخـذوا يتغامـزون بشـأنك ويتضاحكـون. وقـف شـابّ في منتصـف الثلاثينيـات وقـال بإنجليزيـة محترمـة:

- إنّهـم لا يفهمونـك.. معظمهـم لـم يدخـل المـدارس أبـدا.. مرحبـا، اسـمي «لكشـان».

صافحـت اليـد المتعرّقـة الـتي امتـدّت تجاهـك، وتجاذبتمـا أطـراف الحديـث لبرهـة. «لكشـان» مسـلم بالوراثـة، اعتنـق الهندوسـيّة منـذ سـنتين -منـذ وصولـه إلى فارانـاسي- وهو سـعيد اليـوم بالمـأوى القصديري الـذي يتوفّـر لـه لقـاء عملـه في المحرقـة، بالإضافـة إلى خمسـمائة روبيـة في اليـوم. سـألته في فضـول:

- ما الذي دفعك إلى تغيير دينك؟ ما الذي وجدته في الهندوسيّة؟

قال في ثقة، مردّدا عبارة حفظها عن آخرين لا شكّ:

- الهندوسيّة لا يمكن تعريفها.. يمكنك فقط اختبارها!

ثـمّ اعـترف لاحقـا في نـوع مـن الخجـل بأنّـه كان يجـد واجبات الإسـلام كثـيرة وعسـيرة. أمّـا الهندوسـيّة فهـي لا تتبـع نبيّـا بعينـه، ولا تعبـد إلهـا واحـدا، ولا تتبـع نمطـا موحّـدا للشـعائر الدّينيّـة.. وليسـت لديهـا أيّ مـن المظاهـر المتعـارف عليهـا في الأديـان عامّـة. كان مـن اليسـير أن تكـون هندوسـيا، بـدون تبعـات تذكـر! ابتسـمت في سـخرية. هـذا مؤمـن آخـر لا

يـدرك لإيمانـه معـنى!

لكنّك أدركت مدى خطئك بشأنه، حين سألك:

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- لا!

قال في حماس:

- يجـدر بـك أن تفكّـر في الأمـر! حـين فكّـرت بـأنّ حيـاتي الصّعبـة هـي بالتّأكيـد جـزاء عمـل سـيئ قمـت بـه في حيـاة سـابقة، شـعرت بحمـل يسـقط عـن كتفـيّ.. أصبحـت أكـثر رضـا وتقبّـلا لمصـيري.. وأنـا واثـق مـن أنّ صـبري في هـذه الحيـاة سـيجازى بنعيـم في حيـاة مقبلـة!

ابتعـدت عـن المحـارق متفكّـرا في كلمـات «لكشـان»، تحفّـك الـكلاب السّـائبة والأبقـار المتجوّلـة.. بينمـا تتقافـز القـرود العدوانيـة عـلى مقربـة. لعـلّ «لكشـان» قـد حـاز الطّمأنينـة بتفسـير سـاذج «لقـدره»! رغـم حياتـه الشّـقيّة ومسـتقبله الحالـك، كان يجـد في إيمانـه ملجـأ وسـلوى. آه.. ليتـك تجـد شـيئا ممّـا يجـد!

بعـد هيمانـك سـاعات في طرقـات المدينـة القديمـة، جلسـت في مقهـى شـعبيّ مطـلّ عـلى النّهـر. كان النّهـار يزفـر أنفاسـه الأخـيرة، بينمـا يجلـس عـدد مـن الشّـباب العاطـل عـلى قارعـة الطّريـق، يحتسـون الشّـاي ويدخّنـون لسـاعات طويلـة. كنـت تتأمّـل في صمـت بـوادر الحيـاة النّاعسـة في مدينـة المـوت، وترتشـف الشّـاي ببـطء. يلازمـك إحسـاس متبلّـد بالكسـل.. لـم تكـن تريـد تفكـيرا سـاعتها، ولا تحليـلا لفلسـفة الهنـدوس الرّوحيّـة، فقـط وقتـا مسـتقطعا مـن عقلـك. لكـنّ فارانـاسي لا تـتركك لتأمّلاتـك وتلـحّ عليـك لتخطـو في عالمهـا أكـثر. لـم تكـن قـد أنهيـت كوبـك حـين اقـترب منـك شـابّان نحيـلان في بدايـة العشرينيـات. كان شـكلك الأجنـبيّ جاذبـا ولا شـكّ.

- هل تريد القيام برحلة في مركب على النّهر؟

- لقد سبق وفعلت.. شكرا.

اعتذرت بابتسامة، وحاولت التخلّص منهما.

- تذكار إذن؟

وضع أحدهما أمامك حقيبة ظهر ملأى بالتّحف الرّخاميّة المنمنمة وحاملات المفاتيح واللّوحات المغناطيسية. لوّحت بكفك مرّة أخرى. لست مهتما. لكن بدا ألّا سبيل للخلاص منهما.

- رأيتك تتحدّث هذا الصّباح إلى القائم على المحرقة.. من الأفضل ألا تفعل مرّة أخرى.

بدا عليك الاهتمام هذه المرّة.

- لماذا؟

- إنّهم منبوذون! لا أحد في المدينة يتعامل معهم.. لو أنني ألمس أحدهم ثم أرجع إلى أصحابي فإنّني سأصبح منبوذا مثلهم.. لن يخاطبني أحد.. سيحسبونني نذير شؤم أيضا! لا أحد يدعوهم إلى حفلات الزّفاف.. لأنهم يجلبون الشؤم!

تعرف كم أنّ الشّعب الهنديّ متطيّر ومؤمن بالخرافات. لم تكن الخرافة الأولى التي تصلك أصداؤها ذلك اليوم. يقولون أنّ من يقف على ضفاف الغات ساعة الغروب يتحوّل إلى شبح! ابتسمت وهززت رأسك، ثمّ راودك خاطر جريء. تذكّرت كابوس الليلة الماضية والعيون الحمراء التي أبصرتها في الظّلام ليلة وصولك، فسألت الشابّ:

- هل تعرف أين يمكن أن أجد الأغوري؟

- هل جننت؟ إنّهم يأكلون لحوم البشر والكلاب النّافقة!

بدت على وجهه علامات التقزّز وهو يضغط على مخارج حروفه

في انفعــال. ولــم يــزدك انفعالــه إلا إثــارة وتوقــا لرؤيــة المشــهد بــأمّ عينـك. لـم يعـد الأمـر يثـير فيـك رغبـة في الغثيـان. لا تـدري في أي لحظـة بالضبـط مـن يومـك الطويـل عـلى الغـات محاذيـا المحرقـة متشـبعا برائحتهـا الخانقـة كـسرت حاجـز الخـوف ليتحـول النفـور والاشـمئزاز إلى فضـول وانجـذاب.

تدخّل صوت غريب ذو لكنة فرنسيّة واضحة:

- هل تبحث عن الأغوري؟

كان كهـلا في منتصـف السّـتينيات، يرتـدي ثيـاب الرّهبـان البرتقاليّـة الفاقعــة، ويضــع عــلى رأســه قبّعــة خــيزران رخيصــة. جــذب كرســيّا وجلـس إلى طاولتـك بـدون اسـتئذان، بينمـا انسـحب الشّـابان النحيـلان خالـي الوفـاض. قـال بلهجـة الخبـير:

- تلـك الطائفـة الهمجيّـة تعبـد إلـه الدّمـار الهنـدوسيّ المسـمّى شـيفا.. يعتقـدون أنّ تجـاوز المحظـورات الهندوسـيّة التقليديّـة يجعلهـم أقـرب إلى الآلهـة!

سألته بالفرنسيّة:

- أنت راهب؟

ابتسم مرحّبا بشريكه في اللّغة، ثمّ واصل بالفرنسيّة:

- لا! أنـا معلّـم يوغـا! ليسـت تلـك اليوغـا الغبيّـة الـتي يمارسـونها في الدّيـار.. بـل اليوغـا الحقيقيـة، أنـت تعلـم.

لـم تكـن تعلـم، لكنّـك هـززت رأسـك في اهتمـام ليتابـع. أيّـا مـا كان مـا دفـع ذلـك الكهـل الفرنـسيّ ليـترك حياتـه الوديعـة في موطنـه ويسـتقرّ في مدينـة المـوت كمعلـم يوغـا، فهـو يهمّـك! تركتـه يثرثـر طويـلا، عـن حياتـه السّـابقة. كان جـنرالا في الجيـش الفرنـسيّ، حـارب في جبهـات كثـيرة، وســافر حــول العالــم.. تســلّق جبــال الهيملايــا وخيّــم في الصحــارى

الأفريقيّـة، وشـاهد مصارعـات السـومو وقتـال الدّيكـة -كانـت تلـك أسـوأ تجاربـه عـلى الإطـلاق- ثـمّ قبيـل تقاعـده بفـترة قصـيرة أصيـب بمـرض الباركينسـون.

- الباركينسون؟

سـألت في دهشـة وأنـت تعايـن كفّيـه الثابتتـين عـلى الطاولة أمامـه. هزّ رأسـه مؤكّـدا بابتسـامة فخـورة. ثـمّ واصـل حديثـه. خـلال فـترة قصـيرة، فقـد زوجتـه الـتي كانـت تعـاني مـن مـرض مزمـن فتـك بهـا، وسـافر ولـداه ليسـتقرّا في الولايـات المتّحـدة بحثـا عـن آفـاق أوسـع، فأدمـن القمـار والخمـر، حـتّى خـسر مدّخراتـه كلّهـا! في سـنّ الثانيـة والسّـتين، كان عجـوزا مفلسـا، مدمنـا وأطرافـه لا تكـفّ عـن الارتجـاف.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- وقعـت عينـاي يومـا عـلى إعـلان لمركـز باريـسي يقـدّم حصـص اليوغـا لعـلاج مـرضى الباركينسـون.. فقـرّرت أن أشرب مـن المنبـع! سـحبت آخـر ثلاثـة آلاف يـورو متبقّيـة في حسـابي ودفعتهـا لقـاء دورة يوغـا في الهنـد.. ثـمّ اقترضـت ثمـن التذكـرة، وتركـت كلّ شيء ورائي وأتيـت!

لـم ينجـح جيوفـري في التخلّـص مـن مرضـه وحسـب، لكنّـه أصبـح خـلال ثـلاث سـنوات معلّمـا بـدوره، يمـارس اليوغـا كمهنـة وأسـلوب حياة.

- اليوغـا هـي سـبيل تحقيـق الـذّات.. يمكنـك مـن خلالهـا التّحكّـم بالعقـل والحـواسّ قبـل العثـور عـلى الـذات العليـا داخـل القلـب.

- وهل عثرت على ذاتك العليا؟

- ليس بعد.

يزفـر وهـو يهـزّ رأسـه كنايـة عن طـول الطريـق الـتي تنتظره، ثـمّ يعود بـك إلى الموضـوع الأصـليّ. أعلمـك أنّ مجموعـة مـن الأغـوري تتنقّـل عـبر الجبـال في المنطقـة الغربيّـة، ويمكنـه تدبّـر أمـر لقائـك بأحدهـم، مقابـل

مبلغ بسيط، مائة يورو. بدا ذلك عادلا في نظرك. لو أنّه طلب عشرة أضعاف، كنت لتدفع دون تردّد. ضرب لك موعدا بعد يومين على رصيف الغات في الساعة الحادية عشرة مساءً، ودفعت نصف المبلغ مسبقا. ما من ضمانات. كان بإمكانه سرقة المال والاختفاء، لكنّك رضيت بالمجازفة عن طيب خاطر. مهما كانت حكاية الباركينسون واقعا أو خيالا يستخدمه لينسج شباكه لاصطياد ضحيّة جديدة، فالأمر يستحقّ المحاولة.

- لست الوحيد الذي طلب رؤية الأغوري.. دائما ما ألاقيهم في المقاهي، مثل اليوم.. أمريكيون، أستراليون، بريطانيّون.. بعضهم صحفيّون يكتبون مقالات عن الموضوع، والبعض الآخر يبحث عن الإثارة لا غير.

أمّا أنت فتبحث عن تجربة روحيّة جديدة. شيء يهزّ أعماقك ويحرّك الرّماد.

حين جاء وقت موعدك، كان الجانجا غارقا في الظلام بعد أن أطفئت نيران آخر أضحية تهدى للنهر العظيم. كان جيوفري عند كلمته. انتظرك أمام المقهى، وسرتما صامتين في ليلة دهماء لا يأتيكما إلّا وقع خطواتكما على الأسفلت، وعواء كلب منفرد.

شعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدك حين ظهر ظلّ رجل الأغوري مقرفصا عند درجات الغات الأولى. تحت إنارة الشّارع الخافتة، ميّزت ملامحه الغليظة وشعره المنكوش ذا الضّفائر السّميكة. كان منهمكا في تحضير خليط ما في علبة معدنيّة صدئة. سبقك الفرنسيّ إلى نزول الدّرجات وهو يهشّ الكلاب السّائبة التي تجمّعت عند قدمي الرّجل. انحنى ليهمس ببضع كلمات، كأنّما يتفاوض مع الأغوري ليقبل بالحديث إليك.

- إنّهم لا يكونون متيقّظين لوقت طويل، لذلك استثمر وقتك بالشكل المناسب قبل أن يغيب الرّجل في عالم آخر.

دون ثانية تفكير، سألت باندفاع:

- ماذا يوجد في العلبة؟

ترجم الفرنسيّ السّؤال، ثمّ الجواب:

- مزيج من الكحول والحشيش ورماد المحرقة وحبوب هلوسة وسمّ كوبرا!

- هل هذا شيء يشرب؟

ضحك الفرنسيّ ثمّ قال بلهجة فلسفيّة:

- ليس لمن هم مثلك ومثلي! هؤلاء بشر من طينة أخرى.. المشروب يحملك إلى عوالم قاتمة، تغادر جسدك فعليّا، صدّقني! تغادر نفسك وتطالعها من علٍ لتبصر عيوبها وزواياها المظلمة.. لكنّ الأشخاص العاديّين قد يضيّعون أنفسهم في العتمة.

كنت ضائعا بالفعل، لذلك لم تكن تمانع تجربة عتمة من نوع آخر. لكنّ رجل الأغوري ولّاكما ظهره وأخذ يحتسي مشروبه العجيب، ويطلق من حين إلى آخر عواءً مثل ذئب منفرد.

لو أنّك شربت ذاك المشروب المهلك الذي تجتمع فيه السموم بشتّى أنواعها، هل تراك كنت لتدخل عالم الرّوح؟ هل كنت لتلج البرزخ؟ هل كانت عيناك تبصران ما خفي عنها في عالم الغيب؟ وأيّ شيء سيأخذك إلى هناك عدا الموت؟!

تذكّرت ريم وموتها السّريري.. هل كانت تلك التّجربة لتجمعك بها، بروحها المعلّقة بين السّماء والأرض؟

لم تكن تدري.. والعتمة وحدها من نصيبك!

-٤-

أمضيت يوما آخر تتسكّع في شوارع فاراناسي وحيدا، وكانت رائحة خشب المانجو المحترق تطاردك أينما سرت. وكنت كثيرا ما تقف على ضفاف نهر الجانجا، فتستعيد صورة نهر آخر ومدينة أخرى. لقد كان الماء أسود، ذاك الماء الذي غرقت فيه ريم.. لكنّه سواد الليل لا غير. أمّا هذا الماثل أمام عينيك فهو حالك لا يعكس صورتك حتّى في وضح النّهار. سترى نهرا آخر في كيرلا، أخضر اللّون، وسيكون إحساسك مختلفا وأنت تعبره في منزل عائم.

ودّعت أيّوش وركبت قطارا، ثمّ آخر.. حتّى وصلت إلى «كوتشي» عاصمة مقاطعة كيرلا. كنت قد أعلمت وكالة الأسفار بتغيير الخطّة. ستصل يومين قبل الموعد المتفق عليه. لمّا توقّف القطار في محطّته النّهائية، لم تكن قد غادرت مقعدك حين لمحت البطاقة التي تحمل اسمك تلوح لك على الرّصيف.

صافحت سائقك الجديد «جوزيف» ورافقته إلى السيّارة. كان مسيحيّا أبا عن جدّ، كما يوحي بذلك اسمه. والمسيحيّون -كما المسلمين- أقلّية معتبرة في كيرلا، تناهز كلّ منهما خُمُس الكثافة السكّانيّة. غادرتما كوتشي على الفور ومضت بكما العربة على الطريق الرّيفية سيئة التعبيد لمدّة خمس ساعات. مررتما بقرى عدّة، وأبصرت شلالات وحقول شاي وغابات ممتدّة. ورأيت معابد وكنائس ومساجد. على طول المسار الشاقّ والملتوي، تظهر البناءات واحدا إثر الآخر.. معبد ثمّ مسجد ثمّ كنيسة.. ثمّ مسجد وكنيسة ومعبد آخر! كان مشهدا بديعا للتسامح والتّآلف -كما حسبتها- بين الدّيانات السّماويّة

والوضعيّة لم تعهده من حيث أتيت! لا في المملكة السّعودية ولا في تونس ولا في فرنسا يمكن للعين أن تبصر مثل هذا المشهد المدهش!

وأنت تتأمّل مشاهد الطبيعة والعمران المتعاقبة والسيّارة تصعّد في اتّجاه «مُنّار»، القرية الجبليّة، باغتتك رغبة ملحّة. أنت تريد ممارسة اليوغا هنا! ريم كانت تمارس اليوغا. تلك اليوغا «الغبيّة» كما وصفها جيوفري، في مركز رياضيّ باريسي، حيث تعتبر اليوغا موضة العصر. مزيج من الرّياضة والاسترخاء، بالتّناقض مع الموضة الأخرى التي تنافسها في الانتشار.. رقصة «الزومبا» الصّاخبة والحركيّة. لكن هنا، وأنت تطلّ من علٍ على الوادي السّحيق بين المرتفعات الجبليّة، ويصلك خرير المياه التي تتدفّق في جدول ما بين أشجار المطاط وجوز الهند والأكاسيا.. تبدو لك اليوغا أصيلة وحقيقيّة. أنت في المكان الصّحيح لممارسة التأمّل!

سألت سائقك على الفور عن أقرب مركز لتعليم اليوغا، فوعدك بأخذك إلى هناك صباح الغد. فأومأت في رضا. تلك هي التّجربة التي تحتاجها الآن.

وصلت إلى فندقك المعلّق فوق الجبل، على ارتفاع ألف وستمائة متر عن مستوى البحر. كانت شرفة غرفتك تهديك مشهدا خلّابا يعانق الضّباب والسّحاب ويحلّق فوق بيوت بعيدة متناهية الصّغر، وحقل شاي قريب بديع المنظر وشلال يلوح خلال الخضرة مثل خيوط فضيّة برّاقة حين تنعكس أشعة الشمس على صفحته. أمضيت ساعات جالسا في الشّرفة، تتأمّل السّماء والوادي. شعرت بالهواء النّقيّ يملأ رئتيك والسلام يغمرك. وتمنيّت لو كانت ريم إلى جوارك.

كانت جرعة الانتعاش التي أحسست بها آنذاك تعدّ أضعاف

أضعـاف مـا قـد يطـال غـيرك مـن روّاد المـكان. الانتقـال مـن «مدينـة المـوت» إلى «أرض الله المباركـة» كان مثـل عبـور طريـق مبـاشرة مـن الجحيـم إلى الجنّـة!

في الصّبـاح التـالي، أخـذك جوزيـف في رحلـة قصـيرة لا تتجـاوز نصـف السّـاعة إلى مركـز تعليـم اليوغـا. كان البنـاء بسـيطا ذا مدخـل منخفـض، عبرتـه في اتّجـاه المكاتـب الـتي تقـع في الجـزء الأمامـيّ مـن الفضـاء. ابتسـمت سـيّدة ترتـدي السـاري الملـوّن وتزيّـن جبينهـا نقطـة حمـراء، فبادرتهـا:

- أريد التّسجيل في دورة يوغا، لأسبوع واحد.

هزّت رأسها في حركة مائلة يمينا ويسارا وهي تقول:

- عندنا برنامج مناسب للسيّاح، سبعة أيّام!

تناولـت المطويّـة التعريفيّـة ورحـت تقـرأ باهتمـام. البرنامـج يبـدأ عـلى السّـابعة صباحـا كلّ يـوم، حصّـة تعريـف بالهندوسـيّة تتبعهـا حصّـة يوغـا للمبتدئـين.. ثـمّ أنشـطة سـياحيّة مختلفـة، تدليـك وتجـوال.. وفي المسـاء حصّـة تدريـب ثانيـة في السّادسـة مسـاءً ثـمّ حصّـة تأمّـل لنصـف سـاعة. لويـت شـفتيك في امتعـاض. هـذا لا يبـدو مختلفـا عـن اليوغـا الغبيّـة الـتي يمارسـونها في باريـس!

- لا أريد هذا.. أحتاج تمارين مكثّفة لنتائج فارقة!

أخرجـت مـن درج مكتبهـا جملـة مـن المطويـات وفردتهـا أمـام عينيـك. كان هنـاك برنامـج لشـهر وآخـر لثلاثـة أسـابيع وأخـير لعـشرة أيّـام مـن «الهاثـا يوغـا» أو «يوغـا الجهـد».. تحـت عنـوان جـذّاب ومغـر: اليوغـا أسـلوب حيـاة.

- إن كنـت تريـد نتائـج حقيقيّـة، أنصحـك ببرنامـج الشـهر أو الواحـد وعشريـن يومـا، مائتـا سـاعة مـن التّدريـب المكثّـف، بمعـدّل ثمانيـة إلى

اثنـتي عـشرة سـاعة في اليـوم! أمّـا الأخـير، فهـو يمثّـل نصـف التدريـب لمائـة سـاعة فقـط ويمكنـك العـودة في وقـت لاحـق لإتمـام المائـة سـاعة المتبقيـة.

تـردّدت. هـل ينفـع أن تلغـي رحلـة إندونيسـيا لتمـضي بقيّـة الشـهر هنـا؟ هـل مـن الحكمـة أن تستسـلم لتلـك الرّغبـة الملحّـة في تعلّـم اليوغا وتضيّـع تجـارب أخـرى ممكنـة عـلى أرض أخـرى؟ يمكنـك أن تتعلّـم التّقنيـة في أسـبوع، ثـمّ تمارسـها بمفـردك في خلواتـك. أنـت أدرى بنفسـك وبسرعـة تعلّمـك. ألححـت مـن جديـد:

- أسبوع واحد.

عادت لتضع البرنامج الذي سبق أن رفضته على الطاولة أمامك:

- هذا البرنامج المتوفر لأسبوع واحد!

أيقنت أنّ الإصرار لن يجدي، فاتخذت قرارك:

- عشرة أيّام.. سيكون ذلك جيّدا.

أومأت في رضا، ثمّ تناولت استمارة التّسجيل.

- هل سبق لك ممارسة اليوغا؟

- لا.. لكنّني مارست الرّياضات القتاليّة لسنوات.

لم يبد لها الأمر ذا أهمّية:

- مبتدئ إذن.. هناك برنامج يبدأ الأسبوع القادم.

- أنا مستعدّ للبدء اليوم!

- غير ممكن.. لقد بدأ البرنامج منذ يومين.

عضضـت عـلى شـفتك في غيـظ. كان عليـك أن تـسرع بـدل الوقـت الضائـع عـلى ضفـاف الجانجـا القاتمـة.

- لا يمكنني الانتظار حتّى الأسبوع المقبل.. سيكون عليّ الرّحيل!

حرّكت رأسها مرّة أخرى مثل أفعى كوبرا راقصة، ثمّ تناولت سمّاعة الهاتف. تحدّثت لدقائق بلغتها العجيبة بكلمات متسارعة، ثمّ عادت إليك بنفس الابتسامة:

- حسنا، يمكنك أن تبدأ الآن.

شكرتها في امتنان حقيقيّ ثمّ تبعتها إلى السّاحة، حيث كانت مجموعات من الأجانب والهنود القادمين من مختلف أنحاء البلاد يمارسون اليوغا.

اقتربت موظفة الاستقبال من معلّم إحدى المجموعات وهمست ببضع كلمات، ثمّ أشارت إليك بأن تنضمّ إلى الدّرس. فتح المعلّم عينيه ثانيتين ليلقي نظرة على القادم الجديد الذي قاطع حصّته المقدّسة، ثمّ عاد ليلقي تعليماته بصوت هادئ، متجاهلا وجودك. كنت قد ارتديت ثيابا رياضيّة خفيفة ذلك الصّباح استعدادا للبدء الفوري، وقد كان. سحبت بساطا مطاطيا واتّخذت مكانا في الصفّ الأخير، وشرعت في تقليد حركات المعلّم في تركيز. هكذا، وبكل بساطة، كنت تمارس اليوغا!

كانت حصّة الـ«أسانا» أو «وضعيّات الجلوس» -وهي اليوغا الأكثر انتشارا في الغرب- قد بدأت منذ نصف ساعة. خلال ساعة ونصف، ستتوالى الحركات بطيئة ورشيقة من المعلّم، وستكرّرها في صمت مع باقي المتدرّبين، جالسا ثمّ واقفا ثمّ ملتويا إلى الخلف أو منكفئا على ركبتيك. عشرات الوضعيّات التي تجبر الجسد على التمدّد ثمّ التقلّص وبلوغ حدود مرونته ودفعها أبعد المرّة إثر المرّة.

حين انتهت الحصّة، كنت تشعر برغبة ملحّة في الاستلقاء على سرير وثير! بالنّسبة إلى أعضاء البرنامج، كان وقت الإفطار قد حان. في ركن الاستراحة، كانت المائدة قد نصبت، فتوجّه الجميع إلى هناك

بشـكل تلقـائيّ. كانـت أمامـك سـاعة ونصـف قبـل الحصّـة التّاليـة فقـرّرت أن تسـتغلّها لتعـود إلى فندقـك وتجمـع حاجياتـك ومـن ثـمّ ترجـع إلى مركـز تعليـم اليوغـا في الوقـت المناسـب.

كان جوزيـف في انتظـارك طيلـة ذلـك الوقـت خـارج المبـنى. قطعتمـا نصـف سـاعة عائديـن أدراجكمـا، ثـمّ قصـدت مكتـب اسـتقبال الفنـدق وأعلمتهـم بإلغـاء الحجـز! لـم يعـد ذلـك يشـعرك بالسّـوء مثـل المـرّة السّـابقة في أغـرا، لكنّـه يوحـي بالتّأكيـد بسـوء التخطيـط! كنـت مـا تفتـأ تعـدّل عـلى المـشروع المتّفـق عليـه بعـد ليلـة واحـدة مـن الوصـول، وتلـك مفاجـأة سـيّئة -أخـرى- بالنّسـبة إلى وكالـة الأسـفار، والسّـائق الـذي سـتودّعه هـو الآخـر بعـد أن يوصلـك مـرّة ثانيـة إلى مركـز اليوغـا.

لـم تكـن تتحـسّر عـلى شيء وأنـت تنهي جمـع متاعـك في غرفـة الفندق كمـا تتحـسّر عـلى المشـهد البديـع الـذي تطـلّ عليـه الشّرفـة الشّـاهقة! وقفـت لدقائـق أخـيرة تمـلأ عينيـك مـن الخـضرة الوارفـة وتـودّع الجمـال الـذي أسرك في «أرض الله»، ثـمّ خرجـت.

لـم تكـن الغرفـة في مركـز تعليـم اليوغـا واسـعة أو مترفـة، لكنّهـا عـلى مقـدار مـن النّظافـة والبسـاطة. كانـت تفـي بالغـرض، وهـو ألّا تشـغلك عـن التعلّـم، فلـم يكـن عليـك أن تقـضي فيهـا غـير سـاعات «الماونـا» (الصمـت) -أو النّـوم!- مـن التّاسـعة والنصـف مسـاءً حـتّى السّادسـة صباحـا.

وضعـت حقيبتـك وخرجـت بسرعـة لتنضـمّ إلى حصّـة «الفلسـفة» الخاصّـة بمبـادئ اليوغـا. كانـت المحـاضرة تقـدّم في الهـواء الطّلـق، في منطقـة ظليلـة مـن السّـاحة. يجلـس المتدرّبـون عـلى الأرض في وضعيّـة «البادماسـانا» أو «اللوتـس» الشـهيرة، بظهر مسـتقيم وسـاقين متشـابكتين قريبـا مـن الفخذيـن، ويسـتمعون إلى المحـاضر لسـاعة ونصـف.

ستتعلّم في كلّ محاضرة المزيد عن مبادئ اليوغا الخمسة وكيفيّة تطبيقها: الرياضة السّليمة (الأسانا)، التنفّس السّليم (باراناياما)، الاسترخاء السّليم (سارافاسانا)، النظام الغذائيّ السّليم (النباتي) والتفكير الإيجابيّ والتأمّل (الذيانا والفيدانتا).. ثمّ الصّفات الأخلاقيّة العشر: اللّاعنف، الصّدق، البرّ، الحكمة، البساطة، الصّلاة، التّضحية، الانضباط، القراءة والرّضا. وكان من المضحك أن يتوجّه إليكم المحاضر ليدعوكم إلى الصّلاة كلّ حسب ديانته التي يؤمن بها. تساءلت، هل يجب أن تكون مؤمنا لتمارس اليوغا؟ في الحقيقة، كنت تحسب اليوغا ستوصلك إلى معرفة ذاتك وبالتالي إيجاد الإيمان.. أيّ نوع من الإيمان، لأنّك فقدتها جميعا!

ثمّ في السّاعة الثانية ظهرا، تأتي حصّة التأمّل التي انتظرتها طويلا. تستلقي على ظهرك في وضعية «الشافاسانا»، فاردا ذراعيك وساقيك قريبا من جذعك، القدمان نحو الخارج والكفّان في اتّجاه السقف. تغلق عينيك وتركّز على حاسة السّمع وحدها. أنت مسترخ، وتحلم. لكن في «اليوغا نيدرا» أنت من يخلق الحلم. تأخذ الوقت الكافي لتصل إلى مرحلة الهدوء والثّبات. ثمّ تستنشق نفسا عميقا، وتزفره برفق. أنت خفيف كريشة، تحلّق في هواء الغرفة. تصغي إلى الأصوات البعيدة التي تصلك خافتة باهتة، حاسة السّمع تستيقظ مثل «رادار» يلتقط أدنى الهمسات والحركات ويتابعها لثوانٍ قليلة قبل أن يلتقط غيرها، دون محاولة التعرّف إلى مصدرها. ثمّ تعود إلى الأصوات الأقرب، تمرّ من تلك التي تدور خارج الغرفة إلى ما يمور داخلها.. وحين يخفت وعيك بكلّ الأصوات، تصغي إلى الصّمت.

تستشعر بعد ذلك الأبعاد الماديّة للغرفة. تستحضر الجدران الأربعة، الأرضيّة، وجسدك المسجّى على البساط المطاطيّ. تستوعب وجودك الماديّ في المكان، جامدا بلا حراك. جسدك يستمرّ ممدّدا،

وأنـت تشـعر بنقـاط تماسّـه مـع الأرض. تركّـز بعـد ذلك مـع نسـق التنفّس الطبيعـيّ، تستشـعر الهـواء وهـو يعـبر فتحـات أنفـك وينسـاب برقّـة داخـل مجـرى التنفّـس. تـدرك تفاصيـل عمليّـة التنفّـس دون أن تحـاول السّـيطرة عليهـا.. أنـت تتنفـس، فقـط.

يمـرّ وعيـك إلى مختلـف أجـزاء جسـدك، يتنقـل بسرعـة مـن نقطـة إلى أخـرى مـع ذكـر اسـمها في ذهنـك. إبهـام اليـد اليمـنى، سـبابة، وسـطى، ثـمّ بقيّـة الأصابـع.. كـفّ، معصـم، ذراع، مرفـق، إبـط، خـصر، فخـذ أيمـن، ركبـة، ربلـة سـاق، كاحـل، قـدم، باطـن القـدم، أصابـع القـدم.. ثـمّ تمـرّ إلى الجهـة اليـسرى. ثـمّ كتـف، مؤخـرة، عمـود فقـريّ وظهـر.. قمّـة الـرّأس، جبـين، حاجـب أيمـن فأيـسر والمسـاحة بينهمـا.. عينـان، أذنـان، خـدّان، أنـف وأرنبتـه، شـفة عليـا وسـفلى، ذقـن.. ترقـوّة، صـدر، سرّة، بطـن.. ثـمّ تسـتعيد الوعـي الإجمـالي بعـد التفصيـليّ.. رأس كامـل، سـاق، سـاقان، جـذع.. جسـد كامـل.

ثـمّ تبـدأ مرحلـة التخيّـل. أنـت في حديقـة واسـعة وهادئـة، الشّـمس قـد أشرقـت منـذ حـين وأخـذت تغمـر الفضـاء بضيائهـا، ولا أحـد سـواك هنـاك. تصغـي إلى العصافـير تزقـزق مسـتبشرة بيـوم جديـد، تمـلأ عينيـك مـن الأزهـار الملوّنـة والخـضرة الزّاهيـة.. وتسـير متمهّـلا في طريـق ظليلـة باتّجـاه فرجـة متواريـة داخـل الغابـة.. وراء الأغصـان المتشـابكة، يظهـر معبـد. تقـترب بخطـوات هادئـة. تدفـع البـاب وتدخـل، لتجـد المـكان بـاردا ومظلمـا. عـلى الجـدار تمثـل صـورة لقدّيـس مـا.

تتوقّـف عنـد ذلـك الحـدّ. في فـترة اعتناقـك الإسـلام، آمنـت بأنّـه لا يجـوز تجسـيد الأنبيـاء ورسـم أشـكالهم، وأنّ التماثيـل محرّمـة والأصنـام كفـر.. ثـمّ حـين تـركك الإيمـان، لـم يحـلّ محـلّ المقـدّس في وجدانـك أيّ كيـان آخـر، لا عالـم ولا فنّـان ولا مصلـح اجتماعـيّ! كان مـن المفـترض في تلـك المرحلـة مـن التأمّـل أن تصـل إلى الطمأنينـة، وإحسـاس بالسّـلام

الدّاخـليّ، تنقطـع معـه الأصـوات الخارجيّـة وتنفـذ إلى داخلـك، وأنـت تصـلي في سكون داخـل المعبـد.. لكنّـك تسـتهلك وقتـك متفكّرا في هويّـة القدّيـس الـذي يسـتحقّ أن تعلّـق صورتـه عـلى جـدران معبـدك! ثـمّ مـا يكـون ذلـك المعبـد؟ وأيّ شـعائر تقـام فيـه؟

خرجت من حصّة التأمّل مثقلا بالإحباط.

إلى جـوار غرفـة التأمّـل، كانـت هنـاك غرفـة صـلاة. كان لديكـم بعـض الوقـت الحـرّ قبـل حصّـة الأسـانا التّاليـة، والمعلّـم ينصحكـم بتمضيتـه في الصّـلاة! كلّ لحظـة مـن فـترة التّدريـب يجب اسـتغلالها بـذكاء، والصّلاة واحـدة مـن الصفـات الأخلاقيّـة العـشر! دخلـت الغرفـة في اليـوم الأوّل بدافـع الفضـول. كانـت تحـوي تماثيـل وصـورا لعـدد هائـل مـن الآلهـة الهندوسـيّة والبوذيـة والجانيّـة المختلفـة، بالإضافـة إلى مجسّـم للمسـيح المصلـوب! ألقيـت نظـرة عابـرة عـلى زمـلاء التّدريـب وهـو ينهمكـون كلّ في صلاتـه، ثـمّ خرجـت.

آنـذاك، تعرّفـت إلى بيـتر. كان شـابا بريطانيـا في بدايـة الثلاثينيـات. وكان متخلّفـا هـو الآخـر عـن الصّـلاة. تبادلتمـا ابتسـامة متواطئـة، ثـمّ تقـدّم ليصافحـك ويعـرّف بنفسـه.

- هل وصلت اليوم؟

- نعـم.. لـم يكـن تدريـب اليوغـا ضمـن برنامجـي الأصـليّ.. لذلـك أشـعر بأنّـني لـم أتجهّـز للتجربـة بشـكل جيّـد.

ضحك بيتر وقال:

- لا يهـمّ كـم تتجهّـز قبـل الوصـول.. سـتكون دومـا غـير جاهـز! انظـر إليّ مثـلا.. أنـا أمـارس اليوغـا منـذ ثـلاث سـنوات في نـادٍ لنـدني، وقـد حجـزت في برنامـج المائـتي ساعة لأنّـني أريـد أن أصبـح مـدرّب يوغـا.. أنـا هنـا منـذ أسـبوعين، ومـا زلـت لا أصـدّق أنّـني هنـا، وأنّـني أفعـل هـذا!

سألت في شك:

- هل ندمت؟

- ليس هذا.. لقد كان الأسبوع الأوّل صعبا جدّا.. لم أكن أستمتع أو أشعر بسموّ روحيّ. كنت مرهقا طوال الوقت، وأشعر بآلام شديدة في مفاصلي وعضلاتي.. ولقد بكيت. نعم بكيت، مرّات عدّة! أنا آكل لحوما في العادة! والطّعام النّباتي الإجباري كان بمثابة العقاب. بتّ خاوي البطن ليالي كثيرة، لم أكن أستسيغ الأصناف التي يعدّونها! عانيت من أعراض الانسحاب، فقد كنت مدمنا على اللّحم المشويّ!

ابتسمت. لن يشكل ذلك عائقا يذكر بالنسبة إليك. ألم تمرّ بمحنة طعام السّجن ذي الرّائحة الكريهة، ووجبات المشرّدين الباهتة خلال فرارك عبر الجزائر ولبنان؟ معدتك قد غدت ذات قابليّة لاستساغة كلّ ما يؤكل!

ضحك بيتر مرّة الأخرى قبل أن يتابع:

- أمّا التأمّل.. فذاك شأن آخر! لم أكن أستطيع إكمال الحصّة في الغالب. كنت أسرح في منتصف الطّريق، في خيالات بعيدة.. أو يغلبني النّعاس!

شاركته الضّحك، ثمّ قلت وقد سُرّي عنك:

- يبدو أنّ الأزمة لا تخصّني وحدي! هل تصدّق.. لم أستطع وضع وجه على لوحة القدّيس، ولذلك لم أتمكّن من مواصلة التأمّل! كأنّ تلك النّقطة جوهريّة ولا يمكنني تجاوزها!

- هل أسرّ إليك بحلّ سحريّ؟ لقد عانيت من المشكلة ذاتها كوني لا أعتنق دينا ما.. لذلك وجدت الحلّ بعد أسبوع من المحاولة، وصرت أتخيّل صورة زوجتي على جدار المعبد!

ارتفعت قهقهاتكما مرّة أخرى، ثمّ أشار بيتر بسبّابته على شفتيه

لتستعيدا هدوءكما. لقد كان وقت صلاة وخلوة، وأنتما لم تتخلّفا فقط عن الصّلاة بل تزعجان المستغرقين في ابتهالاتهم. سحبك إلى ركن الاستراحة حيث يمكنكما أن تتحدّثا بحريّة أكبر.

- تحدّث إلى المعلّم في مواعيد الاستشارة الفرديّة، قبل العشاء.. يمكنه المساعدة بالردّ على التساؤلات الخاصّة وتخفيف القلق.

أومأت شاكرا. ستتذكر أن تفعل، ثمّ سألت في اهتمام:

- وهل كان الأسبوع الثاني أفضل؟

- لا أدري، أشعر بأنّني أسير نحو الأسوأ! حسنا.. لقد فكّرت في التوقّف منذ يومين. تحدّثت إلى المعلّم بشأن ذلك، فطمأنني بأنّ تلك الرغبة عادية ومتوقّعة لدى الكثيرين.. وأنّني أمرّ بالمرحلة الفاصلة بين المقاومة الجسديّة والاستسلام الرّوحي، وقريبا سأعبر المضيق ليكون كلّ شيء على ما يرام!

أنهى كلماته الأخيرة مع هزّة من كتفيه. سنرى ذلك. الأيّام القادمة ستثبت صحّة قوله من عدمها. صافحت بيتر مرّة أخرى، وافترقتما ليمضي كلّ منكما إلى حصّته الخاصّة. انتابك إحساس غامر بالنّدم. بدا لك أنّك تسرّعت بالانخراط في برنامج أسبوع واحد، قد لا يكون كافيا البتّة لتجربة يوغا فعّالة!

قرّرت أن تتحدّث إلى المعلّم قبل العشاء.

لكنّك لم تكن الوحيد الذي يحتاج مساررة المعلّم قبل العشاء. كان هناك جمع من المتدرّبين خارج الغرفة، يجلس بعضهم على الأرض ويتكئ الآخر على الجدار مترقّبا دوره. وقفت في ضيق وأخذت تقدّر في تململ فترة الانتظار المتوقّعة. هل تكفي نصف ساعة ليتحدّث المعلّم إلى كلّ هؤلاء؟

- أنت القادم الجديد؟

التفتّ إلى السّيدة الخمسينيّة التي تقف جوارك وأومأت موافقا.

- لا شكّ أنّك تشعر بالقلق حيال تأخّرك.. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

شكرتها بابتسامة وهزّة من رأسك، بينما فتح الباب وخرج متدرّب ثمّ دخل آخر.

- هل جهّزت أسئلتك؟

رفعت حاجبيك في انتباه. أنت تعرف ما تريد السّؤال عنه، لكنّك لم تصغ الأسئلة بوضوح.

- وقت المعلّم ضيّق.. ثلاث دقائق لكلّ متدرّب. يجب أن تكون جاهزا حين يأتي دورك.

شكرتها ثانية، وانهمكت في التفكير. أنت تريد أن تستفسر عن جدوى اليوغا في أسبوع واحد، وعن صورة القدّيس والصّلاة التي لم تعد ضمن اهتماماتك، وعن التمرينات التي تخلّصك من القلق، وعن طريقة سريعة للوصول إلى الطمأنينة.

تتوالى حركة الباب فتحا وغلقا والأسئلة تتدافع في ذهنك مرتبكة ومشوّشة. تحاول دراسة أولويّاتك، فلتبدأ بالأهمّ ولتترك الأقل أهميّة للقاء آخر. حين خرجت رفيقتك الخمسينيّة مبتسمة أدركت بأنّ دورك قد حان، وأنت لم تحسم أمرك بعد. خطوت إلى داخل الغرفة خاليا من التركيز. كان فضاء ضيّقا قليل المفروشات بسيطها. نظرت في اتجاه المعلّم المتربّع على السّجاد، فابتسم وهو يكرّر العبارة التي سمعتها كثيرا ذلك اليوم:

- أنت القادم الجديد، أليس كذلك؟ اقترب.

جلست على ركبتيك قبالته. كانت المرّة الأولى التي تجد نفسك فيها بذلك القرب من المعلّم، فقد أمضيت يومك متواريا في صفوف

المتدرّبين الأخيرة. بدا وجهه الصغير أكثر تجعّدا ممّا هيئ إليك عن بعد، وشعره الخفيف الأشيب متباعدا وقليل الكثافة. تكّات السّاعة تدقّ في رأسك معلنة تسرّب وقتك ثانية إثر الأخرى وأنت تكتفي بتأمّل ملامح الرّجل المتربّع على السجاد. تكلّم المعلّم أمام صمتك:

- لا شكّ أنّك تشعر بالضغط لأنّك التحقت بالبرنامج التّدريبيّ متأخّرا.. الضغط ليس شيئا سيّئا، معظم الإنجازات الرّائعة لا تحصل إلّا في ظروف شديدة القسوة.. «البلوط ينمو قويّا أمام الرّياح المعاكسة، والماس يصنع تحت الضغط الشديد». هكذا هي صعوبات الحياة تصقلنا لنغدو أنضج وأقوى.. وهكذا هي تدريبات اليوغا، تجعلنا نتحدّى أنفسنا وندفع حدودنا أبعد. حين تعي ذلك، ستكون التدريبات اليوميّة أسهل وأكثر فائدة. تأكّد بأنّ كلّ دقيقة من التّدريب تقرّبك من معرفة ذاتك، حتّى لو لم تكن ترى نتيجة واضحة! تماما مثل كلّ لقمة طعام، إنّها تجعلك تنمو لكنّك لا تبصر أثرها على الفور.

أومأت مثل صبيّ مدرسة يتشرّب كلمات معلّمه في تقديس. كانت كلمات بسيطة، لكنّك كنت في حاجة إلى سماعها، بذلك الصوت العميق والحكيم، لتدرك قيمتها.

- وتذكّر أن تضع خطّة. يجب أن تكون لديك خطّة لكلّ شيء! حين تسافر لأيّام قليلة، في غياب خطّة دقيقة فإنّ عطلتك قد تذهب هباءً.. لكنّها قد تسير بشكل جيّد بمصادفة بحتة، وهذا بنسبة ضئيلة. لكنّ الأرجح هو أنّك ستضيع وقتا ثمينا لأنّك لم تستعدّ بالقدر الكافي. ضع خطّة كل سنة، وكلّ شهر وكلّ يوم.. وقدّر قيمة كلّ ساعة تعيشها، وكلّ نفس تستنشقه. الحياة هبة ثمينة، علينا أن نعيشها بحكمة ولا نهدرها بسوء تخطيطنا.

كنـت تصغـي في صمـت. جـزء منـك يقنعـك في سـخريّة بـأنّ المعلّـم يتلـو كلمـات مكـرّرة عـلى مسـامع كل زائـر، وجـزء آخـر يحـاول أن يؤمـن بـأنّ تلـك الرّسـالة تخصّـك، وأنّهـا سـتغيّر حياتـك إلى الأبـد. كنـت تريـد أن تصـدّق أنّـك عـلى عتبـة تجربـة فارقـة ومصيريّـة!

- هل تريد أن تقول شيئا؟

- هل هناك تمارين خاصّة بمرض الباركينسيون؟

- عفوا؟

كان ذلـك السّـؤال الوحيـد الـذي حـضر في ذهنـك في تلـك اللحظـة. لقـد جئـت دون خطّـة. لا شـكّ في ذلـك. والآن يطالعـك المعلّـم بعجـب، لكنّـه يـردّ رغـم ذلـك:

- هنـاك طريقـة لعـلاج أيّ شيء باليوغـا.. طالمـا كانـت هنـاك عزيمـة وإيمـان.

-٥-

دخلت حصّة التأمّل في الغد وقد اتّخذت قرارك. إن كان هناك وجه يستحقّ أن يشغل لوحة القدّيس في معبدك الافتراضي، فهو بلا شكّ وجه ريم! ستتعبّد في محراب الحبّ إذن!

تستلقي على ظهرك وترخي أطرافك. تغمض عينيك وينتظم تنفّسك. تمرّ بالمراحل ذاتها بإيحاء من المعلّم، تعبر الحديقة الغنّاء بخطى خفيفة كأنّك تطير، ثمّ تفتح باب المعبد المتواري خلف الأجمة. ترفع عينيك لتلقي نظرة على اللوحة في صدر المعبد. يظهر داخل الإطار المذهّب وجه مألوف وابتسامة عذبة ومحبّبة إلى قلبك.. وجه سارة!

فتحت عينيك بغتة كالملدوغ، قبل أن تنتهي حصّة التأمّل، واستقمت جالسا. حدجك المعلّم بنظرة استياء، فاستلقيت مرّة أخرى، لكنّك لبثت مفتوح العينين، نبضاتك تتسابق في صدرك وأنفاسك لاهثة. ما كان ذلك؟ ألم يكن يفترض بك أن تجد صورة ريم في المعبد؟ كيف وصلت صورة سارة إلى هناك؟

شغلك ظهور سارة غير المتوقع في حلمك باقي النّهار. ما مغزى استحضارك لابتسامتها في الوقت الذي حسبتها فيه قد غدت نسيا منسيّا؟ لماذا لم تظهر ملامح ريم؟ هل هي رسالة لاواعية، تذكرك بكلّ ما تفرّ منه؟

ثمّ تحاول أن تجد تفسيرا منطقيّا لكلّ ذلك. أنت هنا في «أرض الله»، حيث التديّن في أبهى حلله. لا ينفكّ معلّم اليوغا يتحدّث عن الصّلاة وحاجتك إليها. قاعة الصّلاة التي تمتلئ عن آخرها ساعة

الظّهـيرة ولا يتخلّـف عـن طقوسـها إلّا نـزر يسـير مـن متـدرّبي المركـز.. كلّ ذلـك يجـبرك عـلى تذكّـر تديّنـك القديـم! أوليسـت سـارة رمـزا لحياتـك السّـابقة الـتي أهلـت عليهـا الـتّراب حـتّى وأدتهـا؟

أحسسـت بطمأنينـة أكـبر وأنـت تدخـل حصّـة التأمّـل التاليـة. مهمـا كانـت مخاوفـك فسـتواجهها. ألـم يكـن ذلـك هدفـك مـن الانضمـام إلى دروس اليوغـا؟ خطـوت داخـل معبـدك الخيـالي، وجلسـت قبالـة صـورة «القدّيسـة سـارة». رفعـت رأسـك إليهـا وأخـذت تحدّثهـا:

«هـا نحـن ذا، بعـد سـنتين مـن الغيـاب. هـل جئـت تذكّرينـني بمـا كنـت عليـه، أم بذنـبي تجاهـك؟ أمّـا الذنـب فقـد ندمـت! وأمّـا العـودة فـلا أعـود!

أرأيـت، لقـد فارقتـك وأنـا في أوج الشـك. وددت ألا يصلـك شرر النـار الـتي ألهبـت جـوفي. فانحـدرت إلى سـفوح النّكـران وحـدي، وكفـرت بـكلّ شيء وحسـبت الطمأنينـة تنتظـرني عـلى شـاطئ الإلحـاد. لكـنّ عقـلي لـم يرحمـني. رغـم المحـاولات المتكـرّرة، لـم أجـد السّـكينة الـتي نشـدتها في العلـم. كان لا بـدّ أن أعـبر غابـة الشـك مـرة أخـرى لأصـل إلى شـاطئ جديـد.

ما الذي أنا عليه الآن؟

سـأصدقك القـول. حـتّى وقـت قريـب كنـت «لاأدري». لكنّـني قابلـت السير أنتـوني فلـو، ثـمّ جئـت إلى أرض الله المباركـة. وكانـت أمتـع لحظـاتي حـين أمـلأ عيـنيّ مـن بهـاء خلقـه الـذي يحيـط بي مـن كلّ جانـب.

لقد آمنت أنّ للكون خالقا مبدعا أحسن تصويره.

ولعلي أستعير كلمات السير فلو:

«لقد صرت أومن بإله واحد أحد.

واجب الوجود.

غير ماديّ، لا يطرأ عليه التغير.

مطلق القدرة، مطلق العلم.

كامل الخير».

لقد آمنت أنّ الحياة وقوانين الطبيعة والفيزياء وتوازن السّماء والأرض لا يمكن أن يكون محض صدفة.. مثلما لا يمكن لمجموعة من القردة تخبط عشوائيا على لوحة مفاتيح أن تكتب بمحض الصدفة مسرحية لشكسبير مهما تكرّرت محاولاتها، ولا يمكن لشخبطة عشوائية أن تنتج لوحة فنيّة باهرة.. أنا لا أتحدّث عن الفنّ المعاصر الذي يتّسم بالفوضى، بل عن إبداعات عصر النّهضة التي تكاد تنطق تفاصيلها وتنبض شخصيّاتها بالحياة! بنفس الشّكل، لا يمكن لكوننا هذا أن يكون وليد مصادفة ما، بانفجار عظيم أو بتطوّر بطيء.. لا بدّ من وجود مصمّم ذكيّ وراء كلّ هذه المعجزات المعقّدة! هذا الجمال السّاحر الذي تطلّ عليه قرية منّار، إنّه بصنع خالق أزليّ لم يسبق وجوده شيء.

تعالي أشرح لك المبادئ التي أومن بها.

أولا: هناك شبه إجماع بين العلماء المتخصّصين على أنّ الكون انبثق من نقطة التفرّد منذ حوالي أربعة عشر بليون سنة، نتيجة الانفجار الأعظم. فمن أين أتى الانفجار العظيم، ومعه حزمة من قوانين الطبيعة الفيزيائية والكيميائية بالغة التعقيد والدّقة، لتحكم الكون كله في ترابط وشمول وتناغم معجز؟ علينا أن نسلّم بأنّ هذه القوانين إنما تفسر لنا الظواهر الكونية فقط، ولكنها بالتأكيد لم تستجلب الطاقة والمادة من العدم.. وإنما استجلبها عقل مطلق، وقدرة مطلقة، هو عقل الإله وقدرة الإله!

ثانيا: كيف نشأت الخلية الحيّة الأولى من عناصر هي في الأصل

غـير حيّـة؟ فضـلا عـن امتـلاك تلـك المـادة الحيّـة الأولى هـذه القـدرة شـديدة التعقيـد عـلى إعـادة نفسـها جينيـا بالانقسـام والتكاثـر وانتقـال المورثـات الجينيـة عـبر مـادة الــ(DNA)، إلا أن يكـون وراءهـا ذكاء خـارق، وتصميـم فائـق القـدرة مسـبقا.. مـن الإلـه!

ثالثـا: نظريـة التطـور توضـح ظهـور الكائـن البـشري بعـد مراحـل مـن سلسـلة تطـور أحيـائي عـبر مليـارات السـنين منـذ نشـأة الخليـة الحيـة الأولى.. لكـن كل علمـاء الأحيـاء لا يجيبـون عـلى سـؤال مـؤرق: كيـف ظهـر العقـل والوعـي والإدراك والـكلام والمشـاعر كطفـرة جينيـة مصمّمـة بدقـة معجـزة لهـذا الكائـن البـشري؟ ولا إجابـة عليـه سـوى أن ذلـك التّصميـم الخـارق كان وراءه قـدرة مطلقـة وعلـم كلي مـن الإلـه!

إنّ كل حجـج الفلاسـفة والعلمـاء الملحديـن في مختلـف التخصّصـات بمحاولـة الإجابـة عـن الأسـئلة الثلاثـة بنظريـة الأكـوان المتعـددة، وأنـه بـين مليـارات الأكـوان، لا بـدّ أن الصّدفـة سـتأتي بكـون مجهـز عشـوائيا لاسـتضافة الحيـاة.. إنمـا هـو هـروب إلى الأمـام، ونقـل للمشـكلة إلى مرتبـة أعـلى.. فمـن الـذي خلـق الأكـوان المتعـددة؟

وإنّـه مـن الجنـون افـتراض وجـود مليـارات الأكـوان غـير مرتبطـة سـببيا كمصـادرة لتفسـير معالـم كـون واحـد هـو الـذي نعلمـه ونحيـا فيـه.. في الوقـت الـذي يفـي افـتراض وجـود خالـق واحـد مطلـق العلـم والقـدرة بـأداء المهمـة، وهـو الإلـه!

مفهـوم «البرهـان الكـونيّ» يثبـت أنّ بنيـة الكـون وقوانينـه تـدلّ عـلى وجـود المصمّـم الـذكيّ (الإلـه الخالـق)، ومفهـوم «المبـدأ البـشري» يحيلنـا إلى أنّ الكـون قـد تـمّ بنـاؤه عـلى هيئـة تجعلـه ملائمـا تمامـا لنشـأة الإنسـان.

حسـنا، لا تهلـلي ونكـبّري بعـد! لا زلـت بعيـدا عـن الإيمـان القديـم

بالكتب والرّسل والملائكة والقدر واليوم الآخر.

ما زلت أجهل ماهية علاقة الإنسان بهذا الخالق، وما إن كان يجدر بنا أن نفعل شيئا محدّدا.. باستثناء الاستمتاع بما تقدّمه الحياة من فرص!

هل تعرفين أنّ لهذا الوضع اسما؟ أنا «ربوبيّ» الآن. أومن بوجود الرّبّ.. لكنّني لا أتّبع أيّا من الدّيانات المعروفة.

هل يجعلني هذا مرتاحا؟ ليس بعد. أشعر بالقلق حيال المستقبل. التحوّلات التي مررت بها خلال السّنتين الماضيتين تنبئني بأنّ القصّة لن تنتهي عند هذا الحدّ. أريد أن أصل إلى الطمأنينة. أتمنى أن تحصل روحي على بعض السّكينة، ويتوقّف عقلي عن الغليان».

خرجت من حصّة التأمّل وأنت أكثر هدوءًا واسترخاءً. وتوالت حصص أخرى، تحدّثت فيها كثيرا في حلمك. ثرثرت كما لم تثرثر من قبل. كنت تصف بتفصيل وتحلّل بتعمّق وتسمّي الأشياء بمسمّياتها كأنّك تشرحها لشخص آخر لا يعرف شيئا عن تجربتك. لسارة. لم يكن من السّيّئ في نهاية الأمر أن تتربّع سارة داخل إطار معبدك. كان الحديث إليها مريحا، كما كان قديما. وتمنّيت لو أنّها تردّ. لكنّها مجرّد صورة، في معبد متخيّل، في حصّة تأمّل، في معسكر يوغا، في قرية هندية نائية!!

حين غادرت مركز التّدريب في نهاية الأسبوع، أدركت أنّك قد مررت بتجربة مميّزة. هل كان السّرّ في اليوغا ذاتها؟ أم في مصارحتك الطويلة يوميّا أمام خيال سارة؟ لا يهمّ. لقد كان أسبوعا مثمرا رغم آلام المفاصل وعضلاتك التي تئنّ مع كلّ حركة.

شددت كفّ المعلّم بشدّة وأنت تودّعه وهمست:

- سأتحمّل الضغط.. وسأضع خطّة محكمة!

-٦-

قضّيت يومك الأخير في الهند على متن منزل عائم. تلك القوارب تُستأجر مثل الفنادق تماما، على ظهرها غرفة نوم وقاعة طعام وشرفة عالية على السّطح للإطلال على مشهد النّهر من علٍ. تلك كانت هديّة ريم الأخيرة في رحلة الهند. وأنت تمخر عباب الماء لساعات طويلة، كنت تتابع بعينين ساهمتين مشاهد الحياة اليوميّة التي تتخذ ضفاف النّهر مسرحا لها. أولاد يغتسلون في الماء الأخضر، ونساء يغسلن الثّياب بهمّة، ورجال يملؤون القرب وينقلونها فوق أكتافهم، وشيوخ يتسامرون ويدخّنون.

حين شارفت الشّمس على المغيب، رسا القارب في ميناء مزدحم بقوارب مشابهة. بعد أسبوع من «الماونا»، أو الصّمت اللّيلي، كانت السّهرة برفقة القائم على الخدمة على سطح القارب خروجا عن المألوف. تركته يتحدّث معظم الوقت وهززت رأسك كثيرا. فكّرت في سخرية في كميّة الكلام التي اعتدت سكبها في آذان مستمعيك قديما.. خطيبا ومنظّرا أيّام الجامعة ومحاورا ومجادلا في جلساتك إلى الأصحاب أيّام الإنكار والتمرّد! لقد كنت نجم كلّ ملتقى والمسيطر على كلّ محادثة، تحرص بتفانٍ على أن تكون لك الكلمة الأخيرة في النّقاش. لكنّ اعتيادك الصّمت حديثا جعلك تحجم عن الكلام. كان مخاطبك يثرثر بخصوص الصّراع الهندوسيّ الإسلاميّ الذي عاشته المنطقة في القرن الماضي.

ابتسم وهو يقرّ باقتناع:

- السيّاح من الشرق الأوسط غالبا يهتمّون بالتّاريخ.

هـزرت رأسـك دون أن تعارضـه. لا يعنيـك أن تصحّـح أنـك لسـت مـن الـشرق الأوسـط، فهـذا لا يهـمّ الرّجـل بـأيّ شـكل.. لكنّـك تهتـمّ بالتّاريـخ ولا تمانـع الاسـتماع إلى محاضرتـه.

أنـت تعـرف أنّ الـصّراع الدّيـني بـين الهنـدوس والمسـلمين في الهنـد كان الأبشـع والأعنـف في التاريـخ الحديـث، لتخلّـف مذابحـه عـشرات الآلاف مـن القتـلى، وينتهـي بانفصـال شـبه القـارة الهنديّـة إلى دولتـين سـنة ١٩٤٧، الهنـد ذات الأغلبيّـة الهندوسـيّة وباكسـتان المسـلمة. وقـد انـبرى الرّجـل يحدّثـك عـن مقتـل أنديـرا غانـدي عـلى يـد السّـيخ سـنة ١٩٨٤ ثـمّ مذابـح جامـو وكشـمير بعدهـا.. ثـمّ الحادثـة الأشـهر، حادثـة مسـجد البابـري، نسـبة إلى السـلطان المغـوليّ «بابـر»، في مدينـة أيوديـا عـام ١٩٩٢.

يزعـم الهنـدوس أنّ إلههـم «رامـا» ولـد في معبـد على هضبـة راماكوت الـتي يقـوم عليهـا المسـجد حاليـا، رغـم أنّ علمـاء التّاريـخ الهنـود يثبتـون أنّ المسـجد قـد بـني عـلى أنقـاض مسـجد آخـر، وتشـهد بذلـك النّقـوش العربيّـة والفارسـيّة القديمـة المنتـشرة في أنحـاء البنـاء.

- ألا تـرى أنّ هـذه القصّـة تشـبه إلى حـدّ كبـير قصّـة المسـجد الأقـصى وصراع اليهـود والمسـلمين حولـه؟ ألا يدّعـون أنّ المسـجد الأقـصى بـني عـلى هيـكل سـليمان؟

فهمـت حينئـذ مغـزى اهتمامـه بالسّـيّاح مـن الـشرق الأوسـط! هـذه مسـاحة مشـتركة يمكنكمـا الالتقـاء حولهـا. ولعلّـه يحتفـظ في جعبتـه بحكايـا مختلفـة حسـب نـوع الزّائـر؟ أم تـراه يبحـث عـن متعاطفـين مـع قضيّتـه؟ لـم تـرد أن تصدمـه بحقيقـة كفـرك بالأديـان كافّـة. ابتسـمت في سـخرية.. أليسـت تلـك قصّـة أخـرى تؤيّـد النّهـج الـذي اخـترت اتّباعـه؟ ألـم يكـن العالـم ليكـون أفضـل بـدون الأديـان وأتباعهـا الأغبيـاء؟ هـل

من المنطق أن يُقتل عشرات الآلاف لمجرّد فكرة سخيفة عن إله ولد على ظهر تلّة؟!

- الإنجليز هم أساس الخراب.. دائما!

يذكّرك محدّثك بـ«وعد بلفور» لليهود وهو يروي دور الإنجليز في الحادثة. كانوا يحاولون بثّ القلاقل في الإقليم ليبرّروا احتلالهم له، فشجعوا وضع كتب تاريخيّة تقول أنّ «بابر» هدم المعبد الهندوسيّ الذي كان قائما حيث مسقط رأس الإله «راما» ثمّ أنشأ مكانه مسجدا، مؤيّدين زعم الهندوس.. فتهمس في داخلك وقد تأكدت قناعتك بعبارة كارل ماركس الشّهيرة: الدّين أفيون الشّعوب! وقد أحسن الإنجليز استغلاله لصالحهم. لكنّ محدّثك يفاجئك:

- العاطفة الدّينيّة هي أسمى المشاعر وأنقاها.. لدى البسطاء غالبا ما تكون صافية ومخلصة! والقوى الاستعماريّة تستغّلها لتحقيق أطماعها وتحريك البيادق على الرّقعة، فرّق تسد.. فننسى أنّ المؤمنين إخوة، يجب أن يتّحدوا في وجه المادّيين والملحدين!

- عفوا؟

قاطعته في دهشة. عن أيّ مؤمنين يتحدّث؟

- ما الذي تؤمن به يا سيّدي؟

- أنا هندوسيّ، أومن بالآلهة بارافاتي.. الإلهة الأم. وبالإله الخالق، الذي يهب الحياة.. لكنّنا نعطيه أسماء وأشكالا مختلفة.

حدّقت فيه مبهوتا. تلك الفكرة لم تراودك من قبل. الإيمان، كلّ الإيمان.. في وجه الإلحاد؟

هتفت متحدّيا:

- حتّى لو كان المقدّس صنما؟ أو بقرة؟

- البقـرة ليسـت إلهـا.. نحـن لا نعبدهـا! لكنّهـا مقدّسـة لرمزيّتهـا. إنّهـا تمثّـل الأمّ والعطـاء.. وحمايتهـا تعـني حمايـة كلّ المخلوقـات! والصّنـم ليـس إلهـا، لكنـه تجسـيد للإلـه. نحـن نـرى الله في كلّ شيء حـيّ، لأنّ الله هـو الحيـاة!

- وهل تعتقد أنّ المسلمين مؤمنون أيضا؟

- عندمـا كنـت شـابّا، منـذ زمـن طويـل.. كنـت أقـرأ مـع جـدّي نسـخا قديمـة للفيـدا -كتـب لاهـوت هندوسـيّة- وقـد كانـت فيهـا مقاطـع تتحـدّث عـن نـبيّ الإسـلام.

ثمّ أخذ يتلو على مسامعك نتفا ممّا يذكره من تلك المقاطع:

«في ذلـك الوقـت في قريـة (شـامبهل) [بمعـنى البلـد الأمـين] عنـد رجـل اسـمه (وشـنوياس) [عبـد الله] صاحـب قلـب رقيـق، يولـد في بيتـه (كالـكي) [مطهـر مـن الذنـوب والآثـام].

يولـد (كالـكي) في بيـت (وشـنوياس) مـن زوجتـه (سـومتي) [صاحبـة السـلامة والأمـن، آمنـة].

إنـه يولـد في الثـاني عـشر مـن ظهـور القمـر في شـهر اسـمه (مـادوه) [تعـني الشـهر المحبـب إلى النفـوس، وهـو شـهر الربيـع].

يركـب على الحصـان، ويخـرج منـه النـور، ولا يضاهيـه أحـد في هيبتـه وجمالـه، ويكـون مختونـا، ويعـدم مئـات الألـوف مـن الظلمـة والكفـرة.

بمسـاعدة أربعـة مـن أصحابـه يهلـك الشـيطان، وتـنزل الملائكـة عـلى الأرض لمسـاعدته في حروبـه.

بعـد ولادتـه يتوجـه إلى الجبـال ليتعلـم مـن (بـرش رام) [تعـني المعلـم الأكـبر] ثـم يذهـب إلى الشـمال، ثـم يعـود إلى موطـن مولـده.

النـاس يسـحرون مـن عبقـه الـذي يخـرج مـن جسـمه، وإن عبـق

جسمه الطاهر يختلط بالهواء، ويلطف الأرواح والنفوس.

سوف يأتي معلم روحاني مع رفقائه الكرام، ويشتهر بين الناس باسم (محامد)، ويستقبله الأمير قائلا: يا ساكن الصحراء، هازم الشيطان، صاحب المعجزات، بريئا من كل شر، قائما على الحق، خبيرا في معرفة الله، ومحبا له، سلام عليك، أنا عبدك، أعيش تحت قدميك!».

- تلك النّبوءات موجودة في الكتب، منذ آلاف السّنين.. بالإضافة إلى حكايات كثيرة عن أنبياء الدّيانات الأخرى.

حدّقت في الرّجل غير مصدّق. الهندوس لا يزعمون أنّ الوحي هبط على بعضهم، لكنّها ديانة موغلة في القدم، ولا شكّ أنّ رجال اللاهوت ضمّنوا كتبها أخبارا عن معاصريهم، بما في ذلك من يوصفون بالأنبياء. سألت مستغربا:

- ألم يجعلك ذلك تفكّر في دخول الإسلام؟

ردّ ببساطة:

- للمسلمين دينهم، ولنا ديننا.. لكنّنا إخوة في الإيمان.. غاندي يقول: من حسن حظ الديانة الهندوسية أنها تخلت عن كل عقيدة، ولكنها محيطة بجميع العقائد الرئيسيّة، والجواهر الأساسية للأديان الأخرى!

فكّرت للحظة. من منكما خير أمام الله؟ شخص بحث عن الله في كلّ شيء فغرق في الخرافات وصدّق الخزعبلات، لكنّه آمن بالخالق مسبّب الحياة وعبده على طريقته، مهما كانت شاطحة.. أم شخص كفر بكلّ شيء وتجاهل كلّ الدّيانات لأنّه لا يسلّم بغيبيّاتها التي لا يستوعبها عقله؟

فاجأتك الفكرة رغم بساطتها: إن كنت تؤمن الآن بوجود خالق

مصـوّر مسـيطر عـلى الكـون، ألا يسـتحقّ منـك العبـادة والتّقديـس؟

بـتّ تلـك اللّيلـة، بعـد تحديـق طويـل في سـقف القـارب الخشـبيّ، وقـد قـرّرت أنّـك يجـب أن تفعـل شيئا بخصـوص إيمانـك الجديـد. هناك إلـه خلـق العالـم، وأوجـدك أنـت كبـشر يـا مالـك. هـو يـراك مـن حيـث لا تـراه، ويسـمع نجـواك.. لأنّـه كامـل القـدرة والعلـم. سـتخترع نوعـا مـن الصّـلاة، صلـة بينـك وبـين ربّـك. سـتتحدّث إليـه في أوقـات الخلـوة والصّفـاء. سـيكون لمعبـدك خلـف الأجمـة صفـة وغايـة. سـيكون خاصّـا بتأمّلاتـك ومناجاتـك لخالـق الكـون!

تخطـر ببالـك كلمـات ابـن قيّـم الجوزيّـة: (إنّ في القلـب شـعثًا لا يلمّـه إلا الإقبـال عـلى الله، وعليـه وحشـة لا يزيلهـا إلا الأنـس بـه في خلوتـه...).

وقد كان في قلبك ذاك وأكثر.

-٧-

حطّت طائرتك في مطار «دنبسار» في جزيرة بالي الإندونيسية عند الواحدة ظهرا. وجدت ممثل وكالة الأسفار المحلية في انتظارك بالإضافة إلى سائق شاب. استقبلاك بابتسامة واسعة وقلادة أزهار زاهية. كنت على أبواب إجازة حقيقيّة، وأنت قد وطّنت العزم على الالتزام بالخطّة في هذه المرحلة. لقد وعدت المعلّم، وأنت في حاجة إلى عطلة استجمام لبضعة أيّام حتّى تتجاوز آلام المفاصل وتصلّب العضلات التي لم تفارقك بعد. أنت في حاجة إلى نقاهة من أسبوع اليوغا!

بعد ساعة ونصف، كنت في فندق صغير اختارته ريم بعناية على أطراف قرية «أوبود» وسط الجزيرة. تسلّمت مفاتيحك وتبعت عاملة النزل إلى غرفتك. فاجأتك الأعمدة الخشبية العتيقة المحيطة بالسرير وستائر الشيفون الشفّافة التي ترفرف حوله، وغرفة الجلوس الوثيرة قبالة واجهة زجاجية عريضة. عبرت الصّالة وفتحت باب الشّرفة ليطالعك مشهد مدهش آخر لا يقلّ جمالا عن إطلالة فندق «منّار».. مسبح فيروزيّ لامتناه، يطلّ مباشرة على الأدغال الكثيفة. كانت غرف الفندق عبارة عن شاليهات واسعة بحمّام مكشوف ومسبح خاصّ! فكّرتُ أنّ أيّ اختيار آخر لم يكن ليكون أكثر توافقا مع ما تعنيه كلمة «استجمام» في قاموسك.

أخذت دشّا منعشا، ثمّ تمدّدت على أريكتك المريحة قبالة المسبح وأنت ترتشف عصير الفواكه الاستوائية وتصغي إلى سمفونية طبيعية تعزفها مخلوقات الغابة على قيد خطوات من متّكئك. ها أنّ

الإجـازة الحقيقيّـة قـد بـدأت!

عنـد السّادسـة مسـاء، تعالـت طرقـات عـلى بـاب الغرفـة. حـين فتحـت، فوجئـت بفيـل ضخـم يتملمـل ويحـرّك أذنيـه، مـع سائسـه! قـال الرّجـل:

- سيّدي لقد حان موعد العشاء.

صعـدت عـلى ظهـر الفيـل بنـاء عـلى التعليمـات، واسـتقرّ بـك المقام عـلى المقعـد المعـدنيّ المثبّـت فوقـه. ثـمّ أخـذ الحيـوان الضخـم يتهـادى في مشـيته وهـو يتبـع السّـائس في اتّجـاه مطعـم الفنـدق. لـم يكـن الرّكـوب مريحـا. فكّـرت أنّـك كنـت في غـنى عـن تلـك التجربـة الـتي يتهافـت عليهـا الكثـيرون. كانـت مفاصلـك تـئن مـع كلّ خطـوة!

بينمـا يرفـع الفيـل قدمـا ويضـع أخـرى في خطـوات ثقيلـة تهـتزّ لهـا الأرض، كنـت تفكّـر في جـبروت الإنسـان واسـتغلاله لبـاقي المخلوقـات، مهمـا بلغـت قوّتهـا. الإنسـان عـرف بعقلـه وتدبـيره كيـف يكـسر سـطوة الفيلـة الآسـيويّة العملاقـة ويطوّعهـا لحاجتـه منـذ القـدم، فيتنقّـل عـلى ظهورهـا ويحمـل متاعـه ويسـخّرها في مشـاريع البنـاء الضخمـة.. قبـل أن يخـترع الآلات ذات المحـرّكات والعجـلات. والآن تبقـى الفيلـة وسـيلة نقـل معتمـدة في كثـير مـن بقـاع العالـم، وعامـل جـذب للسـيّاح ومصـدر دهشـتهم وافتتانهـم.

مـرّت بذهنـك الآيـة: (وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً، قَالُـوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَـن يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الدِّمَـاءَ وَنَحْـنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ، قَـالَ إِنِّي أَعْلَـمُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ).

لقـد عـرف الإنسـان كيـف يعمّـر الأرض ويسـتخرج خيراتهـا.. لكنّـه في سبيل تحقيـق ذلـك دمّـر غابـاتٍ ولـوّث هـواءً وجفّـف ينابيـع وتسـبّب في انقـراض كائنـات، ناهيـك عمّـا أزهقـه مـن أرواح بـني جنسـه. لشـدّ مـا ألـحّ

عليـك ذاك السّـؤال منـذ عهـد بعيـد: مـا الـذي يعلمـه الله ولا تعلمـه الملائكـة بشـأن خلافـة الإنسـان في الأرض؟

كنـت قـد وصلـت إلى المطعـم، فترجّلـت وجلسـت إلى مائدتـك بعـد أن انتقيـت بعـض الأصنـاف مـن قائمـة الطّعـام. في الشّرفـة، كانـت فرقـة تقليديّـة إندونيسـيّة تعـزف مقطوعـة شـعبيّة، بينمـا يتحـرّك راقصـان شـابّان بثيـاب مزركشـة ويـدوران في انسـجام.. وعـلى بعـد بضـع عـشرات مـن الأمتـار، كانـت مجموعـة مـن الفيلـة الصّغـيرة المكـوّرة تلهـو في بركـة طـين وتتقـاذف الوحـل الأسـود في مـرح، بينمـا تنسـحب الشـمس إلى مغربهـا مخلّفـة أثـرا أحمـر في وجـه السّـماء. كنـت غارقـا في تجربـة إندونيسـيّة خالصـة وسـاحرة. لكنّـك مشـغول اللـبّ، تراقـب المشـهد في سرحـان. تتنـاول وجبتـك دون أن تحـسّ لهـا طعمـا، ويسـتمرّ السّـؤال يلـحّ عليـك: إن كان هنـاك إلـه خلـق الكـون ووهـب الإنسـان العقـل، ليـدرك وجـوده بتأمّلـه في معجـزة الخلـق، وجعلـه المتحكّـم في الكائنـات الأخـرى بتفوّقـه الأصيـل.. فمـا هـو الهـدف مـن خلقـه؟

تسـترجع في شيء مـن الحنـين أيّامـا مضـت، لكنّهـا تطفـو عـلى السّـطح بسرعـة حالمـا تسـتدعيها مـن ملفّـات الذاكـرة المخزّنـة بعنايـة. لقـد راودتـك تلـك الفكـرة قديمـا، وأنـت تتأمّـل في الآيـات ذاتهـا، وقلبـك عامـر بالإيمـان. لقـد أمـر الله الملائكـة بالسّـجود لآدم، في ذلـك المشـهد المهيـب، خـارج الزّمـان والمـكان. لكـنّ إبليـس تمـرّد مـبرّرا ذلـك بتفـوّق عنـصر خلقـه وشرف جوهـر مادّتـه.. النّـار. فـكان الطّـرد وكانـت اللّعنـة. فـأتى يوسـوس لآدم، ويداعـب أحلامـه بالخلـود!

(وَقَـالَ مَـا نَهَاكُمَـا رَبُّكُمَـا عَـنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَـا مَلَكَـيْنِ أَوْ تَكُونَـا مِـنَ الْخَالِدِيـنَ).

وقـد كان إبليـس نفسـه يرنـو إلى تلـك المرتبـة أيضـا -الخلـود- وهـي

مرتبـة تعتقـد أنّهـا خاصّـة في صفـوف الملائكـة، تلـك الكائنـات المقربـة مـن الـذات الإلهيـة، لدرجـة أنـه يفصـح لهـا قبـل غيرهـا عـن قـراره بخلـق كائـن بـشري، وتسـمح مكانتهـا منـه أن تجادلـه في مـراده.. تلـك الكائنـات ليسـت بالتأكيـد تلـك الـتي حـضرت التّحـدّي أمـام آدم وأمـرت بالسّـجود، بـل أخـرى أعـلى.. (العالـون الخالـدون).

(قَـالَ يَـا إِبْلِيـسُ مَـا مَنَعَـكَ أَن تَسْـجُدَ لِمَـا خَلَقْـتُ بِيَـدَيَّ، أَسْـتَكْبَرْتَ أَمْ كُنـتَ مِـنَ الْعَالِـينَ)؟

(العالـون الخالـدون)، كنـت تؤمـن بوجـود تلـك الفئـة مـن الكائنـات العلويّـة! رغـم بحثـك الطّويـل، لـم تكـن تجـد تفاسـير تدعـم تأويلـك. كلّ مـا وقعـت عليـه يـداك كان يدعـم تفسـير «العالـين» بالكافريـن! ومـع ذلـك، فقـد بنيـت أطروحتـك المتكاملـة لغايـة خلـق الإنسـان مسـتندا إلى إشـارات خفيّـة في النـصّ القـرآني تحسـب أنّهـا تخاطبـك وحـدك وتضـع أسرارهـا بـين يديـك!

لعلّـك كنـت حينهـا تؤمـن بـأنّ مـا وقـر في قلبـك مـن إيمـان صـادق صـافٍ يسـتحقّ مكافـأة أعـلى مـن جنّـة يتقاسـمها مـا لا يحـصى عـدّه مـن المؤمنـين، لقـد كنـت في سـباق مـع الملائكـة، ألا تذكـر؟ ترجـو التفـوّق عـلى الكائنـات النّورانيّـة، فطمحـت إلى مرتبـة متاحـة للإنسـان تعلـو مرتبـة الملائكـة!

في تلـك اللّحظـة، وأنـت تراقـب الفيلـة الصّغـيرة وتسـتمع إلى نغمـة ناعسـة تداعـب فـؤادك، تتأرجـح بـين معتقداتـك القديمـة المتطرّفـة في تعلّقهـا بالمقـدّس.. وبـين قناعتـك القائمـة بـأنّ وجـودك العابـر في هـذا العالـم لا يعـني أحـدا غـيرك مـن الكائنـات!

كانـت معتقداتــك الدّينيّـة في السّـابق تقـدّم إجابـات وافيـة عـن الجوانـب الثلاثـة الـتي تشـغل الإنسـان بشـأن مسـاره: أصـل وجـوده،

رحلتـه عـلى الأرض، مآلـه بعـد المـوت. أمّـا الاعتقـاد الرّبـوبيّ فهـو يـردّ مصـدر الإنسـان إلى الإلـه الخالـق، لكنّـه ينتهـي إلى أنّـك تحيـا في كـون مغلـق ليـس للإلـه دور فيـه.. سـواء في حياتـك أو بعـد المـوت. وذلـك يعـني أنّ هدفـك الأسـمى مـن الحيـاة هـو تحقيـق السّـعادة الدّنيويـة، أمّـا مصيرك بعـد المـوت فهـو العـدم! لكـن أيّ سـعادة قـد تكـون ممكنـة وأنـت تعلـم أنّ موتـك يأخـذك إلى العـدم؟ أنـت تعيـش مترقّبـا فنـاءك، مثـل حامـل كفنـه بـين يديـه، صـدر بحقّـه حكـم الإعـدام ولا شيء عـلى الجانـب الآخـر قـد يعزّيـه في مصيبتـه!

لكـنّ عقلـك يرفـض أن تخـسر كل شيء بالمـوت! هـل بعـد أن داعبتـك أحـلام الخلـود ورؤيـة الخالـق تقنـع بفنـاء تـامّ، كأنّ ذاتـك -الفريـدة والمتفوّقـة- لـم تكـن شـيئا، وتقلّبـك في مسـالك الشـكّ والإيمـان، مقتربـا تـارة مبتعـدا أخـرى، مضيعـة وقـت وجهـد.. لأنّ كلّ شيء سـينتهي إلى العـدم؟ كانـت تلـك الفكـرة تخيفـك أكـثر مـن أيّ شيء آخـر.. أكـثر مـن فكـرة الثـواب والعقـاب. لـم يكـن المـوت كابوسـا في السّـابق. بـل لعلّـك تمنّيـت موتـا في سـبيل الله. بـل لعلّـك ذرفـت الدّمـع في خلواتـك شـوقا للقـاء رسـول الله! أمّـا هـذا المـوت الـذي ليـس بعـده شيء.. فهـو مرعـب، مرعـب جـدّا.

نجحـت رغـم كلّ شيء في إسـكات صـوت عقلـك، وتخلّصـت مـن كآبتـك لبضعـة أيّـام. خرجـت برفقـة سـائقك «بـودي» الهنـدوسيّ لتتنقّـل مـن شرق الجزيـرة إلى غربهـا ومـن شـمالها إلى جنوبهـا، وتـزور معالمهـا السّـياحيّة الشّـهيرة مثـل أيّ سـائح تقليـديّ. تفتـح قلبـك لموجـات الدّهشـة وتسـتقبل بترحـاب هبـات يومـك مـن شـلالات وقصـور قائمـة عـلى المـاء ومعابـد هندوسـيّة نائيـة ذات معمـار فريـد وشرفـات متدرّجـة عامـرة بـالأرز!

أمضيـت بقيّـة الأسـبوع عـلى الطّريـق، سـارحا في ملكـوت الله بديـع

الصّنع، لاهيا عن التّفكير فيه بالتأمّل في خلقه!

كانت المعابد مختلفة في بالي عنها في الهند. تلك الجزيرة ذات الأغلبيّة الهندوسيّة في بلد إسلاميّ الدّيانة كانت تزخر بما يزيد على عشرة آلاف معبد! كنت تفاجأ بها في كلّ ركن وكلّ شارع، وتباغتك الآلهة الحجريّة السّوداء التي تحفّ الطّرقات وتستقبلك في مداخل المطاعم والمحلّات. وقد وقفت مسحورا أمام بناء معبد «أولون دانو» بأسقفه الأحد عشر، مثل «باغودا» يابانيّة بطراز مميّز، تزداد ضيقا كلّما ارتفعت في عنان السّماء. على ضفاف بحيرة «براتان»، جلست تتأمّل المعبد المشيّد لتمجيد آلهة الماء، والذي يمثّل في البطاقات البريديّة ومطويّات وكالات الأسفار رمز الجزيرة دون منازع.

وعند غروب الشّمس، وقفت على شاطئ المحيط الهنديّ غرب بالي، تطالع مشهد معبد «تانا لوت» القائم على صخرة غير بعيد عن الشاطئ الحجريّ وقد غمرت المياه الممرّ الوحيد الذي يربط المبنى باليابسة، بينما أخذت الأمواج الهائجة تضرب قاعدة الصّخرة بلطخات عنيفة! كان عليك أن ترجع في وقت آخر، حين يكون المدّ منخفضا حتّى تتمكّن من زيارة الموقع، لكنّ منظر الجزيرة الصّغيرة المنعزلة كان له وقعه البليغ في وجدانك. تمثّلت «معبدك» المتخيّل من تمرين اليوغا، حيث تتقوقع روحك المعذّبة، وقد عصفت به أمواج الشّك والحيرة وأحاقت به من كلّ جانب. لقد رأيت نفسك هناك. شعرت أنّك تراقب المشهد من الخارج.. مثل مراقب محايد يرصد الأوضاع.

وحين هدأ الموج، وانسحب الماء نحو الأفق في زيارتك الثّانية، تمكّنت من عبور الممرّ. وقفت أمام البناء، كأنّما تقف قبالة روحك العارية. مددت ذراعك وقلت في نفسك: هيّا بنا، سنخرج سويّا من هذه الأزمة.. وسنكون بخير!

أنهيـت أسـبوع «بـالي» برحلـة بحريّـة مبكّـرة. أبحـر مركـب الصّيـد الصّغـير عنـد السّادسـة صباحـا مـن شـاطئ «لوفينـا» شـماليّ الجزيـرة، وحالمـا أصبحـت في عـرض البحـر، بانـت لـك مراكـب الصّيـد المشـابهة تشـقّ العبـاب في اتّجـاه هـدف واحـد. كانـت عـشرات المراكـب الخشـبيّة الطّويلـة والضّيقـة تحمـل سـيّاحا يشـهدون شروق الشّـمس مـن موقـع مميّز، ويسـتعدّون لملاقـاة واحـد مـن أذكى الحيوانـات عـلى سـطح البسـيطة: الدّولفـين!

تتهـادى المراكـب وتبطـئ مـن تقدّمهـا، تسـكت محرّكاتهـا متربّصـة وتنتظـر. فجـأة تظهـر إشـارة مـا مـن بعـض الصّياديـن: لقـد شـوهدت الدّلافـين! فتنطلـق المحـرّكات مزمجـرة مـن جديـد وتتسـابق حـتّى تخالهـا سـتتلاصق رغـم سـعة البحـر وامتـداده، وتندفـع صـوب وجهـة محـدّدة. ثـمّ مـا تلبـث أن تغـيّر مسـارها مـع إشـارة جديـدة، ويتحـرّك الـكلّ مثـل جسـد واحـد.. حـتّى تبـصر الدّلافـين عـن قـرب، هنـا وهنـاك، وتلتقـط لهـا صـورا كثـيرة، وتمـلأ عينيـك مـن مشـهدها الخـلّاب وهـي تتقافـز في حـركات بهلوانيّـة أخـاذة.. وحـين يشـعر الصيّـاد بـأنّ السّـائح قـد نـال كفايتـه مـن الدّهشـة، بعـد سـاعتين مـن المطـاردة المسـعورة، يقفـل راجعـا إلى الشـاطئ.

لقـد كان كلّ مـا رأيتـه في «بـالي» رائعـا. لا تنكـر أنّـك أمضيت وقتـا رائقا. لقـد دافعـت الجزيـرة أمـام عينيـك النّاقدتـين عـن صيتهـا أيّمـا دفـاع، واسـتحقّت في نظـرك الشـهرة الـتي حقّقتهـا لـدى المسـافرين ووكالات الأسـفار حـول العالـم! لكـنّ شـيئا مـا كان يزعجـك طـوال الوقـت ويفسـد متعتـك.. البـشر! في كلّ معلـم زرتـه، كان النّـاس يتدافعـون، يتزاحمـون ويتكلّمـون بصخـب. وأنـت تحـبّ الوحـدة والسّـكون.

لذلـك، حالمـا وصلـت إلى «لمبـوك»، الجـارة المسـلمة -بعـد رحلـة جويّـة أمدهـا نصـف سـاعة- كان ببالـك خاطـر واحـد: كيـف تحقّـق بعـض

الوحـدة؟ كان ذلـك ممكنـا في لمبـوك، بمـا أنّهـا أقـلّ شـعبيّة لـدى السـيّاح وبنيتهـا التحتيّـة أكـثر تواضعـا. كانـت الجزيـرة ذات لمسـة أصيلـة، بشـواطئها البريّـة غـير المهيّئـة وغاباتهـا الكثيفـة صعبـة الاقتحـام. أفضيـت برغبتـك إلى موظّفـة الاسـتقبال الثرثـارة في فندقـك الشـاطئي وأعربـت عـن ضيقـك بالضوضـاء والزّحـام، فأضـاء وجههـا بابتسـامة ظافـرة وهـي تقـترح:

- يمكنـك زيـارة بعـض الجـزر المهجـورة في الجـوار.. هـل أحجـز قاربـا مـن أجلـك؟

كانـت هنـاك جـزر كثيرة مهجـورة متناثـرة في المحيـط، غير بعيـد عـن الجـزر المأهولـة الـتي عمّرهـا البـشر. فمـن ضمـن مجمـوع الجـزر المكونـة لأرخبيـل إندونيسـيا العظيـم الـتي يفـوق عددهـا ثلاثـة عـشر ألـف جزيرة، يعتـبر أكـثر مـن نصفهـا مهجـورا مـن السـكّان، ولا اسـم لـه. راقـت لـك فكـرة قضـاء نهـارك وحيـدا عـلى شـاطئ منعـزل، مثـل «حـيّ بـن يقظـان» يعيـد اكتشـاف العالـم ويكتـب مبـادئ الفلسـفة الأولى مـن وحـي التّجربة!

في الأسـاس، لـم يكـن الفنـدق الـذي نزلـت بـه مكتظـا بالـزوّار، ولا يزيـد عـدد غرفـه عـلى العـشرة، فاختيـارات ريـم للفنـادق في معظمهـا صغـيرة وبسـيطة -باسـتثناء فنـدق أوبـود المميّز ذاك- للضغـط عـلى ميزانيـة الرّحلـة مـا أمكنهـا. لكـنّ صراخ جيرانـك الصّغـار أثنـاء وجبـة الإفطـار، وركضهـم الصّاخـب حـول المسـبح أشـعراك برغبـة ملحّـة بالعزلـة.. في أقـرب وقـت.

خرجـت في يومـك الأوّل لزيـارة شـلالات لمبـوك الشّـهيرة، عـلى أن تحجـز قاربـا صبـاح الغـد. كان لا بـدّ لـك مـن رؤيـة المـزار الأوّل للجزيـرة قبـل أن تبتعـد نحـو مغامـرة فرديّـة مجهولـة المعالـم في جزيـرة مهجـورة. بعـد رحلـة دامـت ثـلاث سـاعات عـلى مـتن سـيّارة رباعيّـة الدّفـع، وصلـت

إلى سفح بركان «رنجاني» الخامد. تبعت الدّليل الذي كان في انتظارك نحو منطقة الشّلالات. كان عليك أن تنزل ثلاثمائة وستين درجة حجريّة متعرّجة لتصل إلى مصبّ الشّلال الأوّل، يقودك الصّوت الهادر لتدفّق الماء من العلياء. كان الجمع غفيرا على الطّريق، وفي حوض الشّلال أيضا. عشرات الإندونيسيّين، يستحمّون في مياه النّبع المباركة. أنت تعرف الآن عن علاقة شعب هذه البلاد بهبات الطّبيعة. المياه التي تنبع من الجبل مقدّسة. خضت في الماء حتّى ركبتيك، ثمّ وقفت تحت مسار الدفق المنهمر من أعلى، واستسلمت لدقائق لعذوبة المياه الباردة التي غمرتك. حين أشار دليلك، انسحبت لتمضي وراءه في اتّجاه الشّلال الثّاني.

مشيت زهاء السّاعة، متمهّلا، متأمّلا، لا يعنيك طول المسافة ولا تراكض الأطفال من حولك. سرت في شعاب كثيفة، قطعت نهرا وعبرت جسرا، ثمّ ظهر الشّلال الثّاني. «تيو كيليب» العظيم! كنت في الأسفل، وكان جدار من الخضرة يسدّ الطريق عند نهاية الجدول. كان الماء ينبع من مواضع مختلفة من الحاجز الصّخري المكسوّ بطبقة يانعة من الحشائش والنّباتات. تلتقي ذرّات الماء المتناثرة في الهواء بخيوط الشّمس المتألّقة في ذاك الوقت من الظّهيرة لترسم أقواسا ملوّنة في الفضاء، فتسحر عينيك وتتعلّق بها في انبهار مثل طفل ساذج! كان يمكنك -وأنت الذي يأسره الجمال ويخلب لبّه- أن تمضي سحابة يومك قابعا على صخرة ملساء على جانب الجدول، قبالة الشّلال تتأمّله بلا كلل ولا ملل. وهل في الحياة متع تضاهي متعة التوحّد مع معجزات الخلق الفاتنة؟

أيقنت في تلك اللّحظة أنّك قد أخذت تعيد اكتشاف نفسك عبر هذه الرّحلة. لقد شغلك التّفكير في كلّ ما هو قبيح من سوءات النّفس البشريّة عن هواك القديم بالتأمّل. أين أنت من أمسيات

شاطئ «المرسى»، وشرفة بيت جدّك في «تستور» ساعة السّحر؟ أين أنت من تهذيب روحك بالشّعر العربيّ الأصيل والابتهالات الصّوفيّة والذّكر؟ هل أصبحت كومة من شعث يلتهم بعضه بعضا؟

-٨-

رسا القارب الصّغير السّريع على الشّاطئ بعد ساعة من الإبحار، فنزلت وأنت الرّاكب الوحيد لتخوض أمتار الماء القليلة التي تفصلك عن اليابسة، بينما يوصيك الربّان للمرّة العاشرة بأن تكون في نفس المكان على السّاعة الرّابعة مساء، ليقلّك إلى فندقك على شاطئ «كوتا» من جديد. لم تكن هناك من وسيلة للعودة إلّا مراعاة الدّقة في موعدك مع قاربك. لا إرسال هاتفيًّا هنا ولا وسيلة للتواصل مع العالم المتحضّر. إن كنت تريد ألا تبيت في العراء، فيجب عليك ألّا تبتعد كثيرا، وأن تضع علامة تذكّرك بموقع نزولك فلا تتوه في تجوالك. أشار الربّان إلى شجرة جوز هند مائلة باتّجاه الشاطئ وقال: هذه هي العلامة.

ألقيت نظرة شاملة على جزيرتك الخاصّة، ثم هززت رأسك في استحسان. إنّها جزيرتك أنت وحدك اليوم. أمام عينيك مساحة شاسعة من الرّمال البيضاء المختلطة بالشعب المرجانيّة الميتة التي لفظتها الأمواج، وغابة كثيفة من الحشائش وأشجار جوز الهند والموز والمانجو والبابايا، وبحر ممتدّ إلى الأفق. بحر صافٍ شفّاف، كما تحبّ أن يكون، مغرٍ بالسّباحة.. والتأمّل. وقد فضّلت الثانية.. ليس على طريقة اليوغا، بل على طريقتك القديمة. افترشت منشفتك، وجلست في وضعية مريحة، مستندا إلى حقيبتك الصغيرة التي حوت متاع اليوم: وجبة غداء حضّرتها مضيّفتك بتفانٍ، آلة تصوير، قارورتي ماء، قناع الغوص وقصبة التنفّس.

إنه لا يختلف كثيرا عن الشّاطئ على الضفّة الأخرى حيث خلّفت

فندقك، لكن لا بشر هنا ولا معمار. أغمضت عينيك، ومتّعت سمعك بصوت الهدوء.. هدير الأمواج التي تضرب الشاطئ عند قدميك ونعيق النّوارس. تمدّدت هناك زهاء السّاعة.. تصغي إلى ما تهمس به الطبيعة في أذنيك من أسرار. أنت الآن حيّ بن يقظان آخر. وحيد على جزيرة نائية، والعالم يفتح ذراعيه بترحاب، ينتظر أن تلقي ذاتك في أحضانه، تكتشف خفايا الحياة المتوارية وراء حجاب.

لبست القناع ووضعت قصبة التنفّس في فمك وغطست. استمتعت ساعة أخرى بالفرجة على الأسماك الملوّنة التي تسبح تحتك، تفرّ من رائحتك الآدميّة وتختبئ في جحورها، ثمّ تطلّ بعد قليل في توجّس وفضول. عالم عجيب وساحر عند أطراف أصابعك، وأنت وحدك.. وحدك تماما، لا أحد يشاركك متعتك، ولا أحد تحدّثه في نهاية النّهار عن بهجة يومك. انقبضت عند ذلك الخاطر، فعدت إلى الشّاطئ. جفّفت نفسك وقد هبطت معنويّاتك فجأة.

جمعت حاجاتك، ثم ربطت منشفتك إلى جذع شجرة جوز الهند، وابتعدت في اتّجاه الغابة.

مشيت طويلا، في طريق متعرّجة غير ممهّدة تشقّ الدّغل، محاولا أن تحافظ على الاتّجاه نفسه. كانت الغابة أكثر اتّساعا من توقّعاتك. قدّرت أنّك قد تقطع الجزيرة طولا من شاطئ إلى آخر خلال ساعة واحدة. لكنّك تائه الآن ولا تعلم كم من الوقت يفصلك عن الجانب الآخر. راقبت ساعتك، كانت ثلاث ساعات تفصلك عن موعدك مع الرّبّان. إذا رجعت الآن، ستكون أمامك ساعتان إضافيّتان، ومملّتان.. أمّا إذا تابعت المسير، فقد تكتشف شيئا مدهشا ما على الجانب الآخر؟ قدّرت أنّ بإمكانك المجازفة لنصف ساعة أخرى. إذا لم تصل إلى الشاطئ، ترجع.

بعـد دقائـق قليلـة، جذبـت انتباهـك صخـور ملسـاء مرصّفـة بشـكل غريـب. توقّفـت لتأمّـل ثـلاث صخـرات متوازنـة بعضهـا فـوق بعـض، عـلى نقـاط ارتـكاز غـير بديهيّـة البتّـة. لـم يكـن تماسّـها عـلى الجوانـب المسـطّحة، بـل مـن جهـة النتـوءات الأكـثر حـدّة. أخرجـت آلـة التّصويـر عـلى عجـل، والتقطـت صـورة لمـا حسـبته أعجوبـة مـن عجائـب الطبيعـة النّـادرة. ثـمّ مـددت يـدك بحـذر لتلمـس الصّخـرة العليـا، فانهـار التـوازن الهـشّ عنـد قدميـك! أطلقـت صيحـة حـسرة ونـدم، بعدمـا أفسـدت أعجوبتـك المكتشـفة.. ثـمّ مـا لبثـت حسرتـك أن انطفـأت حـين انتبهـت إلى مجموعـة صخـور أخـرى عـلى بعـد أمتـار قليلـة، أربعـة هـذه المـرّة، متراكمـة هـي أخـرى في تـوازن مذهـل. مـددت بـصرك أبعـد وأبعـد.. ففاجأتـك المجموعـة الهائلـة للأبـراج الصخريّـة المتوازنـة، مختلفـة الأحجـام والارتفاعـات! جلـت حـول الموقـع في انبهـار، والتقطـت صـورا مـن زوايـا مختلفـة، وأنـت تفكّـر في التفسـيرات الممكنـة. ربّمـا كان أحدهـا برجـا طبيعيّـا، قلّـده زوّار الجزيـرة العابـرون واحـدا تلـو الآخـر، حـتّى امتـلأت المسـاحة المجـاورة بالأشـكال الصّخريّـة؟ فتّشـت عـن تواريـخ أو أسـماء محتملـة سـجّلها الـزوّار عـلى جانـب الطّريـق الترابيـة أو نحتوهـا عـلى الصّخـور.. دون جـدوى. بحثـت عـن إشـارات أو علامـات تـدلّ عـلى سلّم زمـنيّ مـا، بـلا فائـدة. واصلـت مشـيك في الاتّجـاه الـذي تمتـدّ عـبره أبـراج الصّخـور، حـتّى شـممت رائحـة دخـان! خلـف الحشـائش المرتفعـة، ظهـر أمامـك فجـأة كـوخ صغـير مـن الخـيزران!

- مرحبا بالزّائر!

قبـل أن تـدرك حقيقـة الأمـر، ظهـر رجـل قصـير سـتّينيّ أصلـع الـرّأس عنـد المدخل.

- هذا يوم جميل.. السّمك جاهز إن كنت جائعا.

كان يتكلّم إنجليزية طليقة بلكنة محليّة خفيفة. رددت التحيّة في دهشة، ولبثت واقفا عند العتبة في ارتباك. في الدّاخل، لم يكن هناك سوى حصير من الخيزران لشخص واحد، وموقد بدائي تشوى عليه سمكتان متوسّطتا الحجم، وصندوق -من الخيزران أيضا- ممتلئ بحبّات جوز هند ومانجو وأناناس وبابايا؛ الأشجار الوحيدة التي تنمو على الجزيرة. في الركن البعيد، كان هناك صندوقان كبيران مغلقان، لا شكّ أنّهما يمثّلان خزانة الرّجل وحافظة متاعه.

- شكرا.. معي غدائي.

تذكّرت وجبتك التي أحضرتها معك، والتي لم تكن قد تناولتها بعد. كنت تنتظر بلوغ الشاطئ الآخر لتأخذ قسطا من الرّاحة وتأكل. راودك فجأة إحساس بالشّفقة على الرّجل الذي يعرض عليك وجبته المتواضعة، وربّما يكون قد مضى عليه زمن طويل منذ تناول طعاما نظيفا آتيا من وراء البحر. أخرجت صندوقك على الفور، وقلت في لهجة ودودة:

- ربّما نتقاسم وجبتينا؟

ألقى الرّجل نظرة فاحصة على شطيرة الدّجاج وقطع البطاطس المقليّة والسّلطة، ثمّ هزّ رأسه في ترحاب. أخذت سمكة من شوائه، وراقبته في فضول وهو يتناول أصابع البطاطس ويتذوّقها ببطء وتمهّل، تاركا مسافة بين القضمة والقضمة. كان يأكل بهدوء أشبه بالخشوع، دون لهفة أو تهافت. أنهى قطع البطاطس، ثمّ ردّ إليك الصّندوق شاكرا، فعلّقت في استغراب:

- لم تأكل الشيء الكثير!

- أخشى أنّ معدتي لم تعد تستسيغ أنواعا كثيرة من الطعام. لكنّني لم أجد من الأدب أن أردّ دعوتك.

في الأثناء، كنت قد أنهيت سمكتك.

- لا آكل عادة أكثر من سمكة واحدة. لكنّني علمت بقدومك اليوم.. فشويت سمكة إضافية.

- علمت بقدومي؟!

حسبت لوهلة أنّ الرّجل اتّفق مع الربّان أو ربّما تواصل مع صاحبة الفندق، لكنّ ظنّك تبخّر حين هزّ العجوز رأسه مؤكدا وهو يضيف شارحا.

- أنا في تواصل مستمرّ مع الطبيعة.. وهي تخبرني بما يستجدّ في الجزيرة.

- الطبيعة أخبرتك؟

- نعم، السّمكة التي اصطدتها نبّأت عن غطسك قرب الشاطئ الجنوبي.

- لكنّك اصطدتها قرب شاطئ الشّمال، فكيف عرفت؟

- الأسماك تتواصل فيما بينها، ألا تعلم؟ وقدومك اليوم هو الحدث الأهمّ الذي شغل مجتمع الأسماك في الشّعاب المحيطة بالجزيرة.

ضحكت باستخفاف، لكنّ مضيّفك بدا جادّا تماما.

- إذا بقيت هنا أكثر.. فربّما أعلّمك كيف تتواصل مع الطّبيعة بدورك.

لم تعلّق. إنّما ألقيت نظرة سريعة على ساعتك. كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر. إذا انطلقت الآن، فسيكون بوسعك اللّحاق بموعدك مع الرّبّان.

- لكنّ الوقت ينفد منك.. وها قد حان موعد رحيلك.. يا للخسارة!

كان العجوز يقول ذلك في أسف، وهو يجمع بقايا الطّعام ويتحرّك في أرجاء الكوخ مولّيا إيّاك ظهره. فكّرت، لا شكّ أنّها خسارة بالنّسبة إليه، أن ترحل بهذه السّرعة، وقد وجد أخيرا من يجاذبه أطراف الحديث بعد دهر من الصّمت. ربّما تكون أسراره مجرّد خدعة لاستبقائك؟ لكنّ ذلك لم يزعجك البتّة. هذا رجل يرغب في صحبتك، وأنت لا تمانع الجلوس إليه والاستماع إلى بعض التّخاريف المسلّيّة! ماذا هناك لتفعله في فندقك وقد يكون أكثر أهميّة من هذا؟

- سأعود في الغد!

لوّح بكفّه دون أن يلتفت، كأنّما لا يكترث لوعدك.

- ماذا تريد أن أحضر لك من الضّفّة الأخرى؟

- فقط ارحل!

رقّ قلبك للهجته الجافّة وجفائه المفاجئ.

- أراك غدا!

هتفت وأنت تسرع مغادرا، وتركض في اتّجاه الشّاطئ الجنوبيّ.

مساء، وأنت تستلقي في سريرك بالفندق الصّغير، فكّرت بالجزيرة المهجورة التي لم تكن مهجورة فعلا، وفي ساكنها الوحيد الذي يترقّب الزوّار ويعدّ لهم الشّواء. كانت هناك أسئلة كثيرة تودّ أن تطرحها عليه حين تراه مجدّدا.. كيف انتهى به الأمر هناك وحيدا، ولماذا يبقى؟ ولماذا يصنع أبراج الصخّور وكيف؟ وما هي أسراره المزعومة وطرق تواصله مع الطّبيعة؟

في الصّباح، جمعت في حقيبتك بعض الأدوات التي توقعت أن تسعد العجوز الإندونيسي المنعزل: قطعة صابون من الفندق، إبرة خياطة وبعض الخيوط، إناء بلاستيك صغير، قوارير مياه فارغة وبعض قطع الملابس التي قرّرت أنّ بإمكانك الاستغناء عنها. في

طريقـك إلى الميناء حيـث ينتظـرك القـارب نفسـه، توقّفـت في السّـوق، وانتقيـت بعـض قطـع الفاكهـة الـتي توقّعـت أنّهـا لا تنمـو عـلى الجزيـرة المهجـورة. أخـذت أيضـا بعـض الحلـوى، علبـة ملـح، منشـفة، وبعـض الحبـال. حزمـت هدايـاك الصّغـيرة ومضيـت مبتسـما.

لـم يكـن مـن العسـير الوصـول إلى كـوخ العجـوز هـذه المـرّة. اسـتقبلتك ابتسـامته الواسـعة عنـد المدخـل وهـو يقـول في حمـاس:

- لقد أحسنت بالعودة. كنت لتفوّت على نفسك الشيء الكثير!

تفحّـص الهدايا الـتي أحضرتهـا في اهتمـام، ثـمّ قـال في تحفّـظ رغـم امتنانـه الظاهـر:

- لم يكن عليك أن تكلّف نفسك هذه المشقّة.

بعـد أن جمعهـا وخبّأهـا بحـرص في أحـد صناديـق الخـيزران خاصّتـه، قـال وهـو ينفـض كفّيـه ويضيـف بلهجـة جـادّة:

- تستحقّ مكافأة.. ما رأيك في استكشاف كنز الجزيرة الأوّل؟

كـنز الجزيـرة؟ تسـاءلت في نفسـك سـاخرا إن كانـت هنـاك سـفينة قديمـة محمّلـة بالذّهـب قـد غرقـت قـرب الجزيـرة، أو مدينـة أطلنتيـس مـا مخفيّـة في أعمـاق الغابـة منـذ دهـور؟

قال بعد أن انطلقتما على الطّريق:

- لعلّك زرت شلالات بالي ولمبوك؟

لا يـزال مشـهد شـلال لمبـوك الهـادر حـاضرا في وجدانـك وقـد شـكّل متعـة لا تضاهـى منـذ يومـين.

- حسنا.. سآخذك إلى شلال يفوقها جمالا وهيبة!

هكـذا إذن. هـذا هـو الكـنز. لـم تكـن تتوقّـع الكثـير بأيّـة حـال. لكـنّ حـتّى هـذا لا يبـدو مقنعـا. إن كانـت الجزيـرة تحـوي شـلالا بهـذه

العظمـة، فـإنّ أحدهـم كان ليكتشـف الأمـر بطريقـة مـا ويجعلـه قبلـة سـياحيّة تـدرّ أمـوالا طائلـة، كمـا هـو الحـال مـع كلّ المـزارات الطبيعيّـة في المنطقـة!

- ما اسم الشلال؟

- هذه جزيرة لا اسم لها.. وشلالها لا اسم له أيضا!

هززت رأسك متفهّما، فأضاف على الفور:

- يمكنـك أن تلقـي عليهـا الاسـم الـذي يناسـبك. هـذه الجزيـرة جزيرتـك. أنـت كولومبـس اليـوم!

ضحكت في استمتاع وراقت لك الفكرة.

- إذن، فلتكن جزيرة مالك!

هزّ رأسه يؤمّن على قولك.

- مالك هو اسمي.

لـم يبـد عليـه الاهتمـام ولا الفضـول. تسـاءلت حينهـا، كـم مـرّة تكـرّر المشـهد في حيـاة العجـوز؟ كـم سـائحا سـاذجا عـاد إلى بلـده وهـو يعتقـد أن جزيـرة في أرخبيـل إندونيسـيا قـد صـارت تحمـل اسـمه؟ كـم اسـما تعاقـب عـلى الجزيـرة خفيـة، لتظـلّ مهجـورة وبـلا اسـم في نظـر كلّ زائـر جديـد؟ لكـنّ الأمـر لـم يكـن ذا أهميّـة إطلاقـا. وحدهـا اللحظـة الرّاهنـة تحمـل أهميّتهـا. هـذا العجـوز الإندونيـسيّ يبـدو مثـل دليـل سـياحيّ محـليّ يقـصّ سـيرة المـكان. لكنّـه يـترك لـزوّاره نسـج الحكايـة، ليكونـوا أبطالهـا رغـم إدراكهـم زيفهـا.

- ماذا عن الشلال؟ هل ستطلق عليه اسما؟

فلتجـاره في لعبتـه. لا بـأس. غمرتـك موجـة رومانسـية مفاجئـة، فقلـت عـلى الفـور:

- فليكن شلال سارة!

توقّفت مصدوما. كنت تقصد ريم بالتّأكيد. وكيف يمكن أن تقصد غيرها وهي كلّ ما يشغلك في صحوك ومنامك؟ لكنّها زلّة لسان لعينة. محوت الأفكار السّخيفة بسرعة، واستعدت صفاء ذهنك. تمثّلت ريم بابتسامتها المشرقة والتفاتتها الخلاّبة. إن كانت الجزيرة مالكا، فكنزها هو ريم.

حثثتما السّير عبر الأدغال، تارة تعبران جدولا وأخرى تتسلّقان هضابا قليلة الارتفاع، حتّى تبيّن لك هدير المياه المتدفّقة قبل أن يتراءى الشلال المتواري خلف الأجمات الكثيفة، بعد نصف ساعة من السّير. توقّفت عاقدا حاجبيك أمام مجرى الماء، ورفعت رأسك إلى مهبط الشلال. لم يكن ارتفاعه يزيد على الأمتار العشرة. هل يقارن بشلال تيو كيليب؟ قطعا لا! لا من حيث الارتفاع ولا الشكل ولا الغزارة. غمرتك الخيبة، والتفتّ إلى العجوز في عتاب. لكنّه غمزك وهو يواصل المسير:

- اتبعني!

سار حتّى وقف تحت المياه الباردة المتدفّقة. فتح ذراعيه وأغمض عينيه واستسلم لسياط الماء العنيفة تضرب رأسه. سألت فجأة وكأنّما أدركت شيئا:

- هل هي مياه مقدّسة؟

كنت في مرحلة سابقة قد اكتشفت أنّ الإندونيسيّين يعتبرون معظم منابع المياه الطبيعيّة مقدّسة، الباردة منها والحارّة، فيتبرّكون بها ويقيمون الطّقوس الخاصّة. أجاب دون أن يفتح عينيه:

- هل هي كذلك؟ هذا شلالك، هل نسيت؟ أنت من سمّاه، وأنت أدرى بمزاياه!

كان يصرخ حتّى يصلك صوته المغمور بالهدير. خضت عبر البركة واقتربت من موضعه، فتحرّك حين شعر بوجودك، وقال بابتسامة:

- هذا الشلال مميّز.. لأنّه شلّالك أنت وحدك.. لا أحد يزاحمك فيه.. شكرا لأنّك سمحت لي هذه المرّة بالاستمتاع بمياهه العذبة!

ثمّ تنحّى جانبا وسار في اتّجاه الضفّة، لتبقى وحدك تحت خيوط الماء المنهمرة. فتحت ذراعيك، واستقبلت البرودة اللاذعة التي غمرتك، رفعت رأسك، مغمضا عينيك، شربت رشفات من الماء الذي بلل شفتيك. لقد سبق لك أن سبحت في مياه الشلالات الأخرى أيضا، لكنّ الإحساس لم يكن بذلك النّقاء وتلك القوّة. لقد كان العجوز محقّا. هنا لا أحد يزاحمك. ليس هذا مزارا سياحيّا يتدافع حوله النّاس، ليغطس كلّ منهم في الماء لثوانٍ أو ربّما دقائق قليلة. هذا كنز مدفون في عمق الطبيعة، ولا بشر يصل إلى هنا غيركما.

يختفي إحساسك بما حولك وأنت تنغمس أكثر في العذوبة والبرودة. جلست لتنغمس حتّى كتفيك، ويبقى رأسك يتلقّى الدّفقات. وفي لحظة لم تدرك مدى دقّة توقيتها، انقطع وتر ما كنت قد أحكمت شدّه، فانفجرت باكيا!

أنت تقعي تحت سيل مياه الشلال قارسة البرودة، وأنهار حارّة تجري على وجنتيك.

يخطر ببالك فجأة دعاء استفتاح الصّلاة الذي لطالما تلوته عن ظهر قلب، بوجدان غائب: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.. اللهم نقّني من الخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدّنس.. اللهم اغسل خطاياي بالماء والثّلج والبرد».. وتتخيّل خطاياك وهي تُغسل بماء الشّلال، تتساقط عنك لتذوب في الحوض وتنجرف مع المجرى. لو كان لك يوما أن ترسم

صورة بليغة لمعاني الدّعاء، لما كان لك أن تأتي بصورة أشدّ بلاغة من مشهد الشلال يجلدك ويغسل بدنك، حتّى تعود مثل الثوب الأبيض.

فتحت عينيك بعد أمد لا تدري مداه. كان رأسك قد غدا ثقيلا، بعد أن ضربته المياه المنحدرة من شاهق ما شاء لها أن تضرب. كان سكون الطبيعة يخيّم على المكان من حولك. اختفى العجوز الإندونيسيّ، وكأنّما يفي بوعده بأن يكون الشلال لك وحدك اليوم. سحبت نفسك من الماء بصعوبة، وخطوت في اتّجاه الضفّة، يتضادّ إحساسك الغريب بالخفّة مع ثقل ثيابك المشبعة بالماء.

جفّفت نفسك، ثمّ سرت متثاقلا، وأنت تلتفت من حين لآخر، لتلقي نظرة إضافية على مشهد شلال «ريم» العظيم. خارج الأجمة، كان العجوز في انتظارك. لم يكن عليه أن يسأل ليدرك مدى تأثّرك بالتّجربة. رمقك في شفقة وهمهم:

- يا بنيّ.. أنت في وضع سيّئ للغاية!

-٩-

عـدت في اليـوم الثالـث، عـلى القـارب نفسـه، وقـد غـدت الجزيـرة المهجـورة -غـير المهجـورة حقيقـة- كلّ مـا تفكّـر فيـه. لـم تكـن في حاجـة إلى الوحـدة بقـدر حاجتـك إلى الصّحبـة المناسـبة. والعجـوز البـوذيّ المنعـزل كان صاحـب المرحلـة.

– منذ متى وأنت هنا؟

– خمسـة عـشر عامـا! تنقـص أو تزيـد.. فقـد فقـدت الاهتمـام بالتقويم الزّمـني منـذ فترة.

– ولماذا اخترت العزلة؟

– أنا أحبّ النّاس.. لكنّني أحبّ نفسي أكثر!

افترّ ثغره عن ابتسامة شقيّة تخالطها مرارة جليّة.

– كنـت معلّمـا للأطفـال، في زمـن مـا، وقـد أحببـت مهنـتي. لكنّـني كنـت بوذيّـا وسـط أغلبيّـة مسـلمة. النّـاس هنـا لا يهتمّـون بدينـك طالمـا كنـت في شـأنك، لكنّهـم كانـوا يخشـون عـلى أطفالهـم مـنّي.

– هل كنت تعلّم الأطفال الفلسفة البوذيّة؟

– كنت أفتح عيونهم على أسرار الحياة وفلسفتها!

ثمّ أضاف وهو يقف في عزم:

– تعال.. سأعلّمك اليوم كيف تتواصل مع الطّبيعة!

كنـت تنتظـر أن يفعـل، منـذ وعـدك في زيارتـك الأولى. تبعتـه إلى الأجمـة الـتي اكتشـفتها منـذ يومـين، حيـث أبـراج الحجـارة المرصوفـة عـلى جانـب وادٍ قليـل العمـق.

- انتق حجارتك!

خطوتما داخل الوادي، وجمعتما عددا من الحجارة الصّقيلة والخشنة مختلفة الأحجام، ثمّ جلست إلى الأرض مقلّدا إيّاه. وضع قطعة أولى أمامه، ثمّ أمسك بالقطعة الثّانية بين كفّيه بشكل مائل. أخذ نفسا عميقا، ثمّ قال:

- قوّتك كلّها في أطراف أصابعك.. تتحسّس الحجر، تقدّر مركز ثقله وتبحث عن نقطة الارتكاز المناسبة. لا تخطئ، أنت لا تتحدّى الجاذبيّة! أنت تتّحد مع الطبيعة، تصبح أنت وهي والحجارة في كفّك واحدا.. حين تصل إلى مرحلة التّوازن.

بعد دقائق قليلة، كان البرج مشيّدا. صخرة ضخمة مثل حبّة بطيخ ناضجة تقبع في توازنٍ تامّ فوق أخرى صغيرة بحجم بيضة! بدا الأمر يسيرا وهو ينفّذه ببساطة.

- يمكنك أن تجرّب بدورك.

هززت رأسك، ثمّ استدعيت تركيزك وسحبت شهيقا وأنت تنغمس في المهمّة. وضعت حجر الأساس وتأكّدت من ثباته، ثمّ التقطت قطعة أخرى أصغر حجما. لن تتسرّع، ستتقدّم خطوة خطوة. أملت الحجر بزاوية معقولة، وقدّرت أنّك عثرت على مركز الثّقل. أفلتّ الحجر، فتدحرج عند قدميك. ابتسم الرّجل وقال وهو يقوم من مجلسه ثمّ يبتعد:

- سأتركك تحاول.

ستحاول. كثيرا. وسيتدحرج الحجر في كلّ مرّة. قد يثبت للحظات، يتأرجح ويتمايل، ثمّ ينهار. ستشعر بالعبثيّة والسّخف وأنت تجلس لوقت لا تدرك مداه على الأرض، تحاول إتقان فنّ لم يخلق من أجلك!

هـا أنـت مثـل حـيّ بـن يقظـان، تكتشـف قانـون الجاذبيّـة. تنطلـق مـن البديهيّـات.. هـذه الحجـارة موجـودة، لأنّـك تمسـك بهـا بـين يديـك، تشـعر بملمسـها الخشـن بـين أصابعـك. إنّهـا تسـقط لأنّـك لـم تعـثر بعـد عـلى نقطـة الارتـكاز المناسـبة لهـا. هـذا سـبب وتلـك نتيجـة. جميـع قوانـين العلـم تبنى عـلى العلاقـة بـين السّـبب والنتيجـة. العلـم يتعامـل مـع الأشـياء والقوانـين الـتي تحكمهـا.. مـع مـا يمكـن ملاحظتـه وقياسـه. لـو أنّ بـين يديـك ورقـة وقلمـا وبعـض الأدوات ومراجـع الفيزيـاء لأمكنـك حسـاب مركـز الثقـل وإسـقاطه عـلى سـطح الحجـر السـفليّ. العجـوز البـوذيّ عـرف كيـف يفعـل ذلـك بـدون حسـاب، بـل بالتّجربـة. إنّـه حـيّ بـن يقظـان حقيقـي! لكـنّ العلـم لا يقـدر عـلى التّعامـل مـع الغيـب أو مـع الإلـه، أو مـع مـا قبـل الزّمـان ومـا خـارج المـكان.. ومـع ذلـك، فالعقـل الإنسـانيّ -عقـل حـيّ بـن يقظـان- قـادر عـلى إدراك وجـود الإلـه!

تـشرد بأفـكارك بعيـدا.. بعيـدا عـن الحجـارة والأبـراج المتوازنـة. يـداك تعمـلان بـلا توقّـف وعقلـك يسـبح في وضـع بـين المنـام واليقظـة.

حـيّ بـن يقظـان، كان شـخصيّتك الفلسـفيّة المفضّلـة منـذ صغـرك. ذلـك الطّفـل الـذي نشـأ وحيـدا في جزيـرة منعزلـة، تعلّـم بالتّجربـة والملاحظـة، أنّ الحيوانـات لديهـا خاصّيـة غـير جسـمانيّة تميّزهـا عـن الجمـاد والنّبـات، فـإذا فارقتهـا جمـدت وفقـدت مـا يحرّكهـا، وأنّ تلـك الخاصيّـة هـي حقيقـة الحيـوان وجوهـره.. مـا تعرفـه بالنفـس. وأنّ للموجـودات خالقـا أوجدهـا، وأنّ هـذا الخالـق الأوّل لـم يوجـده أحـد، فهـو «واجـب الوجـود».. وقـرّر أن يعتـني بالجسـد الـذي وهـب لـه، فيطعمـه ويطهّـره، وأن يتشـبّه بالإلـه الـذي خلقـه فيكتسـب صفـة العلـم، وأن يتأمّـل في مـا يحيـط بـه مـن مخلوقـات ويـدرك تجليّـات الخالـق فيهـا، فيمجـدّه ويسـبّح بحمـده!

حـيّ بـن يقظـان أدرك جوهـر الوجـود دون حاجـة إلى وحـي.. بـل

لعلّ الفكر الدّيني لازم الإنسان منذ القدم. لا توجد جماعة بشريّة مهما تكن بدائيّة ليست لديها أفكار عن موجودات أو كيانات تعلو فوق الطبيعة. الفراعنة حنّطوا موتاهم ودفنوا كنوزهم معهم استعدادا لحياة بعد الموت. لكنّ خيال الإنسان قد يشطح بعيدا في مواجهة ما لا يدركه عقله. ليس كلّ البشر حيّ بن يقظان! والدّليل على ذلك كلّ الأساطير القديمة التي تمثّل الآلهة على هيئة بشريّة وحتّى حيوانيّة. وحين أصبح العقل البشريّ أكثر نضجا، أدرك عبث تصوّراته الأسطوريّة، فتقدّم نحو الفلسفة. وحتّى الفلسفة، مع أنّها قدّمت تصوّرات معقولة مع فلاسفة كثر، فإنّها أغرقت الكثيرين في بحار من الحيرة والاغتراب، ولم تقدّم إجابات شافية عن تحديد هويّة الإنسان ومعنى الحياة والغاية من الخلق...

أنت تعلم أنّ الإنسان ليس في حاجة إلى دين لإدراك وجود الله! هناك رغبة فطريّة لدى الإنسان في اعتناق دين ما.. أمّا دور العقل، فهو تقييم صحّة المضامين الدّينية. وقد تعدّدت الديانات مع اختلاف الحضارات وتدرّج الوعي والنضج، مشتركة في إيمانها بالخالق، متنوّعة في تحديد مقدّساتها وشعائرها. وقد عبّر جورج برنارد شو عن علاقة الأديان ببعضها بقوله: يوجد دين واحد، وصل إلينا في أكثر من مائة إصدار!

هل يتواصل الإله مع البشر فيرسل إليهم من يخبرهم بوجوده، ويعلّمهم كيف يعبدونه؟ لو أنّه لا يفعل، فهل يهتدون إلى عبادته بفطرتهم وتأمّلهم، كما فعل حيّ بن يقظان؟ لكن ليس البشر جميعا حيّ بن يقظان! والخزعبلات الدّينيّة التي رأيتها في فاراناسي دليل قاطع على ذلك! وهناك قرابة مليار من البشر يؤمنون بالهندوسيّة! لو أنّ الإله يترك مخلوقاته على سجيّتها، فإنّ معظمها سيضلّ السّبيل لا محالة...

ثبت الحجر!

أخذت تتأمّل حجريك اللذين يعلو أحدهما الآخر في توازن مدهش. لقد نجحت!

ظهر العجوز فجأة كأنما كان يراقبك طيلة الوقت:

- هذا رائع.. لقد أمضيت شهرا أتدرّب ساعات طويلة كلّ يوم حتى أنجزت برجي الأوّل! لا شكّ أنّ بداخلك طاقة روحيّة هائلة!

ابتسمت. بل في داخلك عاصفة فكريّة هوجاء. كم مضى عليك في تأمّلاتك الوجوديّة المؤرقة؟ لا تدري! لكنّك جدّفت بعيدا، وأسرفت في التفكير.

أخرجت آلة التّصوير، والتقطت صورة تذكاريّة لحجرك المتوازن. هذا إنجاز يستحقّ التّوثيق. لكنّ حجرين فقط لا يصنعان برجا مدهشا. هل تثبّت حجرا آخر؟ التقطت قطعة ملساء لامعة، وقرفصت مجدّدا. حركت الحجر بين يديك بخفّة خبير يقدّر الكتلة ويختبر الحواف أيّها أصلح للارتكاز، ثمّ أخذت نفسا عميقا ومددت ذراعك لتضيف إلى البرج طابقا. أبعدت كفّيك في حذر.. الحجر مستقرّ في مكانه! بدا أنّك تمكّنت بسرعة مذهلة من فنّ حسبته لا يناسبك منذ ساعة!

فجأة، ترنّح برج الحجارة، ثمّ انهارت كلّها على الأرض!

ضحكت، رغم الخيبة. يلزمك كثير من التّدريب. لا بأس بمحاولتك الأولى.

- لا تستعجل.. ستروّض الحجارة إن أنت دأبت على المحاولة.. والأهمّ أنّك ستروّض الطّاقة التي بداخلك، ستجد مسارها الطّبيعيّ وتنساب عبر أصابعك حين تلامس الحجر.

- هل تصلّي؟

- عفوا؟

لماذا يسألك الهندوس والبوذيّون عن الصّلاة بلا توقّف؟

- رصف الحجارة صلاة بالنّسبة لي. أصل إلى أعلى درجات الخشوع وأتخلّص من المشاعر السّيئة، حين أستغرق في تأمّل قانون التّوازن العجيب.. أشعر أنّ الإله يحدّثني عن معجزة خلقه، ويضع في كفّي قبسا من مقدرته اللّامتناهية...

حين رجعت إلى غرفتك بالفندق ذلك المساء، كان سؤال صغير يلحّ عليك: لو أنّك كنت حيّ بن يقظان، في جزيرة نائية، هل كنت تتمنّى أن يهبط عليك الوحي؟ أن يخاطبك الإله، يطمئنك إلى وجوده بالقرب منك، أنّه يراك ويسمع نجواك، وأنّك ستلقاه قريبا؟ هل كنت لترجو أن يعلّمك صلاة تخاطبه من خلالها، بطريقة ترضيه، وتزيح عن كاهلك حملا ثقيلا من الطاقات السّلبيّة المكبوتة؟

-١٠-

تستقرّ على متن طائرة الخطوط «الصّين الجّنوبيّة» المتّجهة إلى «غوانغزو» وتلقي نظرة يملؤها الحنين من النافذة الصّغيرة إلى جوارك. تظهر لك السّماء زرقاء صافية تتفرّق في صفحتها كتل قطنيّة خفيفة، ومن تحتها مشاهد طبيعيّة ضبابيّة، كنت تمرح عبرها لأسبوعين حافلين. تودّع إندونيسيا، شلالاتها وجزرها، سهولها وهضابها، بحرها وشواطئها، العجوز البوذيّ وحجارته، وتمضي إلى بلد آخر حلمت ريم يوما بزيارته.

- إندونيسيا بلد رائع!

التفتَّ إلى جار مقعدك. كان شابّا أشقر كثّ اللّحية والشارب، يبدو عائدا من رحلة استجمام طويلة ببشرته التي تركت عليها الشّمس آثارها البيّنة وقميصه المزركش مفتوح الياقة. أومأت موافقا، فأضاف وهو يصافحك:

- دانيال.

أحسست بوخزة خفيفة في صدرك حين سماعك للاسم. أنت تذكر بالتّأكيد دانيال وراشيل، الزّوجين البريطانيّين اللذين صاحباك في رحلة «التحوّل» في فلسطين المحتلّة! تلقّيت كفّه بجفاء غير مقصود، لكنّه كشف عن البرودة الدّاخلية التي اعترتك. تمالكت نفسك ما استطعت ورسمتُ ابتسامة مرحّبة.

كان دانيال الجديد يصغرك بسنوات قليلة، وبدت لكنته الكنديّة واضحة. أخبرك أنّه كان يعمل محاسبا في موطنه. افترقت عنه رفيقته منذ ستّة أشهر، فاكتأب طويلا، ثمّ أخذ إجازة مفتوحة من العمل، وانطلق بحقيبة ظهر في رحلة حول العالم. أمضى شهرين في جنوب

شرق آسيا.. ماليزيا، سنغفورة، تايلند وإندونيسيا.. والآن ينوي قضاء شهر ونصف في الصّين.

– هل تحبّ الكونغ فو؟

كنت قد مارست الكاراتيه لسنوات ستّ خلال إقامتك في الرّياض، وأخذت بعض دروس الكونغ فو أثناء دراستك للطبّ في تونس. الرّياضات القتاليّة جزء لا يتجزّأ من تكوينك الجسديّ والعقليّ، إيمانا منك وممّن ربّوك بأنّ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير). ابتسمت وأنت تردّ:

– نعم.. لقد مارسته في وقت مضى، حين كنت أكثر شبابا.

ضحكتما، ثمّ سألك دانيال مجدّدا:

– هل ستمضي وقتا طويلا في الصّين؟

– أسبوعين.

– فكّر في زيارة أكاديميّة شاولين للكونغ فو، على جبل كونيو! أنا ذاهب إلى هناك. سأمضي شهرا أتدرّب.. الكلفة لا تزيد على ثمانمائة دولار لقاء التّدريب والإقامة والمعيشة والتّنقل...

ابتسمت وأنت تتذكر تجربتك الماضية مع اليوغا. يمكنك أن تفعلها مرّة أخرى، تترك برنامج الرّحلة وتغيّر وجهتك؟

– لعلّك تزور الأكاديميّة وتلقي نظرة؟ يمكنك أن تجرّب لبضعة أيّام ثمّ تقرّر إن كنت تودّ البقاء أطول.. فكّر في هذا.

وضع بين يديك بطاقة عليها عنوان الأكاديميّة وأرقام التّواصل، إلى جوار رسم لمحارب كونغ فو بزيّ برتقاليّ فاقع، يقف على رجل واحدة، ويرفع الأخرى عاليا بشكل عموديّ. هززت رأسك، ثمّ خبّأت البطاقة في حقيبتك وقد أضمرت قرارا حاسما. لن تفعل. ما من

فضـول يدفعـك إلى تـرك مسـارك والانضمـام إلى معسـكر التّدريـب ذاك. أنـت تعـرف جيّـدا مـا هـو الكونـغ فـو. انتهـى.

رغـم استئناسـك بصحبـة دانيـال الشّـابّ طيلـة سـاعات الرّحلـة الخمـس، كانـت الذّكـرى الـتي طفـت عـلى السّـطح تنـكأ جراحـا قديمـة لـم تندمـل. كنـت مسـتعجلا للمـضيّ في طريقـك، الانغمـاس في مغامرتـك الصّينيّـة ونسـيان الخواطـر المزعجـة!

تفارقـت ودانيـال عنـد قاعـة اسـتلام الأمتعـة. كان عليـه أن يسـتقلّ طائـرة أخـرى إلى بيكـين، ومـن ثـمّ ينتقـل إلى أكاديميّتـه القتاليّـة. أمّـا أنـت فتستكشـف جنـوب البـلاد قبـل عاصمتهـا. سـتمضي أسـبوعا تتجـوّل في أنحـاء مقاطعـة «غيلـين»، «أرض التنـين».

أحسسـت بمزاجـك يتحسّـن بشـكل واضـح، منـذ غـادرت «مدينـة المـوت» وتوغّلـت في «أرض الإلـه» جنـوب الهنـد. ثـمّ جـاءت الجزيـرة الإندونيسـيّة المهجـورة لتهبـك تجربـة روحانيّـة صافيـة وفريـدة. وهـا أنـت تصـل إلى قطعـة أخـرى مـن الجنّـة لتواصـل رحلـة شـفاء لجـراح روحـك.

أمضيـت أسـبوعك الأوّل في انسـجام تـامّ مـع الطّبيعـة الخلّابـة. تسـتيقظ صباحـا عـلى هديـل يمامـة بيضـاء وادعـة بنـت عشّـها عنـد نافذتـك، فتسـتحضر أبياتـا شـجيّة قالهـا «أبـو فـراس الحمـداني» الأمـير الشـاعر، وهـو أسـير في زنزانـة بقلعـة في أرض الـرّوم، إثـر حـرب خاضهـا.. وقـد نُاحـت حمامـة خـارج قضبـان نافـذة زنزانتـه. فتأمـل الفـارس بـين معاناتـه في الأسر، وهـو لا يعبـأ بآلامـه ويتحمّلهـا دون نـواح.. وبـين حالهـا وهـي طليقـة تنـوح:

أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا — تَعَـالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ تَعَـالِي

تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحًا لَدَيّ ضَعِيفَةً — تَرَدّدُ في جِسْمٍ يُعـَـذّبُ بَــالي

أيَضْحَكُ مأسُورٌ وَتَبكي طَلِيقَةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ؟

ثمّ تتناول إفطارا خفيفا طازجا من منتجات المزارع القريبة -بيض وعسل وحليب وفواكه- وتنطلق لتقود درّاجة هوائيّة عبر الرّيف الصّينيّ. تحاذي مجرى النّهر ثمّ تهبط الأودية، تمرّ بالحقول والغابات والهضاب والجسور والسّواقي، وتلقي نظرة مشرفة من علٍ على القرى المتناثرة عبر أمواج الخضرة المشرقة.

في منطقة «يانغشو»، ركبت طوفا من الخيزران، أخذ يتهادى عبر مجرى نهر «لي» وينزلق فوق السّدود التسعة التي تتخلّل المسار، واحدا إثر الآخر. بينما يجذّف البحار المنتصب عند رأسك بعصاه الباسقة، ترفع عينيك المأخوذتين إلى مشهد القمم المدوّرة المكسوّة رداءً من عشب. على مدّ بصرك الحسير تتوالى قباب خضراء بهيّة، مثل قامات مائلة تحدّ النّهر وتحدّد مساره. في كتبهم الشعبيّة القديمة، يصف الصّينيّون ذلك المنظر المهيب للتلال الجيريّة الشّاهقة التي نحتتها يد الطّبيعة بتعاقب دورات الانحلال والتصلّب، بـ«لؤلؤة الصّين» أو «أجمل مشهد طبيعي تحت السّماء»!

ثمّ انطلقت باتّجاه الشّمال قليلا، لتشاهد شرفات الأرز التي شيّدت في شكل «عمود فقريّ لتنين عملاق»! في منطقة «لونغ شانغ» سترى بعينيك مساحات شاسعة من حقول الأرز، تصعّد إلى قمم الجبال. تبصرها من الأسفل مثل درجات عريضة تمهّد التلّ وتصنع منه سلّما سهل الارتقاء، لتستقبل المنبسطات المتتالية مشاتل الأرز، وتتحوّل الجبال الوعرة إلى حقول! وتبصرها من أعلى، فتبدو درجات السلّم المغمورة بماء السّقيا مثل مرايا صقيلة لامعة تعكس لون السّماء! لقد رأيت حقول الشاي على التّلال الهنديّة، وشرفات أرز أخرى في إندونيسيا.. لكنّك لم تر مشهدا بروعة العمود الفقري لتنين صينيّ!

سيروي لك الدّليل السّياحي قصّة تلك الحقول المدهشة. في عصر أسرة «يوان» الحاكمة، كانت مجموعات من الأقلّيات العرقيّة لقوميّات «تشوانغ» و«ياو» مطاردة من السّلطة، فتحصّنت بتلك المنطقة الجبليّة النائية ولاذت بها. ثمّ كان عليها أن توفّر أقواتها وتضمن معيشتها، فشرع الفلاحون الشجعان في صقل الجبال وزراعتها. لم يخطر ببال الأجداد الذين صنعوا شرفات الأرز أن حكمتهم وقوّة إرادتهم وعملهم الشّاق ستنتج مشهدا ساحرا بهذا الشكل. ستمرّ مئات السّنوات قبل أن تنقلب تلك المنطقة المنعزلة إلى مزار سياحيّ يفخر به الصّينيون!

على قارعة الطّريق، رأيت نساء «الياو» بأزيائهنّ التقليديّة السّوداء والحمراء، يحملن سلال الفاكهة المعروضة للبيع، ويتباهين بشعورهنّ السّوداء شديدة الطّول، مثل «ذات الشعر الذّهبي»!

- هل أنت متزوّج؟

سألك الدّليل مداعبا. ثمّ أخبرك أنّ تلك النّساء يقصصن شعورهن مرتين في حياتهن: مرّة عندما يبلغن الثامنة عشرة، ومرّة أخرى عندما يتزوّجن. ستميّز العزباوات بشعرهن الملفوف والمغطّى بمنديل أسود، بينما تقوم النّساء المتزوّجات بلفه على شكل كعكة أعلى الرّأس.

غادرت غيلين محمّل الذّاكرة بمشاهد حالمة، واستعددت لأسبوع ثانٍ كاتم للأنفاس في ظلّ المدنيّة الحديثة! عدت إلى غوانغزو لتمتطي طائرة أخرى تأخذك إلى بيكين. حالما غادرت بهو المطار ووجدت نفسك في الشّارع، صدّق أنفك حدسك! كانت بيكين في ذلك الوقت تنافس المدن الصنّاعيّة الكبرى على مركز الصّدارة من حيث مستوى تلوّث الهواء. السّماء الرّماديّة الكالحة وذرّات الغبار العالقة في فتحات

أنفـك الحسّاسـة كانـت تنبئـك بأنّـك مقبـل عـلى أيّـام سـوداء خانقـة!

حـين وصلـت إلى الفنـدق، تذكّـرت دانيـال -بشـكل مريـح هـذه المـرّة! شـعرت بإحسـاس مألـوف، وأنـت تـدرس ذاك الخاطـر الملـحّ. أن تغـيّر مسـارك مـرّة أخـرى وتختـار المجهـول أصبـح هـو المعتـاد في رحلتـك هـذه. ولـم تنـدم عـلى قـرارك بالابتعـاد عـن مخططـات السّـياحة التقليديّـة في كلّ مـرّة. لقـد كانـت الرّسـائل الخفيّـة في انتظـارك بتقديـر عجيـب. وقـد كنـت تبتسـم في نفسـك وأنـت تفكّـر فيمـا قـد تعيشـه مـن مغامـرات اسـتثنائيّة، إذا مـا اسـتجبت إلى ذاك الصّـوت الهامـس في أذنـك. كان بإمكانـك التفـرّج عـلى معالـم بيكـين المميّزة خـلال يومـين حافلـين، ثـمّ تفـرّغ بقيّـة وقتـك لزيـارة صديقـك الجديـد في أكاديميّـة الكونـغ فـو. بـدا ذلـك التّدبـير مرضيـا، ممّـا مكّنـك مـن ترتيـب محطّاتـك المرتقبـة في العاصمـة الصّينيّـة دون تذمّـر.

بحثـت بجـدّ عـن البطاقـة الـتي ألقيتهـا في حقيبتـك بإهمـال منـذ أسـبوع، حـتّى عـثرت عليهـا. تأمّلـت رسـم الرّاهـب المقاتـل مـرّة أخـرى، ثـمّ اتّصلـت بالرّقـم المـدوّن. أجريـت مكالمـة مقتضبـة مـع موظّفـة ذات لكنـة عسـيرة الفهـم، لكنّهـا تـدرك مـا أنـت طالبـه. تكـرّر بشـكل آليّ تعليمـات محـدّدة:

- غدًا.. غدًا. محطّة القطار المركزيّة. السّاعة الخامسة مساءً.

كان الفنـدق الـذي نزلـت بـه عبـارة عـن قـصر سـابق لمسـؤول سـامٍ، في عـصر أسرة «تشـينغ» الحاكمـة، تحـوّل منـذ عقـود قليلـة إلى نـزل تسـتقبل غرفـه، المؤثّثـة عـلى نحـو تقليـديّ أصيـل، الـزوّار مـن مختلـف أنحـاء العالـم. يقبـع البنـاء في نهايـة زقـاق ضيّـق في حـيّ قديـم مـن مركـز العاصمـة، غـير بعيـد عـن «المدينـة المحرّمـة»، ومـا يحيـط بهـا مـن متاحـف وحدائـق. ديكـوره الأحمـر الـدّافئ يعتمـد أساسـا عـلى خشـب

الصّندل الذي صنعت منه كلّ قطع الأثاث والأبواب وأعمدة السّقف البارزة واللّوحات الزّيتيّة الباهتة. وكانت رائحة نفّاذة لبخور غريب تعبق في فضاء غرفتك. فتحت النّافذة العتيقة، تنشد تغيير الهواء، ثمّ ما لبثت أن أغلقتها حين تذكّرت التلوّث بالخارج!

خرجت بعد الظّهر لزيارة «المدينة المحرّمة»، فهالك الزّحام الشّديد عند المداخل وفي السّاحات والممرّات. آلاف الصّينيين والأجانب يتدافعون لإلقاء نظرة على قاعات القصور وباحاتها، كأنّما يثأرون من نظام الإمبراطوريّة.. فقد كان دخولها فيما مضى محرّما على العامّة، وحكرا على العائلة الحاكمة وخدمها!

مررت بغرف كثيرة، تتسع أو تضيق حسب الاستعمالات المخصّصة لها في ذلك الزّمن الغابر، وحدّقت بلوحات عديدة، تربّع فيها أباطرة مختلفون، بملامحهم الجامدة وعيونهم الضيّقة، وملابسهم الباذخة. وقفت أمام لوحة جداريّة ضخمة، تمثّل إمبراطورا ما، بثوبه الفضفاض الأحمر وحزامه الذهبيّ العريض، يقف على منصّة العرش، وأمامه صفوف من الرّعيّة، ساجدين!

انتبهت فجأة إلى أنّك مذ وطئت قدماك الصّين، لم تقف على مظاهر تديّن كما فعلت في الهند وإندونيسيا. لم تلمح في أيّ من المدن والقرى التي زرتها معابد أو كنائس أو مساجد! لا أيقونات ولا صلبان ولا تماثيل ترحّب بك على أبواب المطاعم والمتاجر، ولا صلوات تتلى في أيّ وقت من النّهار. عدت إلى التّحديق في اللّوحة، تبحث عن الجواب بين ثناياها. هل استبدل الصّينيّون عبادة الآلهة بعبادة الحاكم؟

تسرح وأنت تتأمّل المشهد. تلك الحركة التي تعلن الخضوع والتّسليم التّامّين، تجعلك تتساءل.. هل هناك بشر في العالم

يستحقّ أن تسجد له؟ ملك أو إمبراطور؟ عالم أو راهب؟ نفسك الأبيّة تأنف أن تتدنّى بها إلى منزلة مماثلة! تلك الأيادي الممدودة إلى الأمام، والجباه الملاصقة للأرض، والظهور المحنيّة في انكسار وتذلّل.. تعيد إلى ذاكرتك مشاهد سجود أخرى. تتوالى الصّور في رأسك في سرعة خاطفة.. صلواتك التي لم تتوقّف عنها منذ تعلّمت كيف تصلّي في سنّ السّادسة، سريعة مرتبكة أحيانا، ومطمئنة خاشعة في أحيان أخرى، سجودك الطّويل في ليالي رمضان، مبتهلا وذارفا العبرات في الحرم المكيّ، تعلّقك بأعمدة المقام في مسجد عائلتك في تستور.. ثمّ تتوقّف عند مشهد خارج الزّمان والمكان، شغلك تفكيرا في عهد بعيد وآخر قريب.. الملائكة يسجدون لآدم! يمكنك في تلك اللحظة أن تستوعب عصيان إبليس ورفضه السّجود. بقليل من المنطق، ما الذي يدعو كائنا فخورا ومعتدّا بذاته إلى السّجود أمام مخلوق آخر، ضعيف وقليل الحيلة؟

أمر مباشر من كيان أقوى وأعظم وأعلى!

يقول للشيء: «كن».. فيكون!

تدوّي الإجابة في رأسك مثل الصّاعقة. أمر من الإله الأعظم يجعل الملائكة يسجدون لبشر من طين، وإبراهيم يهمّ بذبح ابنه، والطّير الممزّق إلى أشلاء يتجمّع من جديد ويطير إلى مناديه، والجبال تخشع وتتفتّت، والموتى يهبّون من مرقدهم أحياء...

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك. لقد سقطت قدسيّة الأديان في عينيك منذ أمد، ولم تستعد سلطتها على فؤادك بعد. لكنّك تسترجع كلّ تلك القصص التي تعتبرها الآن «تراثا ثقافيا» نشأت عليه. لقد تمردّت على وصاية الشّيوخ والرّهبان والكهنة، واخترت أن تكون في تواصل مباشر مع الخالق دون وساطة. هكذا تقنع نفسك. لكن

أين أنت من العبادة الآن؟ هل تؤمن بالقرآن؟ هل تؤمن بالرّسل والوحي؟ وماذا عن اليوم الآخر.. والقدر خيره وشرّه؟

تنقبض عند ذكر المعضلة التي أفقدتك صوابك وقذفت بك في متاهة الأسئلة. توقن أنّ مارد القمقم قد أفلت من عقاله، منذ مصادفة لقائك بدانيال آخر على متن الطائرة! أنت تعرف في داخلك أنّك لن تستعيد طمأنينتك وثقتك بإيمانك حتّى تفكّ الشيفرة المستعصية. لأنك تؤمن الآن بقوّة، أنّ عدوّ الحقيقة ليست الأكاذيب.. بل القناعات! لكنّك غير مستعدّ بعد للغوص مجدّدا في محيط الشكوك ذاك.

أخذت كفايتك من اللّوحات والتماثيل والزّخارف الفنيّة، ثمّ خرجت. تمشّيت عبر الحدائق، وسرت على غير هدى عبر دهاليز المتاحف، ثمّ انتهيت إلى الفندق.

دلفت إلى مصعد البناية المشيّد حديثا بالنّسبة إلى عمر القصر. طالعت وجهك في المرآة الجانبيّة. كنت مجهدا، يبدو ذلك جليّا للعيان. لقد هرمت يا مالك! أيّامك يسحب بعضها بعضا في سعي حثيث إلى الأربعين. وخط الشيب فوديك وأطراف لحيتك مبكّرا. لولا أنّك أخذت تحلقها منذ سنتين لكنت انتبهت، لكنّ ظروف السّفر قادتك إلى إهمال شكلك، فنبتت الشّعيرات في ذقنك وتكاثفت. وهذه التّجاعيد الطّفيفة عند زاوية عينيك، إنّها شاهد على ليالي سهاد طويلة وأرق مزمن، من فرط يقظة عقلية مستمرة، تجعلك في توتر مقيم. أنت تدرك جيّدا أنّ ثمن اليقظة هو التوتر، لكنّك من الحكمة بما يكفي لتدفع راضيا هذا الثمن. مرّرت أصابعك بين خصلاتك السّبطة، كما تفعل عادة حين تتحمّس وتهمّ بأمر تحبّه، وجرّبت أن تبتسم لنفسك. أنت تحتاج مزيدا من الحماس في حياتك.

ثـمّ انتبهـت إلى صورتـك معكوسـة عـلى مـرآة ثانيـة خلفـك. مالـك آخـر يقـف وراءك، وآخـر خلفـه، يليـه آخـر. وقفـت متأمّـلا في الانعـكاس المتكـرّر إلى مـا لا نهايـة حـتّى شـعرت بالـدّوار. ترسـل المـرآة للأخـرى صـورة فتعكسـها الثّانيـة، مثـل كـرة طاولـة تتقاذفانهـا باسـتمرار، حـتّى تصبح متناهيـة البعـد. تحـرّك ذراعـك أمـام المـرآة، فتتحـرّك انعكاساتك الكثيرة بشـكل مربـك. تسـتمرّ مذهـولا مثـل طفـل يكتشـف لعبـة جديدة. يتوقّـف المصعـد وينفتـح مصراعـاه، ثـمّ يغلقـان، ويسـتأنف مسـاره صعـودا ونـزولا. يجـاورك نـزلاء آخـرون للفنـدق، يتوقّفـون عنـد طوابقهـم وينصرفـون، وأنـت تـراوح مكانـك، مسـتغرقا كليّـا في تجربتـك الفريـدة.

يسـتيقظ الفيزيـائيّ الشّـغوف في داخلـك، وأنـت تسـترجع تفاصيـل شـاهدتها منـذ شـهور برفقـة ريـم، في وثائقـيّ عـن نظريّـة الأوتـار الفائقـة والأكـوان المتوازيـة.

تفـترض نظريـة «الكـون المـرآة» وجـود كـون مـوازٍ -أو أكـثر- تكـون جزيئاتـه متماثلـة تقريبـا مـع الموجـودة في كونـنـا.. لكنّهـا تتـصرّف بشـكل مختلـف! لا يمكـن لأيّ مـن هـذه الجزيئـات أن تنتقـل مـن عالـم إلى آخـر، وهـذا مـا يفـسّر عـدم قدرتنـا عـلى إدراك هـذا الكـون المـرآة. ومـع ذلـك، يُعتقـد أن النيوترونـات يمكـن أن تعـبر مؤقتًـا الحـدود الفاصلـة بـين الكونـين، في شـكل ذبذبـات.. ممّـا يفـسّر بشـكل أنيـق معضلـة «المـادّة المظلمـة» لـدى الفيزيائيّـين، أو «الكتلـة النّاقصـة»، فهـذا يعـني أنّهـا جـزء مـن الكـون المـوازي!

إنّ نظريـة النسـبية العامـة -قانـون الجاذبيّـة- تـشرح القوانـين الـتي تحكـم الأبعـاد متناهيـة الكـبر.. وميكانيـكا الكـمّ تفـسّر تلـك الـتي تحكـم الأبعـاد متناهيـة الصّغـر. يعمـل هـذان النموذجـان بشـكل مثـالي ويتـم التحقـق منهمـا تجريبيًّـا بدقـة لا تصـدّق بشـكل منعـزل.. المشـكلة هـي أن النّظريتـين غـير متجانسـتين!

لا شيء يمكـن أن يكـون مؤكـدًا وفقًـا لفيزيـاء الكـم. يمكننـا فقـط التنبّؤ بمـدى احتمـال أن يتـصرّف نظـام مـن الجسيمات بطريقـة معيّنـة. كان عـدم اليقـين هـو مـا اختلـف أينشـتاين معـه.. لـم يسـتطع قبـول ذاك المستوى مـن العشـوائية في الطبيعـة، فأمـضى نصـف عمـره يحـاول إثبـات مـا لا يمكـن إثباتـه. كان إيمانـه العقـديّ مـا كبّلـه. وقـد أبـدى رأيـه في جملـة شـهيرة: «أنـا مقتنـع بـأنّ الله لا يلعـب الـنّرد مـع الكـون»!

لكـنّ غـيره مـن العلمـاء، أدرك قصـور النظرّيـات المتوفّـرة وانكـبّ عـلى استنباط غيرهـا. وتعـدّ نظريـة الأوتـار واحـدة مـن أقـدم المحـاولات التفسـيريّة لجعـل فيزيـاء الكـم والجاذبيـة متوافقتـين. تصـف النظريـة المـادّة عـلى أنّهـا كيانـات مهـتزّة أحاديـة البعـد. هـذه القطـع متناهيـة الصّغـر تسـمى أوتـارا. الطريقـة الـتي يهـتز بهـا الوتـر سـتخلق بروتونـا، أو إلكترونـا، أو نيوترينـوا.. المشـكلة: هـي أنّ نظريـة الأوتـار لا تعمـل في أبعـاد المـكان والزمـان المعتـادة -ثلاثـة أبعـاد للفضـاء والبعـد الزمـني- بـل تحتـاج إلى عـشرة أبعـاد!

ولإضافـة مزيـد مـن التعقيـد، بنـاءً عـلى مبـدأ الوضـع الاهـتزازي، هنـاك (عـدد عـشرة مرفوعـة قـوة خمسـمائة) طريقـة لإضافـة أبعـاد إضافيـة، مـا يعـني أنّ هنـاك ١٠^٥٠٠ تنويعـات محتملـة لنظريـة الأوتـار! وبالتـالي عـدد لا حـصر لـه مـن الاحتمـالات لأكـوان مختلفـة!

انبثقت فكرة مجنونة في ذهنك وابتلعتك في غياهبها.

تحُـاول أن تتمثّـل وأنـت تطالـع مرآتـك كيـف يمكـن أن يمتلـك كلّ كيـان صـورا لا نهايـة لهـا في أكـوان موازيـة، مثـل انعكاسـاتك المتكـرّرة عـلى مرآتـين متقابلتـين. تـسرح بخيالـك.. هـل هنـاك نسـخ لانهائيّـة منـك أنـت، مالـك، في عوالـم كثـيرة؟ أحدهـا يعيـش إيمانـه بنفـس العمـق القديـم والتّسـليم اللاّمـشروط، وأحدهـا اختـار الإلحـاد عقيـدة لا يرجـع

عنهـا.. وآخـر لـم يسـافر قـطّ إلى فلسـطين المحتلّـة، لـم يلتـق دانيـال وراشـيل، وتـزوّج سـارة منـذ زمـن! تفكّـر، هـل يمكـن أن يكـون قـدرك نسـيج خياراتـك وقراراتـك، بينمـا تعيـش نسـخك الأخـرى قدرهـا المتعلّـق بخياراتهـا؟ هـل تنبثـق الأكـوان المتوازيـة أحدهـا مـن الآخـر وتتكاثـر، مثـل خلايـا تنقسـم، مـع كلّ تشـعّب للخيـارات الحـرّة؟

تـشرق شـموس سـاطعة تبهـرك بنورهـا، وتهـتزّ بنشـوة عميقـة تغمرك. تشـعر بحمـل ثقيـل يـنزاح عـن كاهلـك، وأنـت ترسـم مفهومـا للقضـاء والقـدر يرضيـك ويشـفي غليلـك. إنّـه العـدل، منتهـى العـدل، أن تتحمّـل نتائج قراراتـك مهمـا كانـت.. في حـين تظهـر للنّـور نسـخة أخـرى منـك في عالـم مـوازٍ اتّخـذت قـرارا معاكسـا، وتتحمّـل نتائجـه!

بـتّ تلـك اللّيلـة قريـر العـين وقـد غمـرك الارتيـاح، وعرفـت النّـوم العميـق الّـذي حرمـت منـه منـذ زمـن.

-١١-

سـور الصّـين العظيـم كان وجهتـك في يومـك الثـاني والأخـير في بيكـين. لا يمكنـك أن تـزور الصّـين وتتجاهـل إحـدى عجائبهـا المعماريّـة، ناهيـك عـن ترؤسـه قائمـة عجائـب الدّنيـا السّـبع.. مـع أنّ جبـال غيلـين كانـت «الأعجوبـة» الحقيقيّـة الـتي سـحرتك! اسـتيقظت في وقـت مبكّـر، لتنضـمّ إلى وفـد سـياحيّ مختلـط، سـاعدك موظّـف الفنـدق عـلى تدبّـر أمـره، وتمـضي إلى الضّاحيـة الشـماليّة للعاصمـة.

كانـت هنـاك مواقـع عـدّة مـن السّـور مفتوحـة للـزّوار، أوّلهـا قريـب مـن العاصمـة، وهـو الجـزء الـذي تفانـت الدّولـة في ترميمـه واسـتصلاحه حـتّى يسـتعيد متانـة بنيانـه القديـم ويكـون السـير عـبره يسـيرا ومريحـا، ولذلـك فهـو قبلـة السّـيّاح المحلّيـين. أمّـا ثانيهـا فيقـع عـلى مبعـدة سـاعتين، وهـو في حالـة ممتـازة أيضـا لكنّـه مناسـب لبعـض التسـلّق لارتفاعـه عـبر الهضـاب، ويسـتهوي السّـيّاح الأجانـب أكـثر نظـرا لقلّـة الزّحـام. وهنـاك أقسـام عـدّة أخـرى ينبغـي قطـع سـاعات للوصـول إليهـا، وهـي وعـرة في معظمهـا، تهدّمـت بعـض جوانبهـا ولـم تصلهـا يـد الإصـلاح بشـكل كليّ. وهـي المفضلّـة لـدى المغامريـن وناشـدي الإثـارة. اختـار وفـدك الموقـع الثّـاني بالإجمـاع.

كنـت تعتقـد في داخلـك أنّ سـور الصّـين سـيكون مجـرّد ظاهـرة سـياحيّة فارغـة أخـرى. لقـد تعلّمـت مـن محطّـات رحلتـك السّـابقة أنّ كلّ مـا يتهافـت عليـه الجمهـور رخيـص ومسـتهلك! لطالمـا نفـرت نفسـك مـن الجمهـور. إنّـه القطيـع الـذي ليـس بيـده سـوى التكـرار والمحـاكاة. أليـس ألـدّ أعدائـك ثقافـة القطيـع، ومـوروث القطيـع، وأخـلاق العبيـد

لـدى القطيـع؟

لقـد عرفـت أروع الاندهاشـات في بقـاع قفـرة لا يقربهـا بـشر، ومججـت الزّحـام عنـد أيقونـات الحضـارات المتوّجـة! لـم تكـن تعلـم أنّ تجربتـك مـع جبـال الصّـين سـتتواصل، حـتّى وأنـت تقصـد منشـأة معماريّـة صنعتهـا يـد الإنسـان.

الجبـال في الصّـين مختلفـة عنهـا في بـلاد العالـم الأخـرى. ليسـت مثـل جبـال الألـب الـتي تبـدو قالبـا صلبـا تعلـوه قمـم بـارزة مثـل نتـوءات حـادّة، تكسـوها الثّلـوج عـلى مـدار السّـنة.. وليسـت مثـل شـعاب مكّـة الـتي يبـدو الجبـل منهـا كومـة حجـارة مفتتـة رغـم شـموخها. كنـت كلّمـا مـررت بهـا في طريقـك إلى العمـرة بـرّا، خطـرت ببالـك الآيـة الكريمـة: (لَـوْ أَنزَلْنَـا هَـذَا الْقُـرْآنَ عَـلَى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُّتَصَدِّعًـا مِّـنْ خَشْـيَةِ اللَّـه). فكأنّمـا تلـك هـي الجبـال المعنيّـة، تفتّتـت وبقيـت متماسـكة مكانهـا!

أمّـا جبـال الصّـين فهـي فريـدة مـن نوعهـا، ويختلـف بعضهـا عـن الآخـر. لقـد سـحرت نظـرك القمـم الجيريّـة المكـوّرة المكلّلـة بالعشـب في «يانغشـو» وأدهشـتك شرفـات الأرز المعلّقـة عـلى جوانـب الأوديـة السّـحيقة في «لونـغ شـانغ».. وهـا هـي مرتفعـات «موتيانيـو» تخلـب لبّـك وأنـت تركـب عربـة القطـار الهـوائيّ -التليفيريـك- في اتّجـاه الجـزء العلـويّ مـن السّـور الشّـاهق. هـذا بحـر آخـر مـن القمـم ذات الكسـاء النّبـاتي النـضر عـلى مـدّ البـصر! كان حاجـز الحجـارة، الـذي شـيّد منـذ أكـثر مـن ألفـي عـام عـلى مسـافة قدرهـا ألفـان وأربعمائـة كيلومـتر، ليحمـي عاصمـة الإمبراطوريّـة مـن اجتياحـات الشـعوب الشّـمالية مـن المغـول والـتّرك، يشـقّ طريقـه بـين أمـواج الغابـات والأعشـاب بسلاسـة، حـتّى أنّ العـين لا تحسـبه دخيـلا عـلى الصّـورة الطّبيعيّـة الرّائقـة.

سرعـان مـا انفصلـت عـن مجموعتـك حالمـا لمسـت قدمـاك حجـارة

الممرّ العتيق أعلى السّور. حثثت الخطى نحو الجزء المرتفع الذي يواصل تسلّق التّلال ويتعرّج خلالها. سرت لدقائق، حتّى وصلت إلى أحد أبراج المراقبة النّائية الموزّعة بكثافة على امتداد ذاك الجزء من السّور. ارتقيت الدّرجات حتّى شرفة المشاهدة العلويّة، وملأت عينيك من المشهد. من موقعك المميّز ذاك، كان بإمكانك أن تبصر امتداد المنشأة العسكريّة العظيمة مثل شريط أفعوانيّ ملتوٍ، يصعد التّلال وينزل الوديان، لكيلومترات وكيلومترات كثيرة لا يسعك حصرها!

نزلت من السّور في مزاج جيّد. لم يكن يومك الثّاني في بيكين مضيعة للوقت في نهاية الأمر! بل لعلّك قد استعدت الكثير من الحماس الذي افتقدته منذ حادثة ريم. وأنت تمنّي نفسك بجرعة مكثّفة منه في الأيّام المقبلة.

عدت إلى الفندق حيث تركت حقيبة سفرك، واستقللت سيّارة أجرة إلى المحطّة المركزيّة. ستصل قبل السّاعة الخامسة كما تقتضي التعليمات. على رصيف المحطّة الخارجيّ، لمحت الرّاهب الذي كان بانتظارك بثيابه البرتقاليّة المميّزة، ولافتة كرتونيّة تحمل اسم «أكاديميّة شاولين للكونغ فو». كانت حافلة صغيرة متوقّفة في شارع جانبيّ، لتقلّك وبقيّة المتدرّبين إلى مقرّ الأكاديميّة.

غفوت بعد ركوب الحافلة بدقائق معدودة. حين فتحت عينيك، كانت المركبة قد غادرت منطقة بيكين العمرانيّة من مدخلها الجنوبيّ، وأخذت تهتزّ عبر الطّريق الرّيفيّة المتعرّجة في اتّجاه قمّة جبل «كونيو». تلفتّ حولك، فرأيت الرّاهب الكهل يحتلّ المقعد الأمامي، وهو الدّليل المكلّف بتوصيلك إلى مركز التّدريب، بالإضافة إلى ثلاثة متدّربين آخرين، شابّان وكهل أشيب، قد غرق كلّ منهم في نوم عميق. بينما كانت بقيّة المقاعد شاغرة.

توقّفت الحافلة فجأة، في نهاية الطّريق المهيّأة، وأعلن السّائق أنّ أوان النّزول قد حان. ترجّل الجميع، وحمل كلّ مسافر حقيبة ظهره العريضة وتبع الدّليل عبر مسار ترابيّ يصعّد خلال الجبل، في حين وقفت لبرهة تتأمّل حقيبة متاعك المجرورة التي لم تكن ملائمة للظرف القائم!

تحوّل شغفك بالجبال فجأة إلى لعنة. كانت الشّمس قد مالت إلى المغيب، وأخذ لون السّماء يتحوّل إلى السّواد تدريجيّا. كنت تشعر بالحنق وأنت ترفع حقيبتك فوق رأسك تارة وتسحبها تارة أخرى، وتتقدّم بصعوبة خلال الأحراش الشّائكة، حتّى مبنى أكاديميّة الكونغ فو المتواري في عمق الغابة المظلمة. تآمرت عليك الطّبيعة بكلّ جوانبها. كان المطر قد هطل في اللّيلة الفارطة، وأصبحت التربة على الطّريق موحلة ولزجة. حين وصلت أخيرا عند مدخل الأكاديميّة، كان حذاؤك قد ازداد كتلة طينيّة ثقيلة ومؤذية.

كنت تقف في باحة المقرّ، في حيرة، لا تدري ما تفعل بشأن حذائك المتّسخ وحقيبتك الملطّخة بالوحل، حين رأيت المتدرّبين يغادرون قاعات الدّرس ويتفرّقون في انتظار موعد العشاء. كان الرّاهب الذي قادك حتّى المدخل قد اختفى على الفور مع مرافقيه الثّلاثة، بينما تلكّأت وأنت تعاين الأضرار التي لحقت متاعك.

- لقد جئت!

رغم الإضاءة الخافتة في السّاحة، ميّزك دانيال، وهرع إليك مرحّبا. استقبلك بذراعين مفتوحتين مثل صديق قديم تربطك به عرى مودّة عميقة. أضاءت قسماتك وأنت تبادله الحضن الدّافئ ثمّ ابتسمت وأنت تصحبه إلى الدّاخل، بعد أن مكّنك من نعال خفيفة تخصّه. قال وهو يقودك عبر ممرّ المهجع:

- لقد هطلت الأمطار بغزارة في اليومين الماضيين.. كانت الطّريق سالكة حين وصلت الأسبوع الماضي.. والآن يضطرّون إلى السّير عبر معبر مختصر يشقّ الغابة.

كان يتحدّث عن الشّاحنة التي تزوّد الأكاديميّة بالمؤونة من القرية المجاورة بشكل يوميّ. كان على المتدرّبين عبور الغابة جيئة وذهابا لتفريغ حمولتها بعد أن سدّت كتل الحجارة المتساقطة من القمّة الطّريق الرّئيسيّة. دلفتما إلى الحجرة. كانت ضيّقة وبسيطة، كما كانت حجرة نومك في مركز اليوغا، وقد كانت تحوي سريرين يعلو أحدهما الآخر، خزانة ومكتبا، بالإضافة إلى حمام ومغسلة.

- لقد رحل شريكي في الغرفة منذ يومين ولم يعوّضه أحد بعد. لقد جئت في الوقت المناسب.. يمكننا أن ننزل في الغرفة ذاتها.

استمرّ دانيال يتّخذ القرارات عنك، وكأنّ استجابتك لدعوته كانت صكّ توكيل شامل بشأن بقيّة عطلتك في الصّين. لكنّك لم تعترض ورضيت بالسّرير العلويّ الشّاغر. اغتسلت وغيّرت ثيابك التي طالها أثر السّفر، ثمّ استمعت إلى رفيقك وهو يشرح لك كلّ شيء فيما يتعلّق ببرنامج التّدريب اليوميّ.

خلال فترة التّدريب القصيرة -من أسبوع إلى شهر واحد- يمكنك تعلم تاريخ ونظريات كونغ فو الشاولين، حركات اللّكم والرّكل الأساسيّة، شكلا أو اثنين من أشكال «قبضة شاولين» أو -حسب مستوى مهارة المتدرّب- كيفيّة استعمال سلاح أساسي واحد مثل العصا أو السّيف، مبادئ الملاكمة الصّينية من خلال سجال بين شخصين، أبجديّة الماندرين ومبادئها الأساسية، الفلسفة الطاوية، فنون الخطّ، الوخز بالإبر والتّدليك! أمّا إذا استمرّ التّدريب شهرا أو أكثر، فسيصبح الطالب غالبا قادرا على تكسير قطعة آجر بيد عارية!

بـدا البرنامـج واعـدا للغايـة. سـألت دانيـال الـذي كان قـد شرع يتـدرّب منـذ عـشرة أيّـام:

- كيف هو تقدّمك؟

قفـز فجـأة واتّخـذ وضعيّـة الدّفـاع بشـكل مباغـت رافعـا قبضتيـه المكوّرتـين أمـام وجهـه وهتـف:

- هل تنازلني؟

لوّحـت بكفّيـك متضاحـكا وأعلنـت الاستسـلام، فضحـك بـدوره ثـمّ قـال وهـو يتثـاءب:

- لقـد خرجـت للتـوّ مـن حصّـة الفلسـفة، أنـت تـدري كـم تكـون مملّـة! لقـد جئـت مـن أجـل القتـال، وأظنّـني أبـلي بـلاءً حسـنًا.. لكـنّ تقدّمـي في اللّغـة الصّينيّـة وفـنّ الخـط ووخـز الإبـر، فلنقـل.. محـدود!

ضحكتما من جديد ثمّ بادرته وأنت تطالع مطويّة البرنامج:

- هل ستكون قادرا على كسر قطعة الآجر قبل رحيلك؟

- قد أفاجئك وأفعل قبل رحيلك أنت!

غمـزك وابتسـامة اعتـداد ترتسـم عـلى شـفتيه. بـدا ذلـك مبـشّرا. فكّـرت أنّ عليـك تحديـد هـدف لأيّامـك الخمسـة في الأكاديميّـة! تحطيـم الآجـر؟ لقـد فعلـت ذلـك مـرّات وأنـت تسـتعدّ لاختبـار الحـزام الأسـود للكاراتيـه! لكـنّ عقديـن مـن الزّمـن يفصلانـك عـن آخـر عمليّـة تكسـير مارسـتها. فـنّ الخـطّ؟ هـذا شيء تجيـده وتتميّز فيـه! لقـد كانـت كتابتـك العاديـة تبـدو عـلى الـدّوام مثـل مخطوطـة تاريخيّـة متقنـة، سـواء كانـت بالحـروف العربيّـة أو اللّاتينيـة! مـرّة أخـرى، لقـد توقّفـت عـن الكتابـة منـذ دخلـت حياتـك وسـائل الاتّصـال والرّقـن الإلكترونيـة. مـع ذلـك، أنـت تريـد تجربـة شيء جديـد، يحملـك إلى مسـتوى أعـلى مـن التحكّـم في قدراتـك الجسـديّة والعقليّـة. فكّـرت في ثلاثـة مشـاريع تسـتهويك: تعلّـم

اللّغـة الصّينيّـة، اسـتعمال السّـيف، والوخـز بالإبـر!

كنـت قـد جرّبـت منـذ سـنوات حمـل السّـلاح الآليّ في رحلـة فـرارك عــبر لبنــان. تذكـر تلـك الأيّـام بابتسـامة حالمـة. لـم تكـن التّجربـة الأنجـح أو الأمثـل، لكنّهـا شـحنتك بمشـاعر كثيفـة وحاشـدة. لقـد قـرّرت حينهـا أنّـك لـم تخلـق لحمـل البندقيّـة الآليّـة، لكـنّ السّـيف قـد يكـون سـلاحك المناسـب. محاربـو الكونـغ فـو المهـرة يعتـبرون سـلاحهم امتـدادا لأجسـادهم، لا يختلـف التّلويـح بـه في الهـواء عـن تحريـك الـذّراع بسلاسـة!

أمّـا الوخـز بالإبـر، فهـو فـنّ قديـم ورهيـب، يقـع في مـكان مـا في أوّل خـطّ الزّمـن الـذي يمثّـل تاريـخ مهنـة الطـبّ الـتي تمارسـها. لا شـكّ أنّـك سـتصبح أكـثر مهـارة في جراحـة العظـام إذا أدركـت سرّ مسـارات الطّاقـة الدّاخليّـة في الجسـم، وكيفيّـة التّحكّـم بهـا.

واللّغـة الصّينيّـة لطالمـا بـدت لـك آسرة برموزهـا الشّـبيهة برسـوم راقصـة وغامضـة! تعلّـم أبجديّتهـا المعقّـدة يبـدو تحدّيـا مسـلّيّا لقدراتـك الذّهنيّـة الفائقـة الـتي وجهتهـا بالكليـة منـذ سـنوات إلى مهمتك المقدسـة: البحـث عـن الحقيقـة المطلقـة.

لكن هل تكفي أيّامك الخمسة لتنجز شيئا ممّا عزمت عليه؟

تركـت متاعـك في غرفـة دانيـال، ثـمّ مضيـت للقـاء مديـر الأكاديميّـة. كان عليـك إجـراء اختبـار روتيـنيّ يحـدّد مـدى مهارتـك في فنـون القتـال، ويفصـلُ بشـأن الفرقـة الـتي ينبغـي أن تنضـمّ إليهـا. كنـت قـد اسـتعدت قـدرا لا بـأس بـه مـن لياقتـك ومرونتـك بعـد أسـبوع اليوغـا، والسّـباحة الحـرّة عـلى شـواطئ بـالي، فكنـت جاهـزا لاسـتئناف الفنـون القتاليّـة.

رغـم الوقـت المتأخّـر، اسـتقبلك الرّاهـب العجـوز بابتسـامة دمثـة، ثـمّ أشـار إليـك بالجلـوس، وقـرع جرسـا داخليـا عـلى مكتبـه. مـرّت

لحظات من الصّمت المحرج، تأمّلت خلالها أثاث المكتب المتواضع ومضيّفك القصير برأسه الأصلع المكوّر ولحيته الرّماديّة الطّويلة التي يربطها أسفل ذقنه، وعينيه الخفيّتين مثل شقّين وسط وجهه، وشفتيه المعلّقتين في وضع الابتسام، قبل أن يدخل طرف ثالث: المترجم! على خلاف الهنود والإندونيسيين، لم يكن الصّينيّون في معظمهم يتقنون اللغات الأجنبيّة. وقد واجهتك صعوبات جمّة طيلة رحلتك في الرّيف الجنوبيّ لتبلّغ مخاطبيك مرادك بإنجليزيّة مصحوبة بلغة الإشارات، ورهبان الشاولين لا يختلفون في ذلك عن مواطنيهم!

وقف المترجم بالقرب من المدير، وقد كان شابّا في العشرينيات، يبدو أقرب إلى طالب جامعة خجول، وأخذ يترجم كلام الرّاهب:

- حين تطلع الشّمس، يمكنك أن تمارس تمارين «التاي تشي» مع الآخرين، وقبل تناول وجبة الفطور، سيعقد اختبار للمتدرّبين الجدد، بعدها سيتقرّر إلى أيّ مجموعة تنضمّ.

بدأ يومك الأوّل في أكاديميّة شاولين مبكّرا -بشكل يذكّرك إلى مدى بعيد بأسبوع معسكر اليوغا الذي تفصلك عنه الآن ثلاثة أسابيع كاملة- مباشرة بعد الشروق. توافد المتدرّبون من المهاجع، وقد ظهرت علامات النّعاس على محيّا الكثيرين. التّدريب القاسي طيلة النّهار والاستيقاظ مع شعاع الشّمس الأوّل مرهق لا شكّ. اكتظّت السّاحة بنحو خمسين متدرّبا من مختلف الشّرائح العمريّة وشتّى الجنسيّات، بعض الإناث وأغلبيّة ساحقة من الذّكور. المشهد الصّباحيّ ذاته من معسكر اليوغا يعيد نفسه، مع اختلاف شكليّ: متدرّبو الكونغ فو ملتزمون بزيّ «الكيمونو» الموحّد. تبادلت إيماءات وابتسامات مع وجوه مختلفة ترحّب بقدومك في صمت، ثمّ انتظم الجميع في صفوف متباعدة استعدادا لحصّة «التاي تشي».

بعـد قليـل، ظهـر مديـر الأكاديميّـة العجـوز وتصـدّر الجمـع. وقـف طويـلا، مغمـض العينـين، جامعـا قبضتيـه عنـد وسـطه ومباعـدا بـين قدميـه في وضعيّـة الاسـتعداد. تلفـتّ حولـك، فرأيـت الآخريـن يقلّدونـه. لبثـت منتبهـا، تترقّـب مـا سـيلي. ثـمّ شرع المعلّـم في تنفيـذ تماريـن «التـاي تـشي». أخـذ يفـرد ذراعيـه أوّلا كأنّـه يتمطّـى، ثـمّ ضـمّ كفّيـه إلى صـدره كأنّـه يحتضـن جسـدا وهميّـا، قبـل أن تنزلـق يـداه المبسـوطتان عـلى جسـده إلى الأسـفل. تعاقبـت الحـركات بطيئـة ورشـيقة، لكنّهـا منضبطـة ودقيقـة، مثـل راقـص باليـه في مهمّـة قتاليـة! أخـذت تتبعـه، متحرّيـا المزامنـة مـع حركاتـه وسـكناته ومراعيـا لتفاصيـل كلّ وضعيّـة والتفاتـة، موازيـا بـين الاسـترخاء والقـوّة. بعـد بضـع دقائـق، كنـت قـد انسـجمت في «الرّقصـة»، وأصبحـت جـزءًا مـن الجسـد الجماعـي الـذي ينسـاب في تناغـم، مثـل تدفّـق تيّـار مـاء رقـراق، في فضـاء السّـاحة الـذي غمرتـه أشـعّة صباحيّـة دافئـة. يسـتمرّ التسلسـل في حيويّـة رغـم النّعومـة الظاهـرة، تحـرّك كفّيـك دائريّـا، ثـمّ تتقـدّم خطـوة، وترجـع إلى الـوراء، تدفـع حاجـزا وهميّـا، تزيـح كتلـة لا مرئيـة، وتجـذب حبـلا خياليّـا...

سرعـان مـا أدركـت مـا أنـت بصـدده. كانـت حصّـة تأمّـل عـبر الحركـة! بالتّناقـض مـع تأمّـل اليوغـا السّـاكن والسّـلبيّ، كان تأمّـل التـاي تـشي مبنيّـا عـلى اجتمـاع الاسـترخاء العقـلي مـع الحضـور الجسـديّ. تتواصـل الإيمـاءات النّاعمـة، سلسـة ومحكمـة.. وتغمـرك سـكينة داخليّـة مريحـة ومخـدّرة. أنـت تسـبح في الهـواء، رغـم ثبـات قدميـك عـلى الأرض. تحـوم حـول الجبـل، وتحلّـق.

حـين انتهـت حصـة التـاي تـشي، الـتي اسـتمرّت حـوالي سـاعة، كنـت تشـعر بالارتيـاح يغمـرك. أدركـت عـلى الفـور أنّ بـدء اليـوم التدريـبيّ الطويـل بتلـك الممارسـة المنعشـة أمـر مـدروس وحكيـم!

بعـد أن انـصرف الجميـع إلى قاعـة الطّعـام، لـم يبـق غـيرك ورفـاق

رحلة الأمس الوافدين من بيكين. كان مدير الأكاديميّة في انتظاركم برفقة مترجمه الشابّ.

- التاي تشي رياضة قتاليّة «داخليّة»، إنها تركّز على البعد العقليّ والروحيّ، على عكس فنون الدّفاع عن النفس الخارجية.. مثل الكاراتيه. الحركات التي نمارسها تمثّل لغة جسدية.. هدفها تحقيق الانسجام بين الجسد والرّوح، على غرار نظريّة الين -طاقة الأرض- واليانغ -طاقة الرّوح- أساس الفلسفة الصّينيّة.. يكون التركيز على التكامل واتّحاد الأضداد.. على الرغم من بطء الحركة، فإنّنا نكرّس القوّة والمرونة والحيوية، ولكن أيضًا الهدوء والاسترخاء...

كنت تهزّ رأسك في حماس مع كلّ كلمة، تكاد تقفز من مكانك لتشدّ على يد المعلّم وتحدّثه عمّا عشته منذ قليل، وعن المعاني التي أدركتها خلال تجربتك الوليدة مع «التاي تشي». كنت متيقّنا بأنّ ساعة البكور تلك ستصير موعدك اليوميّ المفضّل، تماما كما كانت ساعة انتظار الشّروق في شرفة منزل جدّك بتستور، في عهد ساحق البعد!

بعد خطاب المدير التعريفي لفنون الكونغ فو والثقافة التي تنضوي تحت مظلّتها، جاء موعد الاختبار. كانت مسألة بسيطة وسريعة. وقف مدرّب من مدرّبي الأكاديميّة، وطلب من كلّ وافد تنفيذ جملة من الحركات متفاوتة الصّعوبة. بعضها يعتمد على القوّة، وآخر على الخفّة والمرونة أو التّوازن. ابتسمت، وأنت تتابع المختبرين الذين سبقوك، يفقدون توازنهم أو يلفّون قبضاتهم بشكل خاطئ، يرفعون أرجلهم أقلّ من المطلوب أو يعتذرون عن تأدية الحركة. حين جاء دورك، وقفت في اعتداد، ثمّ نفّذت الحركات برشاقة وصلابة، وكأنّك تستعيد سنوات مجدك الغابرة وتحرّك جذوة قد خمدت داخلك بتعاقب سنين الخمول! كنت راضيا عن نفسك،

وكذلـك كان المـدرّب، فانضممـت دون صعوبـة إلى المسـتوى المتقـدّم للمتدرّبـين المحترفـين.

لكـنّ الأمـر انقلـب إلى الضـدّ في الاختبـارات الفنيّـة! كنـت ضمـن المبتدئـين في المانداريـن والخـطّ الصّيـني. أمّـا الوخـز بالإبـر، فهـو درس موحّـد لـكلّ المسـتويات.

انضممـت أخـيرا إلى دانيـال عـلى مائـدة الإفطـار. التهمـت لقيمـات سريعـة وأنـت تنبّئـه باقتضـاب بشـأن اختبـارك، ثـمّ انـصرف كلّ منكمـا إلى تمرينـه.

خـلال الأيّـام الـتي تلـت، كنتمـا تلتقيـان خـلال أوقـات الطّعـام، وفي دروس اللغـة والفنـون، ومسـاءً حـين تنطفـئ الأنـوار بالخـارج، تتسـامران حـتّى يحـين موعـد النّـوم الإجبـاريّ في الأكاديميّـة: التاسـعة والنّصـف. كنتمـا تضحـكان كثـيرا، وترويـان نـوادر عـن يوميكمـا الحافلـين، وقـد اكتشـفت بـشيء مـن الدّهشـة أنّ الكنديّـين يمكـن أن يكونـوا ظرفـاء وأصحـاب نكتـة! كان تقاربـك ودانيـال، بالإضافـة إلى الزّخـم الـذي حققتـه ممارسـة الرّياضـة بشـكل مكثّـف، يصنعـان بمزاجـك الأعاجيـب. مرّ دهـر مـذ اشـتعلت حماسـة بذلـك القـدر. كنـت تنهـي يومـك منهـكا، مليئـا بالكدمـات، لكـنّ روحـك متوثّبـة ومنتعشـة! تمنّيـت لـو تتمـدّد الأيّـام الخمسـة لتصـير شـهرا، أو شـهرين.. أو سـنة كاملـة. لـم تكـن لتمانـع الانعـزال عـلى قمّـة جبـل صيـنيّ بقيّـة عمـرك، لـو أنّـك تضمـن لنفسـك السّـكينة والطمأنينـة!

- التـاي تـشي.. إنّ هـذه الرّياضـة مذهلـة حقّـا! إنّهـا لا تبـدو كذلـك ظاهريّـا.. لكنّهـا تغـيّرك مـن الدّاخـل، مثـل مجـرى مـاء ينحـت مسـاره عـبر الجـدول بقـوّة ناعمـة!

كنـت ممـدّدا عـلى سريـرك العلـويّ، وقـد انطفـأت الأنـوار كافّـة في

الأكاديميّة وخلد ساكنوها إلى النّوم. يستمع إليك دانيال بجفون مثقلة، وأنت تقارن ربّما للمرّة العاشرة بين تقنيات اليوغا والتاي تشي. كنت تفتخر بكونك جرّبت تقنيات التأمّل المختلفة وصرت نوعا ما خبيرا بما يناسب مزاجك منها وأوقات يومك.. السّكون مقابل الحركة. قال دانيال بصوت ناعس:

- أليست لديكم في الشّرق الأوسط ممارسات مشابهة؟ التأمّل عن طريق الدّوران؟

ضحكت، وأنت تسأل في دهشة:

- الدّوران؟!

- لقد رأيت ذلك مرّة في شريط وثائقي.. فرقة دينيّة تمارس التأمّل، يرتدي مريدوها فساتين بيضاء وعمامات، ويدورون حول أنفسهم مرافقين ترانيم دينيّة...

الصّوفيّة! زويت ما بين حاجبيك في تفكير. لقد سافرت إلى بقاع العالم البعيدة، لتكتشف تقنيات التأمّل لدى الشّعوب الأخرى. لكنّك فعلا لم تطّلع على ثقافة قومك بهذا الصّدد. كان دانيال محقّا. حتّى تكتمل تجربتك، كان عليك أن تقترب من تلك الفرقة التي لطالما اعتبرتها ذاتك القديمة مهرطقة!

خلال تلك الأيّام، تعلّمت مهارة القتال بالسّيف، ليس بإتقان منقطع النّظير، لكن بشكل يدعو إلى الفخر، استحققت عليه تبريكات المدرّبين والزّملاء. كانت تدريباتك بسيف خشبيّ خفيف وغير مؤذ. تمسك بإحكام بمقبضه وتلوّح به في حركات رشيقة ودقيقة. بدا كأنّك مارست المبارزة منذ زمن طويل، وأنّه السّلاح الذي خلق من أجلك! وأنت تخبّ على الحصير من طرف قاعة التّدريب إلى طرفها الآخر، تتخيّل نفسك فارسا مغوارا، يمزّق الأعداء ويلحق بهم الهزائم.

تستيقظ جوانب نائمة من كيانك، كأنّك تنفخ على رماد روحك فتحيي جمرة كادت تخمد إلى الأبد.

لم يكن النّجاح حليفك في تجربة الوخز بالإبر بنفس القدر، فقد كانت الحصص قليلة ونظريّة. لكنّك ألممت بالمبادئ الأساسيّة، وربّما تقرّر يوما تعلّم الفنّ على يد إخصّائيّ في باريس. أمّا الماندارين، فقد فشلت فيه فشلا ذريعا! كان وقتك ينفد، والرّموز تتراقص أمام عينيك متشابهة ومتداخلة، فقد كانت الحصّة مسائيّة بعد العشاء، في وقت تكون فيه طاقتك في أدنى مستوياتها! حتّى قرّرت الانسحاب، بعد يومين، وآثرت أن تشحن بطّاريّاتك بشيء من التأمّل في الوقت الذي ينصرف فيه الجميع إلى الدّرس، وتخلو السّاحات من الروّاد.

رغم محاولاته الحثيثة، لم يفلح دانيال في كسر قطعة الآجر التي غدت تلازمه في صحوه ويحتضنها حتّى أثناء نومه! إنّه مصرّ على أن تشهد بنفسك مجده يتحقّق، لكنّ الوقت ينفد منه بسرعة.

في ليلتك الأخيرة في الأكاديميّة، تربّعت وحيدا في الباحة الخلفيّة كعادتك. كان القمر قد أوشك أن يكون بدرًا. ربّما تكتمل استدارته بعد ليلة أو ليلتين.. لكنّك لن تكون هناك لتشهد اكتماله من قمّة جبل كونيو! ستكون على أرض أخرى، وتحت سماء أخرى.

مددت بصرك، تملأ عينيك من مشهد الجبال المظلمة التي ألقى عليها القمر شعاعا باهتا. لقد كانت رحلتك إلى الصّين تحت عنوان الجبال. وقد كانت الجبال ذات رمزيّة دينيّة منذ القدم. سفينة نوح رست على جبل «الجوديّ»، وهاجر سعت بين جبلي «الصّفا» و«المروة»، وبنو إسرائيل رُفع فوقهم جبل «الطور»، ومحمّد بن عبد الله نزل عليه الوحي في غار حراء، في جبل «النور».. واحتمى من ملاحقيه القرشيّين في جبل «غار ثور»، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إنّ

الله معنـا!

تسـتحضر فجـأة وجـه سـارة، نظرتهـا الحانيـة وأنـت تحدّثهـا بأمـرك في مكتبـة الكليّـة، وهمسـها الحـازم المسـتحثّ: لا تحـزن إن الله معنـا!

ترفـع عينيـك مـرّة أخـرى إلى قمّـة جبـل كونيـو المحاذيـة، تفـرّ مـن الذّكـرى. في أعـلى منبسـط مـن الجبـل يمكـن السّـعي إليـه بعـد الأكاديميّة، يقبـع بنـاء معبـد بـوذيّ عتيـق، يطـلّ عـلى الباحـة حيـث تجلـس مـن عـلٍ. تتذكّـر المعابـد الكثـيرة الـتي رأيتهـا في رحلاتـك الأخـيرة، في أعـالي الجبـال، وعـلى الصّخـور الوعـرة، كأنّ العبـادة لا تصلـح إلّا في البقـاع النّائيـة! لقـد تـرك مـوسى قومـه وجلـس يناجـي ربّـه أربعـين ليلـة عنـد الجبـل.

تضطـرب أنفاسـك، وتيمّـم بـصرك شـطر الجبـال الشّـامخة قبالتـك. يجـفّ لعابـك وينعقـد لسـانك. كـم مـضى عليـك مـن دهـور مـذ خاطبتـه آخـر مـرّة؟ لقـد ظـلّ قـرارك الأخـير بعبـادة خالقـك عـلى طريقتـك معلّقـا. كـم مـرّت بـك مـن ليـالٍ عجـافٍ لـم تفلـح فيهـا في مناجاتـه رغـم محاولاتـك؟ هـل نسـيت كيـف تكـون خلـوة العبـد بربّـه؟ أم أنّـك لا تعـرف سـبيلا غـير الطّـرق القديمـة الـتي نفرتهـا؟

لقـد كنـت يومـا حـيّ بـن يقظـان عـلى جزيـرة مهجـورة، فهـل يسـعك هـذه اللّيلـة أن تكـون مـوسى؟ تهمـس بصـوت خافـت لا يسـمعه غـيرك، رغـم السّـكون المخيّـم حولـك، لكنّـك تـدرك يقينـا أنّـه يحـصي حركاتـك وسـكناتك، ولا يفوتـه شيء مـن خلجاتـك. تخـرج حروفـك مرتبكـة باهتـة، مثـل زفـرة طويلـة متعبـة:

- يا ربّ، يا إلهي.. يا خالقي.. أيّا كان اسمك.. أرني أنظر إليك!

تقلّـب نظـرك في المشـهد الرّاكـد حولـك. لا جبـال تـدكّ ولا أجسـاد تخـرّ مصعوقـة. هـل لديـك أمـل بـأن تـرى مـا لـم يـره أحـد؟ سـحبت رجليـك إلى المهجـع مرغمـا. كان عليـك تجهـيز حقيبتـك. سـترحل في أولى سـاعات الصّبـاح، لتلحـق بطائـرة في بيكـين تقلّـك إلى إسـطنبول.

-١٢-

وصلـت إلى الأراضي التّركيّـة بنيّـة مبيّتـة وواضحـة. لقـد سـافرت إلى أراضي الهنـدوس والبوذّيـين وتعلّمـت عنهـم ممارسـاتهم الرّوحانيّـة دون أحكام مسبقة، وقد آن الأوان لتفعل الشيء نفسه مع المسلمين! لـن يـضرّك ذلـك في شيء. أنـت الآن منفتـح عـلى الثّقافـات الكونيّـة كافّـة.. ستتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لكنّ دليلك الآن ليس عقليا أبدا، بل هـو صوت قلبـك.

نزلـت في فنـدق ممـيّز، ككلّ اختيـارات ريـم، في منطقـة «سـلطان أحمـد» المركزيّـة. كانـت الواجهـة الزّجاجيّـة لغرفتـك بالطّابـق الخامـس تطـلّ عـلى معالـم المدينـة الأشـهر: المسـجد الأزرق، ومتحـف آياصوفيـا. أمّـا قاعـة الطّعـام في الطّابـق السّـادس والأخـير، فتحـوي شرفـة خارجيّـة تسـمح برؤيـة بحـر مرمـرة القريـب وأسـقف الـدّور الحمـراء، والقبـاب الكثـيرة المنتـشرة بقـدر انتشـار المسـاجد!

كنـت متعبـا بعـد رحلتـك الجويّـة الطّويلـة مـن بيكـين، فتناولـت وجبة عشـائك في غرفتـك، ثـمّ اتّصلـت بموظّـف الاسـتقبال. كنـت تريـد حجـزا لعـرض «الدّراويـش الدّواريـن»، الـذي وجـدت إعلانـا لـه في كتيّـب الإرشـاد السّـياحيّ. كانـت هنـاك عـروض يوميّـة، في قاعـة «هاجـو باشـا» عـلى السّـاعة السّـابعة مسـاءً. لكـنّ الإقبـال شـديد عـلى ذلـك العـرض الـتركيّ التقليـديّ مـن قبـل الأجانـب والأتـراك عـلى حـدّ سـواء. لـم تجـد مقعـدا شـاغرا لعـرض الغـد، لكنّـك عـلى قائمـة الانتظـار لليـوم التّـالي. سـتتّصل بـك الموظّفـة في الغـد لتأكيـد الحجـز إذا مـا ألغـى أحدهـم حجـزه.

اسـتيقظت وأنـت لا تـزال مرهقـا في صبـاح اليـوم الثـاني. كانـت

عضلاتـك تـئنّ، بعـد أن حرمتهـا مـن جرعـة التّماريـن اليوميّـة المكثّفـة نهار أمـس. أو لعلّهـا قـد شرعـت تتعـافى مـن الإنهـاك الشّـديد الـذي عرّضتهـا إليـه خـلال إقامتـك في أكاديميّـة الكونـغ فـو.. لـم تكـن واثقـا. احتسـيت فنجـان قهوتـك في شرفـة المطعـم، وأنـت تتابـع في شرود النّـوارس الـتي تحلّـق في سـماء المدينـة، وتسـتمتع بمداعبـة الشّـمس الدّافئـة لبشرتـك. ثـمّ خرجـت تتمـشّى في أنحـاء الحـيّ القديـم.

تجاهلـت الجامـع الأزرق عـلى يمينـك، واتّجهـت يسـارا، إلى آياصوفيـا. شيء مـا في داخلـك مـا زال يتمنّـع، رغـم قـرارك بقبـول ثقافـة «الآخـر» مهمـا كانـت. لكـنّ الأمـر يختلـف حـين يكـون «الآخـر» هـو أنـت ذاتـك! سـتصل إلى تلـك المرحلـة قريبـا، لكنّـك ستسـير عـلى مهـل. كانـت الكنيسـة القديمـة، الـتي غـدت مسـجدا ثـمّ متحفـا، محطّتـك التّاريخيّـة الأولى. سرت في تـؤدة عـلى الأرضيّـة الرّخاميّـة العتيقـة، تتأمّـل القبـاب والأقـواس والفوانيـس الذّهبيّـة المعلّقـة. هنـا تلتقـي النّوافـذ المرتفعـة ذات الزّجـاج الملـوّن -المميّزة للكنائـس- والنّقـوش العربيّـة -الـتي تعـرف بهـا المسـاجد.

خـلال بقيّـة النّهـار، زرت «الكاتدرائيّـة الصّهريـج»، وهـي بنـاء تحـت الأرض، اسـتخدم كخـزّان مـاء ضخـم في العـصر البيزنطـيّ. نزلـت الـدّرج الحجـريّ وعـبرت الأروقـة المظلمـة ذات الإضـاءة الخافتـة الـتي أقيمـت فـوق الخـزّان، تسـتمع إلى وقـع أقدامـك عـلى البـلاط، وتتأمّـل الخيـالات المرتسـمة عـلى سـطح المـاء. ثـمّ مشـيت حـتّى قـصر «طوبـكابي» المهيب. تفرّجـت عـلى قاعـات الحرملـك والسـلملك، سـقوفها الخشـبيّة المزخرفـة وجدرانهـا المكسـوّة بالخـزف الملـوّن، وتجوّلـت عـبر السّـاحات والحدائـق المطلّـة عـلى مضيـق البوسـفور.

كانـت الشّـمس قـد اقتربـت مـن المغيـب، حـين رجعـت أدراجـك إلى منـتزه «سـلطان أحمـد». جلسـت عـلى مقعـد خشـبيّ، تتأمّـل وفـود

السيّاح الأجانب والأتراك، حول النّافورة الموسيقيّة الملوّنة، وعلى الأرض المعشوشبة، ثمّ انتهت نظراتك عند القباب الزّرقاء الشّاهقة والصّومعات السّت للجامع الأزرق. وقفت بلا تردّد وتركت العنان لساقيك، تقودانك بلا إرادة منك إلى باحة الجامع. كانت الفكرة تلازمك طيلة النّهار، وقد صرت الآن مستعدّا للمواجهة.

فكّرت في نفسك ساخرا، ما الذي سيتغيّر هذه المرّة؟ لقد وقفت منذ شهور أمام الكعبة! أمام بيت الله الذي يحجّ إليه مسلمو العالم.. ولم تشعر بشيء! فما بالك بجامع غريب لا قصّة تربطك به ولا علاقة؟

لكنّك أهملت جزئيّة صغيرة. أنت نفسك قد تغيّرت! مالك الذي غادر باريس منذ شهر ونصف غاضبا ثائرا، ليس هو مالكا الذي يعبر الممشى في هذه اللّحظة بخطوات رزينة ومطمئنّة.

دلفت عبر البوّابة الجانبيّة المفضية إلى الحديقة العامّة، ثمّ مشيت عبر الفناء الرّخاميّ. كانت آخر المجموعات السّياحيّة تغادر المبنى بإرشاد من حرّاس الجامع، بينما يتوافد أفراد متفرّقون وعائلات مسلمة مع أطفالها من البوّابات المختلفة. رفعت رأسك تحاول الإلمام بالصّرح الشّاهق بنظرة شاملة. من حيث تقف، يمكنك إبصار أربع من الصّوامع الضّيقة المرتفعة إلى عنان السّماء، بالإضافة إلى الجزء العلويّ من القبّة الرّئيسيّة الضّخمة بتناظرها التّامّ.

فجأة تعالى صوت أذان المغرب صادحا في الفضاء، بصوت عذب رخيم، وأنت تقف في الفناء. أحاط بك النّداء الشجيّ من كلّ جانب، وردّدت الجدران الحجريّة صداه، لتردّه إليك بسخاء مكثّف، حتّى خلته يتخلّلك وينفذ إلى داخلك. كان هناك شيء ما مميّز بخصوص ذاك الجامع.. تضافر الصّوت السّاحر مع الإضاءة الذّهبيّة النّاعسة

للفتك بمقاومتك. سرت في جسدك رجفة باردة، وأنت تسترجع ماضيا بعيدا ومهيّجا للدّمع. مرّ ببالك جامع المرسى، والإمام الشابّ الذي كنت تصلّي وراءه في سنوات الكليّة الخالية، سنوات القبض على الجمر! حبست دموعك، ومضيت إلى الدّاخل.

كانت الأبواب المخصّصة للسيّاح قد أغلقت مع انتهاء مواعيد الزّيارة، ولم تبق إلا البوّابة الرّئيسيّة الخاصّة بالمصلّين. لم تفكّر كثيرا، وانضممت إلى وفود المصلّين. خلعت حذاءك، ووقفت على السّجاد الأحمر، عند الصّفوف الأخيرة. في الخلف، تصلّي النّساء وراء ساتر خشبيّ، بينما يركض أولاد في صخب ومرح. رفعت بصرك تتأمّل الجدران، ونوافذها ذات الزّجاج الفينيسيّ الملوّن. كانت شديدة الشّبه بنوافذ الكنيسة المجاورة! يبدو الطّراز المعماريّ للبناء مثل مزيج بديع للنّمط البيزنطيّ المسيحيّ والفنّ العثمانيّ الإسلاميّ، ممّا يجعله واحدا من أكثر المنشآت تفرّدا في العالم. وفي الأركان الأربعة، تنتصب أعمدة سميكة دائريّة، مثل أرجل فيل عملاق، ترتكز إليها القبّة المهيمنة على قاعة الصّلاة. وعلى الوجه الدّاخليّ للقباب، ميّزت قطع الخزف الزّرقاء القادمة من «نيقية»، والتي وهبت للمسجد الذي بناه «السلطان أحمد الأول» اسم «الجامع الأزرق».

جلست في سكون، وأصغيت إلى تلاوة الإمام، دون أن تشارك في الصّلاة. كان يقرأ مطلع سورة الأنبياء بصوت جهوريّ. وقد أنصتّ بكل جوارحك في عجب ودهشة، كيف تستقيم تلاوة فصيحة ومتقنة على لسان أعجميّ؟! كانت قراءة مجوّدة ومؤثّرة، من أجود ما سمعت في حياتك، وأنت الذي تتلمذت على أيدي أشهر المشايخ والحفّاظ، وتردّدت كثيرا على مساجد الحرمين!

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ* قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ).

وجدت للكلمات جرسا خاصّا، كأنّك تسمعها للمرّة الأولى. شعرت برهبة شديدة وغبت في تأمّل عميق.. وكأنّه الشّعور الذي انتاب عمر بن الخطّاب حين تناول الصّحيفة من أخته وابن عمّه، وقرأ مطلع سورة طه لأوّل مرّة فهزّت روحه بعنف!

كان مطلعا قويا يهز الغافلين هزّا. الحساب يقترب وهم في غفلة. وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار. إنّها صورة للنفوس الفارغة التي تلهو في أخطر المواقف.. وتهزل في مواطن الجدّ.

وهؤلاء الذين تصفهم الآيات كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورا للحياة ومنهاجا للعمل وقانونا للتعامل.. باللّعب! ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة! لكنّهم على موات قلوبهم، لا يملكون أن يمنعوا أنفسهم من التّأثّر بالقرآن.. فيلجؤون إلى مقاومته بالتّعلّات. فقالوا إنّه سحر، وإنّه أحلام مجنونة، وإنّه شعر، وإنّه افتراء! ثمّ يخلصون من الحرج بطلب معجزة من الخوارق التي جاء بها الأوّلون. ولقد جاءت المعجزات من قبل، فلم يؤمن بها سائر المكابرين، فحقّ عليهم الهلاك.

كنتُ لا تزال متحيّرا بشأن الوحي. كيف يختار الله عباده الذين يتوجّه إليهم بخطابه دون غيرهم، وكيف ترفض نسبة كبيرة من البشر ذاك التّفضيل.. كأنّ كلّ فرد منهم يقول في نفسه، لماذا لم يأتني الوحي مباشرة؟ لماذا لم يخاطبني الإله بنفسه وأرسل الرّسل؟

لكنّك تدرك في قرارة نفسك أنّ هبوط الوحي على كلّ فرد سيؤدّي

إلى جنـون البـشر كافّـة! التّواصـل المبـاشر مـع الخالـق ليـس متاحـا للمخلوقـات. بنيتهـا النّفسـيّة والعقليّـة لا تسـمح لهـا بتحمّـل التجـلّي الإلهـيّ. كلّ القصـص المأثـورة عـن الاتّصـال الإلهـي بالبـشر تؤكّـد ذلـك. أولـم يسـقط مـوسى مصعوقـا حـين تجـلّى ربّـه للجبـل؟ أولـم يرجـع محمّـد مرتعـد الأطـراف، يقـول: «زمّلـوني زمّلـوني.. دثّـروني دثّـروني»؟ مـع أنّ هبـوط الوحـي كان بوسـيط، فكيـف بالتّواصـل المبـاشر؟ لذلـك اختـار اللّه لتلـك المهمّـة الشّـاقة رجـالا متفوّقـين عـن غيرهـم، وزادهـم بسـطة في العلـم والجسـم.

تـدرك أنّ البـشر متفاوتـون في القـدرات العقليّـة. بعضهـم أهـل للقيـادة، والبعـض الآخـر أصلـح للعلـم أو الحـرف أو الأدب.. وقليـل هـم مـن يمسـكون بزمـام الفنـون كلّهـا. أمّـا العامّـة فغالبـا مـا تشـغلهم أمـور معيشـتهم عـن التّأمّـل والتفكـير في معضـلات الوجـود والغيبيّـات. تستسـلم لتلـك الحقيقـة الصّارخـة. إنّهـم يحتاجـون إلى مـن يأخـذ بأيديهـم ويرشـدهم.. وذاك هـو دور الرّسـل. إنّ للّـه حكمـة بالغـة في إرسـالهم. يخـبرون العامّـة عـن الإلـه، ويعلّمونهـم كيفيّـة عبادتـه.

يـأتي كلّ رسـول قومـه، وهـم يعرفونـه ويدركـون صدقـه وسـلامة طويّتـه.. ولـو جاءهـم غريـب لأنكـروه ونبـذوه. وقـد اقتضـت حكمـة اللّه أن يكـون الرّسـل مـن البـشر -لا مـن الملائكـة- يتلقـون الوحـي فيدعـون بـه. ولـو كان الرّسـل مـن غـير البـشر لا يأكلـون الطعـام، ولا يمشـون في الأسـواق، ولا يعـاشرون النسـاء، ولا تعتلـج في صدورهـم عواطـف البـشر وانفعالاتهـم لمـا كانـت هنـاك وشـيجة بينهـم وبـين النّـاس.

حـين انتبهـت مـن اسـتغراقك، كانـت الصّـلاة قـد قضيـت وانـصرف المصلّـون، فوقفـت تهـمّ بالخـروج بـدورك. لكـنّ رجـلا في منتصـف الأربعينيـات اقـترب منـك مبتسـما. حيّـاك بتحيّـة الإسـلام، ثـمّ خاطبـك بالانجليزيـة:

- رأيت أنّك لم تصلّ.. ففكّرت أنّك ربّما تتعرّف على الإسلام وتفكّر في اعتناقه؟

ابتسمت وأنت تكتم سخريتك، رغم التأثّر الذي كنت فيه منذ وهلة، ثمّ قلت:

- شيء من هذا القبيل.

- هل تريد أن أعرّفك إلى بعض الشّيوخ، إن كانت لديك استفسارات يردّون عليها؟

- شكرا.. لست مستعدّا لذلك بعد.

- إذا غيّرت رأيك، تعال لزيارتنا في المدرسة. هناك دروس تقدّم للأجانب عن الصّوفية يومي الاثنين والخميس...

استثار الاقتراح فضولك حين تطرّق إلى الصّوفية. دوّنت العنوان باهتمام ووعدته بالتفكير في الأمر، ثمّ انصرفت راضيا. لقد صار أمرا مفروغا منه في نظرك. كلّ لقاء لك في تلك الرّحلة كان ضمن خطّة إلهيّة مسطّرة، وكان عليك أن تستقبل الفرص التي تتاح لك بالحفاوة التي تستحق.

صباح الغد، مررت على مكتب الاستقبال قبل خروجك للتّجوال الصّباحيّ. حيّتك الموظّفة بابتسامة دمثة، وأكّدت حجزك المسائيّ لعرض الدّراويش الدوّارين، فانصرفت مطمئن البّال.

ركبت القطار الكهربائيّ حتّى محطّة «إمينونو». تمشّيت عبر ممرّات سوق التّوابل المسقوفة لبعض الوقت، مستنشقا الرّوائح النفّاذة للبهارات والأعشاب، ومتذوّقا الحلويّات التركيّة الأصيلة، ثمّ قطعت المسافة التي تفصلك عن جسر «غالاتا» مشيا. مررت على عدد من مطاعم الأسماك في الطابق السفليّ للجسر، قبل أن تنتقي أحدها من أجل وجبة غدائك. جلست في الجلبة التي لا تحبّها، في ركن داخليّ

للمطعـم المطـلّ عـلى مضيـق البوسـفور، واخـترت صنفـا مـن السّـمك المشـويّ. جلسـت متذمّـرا، وأنهيـت طعامـك عـلى مضـض. لـم يكـن بإمكانـك الاسـتمتاع بالجلسـة، مـع كـمّ العابريـن الذيـن يحجبـون عنـك مشـهد النّهـر.

عـدت أدراجـك إلى رصيـف الميـناء، بعـد أن أتخمـت بالأكلـة الدّسـمة، ووقفـت تطالـع جـدول مواعيـد الرّحـلات البحريّـة. مـا زالـت أمامـك بضـع سـاعات قبـل بـدء العـرض، يمكنـك أن تقضيهـا في جولـة عـبر البوسـفور، عـلى مـتن سـفينة مكشـوفة السّـطح. اقتنيـت تذكـرة ووقفـت مـع المنتظريـن.

حـين وصلـت السّـفينة، تدافـع المسـافرون للصّعـود إلى سـطحها. كان مـن العسـير العثـور عـلى مقعـد في الطابـق الأعـلى قريبـا مـن الحاجـز الخلفـيّ بشـكل يسـمح بتأمّـل المـاء وضفـاف النهـر. المزيـد مـن الهـرج والزّحـام كانـا في الموعـد. لبثـت واقفـا عنـد أحـد الأعمـدة، سـارحا ببـصرك عـبر معالـم المدينـة الـتي تلـوح لـك هلاميّـة تحـت شـعاع الشـمس، بينمـا بـدت صفحـة النّهـر لامعـة برّاقـة، وتنهّـدت.

يحملـك مشـهد السّـفينة فجـأة إلى التّفكـير في سـفينة نـوح. تتخيّـل المركـب الضّخـم الـذي آوى المخلوقـات كلّهـا، مـن كلّ زوجـين اثنـين حـتّى يحفـظ اسـتمرار النّسـل بعـد الطّوفـان. يخطـر ببالـك ابـن نـوح الـذي أوى إلى جبـل ظـنّ أنّـه سـيعصمه مـن الطّوفـان. لقـد كـذّب نبـوّة والـده، وهـو مـن ربّـاه ونشّـأه. في حـين صـدّق أبـو بكـر محمّـدا دون تفكـير، حـتّى سـمّي الصّدّيـق!

وهـل كان إنـكار ابـن نـوح لنبـوة أبيـه، ودعـواه للتوحيـد عـن كـره وحقـد لأبيـه؟ قطعـا لا.. كان يكـن لـه الحـب والـودّ، وإلا لما نـادى نـوح ربـه، شـافعا لابنـه (ربّ إن ابـني مـن أهـلي وإن وعـدك الحـق) وهـو يعلـم

أنه غرق كافرا (يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين).

كان إنكار ابن نوح لأنه لم يقبل مفهوم التّسليم بإيمان دونما قناعة.. فكّرت بأنّ الله يضع في البشر درجات متفاوتة من الاستعداد لتقبّل المفاهيم الدّينيّة.

ثم قفزت إلى عقلك جدلية أخرى.

ما دام الله هو العدل المطلق.. فلماذا لم نأخذ جميعا كبشر الفرصة التي أخذها إبليس في معرفة الله واليقين بوجوده وملكوته الأعلى؟ وكيف يتساوى مصير إبليس وعنصره من الشياطين مع من لا يؤمنون من البشر بالله والنبوات، رغم أن إبليس رأى وسمع بل وجادل الله بذاته، وعاش بين الملائكة ورأى الملكوت الأعلى؟ فهل فرصتنا ككائنات بشرية في الوصول للحقيقة وسط كل هذا الخليط من العقائد والأديان، تتساوى مع ما أتيح لإبليس من فرصة معايشة الحياة بالتواصل المباشر مع الله والملائكة؟ أليس الله يقول: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). وها هو يساوي في العقاب بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون.. فكيف يستقيم مفهوم العدل الإلهي؟ أليس انخراط جميع البشر في سباق نحو الجنّة بمعطيات مختلفة وصفات عقليّة ونفسيّة متباينة فيه ظلم؟

وقفت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها، وقالت بابتسامة عذبة:

- مقعد من أجلك يا عمّ!

ابتسمت في مزيج من الحرج والامتنان والاستنكار. منذ متى أصبحت «عمّا»، تترك لك المقاعد في المواصلات؟ لعلّ اللّحية غير المهذّبة والشّيب قد أضافا إلى سنوات عمرك حفنة أخرى! كان المقعد القريب من الحاجز الجانبيّ مغريا، فقبلت العرض رغم انزعاجك الأوّل. من موقعك الجديد، تبصر بوضوح سرب طيور بيضاء تطير

منخفضة بالقرب من السّفينة، وتهبّ نسمة منعشة تدغدغ فؤادك.

أنت تريد أن تؤمن بشدّة بوجود حياة بعد الموت، بالثّواب والعقاب، بالجنّة والنّار! لا يمكن لصراعك النّفسي وبحثك المضني أن يسفرا عن لاشيء.. أن تنتهي إلى جثّة متعفّنة تتحلّل وتندثر! وهل يقبل عقلك الواعي أن يكون البديل لمفهوم «الخلود» -رغم ما يثيره لديك من ارتباك منطقي- هو مفهوم «العدمية» وما يلقيه في نفسك من رعب، وشعور بالدّونية لقيمة حياتك الحالية؟ ابتسمت -رغم معاناتك من مأساوية الفكرة- حين قفز إلى ذهنك: (أتستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير).

تنتبه إلى ضحكات قريبة منك. كانت الفتاة قد استقرّت الآن في حضن والدتها، تشاركها المقعد بعد أن تبرّعت بمكانها، تتعانقان وتتشابك أيديهما في ألفة ومحبّة. يغمرك مشهد ذلك الحضن العائليّ بالدّفء، ويذكرك فجأة بحديث نبويّ.. (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)!

الخالق الذي هو أعلم من عباده باستعداداتهم، لا شكّ يأخذها بعين الاعتبار عند الحساب! العدل الإلهيّ لا يكمن في معاملة البشر جميعا بنفس المعايير، ولكن في محاسبة كلّ واحد تبعا لظروفه التي خلقه بها.. هل تراه تكبّد العناء حتّى وصل، أم أنّ الطّريق كانت يسيرة ممهّدة؟ يتسلّل إليك الاطمئنان مع خيوط الشّمس التي تدغدغ بشرتك، وتستعيد كلمات معبّرة للشيخ الألباني كنت تردّدها في سالف أيّامك: (إنّ الطّريق إلى الله طويلة، ونحن نمضي فيها كالسّلحفاة. وليس الغاية أن نصل إلى نهاية الطّريق، ولكنّ الغاية أن نموت على الطّريق).

كان البهو غاصّا بالزوّار حين وصلت إلى مركز «هاجو باشا». عدد

لا بـأس بـه مـن الأجانـب حـضروا لاكتشـاف وجـه مشـوّق آخـر للثقافـة التركيـة التقليديـة، بالإضافـة إلى الـزّوّار المحلّيّـين. مبـنى المركـز الثّقـافيّ الـذي شـيّد منـذ أكـثر مـن خمسـة قـرون، كان في يـوم مـا حمّامـا تركيّـا عامّـا في العـصر العثمـانيّ، تزيّنـه القبـاب والأقـواس العاليـة، ومـن ثـمّ رُمّـم واسـتصلح، لتبقـى حجارتـه العتيقـة شـاهدة عـلى الحضـارات المتعاقبـة الـتي مـرّت بتلـك الجـدران. أمّـا الرّقصـة اللّولبيّـة الشّـهيرة، فهي تقليـد يتجـاوز عمـره ثمانمائـة عـام، وقـد غـدت تلـك الأمسـية الموسـيقيّة اليـوم واحـدا مـن أكـثر العـروض شـعبية في العاصمـة التّركيّـة.

كان الحفـل الـذي يسـتمر سـاعة واحـدة، يُسـبق بعـرض مصـوّر عـن حيـاة «مولانـا جـلال الدّيـن الرّومـي»، مؤسّـس الطريقـة المولاويـة في القـرن الثالـث عـشر الميـلادي، مـع توزيـع كـؤوس الشّـاي الـدّافئ، ثـمّ زيـارة لمتحـف متعلّقاتـه الشّـخصيّة والأدوات المسـتخدمة في التّقاليـد الصّوفيّـة. قبـل بـدء العـرض، وقـف أحـد المنظمـين ليؤكّـد عـلى أنّ الجلسـة ليسـت عرضـا مسرحيّـا، بـل هـي طقـوس دينيّـة مقدّسـة.. لذلـك وجـب احـترام الدّراويـش كمـا يسـتحقّون.

بعـد أن اسـتقرّ الحضـور عـلى المقاعـد الموزّعـة حـول حلبـة الرّقـص الخشـبيّة، لبثـت في انتظـار متشـوّق. مـرّت دقائـق طويلـة قبـل أن يأخـذ الدّراويـش في التّوافـد مـن مدخـل جانـبيّ. دلفـوا واحـدا إثـر الآخـر متسربلـين بأرديـة سـوداء، تعلـو رؤوسـهم طرابيـش مرتفعـة مـن اللّبـد، ووقفـوا منتظمـين في صـفّ واحـد. رفعـت عينيـك إلى الشّرفـة الوسـطى المطلّـة عـلى القاعـة. كان الموسـيقيّون يأخـذون أماكنهـم بدورهـم، ثـمّ مـا لبـث العـزف أن بـدأ معلنـا انطـلاق جلسـة «السّـماع المولويّـة». لـم تكـن تبـصر الفرقـة الموسـيقيّة بوضـوح مـن مقعـدك بالطابـق الأرضيّ، لكنّـك مـيّزت دون عنـاء إيقـاع القانـون وهمسـات النّـاي ترافقهـا قرعـات خفيفـة عـلى الـدفّ، حـين تسـلّلت نغمـات تركيّـة كلاسـيكيّة لتعطـي

إشـارة البـدء للدّراويـش.

تحرّكـوا في خطـوات وئيـدة، مطأطـئي الـرّؤوس، وتوزّعـوا حـول القاعـة، بقيـادة «شـيخهم» الـذي وقـف في موقـع مركـزيّ، يرافقـه سـجّاد مـن الفـرو الأحمـر متّجـه إلى القبلـة. أخـذوا يسـيرون عـلى الإيقـاع، ينحـني بعضهـم للآخـر في احـترام، ثـمّ يواصـل السّـير في دائـرة، ثـمّ يتوقّفـون لثانيتـين قبـل الاسـتئناف مـرّة أخـرى.

بعـد حـين، نـزع الدّراويـش الأرديـة لتظهـر أثوابهـم البيضـاء المميـزة، تنّـورة طويلـة منسـدلة إلى أسـفل الكعبـين، وسـترة فضفاضـة ذات أكمـام، ونطـاق عريـض يشـدّ الخـصر. تتعانـق أذرعهـم متشـابكة إلى الكتفـين، مسـتعدّين لبـدء الطّقـس.. ثـمّ يشرعـون في الـدّوران مغمـضي العيـون، في اتّجـاه معاكـس لـدوران عقـارب السّـاعة، بخطـوات ثقيلـة مدروسـة. ثـمّ يفكّـون أذرعهـم، يرفـع كلّ منهـم الكـفّ اليمـنى في اتّجـاه السّـماء ليتقبّـل بـركات الرّحمـان، في حـين تتجـه اليـسرى الـتي يتعلّـق نظـره بهـا إلى الأرض في حركـة واهبـة معطـاءة.. ويميـل الـرّأس كأنّمـا يثقلـه الطّربـوش. تـزداد الموسـيقى حماسـة ويشـتدّ معهـا نسـق دوران الدّراويـش، وترتفـع التّنـورات الواسـعة مثـل نواعـير هـواء تنفـخ حولهـا نسـيما منعشـا.

لـم يكـن هنـاك تصميـم دقيـق للرّقصـة الجماعيّـة، بـل بـدا كلّ درويـش مسـتغرقا في رقصتـه منفصـلا عـن رفاقـه، وعـن العالـم. إنّهـم يـدورون، لأنّهـم يريـدون ذلـك أو يحتاجونـه، مثلمـا تـدور الكواكـب حـول نفسـها وحـول الشّـمس، ومثلمـا تـدور الإلكترونـات حـول نـواة الـذّرّة.. بعـد برهـة، أيقنـت أنّهـم لا يرقصـون مـن أجـل الجمهـور، ولا يضعـون اعتبـارا لوجـوده، كلّ منهـم غائـب في ملكـوت آخـر لا يُـدرك.. وأنّ الحاضريـن في الحقيقـة محظوظـون بفرصـة مشـاهدة تلـك الطّقـوس! لذلـك شـعرت بالاسـتياء حـين شرع بعـض الأجانـب في التّصفيـق. أحدهـم لـم يفقـه شـيئا ممّـا يجـري أمامـه!

راقبـت في انتبـاه دورانهـم الصّامـت وحـركات الأيـدي والـرّؤوس الصّغيرة والمحكمـة، بينمـا تطير التّنـورات مثـل أمـواج عملاقـة. كانـوا متوازنـين بشـكل مبهـر، محافظـين عـلى محورهـم حـتى لا يشـعرهم الـدّوران بالـدّوار أو الغثيـان. تلمح أحذيتهـم السّـوداء وأقدامهـم عندمـا يمـرّون إلى جـوارك. بينمـا تسـتقرّ قـدم بثبـات عـلى الأرض، ترتفـع الثّانيـة بشـكل متقاطـع لتدفـع جسـد الدّرويـش في مسـار لولـبيّ.

يتواصـل الـدّوران سريعـا، ربّمـا عـشرون أو ثلاثـون لفّـة في الدّقيقـة. لفّـات ليسـت مـن أجـل الحضـور، بـل لله وحـده. بعـد فـترة، تستشـعر تحـوّل الرّقـص إلى صـلاة. وأنّـك بشـكل مـا صرت جـزءا مـن تلـك الصّـلاة!

فكّـرت أنّهـم ربّمـا يتدرّبـون عـلى تلـك الحـركات الدّائريّـة المذهلـة منـذ طفولتهـم بـلا كلـل أو ملـل، مثـل لاعـبي الجمبـاز، حـتّى يتغلغـل مفهـوم التّـوازن في أعماقهـم، ويصير الواحـد منهـم جرمـا كونيّـا يحـترف الـدّوران! هـذا يختلـف عـن اليوغـا والتـاي تـشي. تسـاءلت، هـل هنـاك معسـكرات لشـهر واحـد لتعليـم الـدّوران المتـوازن عـلى الطّريقـة الصّوفيّـة؟

حدثتـك نفسـك التّائهـة إعجابـا بالمشـهد، هـل يجسّـد هـؤلاء الراقصـون في قداسـة شـعورية تجربـة الشـاعر الـذي قـال:

دَواؤُكَ فيكَ وَمـا تُبصِــرُ ... وَدَاؤُكَ مِـنكَ وَمـا تَشعُـرُ

أَتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغـيرٌ ... وَفيكَ اِنطَوى العالَمُ الأَكبَرُ

فَأَنتَ الكِتابُ المُبينُ الَّذي ... بِأَحرُفِهِ يَظهَــرُ المُضَمـرُ

وَما حاجَةٌ لَكَ مِن خـارِجٍ ... وَفِكرُكَ فـيكَ وَما تُصــدِرُ

في النّهايـة، يدخـل «شـيخ الدّراويـش» الحلقـة، فيصطفـون أمامـه وينحنـون. يرخـون أرديتهـم السّـوداء عـلى أكتافهـم مـن جديـد، بينمـا يصـدح ذكـر رخيـم مـن المنصّـة بأسـماء الله الحسـنى، لينتهـي بالصّـلاة

على النبيّ الخاتم. كنت تفهم تقريبا كلّ ما يقال، فقد كانت العبارات قريبة من العربيّة في معظمها، وتقدّر الخشوع الذي يبديه الدّراويش والمنشدون.. بينما كان بعض الأوروبيّين الشقر يهزّون رؤوسهم في استمتاع كأنّهم يصغون إلى مغني أوبرا!

حين عدت إلى غرفتك، بعد أن تأمّلت الدّراويش يلفّون ويلفّون لساعة كاملة، كانت فكرة واحدة تلحّ عليك.. أن تجرّب بنفسك! وقفت وسط الغرفة، رفعت ذراعيك وخطوت على مهل، تقلّد ما رأيته خلال السّهرة. لفّة أولى، ثمّ ثانية.. بدا الأمر ممكنا. لفّة أخرى، ثمّ رابعة.. ثمّ سقطت على السّرير!

-١٣-

كان اليـوم الاثنـين. عنـوان المدرسـة الصّوفيّـة مـدوّن عـلى هاتفـك، وجلسـة السّـماع زادتـك فضـولا لتعـرف المزيـد. لـم يكـن المبـنى يبعـد عـن فندقـك سـوى شـارعين. تمشّـيت حـتّى وصلـت إلى المـكان المقصـود. عـلى البوّابـة، كان جـدول الـدّروس معروضـا باللّغتـين التركيّـة والانجليزيّة. الـدّرس يبـدأ على السّـاعة السّادسـة.. وسـاعتك تشـير إلى الرّابعة وخمسـين دقيقـة. هممـت بالعـودة أدراجـك، لكنّـك لمحـت حركـة بالدّاخـل خلـف البـاب المـوارب، فقـرّرت الدّخـول.

كانـت هنـاك سـيّدة لطيفـة ترتـدي الحجـاب الإسـلاميّ خلـف مكتـب الاسـتقبال، بينمـا وقـف رجـلان يتحدّثـان. كانـا يرتديـان العباءات السّـوداء الـتي رأيتهـا منـذ يومـين عـلى الدّراويـش الدّوّاريـن وعماماتهـم الصّوفيّـة المرتفعـة. راقبتهمـا لثـوانٍ في فضـول، قبـل أن تبـادرك السّـيّدة:

- هل يمكن أن أخدمك بشيء؟

تظاهـرت بالجهـل وسـألت عـن حصّـص الـدّروس الـتي تقـدّم للأجانب عـن الصّوفيّة.

- الحصّـة تبـدأ خـلال سـاعة واحـدة. يمكنـك الانتظـار بالدّاخـل واحتسـاء بعـض الشّـاي.

أشـارت إلى مقاعـد واطئـة عنـد المدخـل، ومائـدة مربّعـة عليهـا دلّـة شـاي تـركيّ. أومـأت شـاكرا وجلسـت، بينمـا كانـت عينـاك تتابعـان الرّجلـين باهتمـام. كانـت حركاتهمـا بنفـس السّـكينة الـتي لمحتهـا خـلال العـرض، يتكلّمـان بصـوت هـادئ لا يـكاد يسـمع، ينحـني أحدهمـا للآخـر ويضـع كفّـه عـلى صـدره، ثـمّ يبتعـد كلّ منهمـا في اتّجـاه، بخطـوات خفيفـة.

كان سـلوك الدّراويـش في الحيـاة العاديّـة لا يختلـف عنـه خـلال جلسـة السّـماع، كأنّمـا هـي امتـداد لوجودهـم، لا طقـس خاصّـا يفصلهـم عـن الواقـع.

تذكّـرت بـأسى سـيرتك القديمـة. لا أثـر لـلازدواج الـذي عرفتـه أنـت في ملامـح الدّراويـش.. هـو وجـه واحـد يقابلـون بـه العالـم.

- مرحبا بك، لقد وصلت مبكّرا.

التفـتّ إلى الرّجـل الكهـل الـذي وقـف أمامـك. كان شـيخا معمّمـا ببدلـة عصريّـة. صافحـك بابتسـامة، ثـمّ رفـع كفّـه إلى صـدره كمـا يفعـل الدّراويـش، قبـل أن يبـادر إلى الجلـوس قبالتـك. عـرّف بنفسـه بكلمـات قليلـة. كان القائـم عـلى نشـاط المركـز، فكّـرت بأنّـه لـم يشـأ أن يعـبّر عـن مهمّتـه بكلمـات رنّانـة مثـل «مديـر» أو «مـشرف» عـلى سـبيل التّواضـع، فـازددت اهتمامـا. تحدّثتمـا لبعـض الوقـت، عـن زيارتـك لإسـطنبول وانطباعـك عـن عـرض الدّراويـش الدّواريـن، ثـمّ سـألته في لهفـة:

- هل هناك سبيل إلى تعلّم الطّريقة الصّوفيّة؟

- هل أنت مسلم؟

تردّدت. ثمّ أجبت بتلعثم:

- أنا مؤمن، وأبحث عن الطّريق للوصول إلى الله!

ابتسم الدّرويش ثمّ قال:

- هـذا جيّـد.. لكـن، لا يمكـن لزائـر عابـر أن يتعلّـم طريقتنـا ببسـاطة. تحتـاج سـنوات وسـنوات تتـدرّج خلالهـا عـبر مراتـب تهذيـب النّفـس وتزكيتهـا، لتصبـح واحـدا منّـا.

أصابتـك الخيبـة. كنـت مسـتعدّا لـترك كلّ شيء وإمضـاء الأشـهر السّـتة المقبلـة في معتكـف صـوفيّ! لا اليوغـا ولا التـاي تـشي -رغـم مـا

تركتاه في نفسك من بالغ الأثر- تنافسان الحالة الرّوحيّة التي تتلبّس الدّراويش.

- كلّ شهر أو اثنين، يظهر سائح أجنبيّ ويطلب تعلّم «الرّقص» الصّوفي! هؤلاء السّذّج يعتقدون أنّ الصّوفيّة نوع من العروض، مثل الرّقص الشرقيّ!

ضحك الشيخ، وشعرت بالحرج. إنّك تبدو الآن واحدا من أولئك السّذّج في نظر الشيخ الدّرويش! ثمّ استمعت إليه وهو يحدّثك عن مقاصد الصّوفيّة.

تعني كلمة الدرويش حرفيًا «المدخل» ويُعتقد أنّ الدّروشة بمفهومها العمليّ مدخل من هذا العالم المادي للعالم الرّوحي السّماوي. أمّا لفظ «صوفيّ» فهو عربيّ غالبا، لكنّ المعاصرين اختلفوا في أصله. منهم من يرى أنّه نسبة إلى الصّوف، وهو لباس الزّهاد والعبّاد الذين يتركون زينة الدّنيا إلا ما يقيم الأود ويستر العورة. ومنهم من يرى اشتقاقه من الصّفاء، وهي الحالة النّفسيّة الغالبة على أهل الطّريقة. وثالث ينسبه إلى كلمة «سوفيا» اليونانيّة، التي تعني الحكمة.

- لكنّني أميل إلى الرّأي الذي يقول أنّ التصوّف منسوب إلى أهل الصّفة، من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لمشابهتهم إيّاهم في الانقطاع لله تعالى والتجرّد له والاكتفاء بالقليل...

أمّا الدّوران حول النّفس فهو نوع من التأمّل أو المناجاة، يسعى الدّراويش من خلاله إلى الوصول إلى مرحلة الكمال.. بكبح شهوات النّفس وترقيق القلب وإرهاف الحواسّ. يعتبرون دورانهم حول أنفسهم تناغما مع حركة الكون، حيث ينظم الدّوران بنية الوجود، من الأحجام متناهية الصّغر إلى تلك الأكبر جرما.. فتنشأ الصّلة بين

الرّاقـص والكـون.

جلسـة السّـماع ذاتهـا مقسّـمة إلى أربعـة مقاطـع، يتمـيّز كلّ منهـا بنسـق موسـيقيّ مختلـف. المقطـع الأوّل هـو ولادة الحقيقـة، الثـاني يعـبّر عـن نشـوة مشـاهدة روعـة الخلـق، والثالـث هـو تحـوّل النّشـوة إلى حـبّ، خضـوع تـامّ وتواصـل مـع الله. وأخـيرا يـأتي الرّابـع تمثيـلا لتفهّـم الدّرويـش لمصـيره وعودتـه للنهـوض بهمّتـه في الكـون!

الموسـيقى الصّوفيّـة الـتي تدغـدغ الحـواسّ ليسـت أبـدا لهـوا مـن أجـل المتعـة والطّـرب، بـل أداة لتنقيـة القلـب! لقـد قـام الرومـي وأتباعـه بدمـج الموسـيقى في طقوسـهم لأنّهـم يؤمنـون بـأنّ الموسـيقى ترتقـي بالـرّوح إلى عوالـم أخـرى، حيـث يمكنهـا سـماع أنغـام متسـلّلة مـن أبـواب الجنـة!

ثـمّ أخـذ الشّـيخ يـشرح رمزيّة كلّ حركـة في طقس السّـماع. الأزيـاء التي يرتديهـا الدراويـش الراقصـون ترمـز لعنـاصر مختلفـة في شـكلها ولونهـا. الثيـاب البيضـاء تمثّـل الكفـن، والعبـاءة السّـوداء كنايـة عـن القـبر.. وفي كلّ مـرّة يـنزع الدّرويـش العبـاءة ويـشرع في الـدّوران، فإنّـه يعيـش ولادة روحيّـة جديـدة ويخطـو نحـو طقـس التّطهـير. ذراعـاه المتقاطعتـان عـلى صـدره ترمـزان إلى وحدانيّـة الله، وحـين يفتحهمـا ويفردهمـا عـلى الجانبـين ويـشرع في الـدّوران مـن اليمـين إلى اليسـار، فهـو يعانـق العالـم بـأسره. كفّـه اليمـنى المتّجهـة إلى السّـماء، ترمـز إلى جاهزيتـه لاسـتقبال هبـات الله، لتعـبر الطّريـق عـبر القلـب وتنثرهـا الكـفّ اليـسرى المتّجهـة إلى الأسـفل عـلى إخوانـه في الإنسـانيّة. الانحنـاءات الطّويلـة بـين الدّراويـش هـي تحيّـة مـن «روح إلى أخـرى».. فهـذا مـا يكـون عليـه الدّراويـش خـلال طقـس السّـماع. أرواحـا مجـرّدة.

- يقـول الرّومـي: «سرّ يـدور داخلنـا يجعـل الكـون يـدور. الـرّأس لا

يشعر بالقدمين، والقدمان مكان الرّأس. لا يهمّ. إنّهم يواصلون الدّوران».

أمّا في حياتهم اليوميّة، فهم قوم مسالمون طيّبون ومتعفّفون. لا يغالون في ردود أفعالهم ولا يرفعون أصواتهم عند الحديث. وعند التحيّة، يضعون كفّهم اليمنى على صدورهم وينحنون قليلا، بمعنى «أنت في قلبي». وحتّى حين يصافح أحدهم الآخر، فإنّ لديهم طريقة عجيبة. يمسك أحدهم كفّ الآخر ويقبّل ظهرها، علامة الاحترام المتبادل و«المساواة في الوجود». كلّ حركة تبدر عنهم تنمّ عن رمزيّة عميقة تجذّرت في سلوكهم على مدار سنوات من التّدريب الصّارم.

- وما الذي يشعر به الدّرويش حين يدور؟

- ليست هناك نشوة جنونيّة ناتجة عن طقس الدّوران.. إن كنت تقصد هذا! لكنّ الدّرويش، من خلال تدريباته على التحكّم في التّوازن، يصل إلى مرحلة وعي فائق بجسده.. تجعله يترقّ إلى عوالم فوقيّة.

رفعت حاجبيك في اهتمام، فواصل الرّجل:

- هناك مراحل ثلاث للترقّي في الطريق إلى الله.. وهي: العلم، الرؤية والوصال.

هتفت في دهشة:

- الرؤية؟!

ضحك الشّيخ بلطف ثم أخذ يشرح:

- نحن لسنا خيرا من موسى عليه السّلام، ومن ادّعى رؤيته لله بعيني رأسه في يقظته، فهو كاذب.. لكنّنا لا نراه، لا لامتناع الرّؤية، بل لعجز في أبصارنا.. مثل المحدّق في الشّمس، لا يملك رؤيتها،

لأنّ أشعّتها تبهره! لكنّنا نراه بعين القلب. المشاهدة تعني المداناة والمحاضرة والمكاشفة.. وهي تعبّر عن مشاهدة القلب ودوام وقوفه وانتصابه بين يدي الله تعالى لمَّا آمن به حتى كأنه رآه رأي العين.

- وما الوصال إذن؟

- هو الانقطاع عمّا سوى الحقّ، وليس المراد به اتّصال الذّات بالذات لأنّ ذلك إنّما يكون بين جسمين وهذا التوهّم في حقه تعالى كفر! الوصال يلزمه انفصال عن الخلق والشهوات والمدنّسات، ومن لم ينفصل لم يتّصل.. وأدنى الوصال مشاهدة العبد ربّه تعالى بعين القلب، أي أنّ السّالك يعلم يقينا في قلبه أنّه هو الله الذي هو حاضر معنا وناظر إلينا وشاهد علينا.. وأمّا إذا كان بعد رفع الحجاب والكشف، عند تجلّي الذّات، فإنّه يرتقي إلى مقام الوصال. والسّالك يبدأ في مقام المحاضرة ثم المكاشفة ثم المشاهدة. فالمحاضرة لأهل علم اليقين والمكاشفة لأهل عين اليقين والمشاهدة لأهل حقّ اليقين...

سكتّ، وفي داخلك حسرة وتعطّش وتوق لبلوغ تلك المراتب الرّفيعة التي لا ينالها إلا المجتبون المختارون، حتّى دمعت عيناك. حين شعر الشّيخ بصدقك قال:

- التصوّف يا بنيّ ليس حكرا على الدّراويش.. يمكنك أن تكون سالكا على الطّريق إلى الله أينما كنت وكيفما كانت مشاغلك. إنّما ضع نصب عينيك هذه المبادئ المختصرة: الإخلاص شرط في العمل، والزّهد ركن في الطريق، والخلوة والصّمت مطلوبان. وخير العلم ما كان موضوعه الذّات العلية، إذ هو دالّ بأوله على خشية الله تعالى وبوسطه على معاملته وبآخره على معرفته والانقطاع إليه.

غادرت المركز بعد أن استمعت إلى محاضرة دامت ساعة ونصف

الساعة عن تاريخ التصوّف ومبادئه. كان المحاضر شابًا لا تبدو عليه علامات الدّروشة، لكنّه يتكلّم الإنجليزيّة بطلاقة، ويلقي الدّرس مثل أيّ معلّم يعاين النّظريّات من خارج الصّندوق لا من داخله! وأنت كنت تريد بشدّة أن تكون داخل الصّندوق. لقد أشعرك الحديث مع الشّيخ الدّرويش بألفة شديدة، فتمنّيت أن تجاذبه أطراف الحديث لوقت أطول، لولا أن قاطعكما دخول بقيّة الطلّاب.

كنت غائب الذّهن خلال المحاضرة كلّها. وكانت كلمات الدّرويش تتردّد في رأسك طوال الوقت. علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين! أين أنت من اليقين؟

حين خرجت من قاعة الدّرس، رأيته يقف عند مكتب الاستقبال، وبين يديه رزمة كتب. بادرك بابتسامة لطيفة، كأنّما هو بانتظارك.

– هذه بعض المؤلّفات من أجلك. أرجو أن تساعدك على تحقيق الصّفاء.

استلمت الحمولة بامتنان، ثمّ وضعت كفّك اليمنى على صدرك وأحنيت رأسك تردّ تحيّته بمثلها.. أنت في قلبي.

دخلت غرفة الفندق متحمّسا. كانت بين يديك مادّة نظريّة كافية لتمهّد طريقك إلى سلّم التصوّف. وأنت ترغب بشدّة في ولوج ذلك العالم ومعانقته. قلّبت الكتب بين يديك لبرهة، متأمّلا في عناوينها. ثمّ انتقيت ما بدا لك مناسبا لقضاء السّهرة. وضعته على المنضدة، وجهّزت لنفسك كوب شاي دافئ، ثمّ استويت على السّرير مستعدًّا للمسامرة.

قبل البدء، فكّرت في تفقّد هاتفك. كان مغلقا معظم الوقت، ولم تتسنّ لك فرصة فتحه منذ غادرت بيكين. ما إن أضاءت الشّاشة والتقط الجهاز إشارة الإرسال، حتّى ظهرت رسالة أمام عينيك..

رسـالة مـن ريـم!

توقّفـت أمـام الرّسـالة المغلقـة مصعوقـا، ثـمّ مـا لبثـت أن تمالكـت نفسـك. فكّـرت أنّهـا قـد تكـون رسـالة مسـجّلة، مثـل تلـك الـتي وصلتـك قبـل رحيلـك! خـيّرت الحـذر عـلى الأمـل. أوليـس الأمـل أسـوأ الـشرور، لأنّـه يطيـل أمـد العذابـات؟ سـحبت نفسـا عميقـا وضغطـت عـلى الـزرّ ليظهـر نـصّ الرّسـالة:

«بنيّ، هـذه والـدة ريـم. لقـد وجـدت رقمـك عـلى هاتفهـا، ففكّـرت بالاتّصـال. أدرك مـدى اهتمامـك لأمرهـا رغـم غيابـك، لذلـك رأيـت أن أعلمـك بهـذا. لقـد توقّفـت رئتـا ريـم عـن العمـل منـذ يومـين. واليـوم انهـارت كليتاهـا، وخفقـات قلبهـا تتباطـأ بشـكل ملحـوظ. إنّ كلّ مـا يربطهـا بالحيـاة الآن هـي تلـك الآلات الـتي تبقيهـا بيننـا، بينمـا تنسـحب روحهـا قليـلا قليـلا. لقـد اتّخـذت قـرارا صعبـا بفصلهـا عـن الأجهـزة لترحـل بسـلام. لعلّـك تريـد وداعهـا قبـل ذلـك».

الفصل العاشر

- عودة -

-١-

طرت مثل سحابة نفخت فيها ريح عاصف. جمعت حاجياتك في سرعة البرق، وغادرت الفندق دون تفكير. وصلت إلى مطار أتاتورك قبيل العاشرة مساءً، قصدت مكتب الخطوط التركيّة واشتريت تذكرة للرّحلة المقبلة، ثمّ جلست تترقّب متقلّبا على الجمر. هل تعود محمّلا بالحكايات مثقلا بالتّجارب، ولا تجد ريم لتروي على مسامعها مغامراتك؟ ألم تقم بتلك الرّحلة من أجلكما معا؟ ما الذي غنمته الآن وقد رحلت في غيابك؟

حاولت الاتّصال برقمها كثيرا دون فائدة. كان الهاتف مغلقا على الدّوام. عدت إلى الرّسالة وتمعّنت في تاريخها. كانت قد وصلت منذ أربعة أيّام! أتكون قد تأخّرت؟ أتكون قد انشغلت عنها بنفسك حتّى غابت إلى الأبد؟ دفنت وجهك بين كفّيك وانخرطت في بكاء مرير. كان الانتظار مرّا. وألم الفقد قاسيا. كنت تأمل معجزة، والمعجزات سلاح ذو حدّين، إمّا أن تجدّد إيمانك أو أن تدفعك إلى شفير الجنون. والمعجزة التي تأملها ولا تأتي، تسلبك كلّ شيء، حتّى ثقتك في الأشياء الصغيرة الممكنة.

أربع ساعات، مدّة الرّحلة بين إسطنبول وباريس. تليها ساعة عند مكاتب الجوازات واستلام الحقائب. ثمّ ثلاثة أرباع السّاعة حتّى تصل إلى المستشفى. السّاعة تشير إلى الخامسة فجرا، وأنت تجهل ذلك. فقدت إحساسك بالزّمن، أو لعلّ كلّ الأوقات تتساوى، في حياة لا ريم فيها. تعبر ممرّات المستشفى ركضا، فلا تسمع إلا وقع خطواتك وصوت انسياب عجلات حقيبتك على الأرض الرّخاميّة.

اقتحمـت القسـم، وهرولـت في اتّجـاه سريـر ريـم. توقّفـت بغتـة بفرامـل خفيّـة، وأنـت تطالـع وجههـا الشّـاحب وعينيهـا المسـدلتين.

كانت لا تزال هناك. لكنّها ما عادت هناك.

هـذا الشّبح الرّاقـد عـلى سريـر المستشـفى يشبه ريـم إلى حـدّ كبـير.. لكنّـه لا يحمـل شـيئا مـن نضارتهـا وشـقاوتها ودفـء روحهـا. جلسـت إلى جوارهـا في إعيـاء والتقطـت كفّهـا الهزيلـة. حدّقـت في الأصابـع النّحيلـة الـتي غـدت عظامـا دقيقـة وبـارزة تغلّفهـا بـشرة هشّـة بيضـاء. اغرورقـت عينـاك بالدّمـع. لقـد غبـت عنهـا لسـبعة أسـابيع.. لتجدهـا عـلى تلـك الحـال المزريـة. يتنامـى إليـك أزيـز إلكـترونيّ متواصـل يصـدر عـن الأجهزة الـتي تزوّدهـا بالمحلـول المغـذّي والهـواء وتراقـب نبضـات قلبهـا. هـذا كلّ مـا يبقيهـا عـلى قيـد الحيـاة.

أسـندت رأسـك إلى جانـب السّريـر، ودون أن تشـعر أو ترغـب، غفـوت. كنـت مرهقـا ومنهـارا حـتّى الثّمالـة. اسـتيقظت عـلى وقـع خطـوات الطّاقـم الطـبيّ داخـل الغرفـة. وصـل الطّبيـب المتابـع لحالـة ريـم، وبرفقتـه عـدد مـن الإخصّائيـين ووالدتهـا أيضـا. ابتسـمت حـين رأتـك:

- لقد جئت!

كنـت لا تـزال مشوّشـا. تذكّـرت الرّسـالة فجـأة. لقـد نسـيت أمرهـا. صدمتـك لرؤيـة ريـم عـلى تلـك الحـال وسرورك ببقائهـا عـلى قيـد الحيـاة أذهـلاك عمّـا عداهمـا.

- لقد حان الوقت!

أعلن رئيس القسم بصوت خالٍ من أيّ انفعال.

- أيّ وقت؟

كانت نبرتك عدوانيّة ومتحفّزة. أجابت والدتها بهدوء:

- لقد انتهى الأمر يا بنيّ.. هل رأيت ما آلت إليه الصّغيرة المسكينة ؟

كانت على مشارف البكاء، لكنّها تحافظ على سكينتها بثبات تحسد عليه .

- أرجو منك أن تخطو خارجا، ولا تعطّل العمليّة!

تنهمر العبرات سخيّة على وجنتيك.

- هل يمكنني وداعها؟

- لديك خمس دقائق.

أتاك ردّه جافّا حاسما.

أنت تغلي، بركان يفور داخلك.. لكنّك مكبّل الذّراعين، تلفّك حبال من وهم. تحاول أن تقاوم فكرة النّهاية، لكنّك تستسلم لها دون عناء، أوليست حال ريم دلالة عليها.. تلك النهاية؟ تدرك أنّك هناك لوداعها للمرّة الأخيرة لا أكثر. لقد تقبّلت الأمر، خلال ساعات السّفرة من إسطنبول، بل على امتداد الرّحلة ذاتها. كانت ريم تغدو شيئا فشيئا مجرّد ذكرى جميلة وعابرة في وجودك. وأنت مستعدّ الآن لإنهاء المرحلة.

لا لست مستعدّا! وكيف يكون الاستعداد ممكنا لوداع لا لقاء بعده؟

تهاجُمك الأسئلة القديمة.. أين تذهب روح ريم الآن إذا ما فارقت جسدها؟ هل تحتضنها أرواح أخرى وتحنو عليها فلا تعيش غربة في عالم البرزخ؟ كيف تلقى الإله الذي كفرت به؟ هل يؤاخذها لإعراضها عنه وعزوفها عن عبادته؟

تهمس في وجع، علّ روحها المرفرفة قريبا تصغي إلى مناجاتك:

- لقد كنّا على خطأ يا حبيبتي.. هناك خالق للكون. ولعلّك الآن ماضية لملاقاته.

يعتصر الألم فؤادك. ماذا لو رحلت بدورك قبل أن تدرك الحقيقة؟ ريم لم تملك وقتا كافيا، باغتها الموت وهي في ريعان الشّباب وأوج العطاء.. لكنّك تملك فرصة إضافيّة.

- نفدت المهلة.

على الجانب الآخر من السّرير، تجلس الأمّ المكلومة في شجن، تنحني هامسة في أذن صغيرتها بالشّهادتين! ثمّ تتلو على مسامعها آيات من حفظها. ترفع عينيها إليك وتبتسم. نفدت المهلة. تتراجع في استسلام، بينما يملأ الفريق الطّبيّ الغرفة. حانت ساعة الصّفر. يلقي صوت بارد أجوف التّعليمات، فتنطفئ الأجهزة واحدا إثر الآخر. ثمّ ينطلق صفير حادّ مستمرّ من آلة مراقبة القلب، ويظهر خطّ مستقيم ثابت على الشّاشة.. علامة توقّف الزّمن.

- ساعة الوفاة.. العاشرة وست دقائق.

هل يتوقّف الزّمن حقا؟ لقد توقّف بالنّسبة إليك في تلك اللّحظة. ترى العالم يستمرّ من حولك، لكنّك متجمّد في موضعك.

- تعازيّ الحارّة دكتور مالك!

صافحك الطّبيب المتابع لريم بجديّة جنائزيّة، بينما سلّمته كفّا باردة مرتخية. تلمح سريرها يخرج من الغرفة مدفوعا على عجلات إلى ثلاجة الموتى، وقد غطّى لحاف أبيض وجهها وسائر جسدها. أنت أيّها الطّبيب المقيم أدرى بمآل الجثث الباردة.

خرجت من المستشفى، تجرّ حقيبتك وأذيال حسرة وضياع. لقد انتهى كلّ شيء. دلفت إلى شقّتك، واستلقيت على السّرير. لبثت ممدّدا هناك زمنا لا يعلمه إلا الله. كيف مرّت بك تلك الأيّام؟ لعلّك لا تذكر

تفاصيلها ولا تعي ما عشته فيها. يمرّ بك الزّمن، وأنت عالق قسرا في لحظة رحيل ريم.

كان يفترض بك أن تكون في تركيا ذلك الأسبوع، لذلك لم ينتبه أحد إلى مصيبتك. تخلّفك عن المستشفى كان طبيعيا، وعلاقاتك مع الرّفاق كانت متردّية بطبعها. حين أفقت من سكرة الحزن، اغتسلت وغيّرت ثيابك وغادرت شقّتك نحو وجهة واضحة. كانت لافتة «حانة الزّمن الجميل» تومض بإغراء عند آخر الشّارع. كنت قد انقطعت عن الشّرب منذ لقائك بريم ولم يبق في شقتك أيّ مخزون من مشروباتك الذهبيّة المفضّلة، واتّخذت عادات غذائيّة مثاليّة صحيّة خلال رحلتك. لكنّك الآن في حاجة إلى النّسيان والغياب.

عدت إلى إدمان الشّرب. تعبّ من الكؤوس طيلة السّهرة وحتى ساعات الصّباح الأولى، وتنام حتّى منتصف الظهيرة مثل القتيل. نهارك ليل وليلك نهار. ثمّ انتبهت إلى تغيّبك عن العمل وأنّ الإجازة قد انتهت منذ يومين، حين وصلك تنبيه من المستشفى! لكنّك لم تغيّر سلوكك أبدا. ذهبت متأخّرا وثملا في يومك الأوّل. وقفت عند الاستقبال تعاكس الممرّضات بأسلوب فجّ، ثمّ اقتحمت العيادات واحدة إثر الأخرى، باحثا عن سمّاعة صدر طبية، قبل أن تتذكّر أنّك لا تحتاج واحدة!

كان عرضا مخزيا ومخجلا، لولا أنّك كنت فاقدا للإحساس. بعد نصف ساعة، جاء رئيس القسم الذي أتاه النبأ وهو في اجتماع بإدارة المستشفى. عنّفك بلهجة حازمة، وأمرك بالمغادرة على الفور. لكنّ ذلك لم يحرّك فيك شيئا. هززت كتفيك استهانة، ثمّ انسحبت وعلى شفتيك ابتسامة غبيّة وهذيان كثير بلغات متداخلة. كانت مشاعرك قد تبلّدت وما عاد تقدير الآخرين من عدمه يحرّك فيك شيئا.

ومساء اليوم ذاته، شربت حتّى غاب عقلك، فقصدت المستشفى بدل العودة إلى شقّتك! دخلت في السّاعة الثالثة صباحا على مناوبة الطّوارئ، زائغة نظراتك، مترنّحة خطواتك ومنفلت لسانك! أخذك الزّملاء إلى غرفة الاستراحة، حيث غططت في نوم عميق حتّى الصّباح. ورغم محاولتهم التّغطية على هفواتك وتجاوزاتك، فقد اكتشف رئيس القسم أمرك مرّة ثانية!

استيقظت بطنين في رأسك على صراخ الرّئيس الهائج. كان موقفه أكثر صرامة هذه المرّة.

- لن يمرّ الأمر هكذا.. سأحوّلك إلى مجلس التّأديب!

أحاط به أطبّاء القسم الذين يعرفون مدى تميّزك في عملك ويدركون حساسيّة الوضع الذي تمرّ به رغم جهلهم حقيقته. قالت زميلة إسبانيّة متعاطفة:

- إنّه يمرّ بظروف شخصيّة قاسية!

فانفجرت أنت ضاحكا. ما الذي تعرفه تلك الحمقاء عن ظروفك؟ رفعت صوتك وشتمتها دون تردّد، فاحتقن وجهها، وانسحبت من الغرفة. بينما أعلن رئيس القسم:

- أنت مفصول لمدّة أسبوع! إن لم تتمالك نفسك خلال هذه الفترة فلن أتردّد في فصلك من البرنامج بشكل نهائيّ!

حين انتبهت من سكرتك بعد الظهر، أدركت مدى سوء وضعك.

هل رجعت إلى خانة الصّفر؟

وأين تقع خانة الصّفر تحديدا؟ قبل بحثك أم بعده؟ في مكان ما بين الإيمان والإلحاد؟ على مسافة متساوية بين القناعات الفكريّة المختلفة؟ إذن أنت لست هناك! لعلّك كنت على الهامش تماما، حيث لا أرقام ولا خانات!

أنت لم تعد مهتمّا. لم تعد تفكّر. لا شيء يشغل عقلك الألمعيّ ويجبره على التّنقيب والتّمحيص. لا شيء يحرّك وجدانك ويشدّه للارتقاء إلى عوالم علويّة. كلّ العادات التي اكتسبتها في رحلاتك تلاشت دفعة واحدة، وكلّ الطّاقة الجبّارة التي تولّدت داخلك من التأمّل والتدبّر في خلق الله تبخّرت بين يوم وليلة.

من يراك كان يدرك منذ اللّحظة الأولى أنّك إنسان فارغ، تمشي محنيّ الظهر منكّس الرّأس، مثل جنديّ مهزوم ينسحب من ساحة المعركة. غير أنّ ساحة معركتك هي حياتك ذاتها.

صار كلّ شيء بغيضا من حولك. معالم باريس التي تذكّرك بأمسيات السّبت برفقة ريم، ونشرات الأخبار التي تبحث في وجوه مراسلاتها عن شبيهتها، وصباحات الأحد الباردة بدون قهوة تعدّها بيديها، ومساءات طويلة لا تقصّرها مكالمات تكون هي على طرفها الآخر. كيف يستمرّ قطار الحياة وكأنّ نزول ريم في محطّة سابقة لا يؤثّر؟ لقد كانت هي قوّة التوازن التي تبقي كيانك متماسكا، لذا من المحتّم عليك الانهيار!

كان أسبوع الفصل يكاد ينتهي، ولا شيء ينبئ بتحسّن ممكن للوضع. كانت قد ظهرت عليك أعراض اكتئاب حادّ. أرق شديد وفقدان شهيّة، للأكل ولكلّ شيء آخر، وأفكار سوداويّة قاتمة. حلم الطبّ لم يعد يحمّسك، وكلّ ما قاتلت من أجله في السّنوات الماضية أصبح بلا معنى.

لأوّل مرّة منذ شهور، أمسكت الهاتف وتحدّثت إلى والدتك. كنت تفرّ منها غالبا، ومن استفساراتها وشكوكها التي لا تنتهي. لا تصدّق أنّك بكيت في ذاك الاتّصال حتّى أصابها الهلع. اعترفت بصوت موجوع مثل طفل يستغيث:

- أنا متعب يا أمّي!

لقد صارت الحياة عبئا عليك. أنت مرهق من التنفّس والأكل والمشي والكلام. وهل تستقيم حياة بهذا الشّكل الموغل في الألم؟

- سوف تأتي إلى الرّياض!

قرّر والدك بصرامة. وقد انقدت باستسلام تلك المرّة.

كنت قد أنهيت -بمعجزة ما- متطلّبات السّنة الثانية من التّخصّص، وأصبح متاحا لك الانتقال إلى مستشفى أجنبيّ لإتمام تدريبك العمليّ. لذلك تركت والدك يقرّر من أجلك. لقد قاومته من قبل من أجل سارة، ثمّ خوفا من انفضاح عزوفك عن الدّين، ثمّ لتعلّقك بريم.. أمّا الآن، فلم يعد أيّ من ذلك يبقيك على الأراضي الفرنسيّة. ثمّ ماذا لو اكتشف والداك ضياعك؟ تعلم أنّ خيبتك الدّينيّة أشدّ تأثيرا عليهما من خيبة دراسيّة أو مهنيّة. سيقصم الخبر ظهريهما ويطعن روحيهما. لكنّك لا تفكّر في هذا الآن. لا تحسب العواقب ولا تقدّر النتائج. إحساسك البليد غير قادر على التّعاطف.

شغلك التّجهيز للسّفر وإنهاء المعاملات الإداريّة في الأسابيع التي تلت. تقدّمت بطلب إجازة مفتوحة من المستشفى، إلى أن تفرغ من الإجراءات الطّويلة. أنت لا تعلم ما الذي ينتظرك في الرّياض، ولا تأمل أن تختلف الأمور كثيرا. لكنّ ثلاثة دوافع تحرّكك. أنت تفرّ من ذكرياتك وريم، ومن الخمر التي تتوافر في باريس بغزارة وتعزّ في المملكة السّعوديّة، وتشتاق إلى حضن العائلة. وهي دوافع كافية.

بعد أسبوعين من تلقّيك صفعة الطّرد من المستشفى، خفّت حاجتك إلى السّكر، وأصبحت أقدر على البقاء يقظا لأمد أطول. كانت ريم قد رحلت منذ شهر تقريبا. وكنت قد تماسكت نوعا ما، وأصبحت أكثر استعدادا لمواجهة الحياة. عمليّة الانتقال قد تستغرق

شـهورا، وأنـت قـد أهـدرت معظـم مدّخراتـك عـلى مصاريـف الرّحلـة! أعادتـك حاجـات العيـش الأساسـيّة إلى الواقـع. بعـد انقطـاع راتبـك، كان عليـك أن تجـد مـورد رزق تسـدّد منـه إيجـار الشّـقة وتنفـق منـه عـلى طعامـك وشرابـك ونزواتـك!

تجـرّأت عـلى الاتّصـال بإيرينـا. توقّعـت دهشـتها. مضـت سـنة أو تزيـد عـلى السّـهرة الأخـيرة الـتي جمعتـك بهـا. وقـد أدركـت بغريـزة أمومـة مـا لديهـا أنّـك قـد عـدت ولـدا تائهـا يحتـاج إلى إرشـاداتها! كنـت تعلـم أنّهـا تعمـل في عيـادة مسـائيّة بعـد دوام المستشـفى. لـم تكـن تطمـع في وظيفـة في تخصّصـك بجراحـة العظـام، فأنـت لـم تنـه تكوينـك النظـريّ والعمـليّ بعـد، لكـن إن كانـت تحتـاج مسـاعدا أو ممرّضـا أو كاتبـا، فأنـت أكـثر مـن مناسـب. بـل إنّ تلـك الوظيفـة تعـدّ إهـدارا لإمكاناتـك العظيمة!

استمعت إليك في اهتمام وأنت تشرح وضعك، ثمّ قالت في حزم:

- تعال مساء الغد!

وأملت عليك العنوان.

وأنـت تمـضي إلى عيادتهـا، تسـاءلت، لمـاذا لـم تقصـد أيّـوب أو محسـن؟ كنـت تعلـم أنّ كليهمـا لديـه مـن العلاقـات والصّـلات مـا يفـي بالغـرض. لكنّـك آثـرت إيرينـا. لأنّ رأيهـا فيـك لا يهمّـك. لا يهمّـك مـا قـد تظنّـه بنجاحـك مـن فشـلك، جنونـك مـن عقلـك. لكنّـك لـم تـرد أن تعـترف لنفسـك، لقـد كان رأي الفرسـان يهمّـك في نهايـة المطـاف.

حـين وصلـت إلى العيـادة، فتحـت لـك سـكريتيرة شـابّة، قادتـك إلى غرفـة انتظـار شـبه خاليـة. جلسـت تتأمّـل اللّوحـات الجداريّـة الباهتـة وأكـوام المجـلّات الشـعبيّة الرّخيصـة عـلى المنضـدة، وتفكّـر فيـم إن كنـت قـد اتّخـذت القـرار الصّـواب. حـين جـاء دورك، دخلـت. كانـت إيرينـا متألّقـة كعادتهـا. اسـتقبلتك بابتسـامتها الأنثويّـة الطّاغيـة، ثـمّ

قالت:

- كما ترى، ليس العمل كثيرا غالبا، ولديّ مساعدة كافية...

لم تستوعب ما تقصده. لماذا طلبت منك المجيء إذن؟

- إن كنت يائسا إلى درجة كبيرة ومستعدا لقبول أيّ وظيفة.. ربّما يمكنك تنظيف العيادة بعد الدّوام -إنّها ليست عيادتي الخاصّة، بل هناك طبيبان آخران يشغلانها في أوقات مختلفة من النّهار- وشراء اللّوازم التي نحتاجها.. الشاش والقطن، القهوة والحليب والسّكر.. وسيدفع كلّ منّا حصّة من راتبك.

رمقتك بتلك النّظرة الطّويلة السّابرة. ربّما كان يجدر بك أن تشعر بالإهانة؟ ربّما كان يفترض بك أن تقف على الفور في ثورة واستهجان؟ لكنّك لم تفكّر في كلّ ذلك، بل شغلك تقييم عقلاني للعرض. كانت العيادة محدودة المساحة. مكتب وصالة انتظار ومدخل يحوي مكتب استقبال منزويا، بالإضافة إلى حمّام ومطبخ صغيرين. فكّرت أنّ عمليّة التّنظيف لن تستغرق أكثر من ساعة إلى ساعتين يوميّا. سألت:

- كم سيكون الرّاتب؟

- أربعمائة وخمسين يورو.

لم يكن ذلك ليغطّي إيجار الشقّة وحده، رغم أنّك ما زلت تتقاضى مساعدات الدّولة الخاصّة بالطلبة. لكنّها ساعة واحدة في اليوم، من التّاسعة إلى العاشرة مساءً أو أكثر بقليل! تحضر بعد أن ينصرف الكلّ، فلا يراك أحد. سيترك لك هذا ساعات النّهار كلّها لتصحو متأخّرا كما تريد، وتنهمك في معاقرة الحزن كما تشاء. ستكون متفرّغا لتوديع باريس التي عرفت سنوات حبّك ونجاحك وعربدتك وبحثك وضياعك وشقائك، كما يليق بها! ستتقشّف في معيشتك، تبيع بعض الأشياء الزّائدة عن الحاجة، وتصرف مدّخراتك حتّى آخر

سنتيم.

قلت بعد تفكير عميق:

- قبلت.

قرأت الصّدمة على ملامحها.

- مالك، ما الذي حلّ بك؟

لقد عرفتك مترمّتا ومنفلتا، حيّيا ووقحا، لكنّها لم ترك يوما إلا عزيز النّفس، فأين ذهب مالك القديم؟ لقد رحل وحلّ محلّه رجل بارد ميّت الإحساس.

كان بركان حزنك قد خمد، بعد أن أحرق كلّ شيء في الأيّام الأولى. استعدت شيئا من رصانتك القديمة، وقليلا من الحياة الاجتماعيّة السّطحيّة. وجدت لك نشاطا جديدا تشغل به فترة العصر، حتّى يحين وقت الخمرة. صرت تتردّد على مقهى شعبيّ في الحيّ العربيّ. كلّ أمسية، يجتمع نفر من العجائز يلعبون النّرد والورق، أبو مازن وأبو محمّد وأبو صالح وشابّ دخيل بينهم اسمه نادر. صاروا فرسانك الأربعة الجدد.. مع البون الشاسع بين الفريقين! رفاق المقهى ليسوا أصدقاء حقيقيّين، بل لعلّهم لا يملكون أدنى مقوّمات الصّداقة. لم يكن هناك من قاسم مشترك يجمعكم. أبو مازن مهندس سوريّ متقاعد وأبو محمّد عسكريّ مصريّ سابق، بينما كان أبو صالح بقّال الحيّ. أمّا نادر فهو مدرّس عربيّة جزائريّ ومهاجر غير شرعيّ. لكنّهم صاروا بشكل ما رفاق المرحلة!

كنت تجلس إليهم لساعات، ويتطوّع أحدهم كلّ مرّة لدعوتك على المشروبات التي تحتسونها طيلة الجلسة، فلا تمانع. وغالبا ما تكون لك الغلبة في ألعاب الورق والطّاولة، فتكتفي ببضع جولات على سبيل المتعة، ثمّ تنسحب لتكون متفرّجا بقيّة الأمسية، فلا

تهين مضيّفيك أو تتسبّب في سأمهم من صحبتك إذا أنت استأثرت بالفوز دونا عنهم. ولعلّك في تلك الفترة نزلت من برجك العاجيّ وأخذت تهتمّ بما يشغل النّاس في الشّوارع، وفي ضواحي باريس بشكل خاصّ. لم تكن الجلسات تخلو من تناقل لأخبار الحيّ.. آفة المخدّرات التي تفتك بالشّباب، والجماعات المتطرّفة التي تحاول اجتذابهم، وأحاديث السّياسة بشكل عام.

ولمّا كان نادر الثّلاثينيّ أقرب الحاضرين إليك سنًّا، فقد كان يجلس حذوك ويرنو إليك في إعجاب معظم الوقت.. يستمع إلى آرائك التي تبدو في عينيه حكمة صافية، ويومئ بشكل مستمرّ. ولنادر ذاك قصّة عجيبة ربّما يكون لها أن تنافس قصّتك في إغرابها. أفضى إليك بعد أسابيع قليلة من انضمامك إلى شلّة المقهى، بأنّه يحمل قنبلة موقوتة في رأسه! نظرت إليه في استخفاف، وقد حسبته يبالغ. فطفق يحدّثك بماضيه. حين كان يافعا، إبّان العشريّة الجزائريّة السّوداء، تلقّى طلقا غير مباشر من سلاح عسكريّ، أصابه في مؤخّرة رأسه. والأدهى أنّه لم يكتشف إصابته إلّا بعد عقود، بعد أن عبر المتوسّط على متن رحلة مجازفة كادت تتسبّب في غرقه. أصيب بارتجاج دماغيّ أثناء رحلة العبور الخطرة، فكشفت صورة الأشعّة التي خضع لها عن وجود رصاصة تقبع هناك في سكون تامّ! تلك الرّصاصة كانت تهدّد حياته إن هو أخرجها.. وتهدّدها إن هي ظلّت في رأسه!

ولمّا كان رفاقك الجدد مختلفين من حيث خلفيّاتهم فإنّك لم تحاول أن تناظرهم في أمور الدّين والعقيدة كما كنت تفعل مع رفاقك القدامى، ولمّا كنت راغبا في الحفاظ على غموضك دون إطلاعهم على خفايا ماضيك، فقد كانت الفلسفة المجال المناسب لتقارعهم في ساحته، وتكتشف رؤيتهم السّطحيّة البسيطة للقضايا العميقة التي شغلتك في السّنوات الأخيرة. كنت تلقي على مسامعهم

واحـدة مـن المسـائل السفسـطائيّة القديمـة الـتي أعيـت كبـار الفلاسـفة وتصغـي في اسـتمتاع إلى لغطهـم حولهـا. سرعـان مـا وجـدت مـلأً جديـدًا تخطـب فيـه، فتلقـى أطروحاتـك الإعجـاب والاستحسـان.

وذات مـرّة، طرحـت عليهـم معضلـة حقيقـة الزّمـن. جلسـت عـلى مقعـدك في المقهـى في اعتـداد مثـل أسـتاذ يختـبر طلبتـه، وقلـت:

– ما هو الزّمن؟

تبادلوا نظرات متسائلة، ثمّ أدلى أبو محمّد بدلوه:

– إنّه الوقت الذي يمضي.. ويأخذ معه أعمارنا!

ندّت عنهم زفرات حسرة وأمّنوا على قوله. ثمّ أضاف البقّال:

– إنّه ما تقيسه السّاعات!

أمسكت بطرف الخيط وسألت على الفور:

– ولكـن مـا هـي السّـاعة؟ أليسـت آلـة لقيـاس البعـد الزّمـني؟ هـل يمـرّ الزمـن لأنّ السّـاعات لا تتوقّـف عـن التقـدّم.. أم أنّ السّـاعات لا تتوقّـف لأنّ الزّمـن يمـرّ؟

قال أبو مازن وقد كان ذا خلفيّة علميّة:

– الزّمـن يمـرّ سـواء تقدّمـت السّـاعات أم توقّفـت، وقـد كان يمـرّ حـتّى قبـل اخـتراع السّـاعات.. الزّمـن ناتـج عـن دوران الأرض حـول نفسـها، ودورانهـا حـول الشّـمس.. فهـي أشـياء مضبوطـة بمقـدار زمـنيّ ولا تختلـف!

هززت رأسك في استحسان ثمّ استطردت:

– حـين نتحـدّث عـن الزّمـن، نشـير إلى لحظـة مـا عـلى خـطّ الزّمـن بالحـاضر، المـاضي أو المسـتقبل.. لكـنّ أيّ لحظـة مهمـا كان موقعها، فهي في وقـت مـا تكـون في المسـتقبل، ثـمّ تصبـح في الحـاضر، وأخـيرا تغـدو

من الماضي! مما يعني أنّ الزّمن متناقض في نهاية الأمر.. وبالتّالي غير حقيقيّ! فكيف تكون الأشياء التي تعدّ مفاهيمها متناقضة حقيقيّة؟

هتف نادر:

- الحاضر حقيقة، لأنّنا هنا.. نتحدّث الآن!

أجابه أبو محمّد على الفور:

- وكلماتك قد غدت في الماضي الآن! الماضي ليس إلّا ذكريات في رؤوسنا.. بينما المستقبل مجرّد توقّعات. فكيف تكون حقيقة؟

قال أبو مازن:

- هناك أشياء ملموسة تدلّنا على الماضي، غير الذّكريات.. الحفريّات والقطع الأثريّة التي نجدها في المتاحف، كتب التاريخ وغيرها.. بينما لا يصبح المستقبل حقيقة إلّا حين نصل إليه، فيكون حاضرا!

قلت موضّحا:

- هذا صحيح، من وجهة نظرنا البشريّة المحدودة. لكن من وجهة نظر فيزيائيّة، الماضي حقيقيّ والمستقبل أيضا.. إنّها أبعاد الكون الفيزيائية. أينشتاين اعتبر الزّمن بعدا رابعا، بالإضافة إلى أبعاد المكان الثلاثة. فإذا ما أردت أن ألتقي أحدكم مثلا، فمن الضّروري أن أحدّد الأبعاد الأربعة.. المكان والزّمان. وإلّا فإنّ اللقاء لن يحصل. إذا ذهبت إلى موقع آخر من الأبعاد -نفس المكان قبل ساعتين- فلن أجد أحدكم!

أومؤوا موافقين، بينما واصلت تشرح:

- المكان يمكن أن يكون متنوّعا، ولا شيء يمنعه من ذلك. يمكن أن أغلق هذه القبضة على الفراغ التامّ، بينما أقبض باليد الأخرى على هواء مشبع بثاني أكسيد الكربون من أرجيلة أبو محمّد! هاتان

قبضتـان متجاورتـان، لكنّهمـا مختلفتـان كلّيـا. لكـنّ الزّمـن ليـس كذلـك.. هنـاك علاقـة وثيقـة بـين نقطتـين متتاليتـين عـلى خـطّ الزّمـن. في الحقيقـة، ليـس هنـاك شيء اسـمه خـطّ الزّمـن! لأنّ الزّمـن متضافـر مـع المـكان لا ينفصـل عنـه، فكأنّهمـا نسـيج متداخـل. أرأيتـم لـو أنّـني جلسـت هنـا سـاعة لا أغـادر مقعـدي، فهـل أنـا ثابـت حقيقـة؟

قال أبو صالح:

- نعم، أنت ثابت.

بينما اعترض أبو مازن:

- لست كذلك.. لأنّ الأرض تدور!

هتفت في استحسان:

- نعـم، هـو ذاك! حـتّى لـو تجمّـدت مـكاني سـاعة، فـإنّ حركـة الأرض تسـتمرّ، والمجـرّة، والكـون كلّـه! إذن مـا يبـدو لنـا حركـة للزّمـان دون المـكان هـو في الحقيقـة وهـم.. فهمـا لا ينفصـلان! وبمـا أنّنـا ننتقـل بحرّيـة مـن موقـع في المـكان إلى أيّ موقـع آخـر.. فهـل يمكننـا أن نفعـل الـشّيء نفسـه في الزّمـن؟

أجابوا بصوت واحد:

- لا، طبعا لا.

- لكـن لمـاذا؟ أليـس الزّمـن بعـدا هـو الآخـر؟ فلمـاذا يبـدو التنقّـل عـبره عسيرا؟

ران عليهم صمت حائر، فاستطردت:

- هنـاك قوانـين كونيّـة مـا تجعلنا محبوسـين في اللّحظـة الرّاهنـة، نمضي في اتّجـاه زمـنيّ واحـد.. ولكـن يومـا مـا، حـين تصـل المعرفـة البشريّـة إلى مستوى متقـدّم، سـيصبح التنقّـل عـبر الزّمـن ممكنـا!

ضحك نادر وقال:

- حين نخترع كبسولة الزّمن! كم أودّ أن أكون حاضرا في ذلك الوقت!

ابتسمت ثمّ أردت أن تشاغبهم، فقلت:

- تخيّلوا معي لو أنّ الوقت يتباطأ أو يتوقّف، فما الذي سيحصل؟

سأل نادر:

- مثل الأبطال الخارقين الذين يملكون القدرة على إيقاف الزّمن؟

أطلق أبو صالح صفيرا طويلا ثمّ قال:

- كم سيكون هذا رائعا! أن يتجمّد الآخرون، بينما أتجوّل بحرّيّة.. أدخل قصر الإيليزيه والرّئيس متسمّر في مكانه، وأفعل ما يحلو لي!

ضحكوا في صخب، فتركتهم يتندّرون لبعض الوقت قبل أن تعلن في تهكّم:

- فيزيائيّا، هذا سخيف جدّا. لأنّ إيقاف الزّمن، يعني توقّف موجات الضوء فلا يكون بوسعك رؤية شيء من حولك، وتوقّف ذرّات الهواء، فتشكّل حاجزا صلبا تصطدم به إذا حاولت المشي.. بل لا يمكنك حتّى التنفّس، لأنّ كلّ شيء ساكن في مكانه، فلا هواء يدخل رئتيك أو يخرج! في الحقيقة، توقّف الزّمن يعني العدم. وإذا ما توقّف الزّمن بالنّسبة إلى كلّ العالم، فلن يكون هناك تأثير على الإطلاق، لأنّه لا أحد يشعر بتوقّف الزمن أو مضيّه في هذه الحالة!

حدّقوا فيك مبهوتين لبرهة، ثمّ ما لبثوا أن عادوا إلى صخبهم ونكاتهم الجريئة. بينما سرحت في أفكارك.

الزّمن، إنّه أحد مكوّنات الوجود.. مخلوق من مخلوقات الله! البشر لا يمكنهم إدراك ذلك البعد. لأنّهم سجناء اللّحظة الرّاهنة.. الحاضر! لكنّ الأمر مختلف بالنّسبة إلى الخالق. هو خارج نطاق

الزّمان والمكان، وهو قادر على الإحاطة بكلّ الأبعاد دفعة واحدة. لا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل! فقط خارطة للكون في كلّ لحظاته، مثل شرائح متراصّة بعضها إلى جوار بعض، في نسيج متلاحم للزّمان والمكان...

تتساءل، متى خلق الله الزّمان؟ قبل خلق الكون أم بعده؟ قبل كتابة القدر في اللّوح المحفوظ أم بعدها؟ لكنّ السّؤال ذاته يبدو سخيفا. كيف يمكنك الحديث عن ترتيب أحداث الخلق، إذا كان الزّمن ذاته أحد المخلوقات! لا معنى للحظات الزّمنيّة حين يتعلّق الأمر بالذّات الإلهية السّامية. لكنّ عقلك لا يتّسع للمعرفة التي تسعى إلى بلوغها.. وتستمرّ في المكابرة.

- أحلى كأس شاي للدّكتور مالك!

تبتسم، حين يصل النّادل ويدور عليكم بالمشروب الحلو، وتلقي بأسئلتك المضنية إلى أقبية الوعي المظلمة.

استمرّ الوضع على تلك الحال زهاء الأشهر الثلاثة، حتّى جاءت الموافقة الرّسميّة من مستشفى الملك خالد الجامعيّ بالرّياض، واستلمت من وظيفتك القديمة خطابا يثبت التحاقك ببرنامج التخصّص لمدّة سنتين. كنت جاهزا للسّفر، مترقّبا له.

تجرّأت، وزرت كلّيّة الطبّ والمستشفى الجامعيّ، كمن يقف على الأطلال. وقفت في السّاحة طويلا، تنازع نفسك على ولوج المبنى وتصدّها. ما الذي جئت تبحث عنه تحديدا؟ وماذا لو رأيتها؟ هل تحاول تجربة تأثيرها عليك، بعد كلّ هذا الوقت؟ أم تودّعها هي الأخرى.. وداعا لا لقاء بعده؟ لقد ودّعت ريم كما يليق، لكنّ وداع سارة ظلّ مبتورا وجارحا.

كانت تستحقّ منك أفضل من ذلك. ما زالت تلك الفكرة تعذّبك.

ذرعت السّاحة جيئة وذهابا، وراقبت قسم طبّ الأطفال من بعيد زهاء السّاعتين، ثمّ انسحبت دون أن تراها. أنت لا تملك شيئا تقوله في حضورها. لا طاقة لك بتحمّل نظراتها المعاتبة أو اللّائمة أو الحانقة. لكنّك أردت أن تلقي عليها نظرة أخيرة.. هل يمكن لذكرى وجهها المشرق أن تغطّي على بشاعة رحيل ريم؟ لا تدري كيف تستقيم تلك المعادلة! لكنّك عدت منكسرا. سترحل إلى غير رجعة، وستظلّ صفحتك الأخيرة في كتاب سارة ملطّخة بالسّواد.

ثمّ زارك الفرسان الأربعة ذات مساء على غير موعد، بعد أن وصلهم الخبر بطريقة ما. ليس فرسان المقهى المستجدّين، بل رفاق الصّبا والشّدائد والتّجارب. ربّما عرف أيّوب من بعض الزّملاء، وربّما اتّصلت عائلتك بحاتم. أنت لا تدري ولا تسأل. أنت غير قادر على إبداء الجفوة أو الاهتمام. كتلة من اللامبالاة كنت. حتّى أمام عناقهم الحارّ، ووداعهم المؤثّر، بقيت جامدا كالصّخر. لكنّك تبرّمت في داخلك. ما الذي جاء بهم؟ أنت منقطع عنهم منذ شهور طويلة. لقد تركت مناظرتهم ونقاشهم وأعلنت بوضوح أنّك راضٍ عن وضعك الجديد، فما الذي يرمون إليه تحديدا؟

قال أيّوب في عتاب:

- هل أردت الرّحيل دون أن تخبر أحدا؟ حتى باسم الصّداقة القديمة يا أخي! لولاك ما عرف أحدنا الآخر. يشقّ علينا أن تعاملنا كغرباء، رغم كل ما مررنا به سويّا!

كان محقّا. لقد تحمّلوك، وغلظتك وسخطك وبرودك ونزواتك. لم تكن أنت لتتحمّل نفسك.. لكنهم فعلوا. حتّى وأنت تصافح أكفّهم وهم ينصرفون عنك للمرّة الأخيرة، لم تعترف لنفسك بمدى خسارتك.

نِعم الأصدقاء كانوا.. وبئس الرّفيق كنت.

-٢-

وصلـت إلى الرّيـاض، مثـل غريـب لـم ينتـمِ إلى المـكان يومـا. هنـا نشـأت وتشرّبـت العلـم وحفظـت القـرآن. هنـا ترعرعـت وشـببت عـن الطّـوق وعشـت مراهقتـك وبدايـة شـبابك. لكـنّ كلّ شيء يبـدو مختلفـا اليـوم. أنـت نفسـك مختلـف يـا مالـك، فلعلّـك تـرى انعـكاس حالـك عـلى البنايـات والشّـوارع والوجـوه العابـرة؟

كان مـن المنطقـيّ أن تسـتقرّ حـذو الأهـل في الفـترة الأولى، تطفـئ نـار الشّـوق وتسـتزيد مـن دفء الأجـواء العائليّـة الـتي صـارت نـادرة ومتباعـدة نظـرا لتغرّبـك الطويـل. جعلـت منـك والدتـك مركـز اهتمامهـا الأوّل، وعـدت في نظرهـا طفـلا صغـيرا يحتـاج إلى كثـير رعايـة ووفـير عنايـة. تطعمـك بيديهـا وتراقـب حركاتـك وسـكناتك، تجـزع لشـحوب سـحنتك وتنطلـق أسـاريرها كلّمـا غـادرت غرفتـك وشـاركتها الجلسـة في شرفـة الـدّار المكشـوفة.. تجلـس لسـاعات أنـت وهـي، تتحدّثـان في أيّ شيء وكلّ شيء، تضحـكان وتتسـلّيان، كأنّـك تعوّضهـا عـن فـترات الغيـاب الممتـدّة، وتنهـل مـن معـين عطفهـا وحنانهـا. وقـد استسـلمت لأوامرهـا ونواهيهـا لأسـبوعين، اسـترددت خلالهمـا أنفاسـك وصفـى ذهنـك.

أمـا والـدك، فـكان قـد تقاعـد مـن عملـه في شركة البـترول منذ سـنوات. لكنّـه شـأنه شـأن رجـال الدّعـوة والفكـر لـم يكـن يسـتقرّ في المـنزل إلا قليـلا، ويشـغل وقتـه بالمجالـس وحلقـات العلـم وتحفيـظ القـرآن في مسـجده المفضّـل منـذ عقـود. وكان يرنـو إليـك بتلـك النّظـرة الصّامتـة في ذهابـه وإيابـه، فتقـرأ في مقلتيـه خيبتـه وخذلانـه. ولـده النّابغـة الـذي تنبّـأ لـه الـكلّ بمسـتقبل واعـد، يرجـع مـن غربتـه حليـق الوجـه غائـم العينـين!

وكان لا يفتأ يقترح عليك كلّما عنّ له:

- ألا يجدر بك أن ترى طبيبا ما؟

ربّاك والداك على الشدّة، لا على الحبّ. لذلك كانت علاقتك بهما متباعدة رغم الاحترام والودّ. لم تكن قريبا منهما كما يجدر بك أن تكون. ولدت لأبوين متديّنين، بل شديدي التديّن، مثل أنتوني فلو. كان والده كاهنا مسيحيّا.. وكان والدك رجل دعوة إسلاميّة. لكنّك لم تتنكّر للدّين مثله في وقت مبكّر. ربّما لأنّك كنت بدورك من حرّاس العقيدة الغلاظ الشّداد. كنت حريصا على الواجبات غيورا على المقدّسات، مولعا بالحدود والضّوابط، جزعا من المحرّمات والشّهوات. هل تنقم عليهما بسبب تربيتك الصّارمة وتعليمك الدّينيّ الجادّ؟

تدرك الآن أنّ عباداتك كانت تقليدًا لمن تجلّهم من رجال العائلة.. والدك وخالك، وسعيا لنيل حبّهما ورضاهما. صغيرا، كنت تحرص على صلاتك بين الرّجال ليقال نضج، وتحفظ القرآن والمتون ليقال عبقريّ.. وحين كبرت، تصدّرت في المجالس ليقال خطيب، واستعرضت معارفك في الفقه والحديث ليقال عالم.

وقد قيل!

فلماذا تلومهما إذن؟

لقد فعلت كلّ شيء من أجل ذاتك، فلا تتّهم أحدا بالتّجنّي عليك!

كانت رقابة الأهل في المملكة نعمة عليك. وقد أدركت بعد أيّام قليلة أنّك فررت من صخب شهواتك التي حرّرتها باريس، ولذت بأحضان المجتمع المحافظ الذي يحميك من نفسك! كنت بحاجة إلى وازع خارجيّ يجبرك على التّماسك.

بعـد أسـابيع قليلـة، خرجـت إلى المستشـفى لأوّل مـرّة، لتسـتلم وظيفتـك الجديـدة. اسـتقبلك الدكتـور نديـم المغـربي، رئيـس قسـم جراحـة العظـام بمستشـفى الملـك خالـد الجامعـي، وقـد كان كهـلا في بدايـة الخمسـينيات، مـصريّ الجنسـيّة. اعتـذرت عـن تأخّـرك متذرّعـا بالمعامـلات الإداريّـة، ثـمّ تحدّثتمـا قليـلا عـن أوروبـا الـتي كانـت مـكان دراسـته أيضـا منـذ عقديـن. كان خرّيـج جامعـة في مدينـة مانشيسـتر البريطانيّـة.

– لقد استبشرت بك خيرا يا مالك.

فاجـأك بتصريحـه غـير المتوقّـع وابتسـامته المحتفيـة. فعاهـدت نفسـك في تلـك اللّحظـة عـلى العمـل بجـدّ حـتّى تكـون في مسـتوى الثّقـة الـتي وُضعـت فيـك، وأن تبـدأ عهـدا جديـدا مـن الاسـتقامة والتّفـاني، وتطـوي صفحـة باريـس ونزواتهـا.

انتقلـت بعـد ذلـك إلى شـقّة خاصّـة، متعلّـلا بـضرورة القـرب مـن المستشـفى والجامعـة. كانـت أوضاعـك قـد اسـتقرّت، واستسـلمت لنسـق حياتـك الجديـدة. صرت تقـضّي معظـم وقتـك في المستشـفى. وإذا مـا انتهـت مناوبتـك، جلسـت في مكتبـة الجامعـة، تلتهـم المراجـع والمقـالات العلميّـة. فـإذا مـا رجعـت مسـاءً إلى شـقّتك، طلبـت عشـاءً جاهـزًا تتناولـه أمـام نـشرة الأخبـار، ثـمّ تـأوي إلى سريـرك منهـكا. وفي نهايـات الأسـبوع، تمـارس الرّياضـة في نـادي الجامعـة.. السّـباحة وكـرة الطاولـة. ثـمّ تـزور والديـك، وتقـضي برفقتهمـا الأمسـية وجـزءًا مـن السّـهرة.

لـم تحـاول تكويـن صداقـات جديـدة، ولـم تسـمح لأحـد بتجـاوز حـدود الزّمالـة المهذّبـة معـك، مـع الحفـاظ عـلى مسـاحتك الشّـخصيّة. كنـت قـد صرت مالـكا آخـر في تلـك الأيّـام.. شـخصا لا تهمّـه آراء الآخريـن، لا يحـاول إثـارة الإعجـاب ولا يخـوض أيّ نقاشـات يثبـت فيهـا رأيـه أو

يحاول تغيير قناعات من حوله. كان نوعا من التّصالح مع وضعك، والسّلام الدّاخليّ الذي يغلّف كتلة القلق التي دفنتها في أعماقك.

وقد تمكّنت من العيش على تلك الشّاكلة لسنتين.

سنتان كنت خلالهما مثالا للطبيب المقيم الجادّ. كنت تحبّ ما تعمل، وقد فضّلت أن تهب مهنتك كلّ وقتك المتاح. لم تكن تتردّد في النّيابة عن زملائك حين تستدعي الحاجة، فتصل فترة عمل بأخرى دون تذمّر، لتسمح لهذا بحضور مناسبة عائليّة ولتلك برعاية طفل أصابته الحمّى. أمّا أنت، فلا علاقات ولا روابط أسريّة تحبسك عن أداء مهمّتك. لذلك، فقد كان رصيدك لدى الزّملاء يتنامى، وخاصّة عند رئيس القسم الذي لم يكن يفوته تواجدك شبه الدّائم بالمبنى!

في تلك الفترة، لم تكن تجاهر بمعتقدك، كما كنت تفعل في باريس. لم يكن من الحكمة أن تفصح عن انبتاتك عن عادات المجتمع والسّمت السّائد فيه، مراعاة لسمعة عائلتك أوّلا، وتجنّبا لصدامات أنت في غنى عنها ثانيا. لكنّه كان من اليسير للمدقّق في أمرك أن يلحظ تخلّفك الدّائم عن الصّلاة الجماعيّة.. لكنّه ليس شأنك وحدك، فكثيرون هم المصلّون المؤخّرون لصلواتهم! ثمّ إنّ مهنة الطّبّ بشكل خاصّ تستدعي منك الحضور في أوقات الصّلاة في قاعات الطّوارئ أو غرف العمليّات.. لكنّك لم تشاهد مرّة واحدة وأنت تتوضّأ مثلا، أو تدخل غرفة الاستراحة لتؤدّي صلاة فائتة.

ما الذي كنت عليه حقيقة في تلك الفترة؟ لم تكن تحاول أن تفكّر بالأمر.. لم تعد تريد أن تتبع دليلا أو حجّة. تركت هوايتك القديمة والأثيرة، الفلسفة. ورضيت بالخمول التّام. هل كان ذلك على سبيل الاستسلام، أم نوعا من المكابرة؟ لعلّه مزيج عجيب من الاثنين. استسلام للحزن، وعجز عن إبصار الحقيقة بشكل مباشر.

أنت تخشى اتّباع الدّليل هذه المرّة، لأنّ ما يخبرك به عن مصير ريم يرعبك. لكنّك تشيح بوجهك في غباء، متغاضيا عن مصيرك أنت!

ثمّ جاء رمضانك الأوّل في الرّياض. نازعتك نفسك بين النّفاق والمجاهرة. ثمّ رأيت أن تستمرّ على نفس النّسق. أنت لا تنافق بقدر ما تراعي مشاعر زملائك ومرضاك الصّائمين! وأنت تراعي شيبة والدتك وكبر سنّها وتخشى عليها من الصّدمة. كنت تمتنع عن الأكل والشّرب طيلة النّهار، حتّى حين تكون منفردا في شقّتك -من باب التعوّد- وتجلس إلى مائدة الإفطار كلّما وجدت نفسك مع الصّائمين، وأنت صائم حقيقة -دون نيّة أو ثواب- لا ينالك من صومك غير الجوع والعطش!

ثمّ بعد بضعة شهور، شرع الدّكتور نديم يتقرّب منك بشكل مريب. بدأ الأمر حين دعاك ذات مرّة لتناول الغداء برفقته، في مطعم المستشفى. أنت لا تنكر إعجابك بالرّجل، لمهنيّته الفائقة أوّلا، ثمّ لدماثة خلقه، وحسن معاملته لك. ومع أنّك تعوّدت الوحدة، ورفضت كلّ مبادرات الصّداقة، فإنّك لم تملك أن تعتذر هذه المرّة. لأنّه رئيسك المباشر أوّلا، ثمّ لتقديرك الشخصيّ للرّجل المحترم والطّبيب الماهر الذي كانه.

جلستما متقابلين أمام المائدة، ثمّ سألك دون مواربة:

- ما هو سرّك الذي تحاول إخفاءه عن الجميع يا مالك؟

شلّتك الصّدمة. هل كان أمرك مكشوفا تماما رغم محاولات التّورية؟!

ضحك أمام سحنتك الشّاحبة وعلامات التوتّر التي علت ملامحك، ثم قال:

- حين كنت في مثل سنّك أو أقلّ قليلا، كنت أباشر العمل في

المستشفى في مانشيستر.. وذات مساء، كنت في مناوبة الطّوارئ، حين دخل رجل مسطول بكسر في ذراعه! كانت بحوزته لفافات حشيش، وكان يترنّح ويهذي بكلام غير مفهوم. كنت مع زميلين لي في القسم يومها، أحدهما بريطاني والآخر إسبانيّ.. بعد أن اهتممنا بحالته، انسحبنا نحو غرفة الاستراحة.. وكان البريطاني يتصرّف بتكتّم غريب، ثمّ أخرج فجأة إحدى لفافات الرّجل التي كانت قد وقعت على الأرض! أشعلها وعرض علينا أن نجرّب معه. حاولت الامتناع، لكنّه أصرّ على أن أكون جزءًا من الخطّة حتّى لا أفشي السّرّ.. والحقيقة أنّ الفضول غلبني، فأخذت نفسا من اللّفافة.. ثمّ غادرت الغرفة على الفور، وقد انتابتني رغبة في التّقيّؤ! وحين رجعت، كان الزّميلان يضحكان بهستيريا ويغنّيان ويتقلّبان على الأرض!

شاركته الضّحك، ثمّ استطرد نديم محذّرا:

- هذا سرّ لم أبح به لأحد قبلك.. ولا حتّى لزوجتي! أنت كاتم جيّد للأسرار، أليس كذلك؟

أومأت برأسك موافقا وقد ازداد استغرابك.. بينما أضاف:

- والآن دورك.. واحدة بواحدة!

أطرقت طويلا، وفكّرت.. هل يكون من الحكمة أن تصارحه بما تخفيه؟

حين طال صمتك، وجدته يقول في إشفاق وتفهّم:

- لا بأس، إن لم تكن مستعدّا اليوم، فسنتحدّث مرّة أخرى!

ثمّ سارع بتغيير الموضوع، وانتقل من شأن إلى آخر حتّى أنهيتما غداءكما.

فكّرت كثيرا بعد ذلك. هل كنت بحاجة إلى المساعدة؟ ليس تماما. أنت راضٍ عمّا آلت إليه الأمور. لكنّك تفتقد الصّحبة، والأخوّة

الصّادقة، والفضفضة من حين إلى آخر، وأن ترى نفسك في مرآة عيني شخص آخر، يستمع إليك ولا يدينك. وكنت تحسب أنّ لدى الدكتور نديم مقوّمات الصّديق الذي ينقصك.

قرّرت إن هو كرّر السّؤال أن تفضي إليه بكلّ ما كابدته منذ وطئت قدماك أرض تونس وحتّى عودتك إلى الرّياض من جديد. تجهّزت لحديث طويل تروي فيه قصّة حياتك، حتّى جاءت الفرصة، بعد شهر كامل من الدّعوة الأولى. جلستما متقابلين، وأمامكما أطباق الغداء، ولم يحاول هذه المرّة أن يستدرجك. لكنّك كنت مستعدّا، فانطلقت تتحدّث دون استئذان. تعرّي سوأتك وتكشف عن المستور. وحين انتهيت، كان يحدّق فيك في إمعان وذهول. ضحك أخيرا في حرج ثمّ قال:

- أوه، أشعر أنّ قصّة اللّفافة كانت سخيفة جدّا مقارنة بهذا!

ضحكت بدورك، في شيء من الخيلاء. نعم، ما عشته أنت وحدك يعادل تجارب عشرات البشر العاديّين الذين لم تختبر الحياة حقيقة معدنهم بعد! ثمّ تنتبه من ضلالك.. وما حقيقة معدنك أنت؟ حديد صلب خام لا تصهره درجات الحرارة التي تقلّ عن ألف وخمسمائة درجة مئوية؟ ربّما.. لكنّك لست ذهبا يزداد بريقا ولمعانا، فقد لطّخت التّجربة قلبك بالسّواد!

لم تختلف معاملة الدّكتور نديم تجاهك بعد حديث الصّراحة ذاك. بل لعلّك شعرت بمزيد حنان ورفق من طرفه. وقد ضايقك ذلك نوعا ما وخيّب أملك. كنت تتوقّع ردّ فعل مختلفا.. شيئا من النّقاش مثلا؟ بعضا من سلوك فرسانك الأربعة؟ لكنّ نديم فضّل تجاهلك، كأنّه يعلمك أنّ إيمانك من عدمه يخصّك وحدك؟

ثمّ جاء شهر رمضان ثانٍ لك في الرّياض. وتلقّيت دعوة غريبة،

مـع ثلّـة مـن الزّمـلاء عـلى الإفطـار في مـنزل الدّكتـور نديـم! حاولـت التملّـص مـن الحضـور، لكنّـه ألـحّ عليـك بشـكل محـرج، وأشـار إليـك وهـو يغـادر المبـنى، أمـام كلّ أطبّـاء القسـم:

- سأكون بانتظارك يا مالك!

لـم يكـن بوسـعك إلّا الرّضـوخ. لكنّـك كنـت تتسـاءل في حـيرة، مـا الـذي ينويـه بالضّبـط؟ إنّـه يعلـم أنّـك ربـوبيّ، لا تصـلّي ولا تصـوم.. فمـا الـذي يرمـي إليـه بدعوتـه تلـك؟

وصلـت بعـد أذان المغـرب ببضـع دقائـق. قـدّرت أن يكـون مضيّفـك وزوّاره قـد أدّوا الصّـلاة ويتحلّقـون حـول مائـدة الإفطـار، وقـد كان. قرعـت الجـرس، ففتـح لـك نديـم بنفسـه. صافحـك بحـرارة ثـمّ قـادك إلى المجلـس الخارجـيّ المنفصـل عـن بقيّـة غـرف المـنزل. انضممـت إلى آخريـن حـول مائـدة عامـرة بأصنـاف كثـيرة مـن المطبـخ المـصريّ. ثـمّ دارت كـؤوس الشّـاي والكعـك مـنزليّ الصّنـع.. ولمـا حـان موعـد صـلاة العشـاء والقيـام، هممـت بالانـصراف، لكـنّ نديـم تأبّـط ذراعـك وقـال بصـوت عـال:

- انتظر يا مالك، أحتاجك في شأن خاصّ...

بينمـا انـصرف الآخـرون، غـادرت برفقـة مضيّفـك مشـيا عـلى الأقـدام إلى وجهـة لا تعلمهـا، لكنّـك مذعـن منسـاق. حـتّى وصلتمـا أمـام مسـجد السّـكن الجامعـيّ. التفـتّ إليـه في ارتبـاك، فقـال بلهجـة جـادّة:

- ما رأيك في أن تفتح قلبك وتجرّب؟

تجرّب؟ أولم تجرّب من قبل؟

لـو كان صاحـب المبـادرة أيّ شـخص آخـر، لكنـت عنّفتـه دون تـردّد وانصرفـت عـلى الفـور غاضبـا. لكنّـه الدّكتـور نديـم، رئيـس قسـمك. قلـت في حـرج:

- لا أستطيع!

- لن تخسر شيئا.. إذا شعرت بالضّيق، يمكنك الانصراف وقتما تشاء.

استسلمت إلى ذراعه تقودك حتّى الصّفوف الأماميّة للمصلّين. وجدت نفسك محاطا بأساتذة الجامعة، يتصافحون ويبارك أحدهم للآخر، ويقدّمك الدّكتور نديم على أنّك تلميذه المفضّل. ثمّ جاء الإمام وهو شابّ يماثلك سنّا أو يزيد قليلا، فصافح الجميع بدوره، قبل أن يتّخذ موقعه. همس نديم:

- الشّيخ عقيل زميل لنا في كلّيّة طبّ الأسنان.. وهو حافظ لكتاب الله، وذو علم شرعيّ واسع.

ابتسمت رغما عنك، وأنت تستحضر شكل طبيب الأسنان الشّاب الذي صلّيت خلفه لسنوات في جامع المرسى، فغمرتك الذّكرى بدفء عجيب .

ثمّ أقيمت الصّلاة.

ما إن شرع الإمام في تلاوة الفاتحة، حتّى سرت قشعريرة في جسدك. كان صوته شجيّا عذبا يستدعي الخشوع ويستجلب الدّمع. ثمّ أخذ يقرأ:

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

تسمّرت مكانك، وأصغيت بكلّ جوارحك. تستعيد مشهد جامع سلطان أحمد في إسطنبول وآخر عهدك بالتّلاوة المؤثّرة التي تحييك

من الممات، فتعيش حالة الوجد ذاتها، كأنّك تلمس صحف القرآن النّديّة تلقي عليها نظرة لأوّل مرّة، فتهتزّ أركان ذاتك المكابرة من الأعماق.

ركع الجميع ولم تركع. فشدّك نديم من كمّ قميصك حتّى تفعل ولا تلفت الأنظار إليك، فأحنيت ظهرك وأنت لا تزال في حالة ذهول، تتداعى في وجدانك كلّ المشاعر الغامرة التي تذوّقتها ذلك اليوم، وأنت تنصت إلى المقرئ التّركيّ. أتكون قد خزّنت تلك «الحالة» في ذاكرتك في وضع سبات شتويّ حتّى جاء ما يوقظها؟

أنهيت صلاة العشاء دون أن تستوعب شيئا ممّا يجري حولك. كنت تسجد وترفع وتقف وتركع مثل آلة عمياء. ثمّ التقطت أنفاسك، وعدت إلى التّركيز مع التّلاوة. كان جزء خاوٍ من روحك يمتلئ. رغم كلّ شيء، كنت تفتقد تلك الرّوحانيّات التي تلازم شهر رمضان، صيامه وقيامه، ثمّ التهجّد ساعة السّحر. كنت في ظمأ شديدٍ، وقد وجدت نفسك فجأة أمام نبع جارٍ شرابه عذب، يتدفّق من شفتي الإمام الشابّ.

ثمّ جلس في استراحة بين ركعات التّراويح، وأخذ يخطب:

- سنخصّص هذه الجلسة القصيرة لتدارس أسماء الله الحسنى.. فهي باب معرفة الله، وسبب صلاح القلوب.. فهي تقوّي جانب الخوف والمراقبة وتعظم المحبّة والرّجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد.. والمعرفة سبب لنيل محبّة الله.. فاللَّه يُحب من أحبّ أسماءَه الحسنى! وهي تورث صدق اليقين والتوكل.. فمن عرف غِنى الله وفقر خلقه، وقدرة اللَّه وعجز خلقه، وقوة اللَّه وضعف خلقه، عرف مقدار افتقار الخلق لغنى الله، وضعفهم لقوّته، وتواضعهم لعظمته، وذلتهم لعزّته، تبارك وتعالى.

أصغيت باهتمام ولهفة. لم يكن يقول كلاما تجهله، لكنّ روحك تتوق إلى تلك الأيّام الخوالي، التي تناجي في ظلمة لياليها خالقك، فتدمع عيناك.. لقد جفّت مقلتاك لأمد طويل، حتى نسيت كيف يكون البكاء بين يديه.

– ونستهلّ اليوم مع اسم الله «التوّاب».. ونحن في مطلع هذا الشّهر المبارك الذي تضاعف فيه الحسنات، فليس هناك ما هو أفضل من أن نستقبله بالتّوبة عن الذّنوب.. والتّوبة تفيد معنى الرّجوع، والتّواب بمعنى يقبل توبة عباده. وفعّال من صيغ المبالغة مثل مشّاء لكثير المشي. فهو التوّاب الذي ييسّر أسباب التوبة لعباده مرّة بعد مرّة بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته.. وإذا كانت التوبة معناها الرّجوع والعودة، فإن الله تعالى كثير العودة بأشكال الإحسان على عباده، فهو يوفقهم بعد الخذلان، ويعطيهم بعد الحرمان، ويخفف عنهم أنواع البلاء، ومن توبته يقابل الدّعاء بالعطاء، والاعتذار بالغفران، والتوبة بمحو الحوبة...

استمرّ الدّرس بضع دقائق، لبثت خلالها منتبها مشدودا إلى شفتيه، حتّى قام الشيخ إلى الصّلاة مرّة أخرى. ثمّ أخذ المصلّون يتململون، وينسحبون بعضهم وراء الآخر. فاغتنمت الفرصة لتنسلّ من مكانك في هدوء قبل أن يلحظ نديم تأثّرك.

ما الذي تغيّر؟ لازمك السّؤال طيلة يوم غدٍ. كأنّ قلبك قد أفاق بعد غيبوبة طويلة، ورجع إلى نقطة توقّفه منذ سنتين، خلال رحلة تركيا. كنت على أبواب الإيمان في تلك الآونة! لقد كنت على وشك التّسليم، لولا خبر ريم الذي هدّم كلّ ما بنته داخلك رحلة التأمّل العابرة لبلدان أربع. والآن، تريد أن تستأنف الرّحلة.. على متن تلاوة مؤثّرة وموعظة تجلو الغمام عن حقيقة معرفتك بخالقك.

-٣-

سأصلّي وراءه اليوم أيضا!

أضمرتها في نفسك، وأنت تروح وتجيء بين أروقة المستشفى وقاعات الفحص. وحين رأيت نديم، حيّيته بابتسامة فاترة وفررت من أمامه كي لا يسألك.. فلم تكن بيدك إجابات بعد.

وصلت متأخّرا متعمّدا إلى المسجد، حتّى لا يلمحك أحد معارف الأمس وأنت تدخل أو تخرج. جلست في الصّفوف الأخيرة، واستمعت إلى تلاوة الشّيخ النّديّة، ثمّ إلى درسه القصير، عن اسم الله الغفور. ثمّ تسلّلت مرّة أخرى في صمت قبل أن تقضى صلاة التّراويح.

تردّدت على مسجد السّكن الجامعيّ كلّ ليلة من الأسبوع الأوّل لرمضان. تتعرّف إلى ربّك الرّحمان، الخالق، الشّكور، الرزّاق.. وقد حسبت أنّ نديم لم ينتبه لحضورك ولم يراوده الشكّ بشأنك. ولعلّه قد نسي أمرك والتفت إلى مشاغله، لولا أنّه فاجأك بدعوة جديدة على مائدة إفطاره في نهاية الأسبوع!

وصلت مثل المرّة الأولى، متلكّئا. وحين دخلت المجلس الخارجيّ، فوجئت بشغور المكان، إلّا من الشيخ عقيل وصاحب المنزل! حيّيت الشّيخ في احترام، وأفطرت مطرقا في خجل لا تدري مأتاه.. وكأنّ حضور الشيخ أكثر ممّا تطيق من كرم مضيّفك! وبعد أن فرغتم من أطباق الحمام وصينية البطاطس والمحشي، التفت إليك نديم وقال محرّضا:

– الشّيخ أمامك، فاسأل ما تريد!

نقلت بصرك بينهما في تردّد، ثمّ أطلقت العنان لمارد الأسئلة

المسجون بالقمقم منذ سنوات!

سألت عن الحكمة من الخلق، وعن بيت أبي العلاء المعرّي الذي لازمك كثيرا في فترة ضياعك، فقال الشّيخ عقيل:

- لما كان الله حكيمًا، فلا بد أن تكون له غايات ومقاصد لأفعاله عموما، ومن خلق البشر بشكل خاصّ.. قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ). ولما كان الله غنيّا عن كلّ شيء، فإنّ الغاية بالتّأكيد تخصّ البشر. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ). وخَلْقُ البشر لإلحاق الضرر بهم هو ظلم قبيح، ولما كان الله عادلًا، فيستحيل أن يكون قصده الإضرار بمخلوقاته. إذن فلا بدّ أن يعود الخلق على البشر بالنّفع.. أوليس الوجود خيرًا من العدم، والحياة خيرًا من الجمود؟ والجزاء في الآخرة المصحوب بتكريم وتعظيم خيرٌ من النّكران.

- إذن لماذا لم يخيّرنا الله بين الحياة والعدم؟ فربما كان الإنسان ليرفض الخضوع للاختبار الدّنيويّ، وهو حقّه، فلماذا أجبره الله عليه؟

- يخبرنا الوحي بأنّ الله قد خيّرنا بالفعل. قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسانُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)، (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ). وقد أجمع المفسّرون على معنى الآية، أنّ الله أخرج جميع بني آدم، وعددهم بالمليارات كما نعلم، من ظهر آدم على هيئة الذرّ -أي مثل النّمل الصّغير- ثم سألهم ألست بربّكم؟ قالوا بلى، فقالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين. وقد يقول قائل: ولكنّي لا أذكر تعرّضي لهذا التّخيير ولا أذكر أني شهدتُ

أمام الملائكة بأن الله هو ربّي! ذلك أنّ الله أعاد البشر جميعا إلى ظهر آدم، ليخرج كلّ منهم في وقته إلى الدّنيا ويدخل هذا الاختبار بعد أن مُسحت تلك الحادثة من ذاكرته، إلا أنّه وضع لنا علامات في الطريق، وترك فينا فطرة الشّعور بألوهيته، وأرسل لكلّ أمة رسولا...

استمرّ يحدّثك عن قصّة الخلق التي تعرفها، وعن معاني الحياة والوجود. ولبثت تنصت في اهتمام رغم الرّيبة التي تنازعك. لكنّك كنت مشدودا إلى كلمات الشّيخ، تستعذب الحديث إليه. لم تكن طريقته تشبه في شيء ما تعوّدت عليه من الشّيوخ الصّارمين الواعظين.. ولم يكن يطالعك بشفقة من يحاول ردّ شاة شاردة إلى الحظيرة الآمنة. كنت تشعر بالارتياح أخيرا. فبرحمة من الله لان لك جانبه، ولو كان فظّا غليظ القلب لانفضضت من حوله. كأنّه «رسولك» الخاصّ، يبلّغك برسالة خاتم الأنبياء، منتهجا نهجه متّبعا سبيله.

انتهت الجلسة مع أذان العشاء، فرافقت مضيّفك وصاحبه إلى المسجد دون تعنّت. أنت ترغب في ذلك بكلّ جوارحك، أن تصاحب الرّجل مدّة أطول، تصغي إلى ترتيله وشروحه. ابتسم نديم وهو يشدّ على كتفك في حماس:

- أظنّ أنّنا لم ننته بعد.. كلاكما مدعوّ عندي غدا على الإفطار!

أومأت في استسلام وامتنان. كنت مستعدّا للإصغاء، تائقا إلى الخلاص.

وما أن جمعتكما الجلسة في الغد، حتّى بادرت على الفور. كنت قد فكّرت في الأسئلة التي تحتاج ردودا شافية. معضلة وجود الشّرّ!

- إن كان غرض الخلق إسعاد البشر، فلماذا يبتلينا الله، فيمرضنا، ولا يرزقنا، ولا ينصرنا، ولا يجيب دعاءنا، ولا يهدينا؟!

ابتسم الدّكتور عقيل وقال:

- هناك أنواع ثلاثة من الشّرور علينا أن نميّز بينها.. أوّلها أسبابه طبيعيّة، متعلّقة بنواميس الكون. فقد شاءت حكمته تعالى أن يخلق كونا بنواميس صارمة، وضوابط دقيقة. فمن يضع يده في النّار سيحترق بالتأكيد، ولا يعدّ هذا عقابًا أو ابتلاءً، بل هو نتيجة حتميّة لقانون كونيّ. وإن نزل مؤمن وكافر البحر، فسيغرق من لا يجيد السّباحة، دون أدنى مراعاة لتقواه، (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا). حتّى الكوارث الطّبيعيّة، فهي تحدث نتاج تحوّلات صغيرة ومتواصلة في بنية الكرة الأرضية.

أخذ نفسا ورشفة ماء، ثمّ استطرد:

- وثانيها من صنيع الإنسان نفسه.. إنّ الله لم يقتل الأطفال في الحروب والمجاعات، وإنما قتلهم الطغاة والبغاة. والله لم يمرض ذاك، بل الطعام أو الهواء الملوّث هو الذي أمرضه. والله لم يهزم ذاك الجيش، وإنما هُزم لنقص عدّته وعتاده أو لقلّة خبرته. وهكذا حين نتتبّع معظم مصائب الدّنيا نجدها تحدث نتاج أسباب دنيويّة وماديّة وبشريّة. حتّى معظم الكوارث في عصرنا تعود إلى الاحتباس الحراري، ونشاط الإنسان الصّناعيّ والاستهلاكيّ! وقد صرّح الله تعالى بمسؤوليّة البشر عن شرور الدّنيا بقوله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ).

- إذن لماذا لا يتدخل الله ليمنع الشرّ؟

- هذا يأخذنا إلى الصّنف الثالث.. الاختبارات. خلق الله بشرًا بإرادة حرّة وكونًا منتظمًا ثابت القوانين ليتحقّق الاختبار الدّنيويّ. لكنّ زاد كلّ منّا في وجه الاختبار مختلف. بعضنا خُلق فقيرا والآخر غنيّا، بعضنا صحيحا قويّ البنية وبعضنا هشّا ضعيفا.. هي أرزاق مختلفة، وليست شرّا محضا، ليبتلينا أنشكر أم نكفر. ما الذي نفعله

بنعمـه علينـا وكيـف نوظّفهـا.. مـا مـدى صبرنـا ورضانـا!

سكت برهة ثمّ أضاف:

- تخيّـل معـي، لـو اختـار إنسـان ارتـكاب الـشرّ، فتدخّـل الله ليمنـع شرّه! هـل سيبقى للكـون أو الحيـاة معـنى أو وظيفـة؟ وكيـف سيكشـف عــن الأشرار والأخيــار إذن؟ أمــا عــن إقامــة العــدل، فيــوم الحســاب يعـود الحـق المنتهَـك إلى أصحابـه ويجـازى كلّ حسـب عملـه، فهـو يـوم استحقاق وعِـوض.. اسـتحقاق الصالحـين الخيّريـن لثوابهـم، واسـتحقاق الظالمـين لعقابهـم. وعِـوض الجميـع عـن آلامهـم. قـال تعـالى: (وَنَضَـعُ الْمَوَازِيـنَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَـلَا تُظْلَـمُ نَفْـسٌ شَـيْئًا).

ثمّ أضاف مبتسما:

- ثـم إن الخـير والـشر نسـبيّان، والبعـض قـد يعتـاد عـلى الخـير، إلى أن يشـعر بـه شرّا، مثـل أهـل سـبأ (فَقَالُـوا رَبَّنَـا بَاعِـدْ بَـيْنَ أَسْـفَارِنَا).. أو مـن ينتحـر لكـثرة الغـنى والشـهرة والمـال! وكل شرّ تـراه في الدّنيـا يقابلـه خـير في موضـع آخـر.. قـد نحيـط بـه علمـا، وقـد لا نحيـط بـه، وهـذا مـردّه إلى اكتمـال حكمـة الله وعلمـه (فَعَـسَى أَن تَكْرَهُـوا شَـيْئًا وَيَجْعَـلَ اللَّـهُ فِيـهِ خَـيْرًا كَثِـيرًا). وكثـير مـن الأمـور ظاهرهـا شرّ في البدايـة، ثـم ينكشـف الـشرّ عـن خـير عظيـم، والأمثلـة مـن قصـة يوسـف عليـه السـلام دلائـل عـلى ذلـك، وقصّـة مـوسى والخـضر عليهمـا السّـلام أيضـا...

لـم يكـن يقـول كلامـا لا تعرفـه. أنـت تـدرك كلّ تلـك المعطيـات، منـذ زمـن بعيـد! أم تـراه غـشي قلبـك كنـان فـلا تفقـه، وفي أذنيـك وقـر فـلا تسـمع، وبينـك وبـين الله حجـاب؟ ليـس يحمـل إليـك اكتشـافا جديـدا أو نظريّـة مسـتحدثة. لكنّـك تجـد صـدى لعباراتـه داخلـك، كأنّـه يزيـح سـتارا كان يحـول بـين قلبـك وبـين مـا تعرفـه مـن حـقّ! بـل لعـلّ أسـلوب خطابـه مثّـل الفـارق كلّـه.. كانـت كلماتـه بسـيطة وواضحـة، وأفـكاره منطقيّـة

سلسـة، تحـترم العقـل ولا تهينـه.

أنصـتّ في انتبـاه واهتمـام، تتـشرّب الكلمـات وتحتفـي بهـا. لقـد كانـت رحلتـك الطّويلـة في شـعاب الشـكّ خـيرا بالتّأكيـد، مهمـا بـدت شرّا في شـتّى مراحلهـا. أنـت ممـتنّ لـكلّ مـا عشـته. تشـعر بـأنّ كلّ خطـوة خطوتهـا في بحثـك كانـت ضروريّـة، لينتهـي بـك المطـاف أخـيرا في تلـك الجلسـة أمـام عقيل .

قلت في حسرة:

- لمـاذا لا تحدّثـون النّـاس في خطبكـم بهـذه الأمـور الـتي تطمـئن قلوبهـم؟ هـذه الأسـئلة الوجوديّـة المضنيـة، إنّهـا تعشّـش في نفـوس المراهقـين مثلمـا تـراود كبـار الفلاسـفة! فمـن كان ذا تربيـة دينيّـة صارمـة، فإنّـه سـيصرف نفسـه قـسرا عـن تلـك التّسـاؤلات الملحّـة، لكنّهـا سـتظلّ تنخـر داخلـه وتزعـزع إيمانـه.. وأمّـا مـن كان ذا حصيلـة هشّـة فإنّـه سـيرتمي ببسـاطة في أحضـان الإلحـاد، كمـا يحصـل مـع أعـداد غفـيرة مـن شـباب المسـلمين! ولا يسـلم إلّا مـن يُسـكت عقلـه بطريقـة أو بأخـرى ويردعـه عـن التّفكـير.. أرأيـت الطّفـل إذا سـأل أبويـه كيـف أتى إلى الوجـود؟ إن همـا زجـراه ونهـراه عـن السّـؤال في تلـك المسـائل الـتي تفـوق إدراكـه فإنّـه سـينصرف عنهمـا ويبحـث عـن المعرفـة مـن مصـادر أخـرى. بينمـا إن حدّثـاه بأسـلوب علمـيّ مبسّـط واحترمـا عقلـه، فإنّـه سـيركن إليهمـا وسـيعود إليهمـا لاحقـا ليحكّمهمـا في كلّ مـا يعترضـه مـن مسـائل مسـتعصية. وهـذا ينطبـق عـلى شـباب الأمّـة وعلمائهـا أيضـا.. إذا جـاءك صـبيّ يسـأل في الغيبيّـات، فـإذا نهرتـه واكتفيـت بالإجابـة الجاهـزة «لحكمـة لا يعلمهـا إلّا الله»، فإنّـه سـيضيع حتمـا، ولعلّـه يفضّـل إجابـات الملحديـن المبنيّـة عـلى العشـوائيّة والصّدفـة!

في الجلسـة الثّالثـة، كنـت أنـت مـن يمسـك بزمـام الحديـث. فتحـت

قلبـك للمـرّة الأولى، منـذ أربـع سـنوات. تحدّثـت باسـتفاضة عـن فـترة بحثـك. لقـد كنـت ذا منهجيّـة علميّـة، وتقـدّر بشـكل خـاصّ التّحليـل المنطقـيّ والتسلسـل العقـلانيّ للأفـكار. لكنّـك اصطدمـت بـآراء بعـض علمـاء السّـلف، وفيهـا يعترضـون عـلى سـعي البعـض -مـن أمثالـك- إلى البحـث في العلاقـة بـين السّـبب والنّتيجـة.. بـين البيولوجيـا والفيزيـاء المادّيّـة والمشـاعر والرّوحانيّـات. إنّهـم يعتـبرون مجـرّد التطـرّق إلى تلـك المسـائل انتقاصـا مـن إطـلاق القـدرة الإلهيّـة ونقصـا في كمـال التّوحيـد! وأنـت تعتـبر العقـل هبـة ربّانيّـة لا يجـدر بـك ركنهـا وتعطيلهـا، بـل أنّ في إعمالهـا تعظيمـا لكـرم الله ومـا فضّـل بـه الإنسـان عـن بـاقي المخلوقـات. فـكان أنّ تسـبّب ذلـك في نفـورك مـن كتـب الـتّراث الإسـلاميّ كافّـة!

قلت في مرارة:

- لقـد أجمعـوا عـلى أنّ الله يخلـق الفعـل دون سـبب، يقولـون «أنّ السّـكين لا تقطـع، ولكـنّ الله يُحـدث القطـع عنـد حـدّ السّـكين!». وكأنّهـم يقولـون: أمسـك قطعـة خشـب واقطـع بهـا، لأنّ السّـكين لا تقطـع لذاتها!

ابتسم عقيل وقال:

- أنـت عـلى حـقّ. لقـد تخـاذل المسـلمون عـن الأخـذ بالأسـباب رغـم تأكيـد الإسـلام عـلى احـترام السّـنن الكونيّـة.. حـتّى وصـل العالـم الإسـلاميّ إلى هـذا الوضـع المـتردّي. وقـد أكّـد الإمـام الغـزالي عنـد تعرّضـه إلى قضيـة فاعليّـة الأسـباب أنّ الله وضـع في الأسـباب القـدرة عـلى الفعـلُ، حـتّى صـار الصّـواب أن نؤمـن بـأنّ السّـكين تقطـع، بالرّغـم مـن أنّ القطـع يتـمّ بقـدرة الله في كلّ مـرّة! إنّ إنـكار فاعليّـة الأسـباب لـدى المؤمنـين يشـبه إلى حـدّ كبـير موقـف بعـض فلاسـفة الإلحـاد، إذ يـرون أنّ الكـون لا يخضـع لقوانـين، وأنّ مـا نـراه مـن الـتزام للكـون بنظـام معـيّن. إنّمـا هـو بحكـم العـادة! فكيـف يتماثـل هـؤلاء وهـؤلاء!

هتفت في حماس:

– هو ذاك! لقد اطّلعت على جلّ ما كتب في التّراث الإسلاميّ عن فلسفة الوجود وحقيقة العقل الإنسانيّ والعلم، فوجدت أسلوبها مكرّرا.. مثل خطباء المساجد تماما! إنّهم يتحدّثون في قضايا الأمّة أو في مسائل علميّة، ويفرطون في ترصيع كلامهم بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة.. لا يهمّ إن انتهوا إلى تحريف العلم وإنكار المسلّمات العقليّة، في سبيل الانتصار للدّين! إنّهم لا يدركون أنّ هذا الأسلوب هو المسؤول أساسا عن اعتزال الكثيرين للدّين. ولا تنطبق هذه الإشكاليّة على وعّاظ المساجد وشيوخ الفضائيّات وحدهم، بل على علماء المسلمين أيضا. لقد أصبح الإعجاز العلميّ في القرآن هاجسا بالنّسبة إلى الكثيرين.. إنّهم مستعدّون لتحريف العلم وليّ أعناق الحقائق لتتماشى مع فهمهم السّطحيّ للقرآن! لا مانع لديهم من تعديل أو إغفال نظريّات علميّة وابتكار غيرها للدّفاع عن هذا الفهم.

كنت مثخنا بالمرارة مثقلا بالغيظ. لقد كنت جادّا في بحثك عن الحقيقة صادقا في سعيك، لكنّ اصطدامك بذاك الأسلوب السّطحيّ المنفّر جعلك تفقد الثّقة في الفكر الدّينيّ، حتّى صرت تلقي جانبا بما تقرأ إذا ألفيته مشبعا بالاستدلالات القرآنيّة. كنت ترى أنّ الكاتب يعزف على أوتار العاطفة الدّينيّة ليقنعك بفحوى أطروحته، ولا يهتمّ بالمضمون أو بالأسلوب العلميّ.

أضفت في أسى:

– أخشى أنّ العالم الإسلاميّ يكرّر دون وعي منه مأساة الكنيسة في العصور الوسطى، في أوروبا. لقد هيمن الفكر الدّيني على العلم، حتّى اتّهم غاليليو بالهرطقة، لأنّه أثبت دوران الأرض حول الشّمس،

فأنكرت عليه محاكم التّفتيش تقديم نظريّة معاكسة لتأويلها لنصوص الكتاب المقدس!

أصغى إليك عقيل باهتمام ثمّ أردف:

- وهل يبرّر ذلك أن نترك الدّين وراء ظهورنا، كما يفعل فاقدو الثّقة في الفكر الدّيني؟ لو كان الدّين رفاهيّة فكريّة، لأمكن ذلك. لكنّ الألوهيّة حقيقة، والدّين منهج حياة، والوحي ينبّئنا بوجود حساب وجزاء بعد الموت!

احتدّت لهجتك وأنت تهتف:

- أنت تطلب من النّاس أن يتّخذوا الدّين منهج حياة لأنّهم سيحاسبون بعد الموت؟ أليس الأولى أن يؤمنوا قبل كلّ شيء بأنّ هناك حسابا بعد الموت؟ أليست المشكلة الأساسيّة مع الأديان هي طرحها لغيبيّات لا يقبلها العقل البشري؟

استمرّ يحاججك بهدوء وثبات أعصاب:

- لقد أعلن العلماء عجزهم عن إيجاد تفسير للوجود.. إلّا بالتسليم بوجود خالق موجد للكون! ونظريّاتهم القائمة على العشوائيّة أثبتت غباءها وسطحيّتها. لذلك فالعلم الآن يقف على عتبات الميتافيزيقا. لم يعد بإمكانه تقديم إجابات متكاملة عن حقيقة الوجود دون اللّجوء إلى الفلسفة والدّين!

- أمّا إذا كان الاختيار بين الفلسفة والدّين، فأعتقد أنّ الباحثين عن الحقيقة سيفضّلون طريق الفلسفة التي بوسعهم تتبّع أدلّتها المنطقيّة.. بينما يعدّ الدّين حقل ألغام بمقدّساته ومحظوراته وحرّاسه الأشدّاء من وعاظ وخطباء! لقد غدا الدّين مؤسّسة اجتماعيّة متكاملة الأركان، يخضعها هؤلاء لرؤيتهم الضيّقة ويفرضون تأويلاتهم في وصاية تامّة على عقول أتباعهم، كأنّ الوحي يتكلّم لغتهم وحدهم!

- لكنّ الفلسفة عجزت عن الإلمام بتلك الغيبيّات التي هي مفتاح فهم الوجود.. لقد أعلنت أنّها فوق طاقتها وخارج نطاقها. ولم يبق لهذه المهمّة إلّا الدّين! صار محتّما علينا نفض ما تراكم على المعتقدات الدّينيّة من جهل وتعصّب.. ولن يكون ذلك إلّا بوضع الدّين في منزلته والعلم في منزلته، وتثمين التّلاقي حين يوجد، لا فبركته وفرضه.

كنتما تلتقيان أخيرا في مساحة مشتركة، وكان يقنعك في كلّ مرّة بتسلسل عقليّ منطقيّ. يخاطبك بما تفقه، كأنّه أدرك مفتاح الوصول إلى قلبك، عن طريق سلوك مسار العقل. تابع يقول:

- لا يوجد صدام بين الدّين والعلم مطلقا.. لكنّهما في الوقت ذاته ليسا صنوين كي يوضعا على كفّتين متقابلتين، فترجح كفّة أحدهما. لكلّ منهما مجاله.. العلم يفسّر قدرة الله في الكون من منظور ماديّ بحت، والإيمان هو النّتيجة التي تصل إليها بالدّليل العلميّ. جزء كبير من الإشكال يكمن في وضع العلم في خصومة متوهّمة مع الإيمان، وفي النّزعة المادّية المتعالية التي تدّعي أنّ الإنسان بلغ من المعرفة ما يجعله يستغني بالعلم عن أيّ تفسيرات ميتافيزيقيّة للكون والحياة.

وحين التقيتما مرّة رابعة، تحدّثت طويلا عن كلّ شكوكك الماضية، وخيباتك وآلامك القديمة والمتجدّدة. سألته عن أصل بلواك، رحلتك إلى فلسطين المحتلّة ولقائك بالثّنائيّ اليهوديّ دانيال وراشيل، فقال بصوت هادئ:

- نحن بشر كلّنا، ولسنا زبانيّة جهنّم! وحساب العباد ليس موكولا إلينا، بل الله وحده من بيده تقرير جزاء كلّ نفس. فلا نحكم على هذا بالنّار ولا نقدّم صكوك غفران لمن رضينا عنه! ومن لم تصلهم

رسالة الوحي، أو بَلَغتهم مشوّهة ومحرّفة، كما هو حال ملايين البشر الذين لا يسمعون عن الإسلام إلا أنّه دين إرهاب وظلم، فكيف نعتبر أنّ الحجّة قد قامت عليهم واستكبروا؟ بل يُوكل أمرهم إلى الله في الآخرة، وقد وعد سبحانه بأنّه لا يظلم مثقال ذرة.. ومن تمام عدله ألا يُحاسب هؤلاء كما يحاسب من بلغته الرسالة وقامت عليه الحجة فرفضها، وأن يكون لكلّ فرد حساب خاصّ يراعي عقله وبيئته وظروفه وعوامل أخرى لا نعلمها. فلا يحق لنا أن نجزم بمصير أحد، بل نكتفي بالإقرار بعدل الله ورحمته.. (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). وهذا ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد رُويَ عن ابن عباس قوله: (إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزّلهم جنة ولا نارا)، وأُثر عن أمير المؤمنين علي قوله في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ: هذه الآية تأتي على القرآن كله).

زفرت، وقد أحسست بثقل يزاح عن صدرك، ثمّ استرسلت. تشجّعت، فعرضت عليه نظريّتك الخاصّة بالقضاء والقدر، والأكوان المتوازية. استمع إليك في اهتمام حتّى انتهيت من شرحك. ثمّ سألك:

- هل تؤمن بأنّ الله الذي خلق الكون عادل لا يظلم مثقال ذرّة؟

- نعم!

- وهلْ تؤمن بأنّه حكيم، ورحيم وأنّه قدير؟

- نعم!

- وأنّه عليم كليّ المعرفة؟ وأنّه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يخفى عليه من ذلك صغيرة ولا كبيرة؟

- نعم!

- إذن ما حاجتك إلى هذه النّظريّة؟ كأنّك تقول أنّ الله -حاشاه- لا يمكن أن يكون عالما بكلّ أعمالنا وخياراتنا فيكتبها علينا دون أن يكون في ذلك إجبار لنا!

ثمّ أطرق للحظات قبل أن يضيف:

- ثمّ إنّك تحلّ أحجيتك بالاستناد إلى نظريّة علميّة غير مثبتة. وهذه هي خاصّيّة النظريّات، أنّها تنهار إذا ما جاءت نظريّة جديدة تفنّدها! وهذا ينطبق بنفس الشّكل على من يبني إيمانه على الإعجاز العلميّ في القرآن وحده. فإذا ما بدا له تناقض ظاهريّ بين آية قرآنيّة ونظريّة علميّة، خرّ إيمانه على رأسه!

أصغيت في ارتباك وتململ، ثمّ هتفت:

- وما فائدة هذه العقول التي أودعت رؤوسنا، إن نحن لم نستخدمها لإيجاد الإجابات الشّافية؟

- العقل، يا أخي الكريم، لا يستطيع الوصول إلى تفسيرات منطقيّة للغيبيّات، كما أنّه لا يستطيع التّفكير بمنطق خارج التّجربة والحدس والبديهيّات المتأصّلة فيه. الإجابات المعقولة الوحيدة التي يمكننا الرّكون إليها هي تلك التي جاء بها الوحي! وطالما أنّ الوحي لم يخبرنا عن آليات عمل القضاء والقدر فلا ينبغي لفيلسوف ولا عالم أن يضيّعا الوقت في البحث عنها.

- هل يعني هذا أن نُجبر عقولنا على عدم طرح الأسئلة؟

- طبعا لا. فالعقل لا يمكنه التوقّف عن التفكير! ولكن يمكننا أن نضبط أسئلته لتصبح محدودة بحدود قدراته، كي يتمكّن في النهاية من الإجابة عنها. فإذا شككت في وجود «الحكمة الخفيّة» بسبب حيرتك أمام وجود الشرّ في العالم، فيجدر بك تحويل عقلك إلى السّؤال

المبـدئيّ: كيـف يمكـن لهـذا الكـون المعجـز بـأدقّ تفاصيلـه المدهشـة أن ينشـأ عـن صدفـة؟ وإذا سـلمت بوجـود الله وبخلقـه للكـون، فـلا بـدّ أن يسـلّم العقـل بمـا أخبرنـا الله بـه مـن غايـة هـذا الخلـق. أمّـا التفاصيـل الدّقيقـة للخلـق فلـم يُطلعنـا الوحـي عليهـا ولـم يكلّفنـا بالبحـث عنهـا. ومـن يدفـع بعقلـه لمحاولـة تجـاوز حـدوده فلـن يصـل إلى أيّ معرفـة يقينيّـة، وحـتى إذا بلغهـا بضربـة حـظ جـدًلا فلـن يكـون بمقـدوره أن يبرهـن عليهـا.

سكتَ لبرهة ثمّ أضاف:

- أرأيـت لـو كنـت بحّـارا، وقيـل لـك أنّ البحـر هائـج وخطـر ولا يمكنـك خوضـه بقاربـك الصّغـير -عقلـك- فإنّـك سـتحرص عـلى تعزيـز المركـب بآليـات الحمايـة -المعرفـة البشريّـة المتوفـرّة- وسـتحمل معـك بوصلـة وطعامـا وغـير ذلـك ممـا تحتاجـه في الحـالات الطارئـة. أمـا إذا علمـت مسبقا بـأن آلاف البحّـارة الأبطـال قـد غامـروا في ذاك البحـر وضاعـوا فيـه ولـم يرجعـوا أبـدا إلى اليابسـة فمـن الجنـون أن ترمـي بنفسـك فيـه!

ابتسـمت، وأنـت تتذكّـر البحـر الهائـج الـذي خضتـه بجنـون. لقـد كنـت أنـت ذاك البحّـار المغامـر لا ريـب. لكنّـك تجـد طريقـك رويـدا رويـدا نحـو اليابسـة. بينمـا واصـل الشّـيخ عقيـل:

- والأهـمّ هـو أنّ هـذه المعرفـة لـن تغـيّر شـيئا في طبيعـة حياتنـا وواجباتنـا تجـاه خالقنـا، فنحـن جميعـا وجدنـا أنفسـنا داخـل «أحجيـة» هـذه الحيـاة بـكلّ مـا فيهـا مـن شـقاء وغمـوض، واهتدينـا بالوحـي والعقـل إلى غايـة وجودنـا، فالعاقـل منـا هـو الـذي يضـع ثقتـه في الخطـة الإرشـادية -الوحـي- الـتي وضعهـا خالـق هـذه «الأحجيـة» كي يجتـاز اختبارهـا بنجـاح...

سـكتّ لدقائـق طويلـة تهضـم مـا سكبه عـلى مسـامعك مـن موعظـة

حسـنة. ثـم قـرّرت أن تسـأله عـن الطّقـوس الـتي أشـعرتك بالرّاحـة وأعادتـك إلى ضفـاف السّـكينة بعـد أن كنـت تخـوض موجـا متلاطمـا ولا تعـرف لـك مـرسى. سـألته عـن رأيـه في التصّـوف، فقـال:

- التّصـوّف الإسـلامي القويـم هـو أن يبلـغ المؤمـن درجـة «الإحسـان» الـتي هـي أعـلى الدّرجـات في التوجّـه إلى الله عـز وجـل -بعـد الإسـلام والإيمـان- والـتي يُشـير إليهـا القـرآن الكريـم في قولـه: (والذيـنَ جاهـدوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَمَـعَ المُحسـنينَ). ويقـول عنهـا الرّسـول صـلى الله عليـه وسـلم: (الإحسـان أن تعبـد الله كأنَّـكَ تـراه، فـإن لـم تكـن تـراه فإنـه يـراك). وللصّوفيـة طائفـة مـن الأخـلاق الفاضلـة الكريمـة الـتي يحـثُّ عليهـا الإسـلام.. لأنّ عمـاد طريقتهـم هـو التّأديـب والتّهذيـب، وتطهـير الـرّوح، وتصفيـة النفـس. ويمكـن أن نطلـق عليهـم اسـم زهّـاد، إذا كان زهدهـم لا يوقعهـم فيمـا حرّمـه الله تعـالى وإذا كانـوا لا يزيدون في عباداتهـم عمّـا أمـر بـه الله تعـالى، ولا يبتدعـون. وكان مـن الصّوفيـة أئمـة أوائـل، أثـنى عليهـم شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، وضمهـم مـع أبـو حنيفـة ومالـك والشـافعي وأحمـد، وعدّهـم مـن أئمـة الهـدى الذيـن جعـل الله لهـم لسـان صـدق في الأمـة مـن أمثـال أبـو إسـماعيل الهـروي صاحـب «منـازل السـائرين»، وذو النـون المـصري، والقشـيري صاحـب الرّسـالة، وكلهـم نجـوم زمانهـم فقهـا وورعـا وعلمـا وحكمـة.. ومنهـم مـن حـاد عن الطريـق فقـال بالحلـول والاتحـاد ووحـدة الكـون، مثـل محـي الدّيـن بـن عـربي! ألا تـرى -رعـاك الله- أنّ الله قـد أنـزل الوحـي ليعلّـم النّـاس الدّيـن، وأحـبّ طقـوس العبـادة إليـه سـبحانه، هـي مـا افترضـه عليهـم.. فمـا رأيـك فيمـن يخالفهـا ويزيـد عليهـا؟

أومأت برأسك مؤيّدا، ثمّ شددت على كفّ الشّيخ شاكرا.

- أشـعر أنّ كلّ قطعـة مـن الأحجيـة قـد أخـذت مكانهـا الصّحيـح في رأسي!

-٤-

التقيـت الدّكتـور عقيـل بعـد ذلـك مـرّات عـدّة، وامتـدّت بينكمـا النّقاشـات والسّجالات. وكنـت تـزداد يقينـا كلّ يـوم. حـتّى أفقـت في ليلـة النّصـف مـن رمضـان، وقـد غـدت رؤيتـك واضحـة جليّـة، ففيـم المكابرة؟ تناولـت سـحورك ثـمّ توضّـأت وتعطّـرت ولبسـت ثوبـا أبيـض مكويّـا بعنايـة، وخرجـت إلى صـلاة الفجـر في المسـجد القريـب مـن شـقّتك.

كنـت تشـعر بنشـوة تهزّك، وأنـت تسـير في ممـرّات المستشـفى، تشـقّ ابتسـامة عريضـة وجهـك! كنـت تريـد أن تحـدّث أيّ أحـد وكلّ أحـد عمّـا تجـده مـن طمأنينـة وصفـاء. لقـد كنـت تجـد للإيمـان حـلاوة عـلى طـرف لسـانك، مثـل حـلاوة الرّطـب السكرّي الـذي تفطـر عليـه بعـد صومـك.

– لقد نويت العمرة!

أبلغـت نديـم ذلـك الصّبـاح. لـم تكـن تحتـاج إذنـه، فإجـازة العيـد تغطّـي فـترة تغيّبـك المزمعـة. لكنّـك تبـشّره، وتفصـح عـن التّغيـير الصّامـت الـذي لمسـه فيـك منـذ أوّل ليلـة صلّيـت فيهـا وراء عقيـل. عانقـك بحـرارة وقـال:

– لا تنسني من صالح دعائك!

أحرمـت صبيحـة السّـادس والعشريـن مـن رمضـان. وقفـت أمـام المـرآة، تطالـع شـكلك بـالإزار والـرّداء الأبيضـين في رضـا. لقـد قطعـت عهـدك بهمـا منـذ سـنوات، وهـا أنـت تجـدّد العهـد أخـيرا. غـادرت بسـيارتك ميمّمـا وجهـك شـطر مطـار الملـك خالـد الـدّولي. وضعـت سـيارتك في المواقـف السّـفليّة، سـحبت حقيبتـك الخفيفـة وقصـدت مكاتـب التّسـجيل.

بعد ساعتين، كانت الطائرة تحلّق بك إلى جدّة.

قبيل نصف ساعة من موعد الهبوط، أُعلن عبر مكبّرات الصّوت الدّاخليّة للطائرة أنّ الميقات قد اقترب. استويت في جلستك وأخذت ترقب المشهد من علٍ في لهفة المحروم. وفوق الميقات، أبصرت جبالا قاحلة وصحراء موحشة تغطّي مساحات شاسعة تفصلك عن مكّة.. طالعتها بحنين طاغٍ وقد بدت لك في تلك اللّحظة آخذة للألباب، ساحرة للعيون.. لا تنازعها خضرة غناء ولا جنّات وارفة، كم حلّقت فوقها من قبل وطائرتك تهبط في مطار باريس! أخذ قلبك يردّد قبل لسانك في خشوع: لبيك اللهم عمرة.. لا رياء فيها ولا سمعة...

رميت ببصرك أبعد ما يصل إليه طرفك، وكان لسانك لا يفتر، يلهج في حرقة وإخلاص: (لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك). كانت الكلمات -رغم اعتيادك عليها لسنوات في ماضي أيّامك- تزلزل كيانك.. وكأنك تدخل الإسلام لأوّل مرّة. رحت تمسح بطرف رداء الإحرام دموعك الحرّى التي أغرقت لحية استطال شعرها في الأسابيع الفائتة.. فقد أعفيتها منذ أول ليلة في رمضان، وسألت الله بكل حرارة للشيخ عقيل والدّكتور نديم أوفر الجزاء، وابتهلت إليه أن يسعدهما، جزاء صبرهما الجميل على تعنتك وكلّ ما قدماه لك.

حين وصلت إلى مطار جدّة، كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار تقريبا. طلبت سيّارة أجرة أقلتك إلى مكّة، وبعد ساعة ونصف، كنت تقف في السّاحة الخارجيّة للحرم، قبالة «باب الملك فهد». لقد وقفت تلك الوقفة منذ سنتين ونيف، برفقة حاتم. لكنّك كنت في حال أخرى. تنهّدت، وأنت تمضي إلى داخل الفندق.

اغتسلت وجدّدت وضوءك ثمّ خرجت متشوّقا إلى الحرم. عبرت الأروقة حتّى شارفت بلوغ الصحن، وهناك ظهرت لك الكعبة الشّريفة متزيّنة بردائها الأسود المنقوش بخيوط الذّهب، فاغرورقت عيناك وأنت ترفع كفّيك بالدّعاء: «اللهُمَّ زِدْ هذا البيتَ تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة».

ثمّ شرعت في مناسك العمرة. وقد كانت عمرة مختلفة عن كلّ ما سبقها، فهي عمرة توبة وتجديد إيمان. وكلّما هممت بركن من أركانها، مثلت أمام عينيك عبارات تلفّظت بها جهلًا وعدوانًا يوما ما وأنت تحدّث حاتما. ها أنت تطوف حول حجر، وتسعى بين حجرين، ترنو إلى حجر تتمنّى تقبيله لكنّ الزّحام يمنعك، ثمّ تسجد وتركع أمام حجر، تقوم وتجلس في حركات لا تدرك جلّ غاياتها.. إلّا أنّها تعظيم لشعائر الله!

(وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). هذا بيت بناه خليل الله، ليكون بيت الله العتيق في الأرض.. وبين تينك الحجرين، سعت زوجه هاجر وهي ترجو السّقيا، حتّى فجّر الله بئر زمزم تحت قدميها. ألا يكفيك هذا حكمة وغاية؟

وحين فرغت من الشعائر، انزويت في ركن قصيّ وتناولت مصحفا، وأخذت تقرأ. انتبهت فجأة، حين سمعت رجلا ينادي على بعد خطوات منك، فتاة في مقتبل العمر، لعلّها ابنته. سارة. رفعت رأسك وبحثت بعينين ملهوفتين عن صاحبة الاسم، ثمّ ابتسمت وقد ثبت إلى رشدك. سارة؟ هل يمكن أن تجمعكما تصاريف القدر هكذا في الحرم؟ أطلقت تنهيدة طويلة. ما تراه حلّ بها خلال السّنوات الماضية؟ هل تزوّجت؟ أنت لم تحاول قطّ تقصّي أخبارها. قرّرت في

تلك اللّحظة أنّك ستفعل ما إن ترجع إلى الرّياض. ستتّصل بأيّوب، وتسأل عنها. زوجته سميّة ستعرف بالتّأكيد إن كانت قد ارتبطت بأحدهم. انقبضت لذلك الخاطر، فهمست في دعاء:

- يا ربّ، اجمع بيني وبينها بتقديرك وحكمتك.. أنت القادر على كلّ شيء!

ثمّ صرفت تفكيرك عنها وانغمست من جديد.

قضيت بقيّة يومك من صلاة العصر وحتّى أذان المغرب، تتلو آيات من ذكر الله الحكيم. وكنت قد نويت ألّا تقطع التّلاوة إلّا من أجل الصّلاة، وكأنّك تعوّض حرمان روحك من القرآن لسنوات. أزمعت أن تفطر مع جموع المسلمين في الحرم، على التّمر واللّبن وماء زمزم، وتقضي الوقت إلى العشاء في التّلاوة ومراجعة الحفظ.

كانت ظلال الطمأنينة والسّكينة تغشاك، وأنت جالس في موضعك ذاته لساعات طوال. لقد بدأت مراجعة الحفظ منذ بدأ التّغيّر الذي طرأ عليك في الرياض.. ولكن هنا في مكة، فإنّ شعورا آخر يتملّكك. كنت تقرأ الجزء شفاهة في فترة وجيزة من المصحف، ثم تغلقه وتتلو الآيات عن ظهر قلب. كنت في تحدّ مع نفسك.. تريد أن تختم مراجعة القرآن كاملا، قبل عودتك إلى الرياض. تريد أن تستعيد شرف لقب «الذين أوتو العلم»! إنه ليس لقبا بشريا أو منحة من أحد، بل هو لقب إلهي لا يحظى بشرف حمله إلا من يحمل القرآن كاملا في صدره!

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ).

بعد أن أدّيت صلاة الفجر في المسجد الحرام، ومكثت في الذّكر حتى طلوع الشمس، وأدّيت ركعتي الضحى، قفلت عائدا إلى الفندق، لتنال ساعات من النوم تستعين بها على الطاعة. ثم مكثت من

صلاة الظهر في الحرم لم تفارقه، إلى صلاة العصر، وما بين الفرضين أكملت بنهم روحي مراجعة حفظك للقرآن. تابعت في دأب وحماس، حتى دنا وقت أذان المغرب.. ثمّ ختمت بالإخلاص والمعوذتين، وسجدت سجدة شكر طويلة، تلوت معها دعاء ختم القرآن، في امتنان عميق.

سالت دموعك حتى بللت موضع سجودك. كنت تغسل بعبراتك سنوات الخطيئة، وتقترب من الحضور الإلهي.. (واسجد واقترب)، وما أبعد القلب القاسي! كنت تعوّض حرمان روحك الشقيّة وتتطهّر من الإثم.. ولا يطهّر إثم القلب سوى دمع العين. لم تدر كم طالت سجدتك.. لأنك لم ترفع رأسك منها إلا حين صدح المؤذن بصوته النّديّ في جنبات الحرم مكبّرا. أفطرت مع جموع المصلين، وصلّيت المغرب، ثمّ عدت إلى الفندق لتتناول إفطارك في المطعم، فلم تكن قد حصلت على وجبة مشبعة منذ يومين.

لمحتها في ردهة المطعم، تمشي بين والديها وتبادلهما الهمسات والبسمات. هل يهيّأ إليك أنّك تراها، لضعفك وتشوّش ذهنك؟ أم أنّها حقيقة ماثلة أمام ناظريك؟ هل تتخيّل صورتها، كما فعلت في الحرم حين سمعت اسمها؟ أم أنّ الله استجاب إلى دعائك بسرعة؟ تابعتها بعينين مسحورتين، يتعلّق بها بصرك غير مصدّق أنّ الأرض قد طُويت مسافاتها على حين غرّة حتّى باتت سارة على مبعدة أمتار منك!

وَقَد يَجمَعُ اللَّهُ الشَتيتَينِ بَعدَما   يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَن لا تَلاقِيا

ولعلّها أحسّت بتحديقك -تماما كما فعلت في مدرّج الجامعة في عهد قديم أكل عليه الدّهر وشرب- فاستدارت ناحيتك. كان عليك أن تغضّ بصرك وتنسحب خجلا من كلّ ما يفرّقكما ويزرع الشّوك في ثنايا

الذّاكـرة.. لكنّـك بادلتهـا تلـك النّظـرة المبهوتـة والمضطربـة لثـوانٍ، قبـل أن تثـوب إلى رشـدك، فتهـرع مغـادرا قاعـة الطعـام والفنـدق كلّـه.

تقـف عـلى الرّصيـف المزدحـم بالخلـق وترفـع عينيـك في اتّجـاه الحـرم المـكّيّ، يهـبّ نسـيم منعـش يوقـظ حواسّـك، وتهمـس مرتبـكا بأنفـاس مضطربـة.. يـا ربّ، أنـت حملتهـا إليّ بعـد كلّ هـذه السّـنوات، بعـد أن حسـبت لقاءهـا قـد غـدا مسـتحيلا.. لـم تجشـمني عنـاء البحـث عنهـا وتقـصّي أخبارهـا.. فاجعلهـا مـن نصيـبي!

تـدرك في تلـك اللّحظـات أن ذكراهـا لـم تفارقـك قـطّ. لقـد كانـت حـاضرة في كلّ مرحلـة، تعذّبـك بذنـب اقترفتـه تجاههـا، وغضـب مـن هوانـك في عينيهـا، وحنـين إلى زمـن كانـت فيـه أقـرب العالمـين إلى وجدانـك. سـارة. تنبـس باسـمها في مناجـاة، تسـتعذب رقـة الـرّاء وهمـس السّـين. ثـمّ حسـمت أمـرك.

عـدت إلى الدّاخـل مهـرولا، تخـشى أن تفوتـك الفرصـة. دخلـت مطعـم الفنـدق، تفتّـش عنهـا في لهفـة، حـتّى أبصرتهـا. كانـت تجلـس إلى مائـدة قاصيـة قـرب الواجهـة الزّجاجيّـة، تتنـاول إفطارهـا عـلى مهـل. لقـد رأتـك منـذ قليـل، ولعـلّ صدمتهـا لا تقـلّ عـن صدمتـك. ترفـع شـوكتها إلى فمهـا الصّغـير في حركـة بطيئـة، وتلـوك لقمتهـا بينمـا تـسرح نظراتهـا إلى الخـارج في ذهـول. اقتربـت، إلى حيـث يبـدو لـك المشـهد واضحـا، لكنّهـا لا تـراك. تتفـرّس في أصابـع كفّهـا اليـسرى، ثـمّ اليمـنى إمعانـا في التثبّـت. لا دبـل عـلى الإطـلاق. تعـرف أنّهـا لا تهـوى المجوهـرات عمومـا، لكنّهـا كانـت لتضـع خاتـم خطبـة أو زواج لـو أنّهـا -لا قـدّر الله- مرتبطـة بأحدهـم.

اقتربـت أكـثر، لتصبـح في مجـال بـصر والدهـا، ثـمّ هتفـت بعـد أن التقـت عيونكمـا:

- عمّي صفوان! يا لهذه الفرصة السّعيدة!

يقـف الرّجـل مبهوتًـا، يصافحـك بابتسـامة فاتـرة. هـذا أمـر متوقّـع حـين يتعلّـق الأمـر بخاطـب تبخّـر منـذ أربـع سـنوات بـلا أيّـة اعتـذارات أو تبريـرات. تسـتمرّ في وصلتـك الأحاديّـة:

- كيـف حالـك وحـال العائلـة؟ أنتـم هنـا للعمـرة؟ هـذا مدهـش.. لـم أتخيّـل أن نلتقـي هنـا.. يـا سـبحان الله!

تلمـح تـردّده وارتبـاك ردّة فعلـه، فتقـرّر الإمسـاك بزمـام الأمـور قبـل أن يفلـت الموقـف منـك. سـحبته جانبـا، وهمسـت في رجـاء:

- هل يمكن أن نتحدّث بعد صلاة التّراويح؟

- حسنا.. إن شاء الله.

اكتفيـت بذلـك الوعـد. صافحتـه مجـدّدا، ثـمّ اسـتدرت تحـيّي بانحنـاءة مـن رأسـك والدتهـا، وتسـترق نظـرة خاطفـة إلى وجههـا الشّـاحب وعينيهـا المذعورتـين. سرت مبتعـدا وأنـت تتخيّـل أيّ نـوع مـن الحـوارات السّـاخنة سـيحتدم عـلى مائـدة العائلـة بعـد انصرافـك. اخـترت مائـدة بعيـدة، وجلسـت متنهّـدا. تلـك كانـت الخطـوة الأولى. والآن عليـك تحضـير الـكلام المناسـب لموعـدك. رغـم اضطرابـك، كنـت تستشـعر نوعـا مـن الاطمئنـان. إنّ القـدر الـذي سـاقها إليـك في العـشر الأواخـر مـن رمضـان لا يمكـن أن يكـون إلا خـيرا. تـردّد مسـكّنا مـن روعـك: خـيرا بـإذن الله.

انتبهـت إلى أنّـك لـم تضـع شـيئا في طبقـك بعـد. سرت في اتّجـاه بوفيه الخدمـة الذاتيـة. كنـت قـد انتقيـت بعـض الأصنـاف، حـين لمحتهـا تقـف في منتصـف القاعـة، تبحـث بعينيهـا بـين وجـوه روّاد المطعـم. اقتربـت وقـد تعـالى وجيـب قلبـك، وناديتهـا:

- سارة.

لا تـزال علامـات الصّدمـة جليّـة في ملامحهـا. أتـاك صوتهـا العـذب

المحبّب أخيرا:

- أنت هنا للعمرة؟

كانت تسأل عن شأن يُدرك بديهيّا. إنّها ترى في هيئتك أسباب الطمأنينة. كلّ شيء فيك يدلّ على استقرار أحوالك وعودتها إلى سابق عهدها.. تلك اللّحية التي شرعت في إطالتها منذ بداية رمضان، والقميص الأبيض، ثمّ تواجدك هنا في هذه الأيّام المباركة. لكنّها ما زالت في حاجة إلى تأكيد لفظيّ واضح. أومأت برأسك بابتسامة خفيفة، ثمّ أضفت:

- لقد وجدت نفسي واهتديت إلى نور الحقّ أخيرا.. لقد تطلّب الأمر وقتا طويلا، أطول ممّا يصبر المرء على احتماله...

غضّت بصرها وقد أدركت ما ترمي إليه. لم تكن أنت لتعطي لنفسك فرصة في ذلك الوقت أو لتمنّيها بأزمة قصيرة سريعا ما تنفرج، فضلا عن توقّع انتظارها هي لعودتك. أنت لا تعرف بعد ما إن كانت قد انتظرت، أو لعلّها سلتك في غيابك وعاشت ما عشت من تحوّل القلوب وربّما أكثر. أما هي فقد ابتسمت وهمست:

- حمدا لله.. أنا سعيدة من أجلك.

ثمّ همّت بالمسير. استوقفتها في رجاء، وأنت تأخذ بمجامع شجاعتك:

- لكنّني أطمع في غفرانك وصفحك.. وأن تُطوى تلك الصّفحة السّوداء...

قالت بلهجة جادّة:

- أنت لست في حاجة إلى صفحي.. توبتك إلى الله تجبّ ما قبلها.

لكنّ ذلك لا يكفيك.

- أنت تدركين قصدي يا سارة.. ما حصل في ذلك اليوم...

قاطعتك على الفور:

- لا تحتاج إلى تفسير.. أعلم أنّك لم تكن على طبيعتك في تلك المرّة.

- إذن سامحتني؟

أجابك صمت طويل من طرفها، فاستطردت:

- سأتحدّث إلى والدك بعد الصلاة.. إنّما أردت استئذانك.. سأطلبك منه مجدّدا، وسأقبل بكل شروطه دون جدال!

طالعتك بنظرة منكسرة، تذكرك بما اقترفته تجاهها. يغوص قلبك في صدرك في ألم. تدرك أنّها لم تطو الصّفحة بعد. تحتاج قدرا أوفر من التّفاني والبذل لتمحو بشاعة الذكرى من وجدانها.

- عن إذنك.

ابتعدت هي دون كلمة إضافية، واتّخذت أنت قرارك على الفور. غادرت الفندق على عجل. كانت محلّات الذهب قد استأنفت نشاطها للتوّ بعد استراحة الإفطار. دخلت محلّا فاخرا جذبتك لوحته المضيئة العملاقة. وقفت أمام المعروضات لثوانٍ ثم خاطبت البائع:

- أريد خاتم خطوبة، بماسة عملاقة تملأ العين!

عدّلت على الفور وأنت تفكّر في ذوق سارة المرهف وميلها إلى البساطة.

- لا أريدها كبيرة بشكل مبالغ به.. حجم كافٍ ليرضي والديها، وتصميم ناعم ومميّز ليناسب أناملها الرّقيقة.

بعد تمعّن وتقليب في البضاعة، توقّف اختيارك على خاتم بدا لك مناسبا. قال البائع مهنئا:

- صناعة إيطالية أصلية.. يليق بأميرة بنت أمراء!

وضعــت علبــة المخمــل الحمــراء في جيــب قميصــك، ومضيــت إلى الصّــلاة بابتســامة راضيــة، ومنّيــت نفســك برضــا الأمــيرة.

عجّلــت بمغــادرة المســجد بعــد انقضــاء صــلاة التراويــح مبــاشرة، وجلســت متوتّــرا في بهــو الفنــدق حيــث اتفقتمــا عــلى اللّقــاء. مضــت دقائــق عصيبــة قبــل أن تلمــح والدهــا مقبــلا بمفــرده. جلســتما متقابلــين عــلى مقاعــد الاســتقبال الوثــيرة. كنــت قــد أعــددت كلامــا كثــيرا، وكنــت مســتعدّا لــكلّ الشّروحــات والوعــود الممكنــة، لكــنّ الرّجــل باغتــك حــين ابتــدأ الــكلام:

- قالــت ســارة أنّــك أصبــت بمــرض شــديد، منــذ أربــع ســنوات.. ولذلــك انفصلــت عنهــا فجــأة.

شــلّتك الصّدمــة. لقــد حفظــت مــاء وجهــك ولــم تفضحــك أمــام والديهــا! أومــأت في ألــم وأجبــت بصــوت منكــسر:

- نعــم، لقــد كان مرضــا طويــلا، ولــم أحســب حينــذاك الشّــفاء ممكنــا.. لكــنّ الله مــنّ عــليّ بالعافيــة منــذ وقــت قريــب، ومــا هــذه العمــرة إلّا شــكر لله عــلى نعمتــه.

هزّ رأسه متفهّما:

- ونعم بالله.

ثمّ سألك في فضول:

- أيّ مرض هذا؟

أجبت دون تردّد:

- داء في القلب!

- حمــدا لله عــلى ســلامتك يــا ولــدي! اعــذرني عــلى التّدقيــق، ولكــن

أليس هذا النّوع من الأمراض مزمنا؟ الأعمار بيد الله طبعا، والدّاء والدّواء رهن إرادته.. لكن ماذا إن عاد إليك المرض لا قدّر الله؟ هل ستتركها وتكسر قلبها ثانية؟ لقد رأيت ابنتي الوحيدة تذبل مثل زهرة بائسة انقطعت عنها السّقيا.. ولا أريد أن يتكرّر الأمر أبدا.. أبدا!

ارتفع صوته وهو يلوّح بسبّابته بلهجة قاطعة، فهتفت بصوت متهدّج، وأنت تغالب دموعك:

- لن يحصل ذلك، أعدك!

أطرق الرّجل في وجوم ولفّكما السّكون بعد ذلك. مرّت دقائق من الصّمت قبل أن تخرج علبتك المخمليّة الحمراء. وضعتها على الطاولة أمام والدها، ثمّ قلت:

- أعلم أنّ التفاصيل المادّية لا تهمّ سارة.. لكن هذا لتدرك مدى جدّيتي.

مدّ الرّجل يده وفتح العلبة. راقبت ملامحه تبحث عن علامات تطمئنك. لكنّه أعاد العلبة إلى مكانها وقال في جمود:

- لو كان الأمر بيدي لأنهيت الأمر هنا في هذه اللحظة، بل لكنت محوت اسمك من ذاكرتها منذ أربع سنوات! لكن...

تعلق قلبك بتلك الـ «لكن».

– لكنّ القرار لها أولا وأخيرا.

أومأت موافقا. ذلك ما تأمله، أن يغلب بداخلها الحنين على المرارة، فتوافق. افترقتما على أن يردّ إليك الجواب في القريب.

حين رأيته في بهو الفندق بعد صلاة الفجر، قال في برود:

– إنّها تحتاج مهلة تفكير.

أومأت في رضا وتسليم.

أمضيت سحابة يومك في المسجد الحرام كعادتك، بين يدي الله وفي رحاب كلماته. فإذا أضناك الجلوس وقفت تطوف وتدعو. ثمّ أدّيت صلاة التراويح، وحضرت ختمة القرآن الكريم.. وبكيت سيولا مع دعاء الختمة الذي يهزّ القلوب الغافلة، ثمّ عدت إلى التّلاوة حتّى التهجّد.. متحرّيا ليلة القدر إلى آخر فرصة.

طلعت عليك شمس التّاسع والعشرين من رمضان، وأنت بعد تترقّب ردّها. وبعد صلاة المغرب بهنيهة. أعلن عن رؤية هلال عيد الفطر. لا صلاة تراويح إذن ولا تهجّد. أفطرت في المسجد على بضع تمرات وانتظرت صلاة العشاء.

بعد الصلاة، خرج النّاس من أبواب الحرم أفواجا. بعضهم مغادر إلى جدّة ومنها إلى دولته، وبعضهم الآخر عائد إلى مدينته داخل المملكة أو إلى كنف بيته في مكة ذاتها. الكلّ يسعى إلى قضاء ليلة العيد بين أحبابه. أمّا أنت فعدت إلى الفندق. مررت بسرعة على قاعة الطعام لإدراك وجبة الإفطار، تأخذ منها ما يشدّ أزرك ويقوّيك على ما عزمت عليه.

عدت إلى غرفتك وقد انتويت أن تقضي أنت أيضا ليلة العيد في كنف من تحب. ستتهجّد الليلة في الحرم.. ستكون في معيّة الله. استرحت لسويعات، ثم استيقظت عند منتصف الليل. اغتسلت وتوضأت وتطيّبت وارتديت ثوبا نظيفا ثمّ غادرت الفندق متيقّظا متحفّزا.

كنت تتهيّأ للقاء أغلى الأحبّة، يحدوك الشوق ويجرفك الحنين. خرجت تسابق الخطى إلى اللقاء. ستقضي الليلة بين يدي الله.. تناجيه، وتشكره على كلّ شيء.

ستشكره على الهداية.. وتثني عليه، وتسأله الثبات.

ستحمده على النّجاة.. حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ستستغفره على كل لحظة جفوة وعصيان.

ستطلب عفوه على قسوة البعاد وظلمة الفؤاد ودنس الخطايا ورجس العناد.

خطت قدماك داخل أروقة الحرم. وكان عدد المعتمرين أقلّ بكثير منه مساء الأمس، فقد غادر أغلبهم. كان صحن الحرم والمطاف هادئا على غير العادة. وكانت روحك منتشية محتفية بتلك السّكينة الأقرب إلى الخلوة. كان النّاس متفرّقين، بين طائف ومسبّح ومصلٍّ، كلّ منهم منشغل بخالقه عمّا سواه. جلست قريبا من الكعبة ورفعت بصرك إلى بنيانها الذي رفع أبو الأنبياء قواعده، يعلو شامخا في مهابة وجلال.. باقيا ما بقي الطائفون والعاكفون والرّكع السّجود.

تداعت في ذاكرتك صور من تجاربك الحديثة مع التأمّل.. معبد اليوغا الخياليّ، موازنة الأحجار في جزيرة نائية، حركات التاي تشي البطيئة والمحكمة، الصّلاة الرّبيّة، والدّوران الصّوفيّ.. ابتسمت. كم كنت ساذجا. كيف خدعتك تلك السّكينة الوهميّة وتركت نفسك للترّهات السّخيفة! لا شيء من كلّ ذلك يماهي ولو قليلا جلستك بين يدي الله، مناجيا إيّاه، في الوقت الأحبّ إليه وفي المكان الأكثر قدسيّة على الأرض.

رفعت كفّيك إلى السّماء، وهمست في خضوع: يا ربّ!

فشعرت بالكلمة تتردّد في صدرك، لتجد صداها بين جنبيك، وتسري موجاتها في كلّ خلاياك، تعبرك من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك.

كرّرتها في حرقة.. يا ربّ!

تخـرج مـن بـين شـفتيك مثـل زفـرة حـرّى، تحصـد في طريقها الأشـواك العالقـة بفـؤادك وتجـرف الأدران الـتي رانـت عـلى قلبـك، تطهّـرك وتمسـح ذنوبك.

يـــا ربّ!

تهطــل الدّمــوع مــن عينيــك ســيولا تحفــر أوديــة عــلى وجنتيــك، وتستشـعر نـور الإيمـان يمـلأ قلبـك، ويسـكبه فيغـرق روحـك، ويفيـض مــن كلّ مســامّك.

رحت تردّد في يقين: الآن أراك.. الآن أراك!

-0-

للصّائم فرحتان، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه. ولك فرحة ثالثة بتوبتك. وفرحة رابعة تأمل أن تكون من نصيبك.

كنت متشوّقا للرّدّ متحرّقا لموافقتها. لكنّك مطمئنّ القلب، هادئ الفؤاد. فارقك ما كان يصاحب مثل هذا الشعور من قبل من توتر وقلق وحرمان. أتراه تأثير نضج السنين؟ أم هو شيء آخر لا عهد لك به آنفا؟

السّكينة، إنّها السّكينة! تظلل بجناحيها روحك.. فتذرك مطمئن النفس، هانئ البال، مستقرّ الفؤاد. فارقك الجزع والاضطراب اللّذان لازماك سنوات، فدمّرا كل جميل في روحك. أدركت لحظتها كم جنيت على نفسك في الماضي.

صلّيت العيد في المسجد الحرام واستمعت إلى الخطبة، ثمّ رجعت إلى الفندق، وأنت تبحث بنظراتك عن خيالها حولك. وهل يكون لعيدك معنى إذا لم ترها ولم تعايدها؟ وما بالها تأخّرت عليك بالردّ كلّ هذا الوقت؟ هي أيّام ثلاثة لا أكثر. لكنّها تبدو في عينيك دهرا.

لمحت والدها عند مكتب الاستقبال، فهرولت نحوه. وقفت تنتظر ريثما ينهي معاملته، فوصلت كلماته إلى مسامعك دون أن تقصد التجسّس.

- سيّارة إلى المدينة.. على السّاعة الثانية عشرة ظهرا.

تقلّصت ملامحك في دهشة. يرحلون؟ بهذه السّرعة؟ التفت الرّجل ناحيتك أخيرا، فهرعت إليه تصافحه وتهنّئه بالعيد. ثمّ لفّكما

الصّمـت، حـتّى قـال بلهجـة جافّـة:

- تعال إلى جناحنا في الطّابق العاشر.. بعد ساعة.

أومـأت بإذعـان دون أن تسـأل. رغـم ملامحـه الواجمـة فـإنّ الدّعـوة بـادرة خـير لا محالـة. خرجـت عـلى الفـور إلى محـلّات المرطّبـات القريبـة، واقتنيـت بعـض الحلويـات. لا يليـق بـك أن تزورهـا خـالي الوفـاض. عـدت إلى غرفتـك، غـيّرت ثوبـك وتعطّـرت، ثـمّ بقيـت تراقـب السّـاعة حـتّى أتى موعـدك. كان جناحهـم فوقـك بطابقـين. ارتقيـت الـدّرج بخطـوات واسـعة، ثـمّ طرقـت البـاب عـلى اسـتحياء.

فتـح لـك العـمّ صفـوان بنفـس الوجـوم. إنّـه لـم يغفـر لـك أبـدا، مـع أنّـه لا يـدرك حقيقـة فعلتـك. فمـاذا لـو عـرف؟ شـعرت بانقبـاض في صـدرك، وأنـت تتبعـه إلى الصّالـة. دعـاك إلى الجلـوس، ثـمّ اختفـى بالدّاخـل. لمحـت الحقائـب مركونـة حـذو المدخـل، اسـتعدادا لسـفر قريـب. وضعـت عـلى المائـدة أمامـك طبـق الحلويّـات والعلبـة المخمليّـة الـتي رفـض الرّجـل اسـتلامها في الموعـد السّـابق.

بعـد دقيقتـين، خرجـت سـارة وأمّهـا. كانـت الأمّ مبتسـمة محتفيـة بحضـورك.

- عيد مبارك يا خالة.

- عيد مبارك يا بنيّ، تفضّل بالجلوس.

غصت في مقعدك من جديد، بينما تابعت وهي تتّجه إلى المطبخ:

- سأحضّر الشاي.

أنـت تجلـس الآن قبالـة سـارة، ترفـع عينيـك إليهـا في حيـاء، تحـاول أن تقـرأ الجـواب عـلى ملامحهـا.

- عيد مبارك.

تهمس بصوتها الرّقيق المحبّب إلى قلبك، فتنتعش قسماتك وتمدّ يدك إليها بالعلبة الحمراء المغلقة.

- هذه هديّتك.

قلت مازحا وأنت ترقب ردّ فعلها وهي تطالع الخاتم:

- في عاداتنا، يهدي الرّجل زوجته قطعة حليّ يوم العيد امتنانا لصبرها وجهدها في المطبخ طيلة شهر رمضان.. صحيح أنّني لم أجرّب طبخك بعد، لكنّني واثق من مهارتك.

رأيت ثغرها يفترّ عن ابتسامة خجلى، فانطلقت أساريرك. ثمّ ظهر والدها من جديد، واتّخذ مجلسا إلى جوارها. اكتست ملامحك مسحة جديّة وأنت تقول:

- أنا جاهز لكلّ الشّروط يا عمّي.

- أريد أن أعمل!

كانت سارة من بادر على الفور. فانتابك إحساس غريب بالزّمن، كأنّه يرجع بك إلى الوراء.. إلى أربع سنوات خلت. تتمثّل نفسك في جلسة مماثلة، في صالة بيتهم في باريس. وسارة تجادلك بشأن تخصّصها كطبيبة أطفال. يهيّأ إليك أنّ السّنوات التي تلت بأزماتها ومشقاتها كانت كابوسا مزعجا، وقد استيقظت الآن، لتستأنف ذلك الحوار المعلّق. ابتسمت، وقلت في رضا:

- لك ما تريدين.

أضاف والدها:

- سارة أنهت هذه السّنة تخصّصها، وهي تجهّز للرّسالة.

- ما شاء الله، مبارك يا سارة.

أرخت جفنيها في حياء، بينما يواصل عنها:

- وأين تنوي الإقامة؟

- أنا أقيم في الرّياض الآن يا عمّي، فإن شاءت سارة مرافقتي.. يمكن أن تجد بسهولة وظيفة في المستشفى الجامعي الذي أعمل به، ويمكن أن تلتحق بمستشفى خاصّ. أمّا إن كانت تفضّل باريس أو أيّ مكان آخر في العالم، فلها ما تشاء!

دخلت والدتها تحمل طبقا عليه أكواب شاي ساخن وقالت:

- الرّياض تبدو مناسبة.. إنّها قريبة من الحرمين، ويمكننا أن نأتي لزيارتكم كلّ عام ونؤدّي العمرة.

أومأت في حماس، بينما التزم العمّ صفوان الصّمت على مضض. قلت تطيّب خاطره:

- أظنّ أنّ معرفتنا السّابقة تقتضي أن نسرّع بالزّواج الآن، أليس كذلك يا عمّي؟ لقد أهدرنا سنوات ثمينة من أعمارنا، فما رأيكم أن نعقد القران في باريس بعد شهرين؟

- على بركة الله!

لم يكن متحمّسا، لكنّه أبدى موافقته، وذلك يكفي.

- نعتذر منك يا بنيّ، فنحن مغادرون بعد قليل إلى المدينة.

- طبعا يا خالة. أتفهّم ذلك.

وقفت مكرها، وقد حزّ في خاطرك أن تلقاها بعد فراق مديد ولا تأخذ كفايتك من قربها. لكنّك عزّيت نفسك بما حقّقته من نجاح في ذلك اللّقاء القصير. ستعود المياه إلى مجاريها والطّيور إلى أعشاشها، وستستأنف رحلة بترتها سلفا.

ودّعتهم وأنت تغالب الشّوق، والجزع من الفراق مرّة أخرى. لكنّك كنت مطمئنّا إلى خطة القدر التي تسبق خطتك. كانت يد القدر تعمل، وأنت فقط شاهد عليها. فلتسلم زمام أمرك راضيا..

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا). كنت تستشعر بقوّة هذه المعيّة، وهذه العناية.

كلّ شيء بعد ذلك مرّ كلمح البصر. رجعت إلى الرّياض في المساء ذاته لتنبئ عائلتك بالخبر السّعيد. وقد كان خير معايدة تقدّمها لوالديك.. أن يرياك منفرج السّحنة ضاحكا، بعد أن خيّم الحزن على قلبك لأمد طويل. وبعد شهرين، كنت قد شغلت نفسك خلالها بتجهيز الشّقّة بما يليق بساكنتها الجديدة، سافرت إلى باريس كما وعدت، برفقة عائلتك، لتعقد قرانك على سارة.

لم تنس أن تدعو الفرسان الأربعة. وقد رأيت سعادة صادقة تنضح من قسماتهم وقرأت بشرا وحفاوة في عيونهم وهم يعانقونك بعد سنتين من الغياب، وقد عدت مالكا القديم الذي يعرفهم ويعرفونه. ثمّ رفعوك على أعناقهم ورقصوا بك على ضربات الدّفّ، ورموا بك في الهواء فوق الرّؤوس، لتحلّق في جذل، وأنت تستشعر دفقا من الأمان والطمأنينة تغمرك، من معين أخوّة صافية لا ينضب.

كان احتفالا ضيّقا، اقتصر على المقرّبين، وارتدت سارة «قفطانا» تقليديّا أبيض بدت فيه مثل ملاك هبط من السّماء ليملأ قلبك بهجة وحبورا. وحين انصرف المدعوّون إلى الوليمة، جلست تطالعها في حبّ، وأنت لا تصدّق وجودها إلى جوارك، بعد أن فرّقت بينكما مسافات القلب والعقل والجغرافيا.

قالت سارة، وهي ترمقك بابتسامة عذبة:

- ألم أقل لك؟ الله لن يضيّع إيمانك!

ثمّ أضافت ووجنتاها تتورّدان:

- لقد كنت أتتبّع أخبارك عن طريق سميّة، زوجة أيّوب.. وكنت أدعو لك كلّ يوم، بالهداية والرّشاد. وحين وصلت إلى مكّة، ورأيت الكعبة أوّل مرّة، جرى على لساني الدّعاء تلقائيّا وبكيت.. اللهم اهد

مالـكا! لذلـك ظننتـني أهلـوس، حـين لمحتـك في قاعـة الطعـام بعدهـا بأسـبوع واحـد! لـم أصـدّق أنّ الله قـد اسـتجاب أخـيرا لدعـائي...

ابتسمت وأنت تسترجع صورا من الماضي:

- هـل تعلمـين، مـع أنّـني كنـت أكابـر وأرفـض أن أعـترف بسـطوتك عـلى فـؤادي، فقـد كنـت أسـتحضر وجهـك في أشـدّ اللّحظـات غرابـة.. حـتّى وأنـا أحـاول التأمّـل في حصّـة يوغـا عـلى جبـل هنـديّ شـاهق، كنـت أتحـدّث إليـك!

ضحكتمـا، ثـمّ قالـت وهـي ترنـو إلى لحيتـك الّـتي خالـط الشّـيب شـعيراتها:

- لقد غزا الشّيب عارضيك.. كبرت يا مالك!

ارتسمت على شفتيك ابتسامة مشاغبة وقلت مداعبا:

- هـل تسـمعين عـن شـاعر ثائـر عـلى الأمويّـين، يدعـى عبـد الله بـن قيـس الرّقيّـات؟

هزّت رأسها نافية، وما كانت على ولعك بالشّعر إطلاقا، وسألت:

- وما الرّقيّات؟

- لقد أحبّ الشّاعر ثلاث نساء وتغنّى بهنّ، وكلّ منهنّ اسمها رقيّة!

ضحكت سارة، بينما رحت تنشدها، من أبيات الشاعر:

بَكَـرَت عَلَيَّ عَـواذِلي ... يَلحَينَنـي وَأَلومُـهُنَّه
وَيَقُلنَ شَيبٌ قَد عَلاكَ ... وَقَد كَبِرتَ فَقُلتُ إِنَّـه
إِنَّ العَـواذِلَ لُمـنَني ... وَلَن أُطيـع أُمـورَهُنَّه
فيما أُفيدُ مِنَ الغِنـى ... وَاللَهُ سَـوفَ يُهينُـهُنَّه
وَلَقَد عَصَيتُ الناهِـيا ... تِ النـاشِراتِ جُيوبَهُـنَّه
حَتّى اِرعَوَيتُ إِلى الرَشا ... د وَمـا اِرعَـوَيتُ لِنَهيِـهِنَّه

خاتمة

الرياض في ٢٠ يناير ٢٠١١،

صديقي العزيز مالك،

اسـمح لي أن أخاطبـك بصديقـي، رغـم لقائنـا الوحيـد منـذ شـهور. ربّمـا لا تكـون صداقتنـا بالمعـنى التقليـديّ للكلمـة، فهـي أحاديّـة الجانـب. لكنّـني بعـد أن عرفـت تفاصيـل قصّتـك وعشـت معهـا خـلال الفـترة الماضيـة، أشـعر بنـوع مـن الألفـة، وأخـشى أن تفـترق سـبلنا ببسـاطة وقـد استأنسـت بـك وانغمسـت في تجربتـك حـتّى أذنيّ.

لقـد انتهيـت مـن مسـودّة الرّوايـة تقريبـا. أرجـو أن تراجعهـا وتوافيـني بملاحظاتـك إن رأيـت فيهـا مـا يحتـاج التّعديـل أو التّحريـر، قبـل أن أرسـلها إلى دار النّـشر.

التقيـت منـذ يومـين صديقنـا المشـترك، الدّكتـور نديـم المغـربي. أخـبرني أنّـك قـد سـافرت إلى تونـس أخـيرا بعـد عقـد ونصـف مـن الغربـة، مـع زوجتـك المصـون وطفليـك الرّائعـين. أهنئـك عـلى الثـورة التونسـيّة الـتي أهدتـك فرصـة حريّـة جديـدة، وأبـارك لـك وصالـك مـع الوطـن وتصالحـك مـع ماضيـك المؤلـم.

كنـت أفكّـر في قـرارة نفـسي أنّ جراحـك لـن تـبرأ حقيقـة، إلّا بعـد أن تعـود إلى ميـدان السّياسـة وتثـأر لخيبـات الأمـس وتجـدّد انتمـاءك لقضيّـة آمنـت بهـا ولـم تنصفـك. أتخيّلـك الآن تـذوب في زخـم الثّـورة وتجلّياتهـا، وأنـت تخـرج في الاحتجاجـات، تقـود الجمـوع كمـا فعلـت دائمـا، تخطـب فيهـم بصوتـك الجهـوريّ وتشـعل حماسـتهم. أتخيّلـك وأنـت تعتصـم أمـام مبـاني الـوزارات وترفـع القضايـا واحـدة تلـو الأخـرى، ضـدّ مـن عذّبـوك بالأمـس، مـن ظلمـوك وسـلبوك كرامتـك، ودفعـوا بـك إلى شراك اليـأس، بـل وترافـع فيهـا عـن نفسـك!

الثّورة تناسبك جدّا يا صديقي، إنّما خلقت لمن هم مثلك.

لقـد رأيتـك هادئـا، تنضـح قسـماتك بالسّـكينة والطّمأنينـة، في لقائنـا

الوحيـد. لكنّـني رأيتـك في كلّ أحوالـك عـلى الـورق. لعلّـك الآن تلتفـت بعجـب إلى تلـك المواقــف الــتي دفعتــك إلى اليــأس، وحــتّى الرّغبـة بالمـوت، وقـد تجاوزتهـا، وربّمـا تنسـاها في خضـم مشـاغلك الجديـدة؟ ولعلّـك تسـتغرب اليـوم مـن شـعورك السّـابق بالقنـوط وتـرى أنّـه كان مبالغـا فيـه؟

لكنّـي، والحـقّ أقـول، أرى أنّـك قـد كابـدت مـن مشـقّات الحيـاة مـا إنّ ثقلـه ينـوء بالعصبـة أولي القـوّة. لكـنّ التحدّيـات كانـت تدفعـك أبعـد وأعـلى في بنـاء ذاتـك، وترميمهـا باسـتمرار رغـم الهـدم المتكـرّر. أليـس مـن رحـم المعانـاة يولـد الأبطـال؟

هل أبوح لك بسرّ صغير؟

لـم يكـن لقاؤنـا في مـنزل د. نديـم صدفــة محضــة. لقــد خطّـط لذلـك مسـبقا، وقـرّر جمعنـا في تلـك الجلسـة، تمامـا كمـا جمعـك مـن قبـل بالدّكتـور عقيـل! لقـد أراد -جـزاه الله خـيرا- أن أسـتمع إلى قصّتـك كلّهـا، وأنشـغل بهـا عمّـا أهمّـني. لقـد فقـدت زوجـتي وولـدي منـذ حـوالي السّـنة، توفّاهمـا الله في حـادث أليـم. وقـد تقوقعـت عـلى نفسـي منـذ ذلـك الوقـت، وعشـت اكتئابـا حـادّا، واعترضـت عـلى قـدر الله الـذي رأيتـه ظالمـا.. وراودني مـا راودك مـن الحـيرة والسّـخط والضّيـاع.

لقـد كانـت قصّتـك حبـل النّجـاة الـذي امتـدّ إليّ بمعجـزة مـا، لأخـرج مـن تلـك الأزمـة السّـاحقة، فأسـتعيد تماسـكي وتـوازني. لقـد كذبـت عليـك حـين تواصلـت معـك في المـرّة السّـابقة. عرضـت عليـك أن أكتـب قصّتـك، ليـس بدافـع أدبيّ صرف، بـل لحاجـة في نفـسي، قضيتهـا، وأنـا أقـرأ أفـكارك وأعيـد صياغتهـا. أتشرّبهـا وأعيشـها، وأقطـع مـدّ الألـم الـذي سـيطر عـليّ قبلها.

أعـرف اليـوم أنّ قصّتـك تسـتحقّ أن تنـشر، علّهـا تكـون سـببا في إنقـاذ أرواح كثـيرة أخـرى، كانـت سجينة القنـوط والعـذاب والألـم.

تحياتّي.

صديقك

شكر

إلى د. عمـرو شريـف مؤلـف كتـاب «رحلـة عقـل» الـذي كان لأفـكاره القيّمـة أثـر بالـغ في بنـاء الروايـة.